



Sayyid Qutb behind bars

طَرِيقُ الدَّعْوَةِ

فِي ظِلِّ الْقُرْآنِ

المفردات

| الموضوع : | الصفحة | الموضوع | الصفحة |
|--|--------|------------------------------------|--------|
| الباب الأول - الدين | ١٥ | الباب الخامس - الدعوة | |
| ١ - مدلول كلمة الدين | ١٦ | ١ - دستور الدعوة | ١١٩ |
| ٢ - مفهوم الدين | ٢٠ | أ - مقدمة | ١١٩ |
| ٣ - شروء عن الدين | ٢٤ | ب - الحياة في جو القرآن | ١٢٥ |
| ٤ - بلاغ وإنذار | ٢٦ | ج - المنهج المحدد للدعوة في القرآن | ١٢٨ |
| ٥ - الدين والطاغوت | ٣٠ | د - منهج التلقي | ١٣١ |
| ٦ - طبيعة هذا الدين | ٣٥ | ٢ - طبيعة الدعوة | ١٣٦ |
| ٧ - فقه الدين | ٤٥ | ٣ - خط الدعوة | ١٣٩ |
| ٨ - آفة الدين | ٥٣ | ٤ - تبعة ثقيلة | ١٤٤ |
| الباب الثاني - الولاء | ٥٩ | ٥ - منهج الدعوة | ١٤٨ |
| ١ - تحذير وتوجيه | ٦١ | ٦ - نقطة البدء | ١٥٣ |
| ٢ - التميز والمفاصلة | ٦٦ | ٧ - منهج محدد | ١٦٤ |
| ٣ - رابطة العقيدة | ٧٣ | ٨ - خط فاصل | ١٦٩ |
| الباب الثالث - السمة الرئيسية للدعوة الإسلامية | | ٩ - قاعدة الدعوة | ١٧٢ |
| أ - مقدمة | ٧٩ | ١٠ - مصلحة الدعوة | ١٧٨ |
| ب - احقاق الحق | ٨٨ | ١١ - جهد مضاعف | ١٧٩ |
| ج - كلمة الحق | ٩٠ | ١٢ - قلعة للدعوة | ١٨١ |
| د - المداينة وأنصاف الحلول | ٩٣ | ١٣ - القاعدة الصلبة | ١٨٤ |
| هـ - رد حاسم | ١٠٠ | ١٤ - في ميزان الله | ١٨٩ |
| الباب الرابع - أعداء الدين | ١٠٣ | ١٥ - أخلاق الداعية | ١٩١ |
| أ - لافتة اسلامية | | ١٦ - جد .. وعمل | ١٩٤ |
| ب - خبث ومكر | | ١٠٦ - الباب السادس - الزاد : | ١٩٦ |
| ج - تنكيل وإفناء | | ١ - الصبر | ١٩٨ |
| د - طبيعة صامدة | | ٢ - الصلاة | ٢٠٩ |
| هـ - تحذير | | ٣ - الدعاء | ٢١٢ |
| | | ٤ - الذكر والتسبيح | ٢١٣ |

| | | | |
|-----|--|-----|-------------------------------|
| ٢٨٦ | ١ - حرية الاعتقاد | ٢١٤ | ٥ - الصوم |
| ٢٩١ | ٢ - فريضة شاقة | ٢١٥ | ٦ - التقوى |
| ٣٩٥ | ٣ - في طريق الجهاد | ٢١٧ | ٧ - الارادة |
| ٣٩٧ | ٤ - هذا هو الطريق | | |
| ٣٠٤ | ٥ - طبيعة الجهاد في الاسلام | | |
| | الباب العاشر = الشهداء | | الباب السابع - الابتلاء |
| ٣٤١ | ١ - معنى الشهادة | ٢١٩ | ١ - مقدمة |
| ٣٤٣ | ٢ - حياة الشهداء | ٢٢٣ | ٢ - سنة جارية |
| | الباب الحادي عشر - النصر | ٢٣١ | ٣ - حقيقة الابتلاء |
| ٣٤٦ | ١ - حقيقة كبيرة | ٢٣٤ | ٤ - طبيعة الابتلاء |
| ٣٤٨ | ٢ - اعداد العدة | ٢٣٦ | ٥ - ابتلاء شديد |
| ٣٥١ | ٣ - عوامل النصر | ٢٣٩ | ٦ - قيمة الكلمة |
| ٣٥٤ | ٤ - سنة ثابتة ووعد قاطع | ٢٤١ | ٧ - من خلال التجربة في القرآن |
| ٣٥٨ | ٥ - تأخير النصر | | |
| | الباب الثاني عشر - الحياة في التصور الاسلامي | | الباب الثامن - في الطريق |
| ٣٦٢ | ١ - الدار الآخرة | ٢٤٤ | ١ - الضعف |
| ٣٦٩ | ٢ - القاعدة اليمانية الكبيرة | ٢٤٩ | ٢ - الخوف |
| ٣٨٠ | ٣ - غاية الحياة | ٢٥٤ | ٣ - الاسوة |
| | | ٢٥٧ | ٤ - التفاق |
| | | ٢٦٦ | ٥ - حقيقة القوى |
| | | ٢٦٩ | ٦ - التبركس على الله |
| | | ٢٧٣ | ٧ - الاستسلام لقدر الله |
| | | ٢٧٨ | ٨ - قوازن في الطريق |
| | | ٢٨٠ | ٩ - حقيقة الايمان |
| | | ٢٨٣ | ١٠ - اعلام في طريق الايمان |

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ ، انما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر . وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء . ففي كل المناهج التي تعتنقها البشرية اليوم يأخذ البشر من بشر مثلهم التصورات والمبادئ والموازين والقيم والشرائع والقوانين والأوضاع والتقاليد . وهذه هي الجاهلية بكل مقوماتها . الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر ، حيث يتعبد بعضهم بعضا من دون الله ..

والاسلام هو منهج الحياة الوحيد الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر ، لأنهم يتلقون التصورات والمبادئ والقوانين والقيم والشرائع والقوانين والتقاليد من يد الله سبحانه . فإذا أحسنوا ورؤوسهم فإنما يخشون الله وحده ، وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده . وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون لله وحده . ومن ثم يتحررون حقا من عبودية العبيد للعبيد حين يصبحون كلهم عبيد الله بلا شريك . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية في كل صورها وبين الإسلام .

واقعد سرت عبودية الماداة في كل مكان في الجاهلية المعاصرة ، فعدت الحياة كلها في سبيل الماداة والقيم المادية وحددت هذه الآلة النكدة مكان الناس ونظام حياتهم .. إن الأرزاق المادية والقيم المادية ليست هي التي تحدد مكان الناس في هذه

الأرض .. في الحياة الدنيا فضلا عن مكانهم في الحياة الآخرة .. إن الأرزاق المادية والتيسيرات المادية والقيم المادية يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية . لا في الآخرة المؤجلة وحدها ، ولكن في هذه الحياة الواقعة كما نشهد اليوم في حضارة المادية الكالحة .. إنه لا بد من قيم أخرى تحكم الحياة الإنسانية وهذه القيم الأخرى هي التي يمكن أن تعطي الأرزاق المادية والتيسيرات المادية قيمتها في حياة الناس وهي التي يمكن أن تجعلها مادة سعادة وراحة لبني الإنسان (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .. إن المنهج الذي يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذي يحدد قيمة الأرزاق المادية في حياتهم ، هو الذي يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء . ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين ..

وهذا الصياح المستمر بتضخيم المادية والانتاج المادي . بحيث يطغى الانشغال به على حياة الناس وتفكيرهم وتصوراتهم كلها . وبحيث يتحول الناس الى آلات تلهث وراء هذه القيمة . وتعدّها قيمة الحياة الكبرى . وتسمى عاصفة الصياح المستمر .. الانتاج .. الانتاج .. كل القيم الروحية والأخلاقية .. تداس هذه القيم كلها في سبيل الانتاج المادي . هذا الصياح ليس بريئاً . إنما هو خطة مدبرة لإقامة أصنام تعبد بدل أصنام الجاهلية الأولى . وتكون لها السيادة على القيم جميعاً . وعندما يصبح الانتاج المادي صنما يكادخ الناس حوله . يطوفون به في قداسة الأصنام . فإن كل القيم والاعتبارات الأخرى تداس في سبيله وتستهلك .. الأخلاق والأسرة .. الأعراض والحريات .. الضمانات كلها إذا تعارضت مع توفير الانتاج يجب أن تداس .. فماذا تكون الأرباب والأصنام إن لم تكن هي هذه ؟ إنه ليس من الحزم أن يكون الصنم حجراً أو خشباً فقد يكون قيمة واعتباراً ولافة ولقباً .

إن القيمة العليا يجب أن تبقى لفضل الله ورحمته المتمثلتين في هداه ومنهجه الذي يشفي الصدور ويحرر الرقاب ويعلي من القيم الإنسانية في الإنسان . وفي ظل هذه القيمة يمكن الانتفاع برزقه الذي أعطاه للناس في الأرض . وبدون القيمة العليا لمنهج الله وسيادته تصبح الأرزاق والتيسيرات المادية والانتاج لعنة يشقى بها الناس لأنها تستخدم في إعلاء القيم الحيوانية والآلية على حساب القيم الإنسانية العلوية.

فلا بد من دعوة تخرج الناس من الموت الراكدة إلى الحياة المتفتحة ، وإخراج الناس من الدينونة للعباد إلى الدينونة لله وحده بلا شريك . واستنقاذ كرامتهم وطاقاتهم من الذل والتبذد في الدينونة للعبيد . الذل الذي يحني هامة إنسان لعبده مثله .. لا بد من دعوة ..

وأول ما يجب على الدعاة عمله هو معرفة الضعف الذي يصيب المسلمين اليوم - أو بتعبير أصبح الذين يدعون الإسلام - ثم بعد ذلك لإصلاح هذا الضعف للنهوض وحمل الأمانة في الأرض من جديد ولتعلم للدعاة إلى هذا الدين أن ممكن الضعف والخطر الكبير الذي يواجه المسلمين اليوم هو تكوين أفراد المسلمين أنفسهم ، والضعف الذي مني به شبابهم .. وأكبر النوائب أن يصاب الفرد بنفسه . ذلك أن معالجة أي خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تجابه المصاعب وتصدد للحوادث . أما إذا فقدت هذه التربية فهناك الطامة الكبرى ، وهناك تتوالى المصائب وتتضاعف المصاعب .

ومن عادة الضعيف أن يلقي أسباب ضعفه على عوامل خارجية يدعي أنه لا يملك التصرف فيها ليسوغ لنفسه ولغيره ما هو فيه . ولقد تعودنا أن نفعل ذلك وأن نلقي تبعات ما نحن فيه من ضعف وتقصير على الاستعمار أولا . وعلى الماضي ثانيا . وعلى مجتمعنا ثالثا . ولا يخطر ببال أحدنا أن يجعل ضعفه هو مركز الاهتمام .

والقرآن الكريم يجعل مركز الثقل في الإنسان نفسه فيبين جل شأنه في كلمة صارمة جازمة أن العامل الأساسي في الضعف هو الإنسان نفسه يقول سبحانه وتعالى (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا . قل هو من عند أنفسكم) ويبين الله تعالى بشأن بني النضير الذين غلبوا من قبل المسلمين أنهم (أونوا من حيث لم يحتسبوا) وكان ذلك من قبل أنفسهم (ما ظنتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار) ولم يؤت

هؤلاء من النقص في ذخيرتهم أو عددهم أو حصونهم . ولكنهم أوتوا من قبل أنفسهم .. قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (وليترعن الله المهاية من قلوب عدوكم . وليقذفن الوهن في قلوبكم . قالوا يا رسول الله ما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت) وهذا الحديث يخبر عن سنة عميقة من سنن الاجتماع . تبين ما تنتهي إليه الجماعة حين تفسد فطرتها وتملأ الدنيا قلوب أفرادها .. فالأسباب الحقيقية لكل الخطأ هي داخلية لا خارجية . فيجب أن لا نلوم العواصف حين نخطم شجرة نخرة . ولكن اللوم على الشجرة النخرة نفسها .. والقرآن الكريم يهدي إلى هذه السنة ويبين للناس أن الخطأ الأمم وما يقع عليها من ظلم واضطهاد مرجعه إلى الإنسان نفسه وما كسبت يدها . لذلك نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم قال الله تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .. وفي الحديث القدسي (.. فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه) .. وحكي الشيطان ليس لنا أن نلومه قال الله تعالى (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم . وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) ..

ولقد بلغ الضعف بالمسلمين أن وصل أعداء هذا الدين . لا إلى الدس في صفوف المسلمين فحسب بل إلى محاولة تغيير عقول المسلمين ونفوسهم : يقول القس زويمر في خطاب ألقاه في مؤتمر المبشرين الذي عقد في جبل الزيتون في القدس أثناء الاحتلال الانكليزي لفلسطين . بعد أن استمع إلى خطب كثيرة من المبشرين أعلنوا فيها إفلاس التبشير في انبلاء الإسلاميه : أيها الأخوان الأبطال لقد أديتم رسالتكم أحسن الأداء . وإن كان يحيل إلي أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه لم يفتن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه .. لني أقركم أن الذين دخلوا من المسلمين في المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقة . لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة : إما صغير لم يعرف الإسلام . أو رجل مستخف بالأديان يريد القوة . وثالث يبغي الوصول لغايات شخصية .. ولكن مهمة التبشير ليست إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً . ولكن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام

ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمة في حياتها ، وبذلك تكونون بملككم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية .. لقد قبضنا أيها الأخوان في هذه الحقبة من الدهر - من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا - على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأميركية ، والفضل إليكم وحدكم : إنكم أعددتكم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد .. إنكم أعددتكم في ديار المسلمين تشيئاً لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها . وأخرجتم المسلم من دين الإسلام .. وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار . لا يهتم بالعظام ، وبحب الراحة والكسل ، ويصرف همه في دنياه وفي الشهوات .. فإذا تعلم فللشهوة وإذا جمع المال فللشهوة وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوة . وفي سبيل الشهوات يجود بكل شيء . (١) ..

لقد انحرفت المعاني الإسلامية عن سبيلها السوي ، وأخذ يعتقد الأكثرون أن أعلى درجات الإسلام هو لزوم المساجد لتلاوة الأذكار والقلوب غافلة غير واعية . وليس هناك اهتمام بجهاد أو تغيير منكر .. لقد أصابنا انحراف في المفاهيم وعدم وضوح في المعاني الإسلامية . وعدم وضوح في الوسائل التي تؤدي إلى هذه المعاني ، وإيمان خامد لا يدعو إلى بذل ولا يستثير حماسة .. والآفة الكبرى هي سكوت العلماء منذ عصور خلت عن الجهر بالحق وإعلان أمره إلى الناس وكان نتيجة سكوت العلماء على الطواغيت ، ورغبة الحكام في أناس يساقون كالأغنام ، ونشوء معان في الإسلام لم تكن موجودة في القرون الأولى التي هي خير القرون ، هذه المعاني هي السكوت على الباطل والظلم والانحراف ، وأكبر يتم هذا السكوت يجب أن يفقد الناس أمرين : أولهما معرفة الحق ، والثاني الجرأة على الجهر بالحق . ولذا حرص

(١) تراجع مجلة الفتح في السنوات التي عقدت فيها المؤتمرات التبشيرية ١٩٠٦ - ١٩٢٤ - ١٩٣٥ ومنها المؤتمر المذكور .

هؤلاء الحكام على تربية الناس تربية فيها الغموض، وعدم وضوح الحقيقة. وعدم
تفتح الأذهان لمعرفة الحقيقة. والسير في الحياة بلا مبالاة. ولعل هذا الأمر .. عدم
وضوح الحقيقة أكبر من الثاني وهو الجراءة على الجهر بالحق. لأن الثاني لا يتم إلا
إذا اتضح الأمر وظهرت معالمه وبدأت نواحي الخير والشر فيه .. لقد كان الحرص
شديداً من الطواغيت أن يظل الناس في عمى بصائرهم وفي غموض تفكيرهم حتى غدا
الاسلام في نفوس الناس دين ذل واستكانة .. يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي
(إن أكبر مهمة دينية في هذا العصر، وأعظم خدمة وأجلها للأمة الإسلامية هي
دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى
حقيقة الإسلام^(١) .. وان بلاغنا في أقطار الاسلام هو في الجهالة الأليمة الآخذة
بجناق الكثرة الغالبة من أجيال المسلمين، وفي الاضطراب الفكري الذي يعانيه
الأكثرون .. والمعرفة رهيبة .. ولا بد للدعاة إلى الله من أن يستبينوا ملامح المعركة
ويعمروا أطرافها ويسقط في الطريق ضحايا .. ومهمة الدعاة أن يدركوا الطريق كله
فيضاعفوا جهدهم ويتقوا بالذي بينهم وبين الله .. وأول مهمهم أن يستزبدوا من
الاسلام علماً وعملاً، ثم أن يلحوا على الناس بالتذكير في غير سأم وألا يبالوا
بالضحايا مهما عظمت فإن الهدف كبير. ويجب على الدعاة إلى الإسلام أن لا
يبالوا في سبيل الله عدواً .. ولا يستكبروا كبيراً ولا يستعظموا خطراً .. إن الدعاة إلى
الله هم بقية من ركب الدعوة الأولى تخلفوا عن بدر والقادسية واليرموك وحطين
ليأتوا في كهولة الزمان فيعيدوا الإسلام غصاً طرياً .. ويكونوا تمة للدعوة الأولى التي
بدأها الرسول صلى الله عليه وسلم فينخرطون في مواكب الجهاد ويقترحمون الشدائد
وبالاياء والنكبات فيقطعون ثمار النصر للإسلام .. إن الدعاة إلى الله هم حملة
رسائله الأخيرة إلى الدنيا فليستعدوا ليكونوا أئمة الدنيا وسادة العالم .. ولتعلم الدعاة إلى
الله أن أقصى ما يملك الطواغيت أن يهتكوا منكم البدن .. ويجهزوا على اللحم
والدم .. أما الروح فهي التي لا يملكون سلطاناً عليها وهي التي نرجو أن تجعل لله كل
خواجلها .. وأن تخلص له حبها وبغضها ورجاءها وخوفها حتى نقضي بها إلى الله -

(١) مجلة المسلمون العدد الرابع من ٤٩ لعام ١٩٥٥ .

في اللحظة التي لا يملك غيره تقديمها أو تأخيرها — ظاهرة نقية راضية مرضية ..

إن الدعوة إلى الإسلام أحق الناس أن يثوروا على جاهلية القرن العشرين كما ثار الآباء على الجاهلية القديمة ، وأن يتمردوا على المادية العصرية كما تمرد السلف الصالح على مادية عصرهم ، وأن يضحوا برفاهيتهم وترفعهم وأمانيتهم في سبيل الإسلام ، وينضموا تحت مواكب الدعوة تحت راية محمد صلى الله عليه وسلم ، الراية التي اختارها الله لهم وأرادهم أن يكونوا جنودها (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) .. وإن العامل الأساسي في نجاح الداعية ليس كثرة علمه ولا قوة بيانه وسحره . ولكن هناك عاملا قبل كل هذه الأمور هو الايمان بالدعوة التي يدعو اليها ، والخوف الشديد مما يعترها . والشعور بالخطر التي تحدث بسبب إهمال الدعوة .. ثم يهاجر الداعية إلى الله حيث يترك وراءه كل شيء من ماضي حياته ، ويهاجر إلى ربه متخفيا من كل شيء من متاع هذه الأرض ، طارحا وراءه كل شيء ، مسلما نفسه لربه لا يستقي منها شيئا . المهجرة من حال إلى حال ومن وضع إلى وضع ومن أواصر شئ إلى أصرة واحدة لا يرحمها في النفس شيء .. إن مثل هذا الانسان يصبح بالناس ويترك فيهم أقوى الآثار ولو كان أبكم ..

والقرآن الكريم هو كتاب هذه الدعوة هو روحها وباعثها وهو قوامها وكيانها وهو حارسها وراعبها وهو بيانها وترجمانها وهو دستورها ومنهجها . وهو في النهاية المرجع الذي يستمد منه الدعاة وسائل العمل ومناهج الحركة وزاد الطريق (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) ... وإن مادة الدعوة منبثة في القرآن الكريم في عدة سور وآيات في مواضع مختلفة وذلك إشارة إلى جليل أثرها وعظيم منزلتها .. ولقد عرف أعداء هذا الدين قديما وحديثا أن هذا القرآن يبعث الروح والقوة والحركة في نفوس أصحابه فيتحركون به فلا تقف لحركتهم قوة الدنيا كلها لأن تلك الحركة تسيرها يد القدرة التي خلقت هذا الكون .. إن هذا

القرآن الذي يجهله أهله اليوم لأنهم لا يعرفونه إلا ترتيباً وترانيم وتعاويد وتهاويم .
 بعدما صرفتهم عنه قرون من الكيد اللئيم . ومن الجهل المزري ومن الفساد الشامل
 للفكر والقلب والواقع النكد الخبيث .. لقد وقف أعداء هذا القرآن جيلاً بعد جيل
 يدرسون هذا الدين دراسة عميقة ينقبون عن أسرار قوته وعن مداخله إلى النفوس
 ويبحثون كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين .. وكيف يعرفون
 الكلم عن مواضعه . كيف يحركون هذا الدين من حركة دافعة تحطم الباطل
 وتسترد سلطان الله في الأرض إلى حركة ثقافية باردة وإلى بحوث نظرية مبنية وإلى
 جدل فقهني أو طائفي فارغ .

إن البحوث التي تكتب اليوم في العالم تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع بركة من
 اللغات الأجنبية تنطق هذه البحوث بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين
 وتاريخه ومصادر قوته ووسائل مقاومته وطرق إفساده وتوجيهه . ومعظمهم لا يفصح
 عن نيته ، فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على الدين يثير حماسة الدفاع
 والمقاومة . لذلك بحث معظم الباحثين الغربيين إلى طريقة خبيثة يلجأون بها بالثناء على
 هذا الدين حتى ينموا المشاعر المستوفرة ويخدروا الحماسة المتحفزة ويتألوا ثقة
 القارئ أو المستمع وأطمئنانه ثم يضعوا السم في الكأس ويقدموها : هذا الدين
 نعم ؟ عظيم ولكنه ينبغي أن يتطور بمفهوماته يتطور بتنظيماته ليحاربي الحضارة
 الإنسانية الحديثة .. عظيم .. يجب أن يتمثل في صورة عقيدة في القلوب .. والدنيا
 والحياة تتطور .. وما أشد ما سمعنا من آثار هذا الدهاء الماكر أن أهلنا وإخواننا
 وكثيراً ممن حولنا أصبحوا يقولون بما يقوله أعداء الإسلام .. لقد سرى السم إلى هذه
 الفطرة فلفظت الإيمان .. إن الحرب المستمرة لم تبدأ من أعداء هذا الدين لإبعاد
 الناس عن القرآن .. (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) .. وقد وجهت الجاهلية
 الحديثة حربها الماكرة الخبيثة على هذا القرآن لإبعاده من نظام الحياة وعرفت الخطر
 الذي يهددها من جراء تحريك هذا القرآن في القلوب .. يقول غلادستون وزير
 بريطانيا الأول : ما دام هذا القرآن موجوداً (١) فلن تستطيع أوروبا السيطرة على

(١) أي يتحرك به نفس يطبقونه كمنهج ونظام حياة .

الشرق ، ولن تكون هي نفمها في أمان (١) .. وبذلك غدا الناس الذين يسمعون بأسماء المسلمين اليوم يقرأون القرآن فلا يجوز تراقيهم .. يقرأونه تعاويذاً وتراجماً وأنعاماً ولقد شدد الرسول صلى الله عليه وسلم النكير على من يقرأ القرآن (ولا يرعوي منه بشيء) . أخرج النسائي عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس ؟ إن خير الناس رجل عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو ظهر بعيره أو على قدمه يأتيه الموت . وإن شر الناس رجل يقرأ كتاب الله لا يرعوي بشيء منه) .

وإن الله تباركت أسماؤه قد حفظ هذا القرآن من التبديل والتغيير (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) لذلك وجه أعداء الله وأعداء هذا الدين جهودهم الماكرة الخبيثة لتخريب الفطرة الإنسانية وتعطيلها حتى لا تستجيب لنداءات هذا القرآن . فيصبح القرآن مهجوراً .. يقول السيد حسن المصبي : ليس من دلائل الخزي بالمسلمين واطمئنان أعدائهم إلى أنهم لا يفقهون ما يسمعون : أن يذيع هؤلاء الأعداء عليهم آيات القرآن من إسرائيل ونيويورك ولندن وباريس (٢)

وهذا القرآن هو كتاب الله وكتاب هذه الدعوة .. هو النور .. وهو الروح .. الذي إذا دخل إلى القلب الميت أحياه ، وإذا لامس النفس الإنسانية الساهية الغافلة أيقظها .. ولو أن هذه الملايين التي تدعي الإسلام تيقظ فيها معنى الحياة التي يقذف بها القرآن في نفوس أتباعه ، هل كانت حالهم تظل على ما هي عليه الآن من ضعف وذل واستكانة ... ؟

يجب على الدعاة أن يقفوا أمام هذه الحقيقة التي وقف أمامها صاحب الدعوة الأولى محمد صلى الله عليه وسلم .. وذلك بأن ينطلق الدعاة من نقطة البدء .. لن يوجد الدين اليوم أو غداً إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا إليها .. وهذه نقطة البدء .. ثم تعقبها الفتنة

(١) ص ٤١ من كتاب الإسلام على مفترق الطرق .

(٢) مجلة المسلمون العدد السابع ص ٤٢ لعام ١٩٥٤ .

والابتلاء كما حدث أول مرة .. فأما ناس فيفتنون ويرتدون .. وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء ، وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الاسلام ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدكم أن يلقي في النار معني يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق . ويمكن فهم في الأرض كما مكن للمسلمين أول مرة فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي .. إن الجاهلية الحديثة هي كالجاهلية القديمة مع اختلافات في السطوح لا في الأعماق .. وفي الظواهر. لا في الحقائق .. فلا بد من دعوة واعية تذكر المسلمين بحقيقة دينهم وبأن تكون ثورة المسلم دائما ثورة لله والحق وليست هبة على غير هدى .. وبأن الله حين نزل قرآنا أو بعث نبيا إنما أراد أن يرسم بنفسه سبحانه وتعالى قواعد البناء (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) .. وأن يقرر لجنوده في الأرض أصول كفاحهم في سبيله .. لا بد من دعوة واعية تستنير بهدى الله : تعرف الطريق ، وتعرف أعداء الطريق ، وتمشي في الطريق ترفع راية الله حتى تصل إلى نهاية الطريق ..

لا بد للدعاة إلى هذا الدين أن يحملوا كتاب هذه الدعوة ويسيروا وراء الخطوات التي يرسمها كتاب الله ثم يسترشدوا بالأعلام التي خلفها رواد الطريق .. وهذا الكتاب قد استخرجت فصوله من كتاب « في ظلال القرآن » المستوحى من القرآن الكريم ومن توجيهاته الأساسية التي حولت خط سير التاريخ وإن هذه التوجيهات باقية تنتظر لتمثل في نفوس صفوة من الناس لتسير حيث يشاء الله .. والله ولي التوفيق .

الباب الأول

الدين

إن الذي يضع خطة الرحلة للطريق كله ، هو الذي يدرك الطريق كله ، والإنسان مسحوب عن رؤية هذا الطريق ، بل هو مسحوب عن اللحظة التالية . ودونه ودونها ستر مسبل لا يباح لبشر أن يطلع وراءه . فأنى للإنسان أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول ؟ إنه إما الخبط والضللال والشروذ وإما العودة إلى المنهج المستمد من خالق الوجود . فليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به كائنا من كان . فالله وحده هو الذي يشرع لعباده بما أنه سبحانه هو مبدع هذا الكون كله . ومديره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها له . والحياة البشرية إن هي إلا نرس صغير في عملة هذا الكون الكبير ، فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس . ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع لها المحيط بتلك النواميس . وكل من هو عدا الله فهو قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال . فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور .. ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حدّ البدهة فإن الكثيرين يُجادلون فيها أو لا يفتنعون بها . وهم يجرون على إستمداذ التشريع من غير ما شرع الله زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم ويؤمنون بين ظروفهم والتشريع الذي ينشئونه من عند أنفسهم كأنما هم أعلم من الله وأحكم من الله ، أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله .. وليس

أخيب من ذلك ولا أجراً على الله (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) .

سبحان الله لقد شرع الله للشريعة ما يعمم سبحانه أنه يتناسق مع طبيعتها وفطرتها، ومن ثم يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون فيما بينها والتعاون كذلك مع القوى الكونية الكبرى شرع في هذا كله أصولاً . وترك للبشر فقط استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجات الحياة المتجددة . في حدود المنهج الكلي والتشريعات العامة . فإذا ما اختلف البشر في شيء من هذا ردّوه إلى الله ورجعوا به إلى تلك الأصول الكلية التي شرعها للناس لتبقى ميزاناً يزن به البشر كل تشريع جزئي وكل تطبيق . بلذت يتوحد مصدر التشريع ويكون الحكم به وحده وهو خير الحاكمين ، وما عدا هذا المنهج فهو خروج على شريعة الله وعلى دين الله . . . لذلك لا يند من الأمر بالمعروف والأمر بالمعروف وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة . والنهي عن المنكر الأكبر وهو رفض الوهية الله برفض شريعته للحياة وبعد إقامة الأساس يمكن أن يُقام البنيان . فلتؤقر الجهود المبذورة إذن ولتجسد كلها في حبة واحدة لإقامة الأساس الذي عليه وحده يقام البنيان .

يجوز لأن الإنسان ليرثي أحياناً ويعجب لأناس طيبين ينفقون جهدهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفروع بينما لأصل الذي تقوم عليه حياة المجتمع المسلم ويقوم عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقطوع . فمما غناء أن تنهي الناس عن أكل الحرام مثلاً في مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا . فيستحيل ماله كله حراماً . ولا يملك فرد أن يأكل من حلال . . لأن نظامه الاجتماعي والاقتصادي كله لا يقوم على شريعة الله . لأنه ابتداء برفض الوهية الله برفض شريعته للحياة .

١ - مدلول كلمة الدين :

ليس الدين كما يحدده الله سبحانه ويريده ويرضاه . هو كل اعتقاد في الله . إنما هي صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه سبحانه . صورة التوحيد المطلق الناصح

القاطع : توحيد الألوهية التي يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون ، بالعبودية وتوحيد القوامة على البشر ، وعلى الكون كله . فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى . ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى . ومن ثم يكون الدين الذي يقبله الله من عباده هو الإسلام (إن الدين عند الله الإسلام) . فالإسلام هو الدين ، وهو في هذه الحالة : الاستسلام المطلق للقوامة الإلهية ، والتلقي من هذا المصدر وحده في كل شيء من شؤون الحياة والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هذا المصدر . فهو ليس مجرد دعوى وليس مجرد راية ، وليس مجرد كلمة تُقال باللسان . ولا حتى نصوراً يشتمل عليه القلب في سكون . ولا شعائر فردية يؤديها الأفراد في الصلاة والحج والصيام .. لا .. فهذا ليس بالإسلام الذي لا يرضى الله من الناس ديناً سواه . إنما الإسلام : الاستسلام .

﴿ الإسلام : الطاعة والإتياع . الإسلام تحكيم الله في أمور العباد . وإن هذا النص القرآني ليحدد مدلول كلمة الدين تحديداً دقيقاً (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) : إنه يعني نظام الملك وشرعه وبهذا يُعبر القرآن الكريم عن النظام والشرعية بأنها الدين .. هذا المدلول القرآني الواضح هو الذي يغيب في جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعاً ، سواء منهم من يدعون أنفسهم مسلمين وغيرهم من الجاهليين . انهم يقصرون مدلول الدين على الاعتقاد والشعائر ويعدون كل من يعتقد وحدانية الله وصدق رسوله ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، ويؤدي الشعائر المكتوبة .. داخلاً في دين الله مهما تكن دينته بالطاعة والخضوع وإقراره بالحاكمية لغير الله من الأرباب المتفرقة .. بينما النص القرآني هنا يحدد مدلول (دين الملك) بأنه نظام الملك وشرعته .. وكذلك (دين الله) فهو نظامه وشرعته ... إن مدلول دين الله قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجاهل الجاهلية إلا الاعتقاد والشعائر .. ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين . ولقد كان يعني دائماً : الدينونة لله وحده ، ورفض ما يشرعه غيره وإفراده سبحانه بالآلوهية في الأرض مثل أفراده بالآلوهية في السماء وتقرير ربوبيته وحده للناس : أي

حاشيته وشرعه وسلطانه وأمره لا وكان مفرق الطريق دائماً بين من هم في (دين الله) ومن هم في (دين الملك). إن الأولين يدينون نظام الله وشرعه وحده وإن الآخرين يدينون نظام الملك وشرعه أو يشركون فيدينون الله في الاعتقاد والشعائر. ويدينون لغير الله في النظام والشرائع. وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة. ومن بديهيات العقيدة الإسلامية تماماً..

وبعض المتحقيقين بالناس اليوم يتلمسون لهم عذراً في أنهم يجهلون مدلول كلمة (دين الله) وهم من ثم لا يصرون. ولا يحاولون تحكيم شريعة الله وحدها بوصفها هي الدين وأن جهلهم هذا بمدلول الدين يعفيهم من أن يكونوا جاهليين مشركين.

وأنا لا أتصور كيف جهل الناس ابتداءً بحقيقة هذا الدين يجعلهم في دائرة هذا الدين. إن الاعتقاد بحقيقة قرع عن معرفتها، فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون متعقبن لها؟ وكيف يحسون من أمتها وهم لا يعرفون ابتداءً مدلولها.

بما إن هذا الجهل قد يعفيهم من حساب الآخرة. أو يخفف عنهم العذاب فيها. ويلقي تبعاتهم وأوزارهم على كاهل من لا يعلمونهم حقيقة هذا الدين وهم يعرفونها. ولكن هذه مسألة غيبية متروكة أمرها لله. والجدل في الجزاء الأخروي لأهل الجاهلية عامة ليس وزياء كبير طائل. وليس هو الذي يعيننا نحن البشر الذين ندع إلى الإسلام في الأرض. إن الذي يعيننا هو تقرير حقيقة الدين الذي فيه الناس اليوم.. إنه ليس دين الله قطعاً. فدين الله هو نظامه وشرعه وفق النصوص القرآنية الصريحة. فمن كان في نظام الله وشرعه فهو في (دين الله). ومن كان في نظام الملك وشرعه فهو في (دين الملك) ولا جدال في هذا. والذين يجهلون مدلول الدين لا يمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين. لأن الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية. والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسية لا يمكن عقلاً وواقعاً أن يكون معتقداً به. إذ الاعتقاد فرع من الإدراك والمعرفة. وهذه بديهية.

وخير لنا من أن ندافع عن الناس وهم في غير دين الله ونتلمس لهم المعاذير.

ونحاول أن نكون بهم أرحم من الله الذي يُقرر مدلول دينه وحدوده .. خير لنا من هذا كله أن نشرع في تعريف الناس حقيقة مدلول (دين الله) ليدخلوا قلبه .. أو يرفضوه .. هذا خير لنا وللناس أيضا ، خير لنا لأنه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجاهليين بهذا الدين الذي ينشأ عن جهلهم به عدم اعتناقه في الحقيقة .. وخير للناس لأن مواجهتهم بحقيقة ما هم عليه - وأنهم في دين الملك لا في دين الله - قد تهزتهم هزة من الجاهلية إلى الإسلام من دين الملك إلى دين الله . كذلك فعل الرسل عليهم صلوات الله وسلامه . وكذلك ينبغي أن يفعل الدعاة إلى الله في مواجهة الجاهليين في كل زمان ومكان .

﴿ وان الدين الإسلامي يحكم شريعة الله في الناس ، لا أهواء البشر ، وهكذا يتمحض الأمر . فإما شريعة الله ، وإما أهواء الذين لا يعلمون . وليس هناك من فرض ثالث . ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة . وما بترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء . فكل ما عداها هوى يهوى اليه الذين لا يعلمون ﴾ (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) إنها شريعة واحدة هي التي تستحق الاتباع ، وما عداها أهواء متبعها الجهل . وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها . ويدع الأهواء كلها . وعليه ألا يتحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء . وأصحاب الأهواء يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة ، فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة لهم أو جناحاً عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه .. إن هذا الدين جيد وقد جاء ليحكم الحياة ، جاء ليعبد الناس لله وحده ويتترع من المقتضيين لسلطان الله هذا السلطان ، فيرد الأمر كله إلى شريعة الله لا إلى شرع أحد سواه . وجاءت هذه الشريعة لتحكم الحياة كلها ، ولتواجه بأحكام الله حاجات الحياة الواقعية وقضاياها ولتدلي بحكم الله في الواقعة حين تقع بقدر حجمها وشكلها وملاساتها ، ولم يتجىء هذا الدين ليكون مجرد شارة أو شعار ، ولا لتكون شريعته موضوع دراسة نظرية لا علاقة لها بواقع الحياة .. فالإسلام ليس كلمة تُقال باللسان وليس مجرد عبارات وأدعية .. إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعرضه

العقبات والمشاق . إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله . وذلك برّد الناس إلى العبودية لربهم الحق . ورّد المجتمع إلى حاكميته وشريعته ، ورّد الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء . وتأمين الحق والعدل لئناس جميعاً وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت .. وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله ... وكلها أمانات من لم يتنهض بها فقد خانها . وخان بعهدته الذي عاهد الله عليه وتقتصر بيعته التي يبيع بها رسوله (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) .

٢ - مفهوم الدين :

إن هذا الدين شريعته كعقيدته في تقرير صفة الشرك أو صفة الإسلام . بل إن شريعته من عقيدته في هذه الدلالة . بل إن شريعته هي عقيدته .. إذ هي الترجمة الواقعية لها . كما تتجلى هذه الحقيقة الأساسية من خلال القرآن .. وهذه هي الحقيقة التي زجرح مفهوم (الدين) في نفوس أهل هذا الدين عنها راحة مضردة . خلال قرون طويلة بشق الأساليب الجهنمية الخبيثة .. حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين . ودعك من أعدائه والمستهترين الذي لا يحذرونه - أن تصح قضية الحاكمة في نفوسهم قضية منمصة عن قضية العقيدة . لا تحبس لها نفوسهم ، كما تحبس للعقيدة . ولا يعدون المروق منها مروقاً من الدين . كالذي يفرق من عقيدة أو عبادة . وهذا الدين لا يعرف انفصال بين العقيدة والعبادة والشريعة . إنما الزخزعة التي زاولتها أجهزة مدبرة قروناً طويلة حتى انتهت مسألة الحاكمة إلى هذه الصورة اباحتها حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين وهي هي القضية التي حشدت كثير من آيات القرآن . إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك ولا يحكمون على المتحاكم إلى انطاغوت بالشرك ويخرجون من هذه ولا يخرجون من تلك . إن هؤلاء لا يقرأون القرآن ولا يعرفون طبيعة هذا الدين .. فليقرأوا القرآن كله . وليأخذوا قول الله بحد (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) وأن بعض هؤلاء المتحمسين الغيورين على هذا الدين .

يؤذون هذا الدين من حيث لا يشعرون . بل يطعنونه الطعنة النجلاء بمثل هذه
الاهتمامات الجاهلية الهزيلة .. إنهم يفرغون الطاقة العقيدية الباقية في نفوس الناس
في هذه الاهتمامات الجاهلية الهزيلة . إنهم يؤذون شهادة ضمنية لهذه الأوضاع
الجاهلية . شهادة بأن هذا الدين قائم فيها ، لا ينقصه ليكمل أن تصحح هذه
المخالفات . بينما الدين كله متوقف عن الوجود أصلا . ما دام لا يتمثل في نظام
وأوضاع . الحاكمية فيها لله وحده من دون العباد .

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله . فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود
هذا الدين .. وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم هي قيام الطواغيت التي
(تعتدي) على ألوهية الله (وتغتصب) سلطانه وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة
والمنع عن الأنفس والأموال والأولاد .. وهي المشكلة التي كان يواجهها القرآن
الكريم بهذا الحشد من المؤثرات والمقررات والبيانات . ويربطها بقضية الألوهية
والعبودية ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر ، وميزان الجاهلية أو الإسلام ..

إن المعركة الحقيقية التي خاضها الإسلام ليقرر (وجوده) لم تكن هي المعركة
مع الإلحاد حتى يكون مجرد التدين هو ما يسعى اليه المتحمسون لهذا الدين . ولم
تكن هي المعركة مع الفساد الاجتماعي أو الفساد الأخلاقي . فهي معارك تالية
لمعركة وجود هذا الدين .. لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الإسلام ليقرر
(وجوده) هي معركة الحاكمية لمن تكون .. لذلك خاضها وهو في مكة .. خاضها
وهو ينشئ العقيدة . ولا يتعرض للنظام والشرعية . خاضها ليثبت في الضمير أن
الحاكمية لله وحده . لا تدعيها لنفسه مسلم . ولا يقر مدعيها على دعواه مسلم ..
فلما أن رسخت هذه العقيدة في نفوس العصبة المسلمة في مكة . يسر لهم مزاولتها
الواقعية في المدينة .. فلينظر المتحمسون لهذا الدين ما هم فيه وما يجب أن يكون .
بعد أن يدركوا المفهوم الحقيقي لهذا الدين . وهكذا التبس مفهوم الدين على كثير
من المسلمين حتى ارتدوا عن دينهم وهم لا يشعرون (ليردوهم وليلبسوا عليهم
دينهم) . وهكذا تمت الزحزحة عن هذا الدين . فأصبح ملتبسا غامضا ، لا يقف
الناس معه على تصور واضح ...

وهذه التصورات المبهمة الغامضة وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها :
ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق لا يتحصر في تلك الصور التي عرّفها
الجاهليات القديمة . فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة ..
هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم ثم لا
يجعلون لأنفسهم منها مَقَرّاً ...

هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضاً ، وتكلفهم أحياناً ما لا
يطيقون من النفقات وتأكل حياتهم واهتماماتهم ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم .. ومع
ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها . أزياء الصباح .. وأزياء بعد الظهر .. وأزياء المساء ..
الأزياء القصيرة . والأزياء الضيقة والأزياء المضحكة . وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف
إلى آخر هذا الاسترقاق المذلل .. من الذي يصنعه ومن الذي يقف وراءه ؟ تقف
وراءه بيوت الأزياء ، وتقف وراءه شركات الإنتاج . ويقف وراءه المرابون في
بيوت المال والبنوك ، من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدّها .
ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها . ولكنهم لا
يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف ، إنما يقفون بالتصورات والقيم التي
بشئونها ويؤصلونها بنظريات وثقافات ويطلقونها تضغط على الناس في صورة
(عرف اجتماعي) . فهم يعلمون أن النظريات وحدها لا تكفي . ما لم تتمثل
في أنظمة حكم وأوضاع مجتمعة .. إنه فعل الشياطين شياطين الانس والجن .
ولما الجاهلية تختلف أشكالها وصورها ، وتتحدّد جذورها ومنابعها وتماثل قوائمها
وقواعدها .

وإننا لنبخرس القرآن قدره . إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن
جاهليات كانت ... إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة
ومواجهة للواقع المنحرف دائماً ورده إلى صراط الله المستقيم .. وإن معظم الطواغيت
اليوم في الجاهليات الحديثة لا يستطيع أن يتبجح تبجح الشيوعيين الملاحدين
فينفي وجود الله جملة . ويتنكر للدين علانية . إنما يأتجون إلى الأسلوب
الخبيث الماكر يقولون : إنهم يحترمون الدين ويزعمون أن ما يشرعونه للناس نه أصل

من هذا الدين .. إنه أسلوب الأمم وأجبت من أسلوب الشيوعيين الملحدين إنه
تخدر العاطفة الدينية العامضة التي لا تزال تعيش في قرارات النفوس وإن لم تكن
هي الإسلام . فالإسلام منهج واضح عملي واقع . وليس هذه العاطفة المبهمة
العامضة . ويفرغ الطاقة المطرية الدينية في قوالب جاهلية لا إسلامية وهذه أجبت
الكيد والام الأساليب . ثم يجيء المتحمسون لهذا الدين فيفرغون جهدهم في
استنكار جزئيات هزيلة على هامش الحقيقة الإسلامية ، لا تروق لهم في هذه
الأوضاع الجاهلية المشركة المنصبة لألوهة الله وساطانه بالحملة . وبهذه الغيرة
الغبية يسبقون على هذه الأوضاع الجاهلية المشركة طابع الإسلام . ويشهدون لها
شهادة ضمنية خطيرة بأنها تقوم على أصل من الدين حقاً ولكنها تخالف عنه في
هذه الجزئيات الهزيلة . ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر لأن جهود الشياطين
في ربح هذه الدين عن مفهوماته الأساسية قد آتت ثمارها مع الأسف فحملت
مسألة الحاكمية تنزح عن مكان العقيدة وتفصل في الخس عن أصلها
الاعتقادي . ومن ثم نجد حتى الجيور على الإسلام يتحدثون لتصحح شعيرة
تعبدية أو لاستنكار انحلال أخلاقي . أو لمخالفة من المخالفات القانونية . ولكنهم
لا يتحدثون عن أصل الحاكمية وموقعها من العقيدة الإسلامية . يستنكرون
المنكرات الجاهلية الفرعية . ولا يستنكرون المنكر الأكبر . وهو قيام الحياة في غير
التوحيد . أي على غير أفراد الله سبحانه بالحاكمة ... إن الله قبل أن يوصي
الناس أية وصية أوصاهم ألا يشركوا به شيئاً x إنها القاعدة التي يرتبط على أساسها
الفرد بالله على بصيرة . وترتبط بها الجماعة بالاعتبار ثابت الذي ترجع إليه في كافة
الروابط . وبالقيم الأساسية التي تحكم الحياة البشرية . فلا تظل فيها لربيع
الشهوات والتزوايت ، واصطلاحات البشر التي تتراوح معها الشهوات والتزوات .
لذلك يجب أن نكون الوقفة الأولى للمسلم أمام أية عقيدة ليست هي الإسلام
وقفة المفارقة والرفض منذ اللحظة الأولى . وكذلك وقفته أمام أي شرع أو نضام أو
وضع ليست الحاكمة فيه لله وحده إنها وقفة الرفض والتبرؤ منذ اللحظة الأولى قبل
الدخول في أية محاولة للبحث عن مشابهاة أو مخالفات بين شيء من هذا كله

وبين ما في الإسلام .. وأما ناس تلقوا التشريع من نشر وأطاعوه فقد عبدوه .
 وذلك هو تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى عن اليهود والنصارى
 (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ..) عندما سمعه منه عدي بن حاتم -
 وكان نصرانياً جاء ليسلم - فقال يا رسول الله ما عبدوهم . فقال له رسول الله
 صلى الله عليه وسلم (بلئى إنهم أحلتوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم
 فذلك عبادتهم إياهم) (رواه الترمذي) .

٣ - شروء عن الدين :

إنا نرى في زماننا هذا صنوفاً وألواناً من الشرك ممن يزعمون أنهم يوحّدون الله
 ويسلمون له . فترسم لنا صورة من مدارج شرك . إن الناس يقيمون لهم اليوم
 آلهة يسمونها (القوم) .. ويُسَمُّونها (الوطن) ويسمونها (الشعب) إلى آخر ما يُسمونه .
 وهي لا تعدو أن تكون أصناماً غير مُجسّدة كالأصنام السدحة التي كان يقيمها
 الوثنيون . ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله سبحانه في خلقه . وينذر لها الأبناء
 كما كانوا ينذرون للآلهة القديمة . ويضجون لها كالذبائح التي كانت تقدم في
 المعابد على نطاق واسع إن الناس يتعترفون بالله ربّاً . ولكنهم يبدون أوامره وشرائعه
 من ورأيهم ظهرياً . بينما يفعلون أوامر هذه الآلهة ومطالبها (مقدسة) تخالف في
 سبيلها أوامر الله وشرائعه . بل تبدّل تبدأ . فكيف تكون الآلهة ؟ وكيف يكون
 الشرك ؟ وكيف يكون نصيب الشركاء في الأبناء .. إن لم يكن هذا الجهل تزاوله
الجاهلية الحديثة (فتعالى الله عما يشركون) ولقد كانت الجاهلية القديمة أكثر
 ادباً مع الله .. لقد كانت تتخذ من دونه آلهة تقدم لها هذه التقدّمات من الشرك
 في الأبناء والثمار والذبائح لتقرب الناس من الله زلفى . فكان الله في حسنها هو
 الأعلى . فأما الجاهلية الحديثة . فهي تعمل الآلهة الأخرى أعلى من الله عندها .
 فتقدّس ما تأمر به هذه الآلهة وتتند ما يأمر به الله ببداً .. إنا نخدع أنفسنا حين
 نقف بالوثنية عند الشكل الساجد للأصنام والآلهة القديمة . والشعائر التي كان
 الناس يزاولونها في عبادتها واتحادها شفعاء عند الله .. إن شكل الأصنام والوثنية

فقط هو الذي تغير ، (كما أن الشعائر هي التي تَعَقَّدت ، واتخذت لها عناوانات جديدة . أما طبيعة الشرك وحقيقته فهي القائمة من وراء الأشكال والشعائر المتغيرة . وهذا ما ينبغي ألا يتخذنا عن الحقيقة . إن الله سبحانه يأمر بالعفة والحشمة والفضيلة . ولكن (الوطن) أو (الانتاج) يأمر بأن تخرج المرأة وتَتَبَرَّج وتُغري وتعمل مضيفة في الفنادق في صورة فتيات الجيشا في اليابان الوثنية . فمن الإله الذي تتبع أوامره ؟ أهو الله سبحانه ؟ أم أنها الآلهة المدعاة ؟ . إن الله سبحانه يأمر بأن تكون رابطة التجمع هي العقيدة .. ولكن (القومية) أو (الوطن) يأمر باستبعاد العقيدة من قاعدة التجمع . وأن يكون الجنس أو القوم هو القاعدة . فمن هو الإله الذي تتبع أوامره ؟ أهو الله سبحانه ؟ أم الآلهة المدعاة ؟ إن الله سبحانه يأمر أن تكون شريعته هي الحاكمة ، ولكن عبداً من العبيد — أو مجموعة من الشعب — تقول كلا . إن العبيد هم الذين يُشَرِّعون وشريعتهم هي الحاكمة . فمن الإله الذي تتبع أوامره ؟ أهو الله سبحانه أم هي الآلهة المدعاة ؟ .. إنها أمثلة لما يجري في الأرض كلها اليوم . ولما تتعارف عليه البشرية الضالة . أمثلة تكشف عن حقيقة الوثنية السائدة . وحقيقة الأصنام المعبودة ، المقامة اليوم بدلاً من تلك الوثنية الصريحة . ومن تلك الأصنام المنظورة . ويجب ألا نتخذنا الأشكال المتغيرة للوثنية والشرك عن حقيقتها الثابتة .

إن العقل البشري — نو خُلِّي بينه وبين هذا الواقع — لا يفقه ولا يرضاه ، ولكنها الشهوات والأهواء والتضليل والخداع .. هي التي تجعل البشرية بعد أربعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن تَرْتَدُّ إلى هذه الجاهلية — في صورتها الجديدة — فيشركون ما لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلِقُونَ . ولا يملكون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخْلِقُونَ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون) . إن هذه البشرية لفي حاجة اليوم كما كانت في حاجة بالأمس إلى أن نتخاطب بهذا القرآن مرة أخرى . في حاجة إلى من يتقودها من الجاهلية إلى الاسلام . ومن يخرجها من الظلمات إلى النور . ومن يَنقِذَ عقولها وقلوبها من هذه الوثنية الجديدة . بل من هذا السخف الحديد الذي تلح فيه ، كما أنقذها هذا

الدين أول مرة فيصبح القلب مؤمناً بحقيقة التوحيد . فيقطع الإنسان الرحلة على هذه الأرض على هدى لأن بصره أبداً مُعلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق .. ولأنه يعرف مصدراً واحداً للحياة والقوة والرزق . ومصدراً واحداً للنفع والضرر ، ومصدراً واحداً للمنع والمنع فنستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد . يستمد منه وحده ويُعلق يديه بحبل واحد يشد عروته ويضمن إلى اتجاهه إلى هدف واحد لا يزيغ عنه بصره . ويخدم سيّداً واحداً يعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يغضبه فيتقيه . وبذلك تتجمع طاقته ، كذلك وتتوحد . فيتسع بكل طاقته وجهه . وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد في السماء (ضرب الله مثلا رجلاً فيه شركاء متشاكسون . ورجلا سلماً لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون). يضرب الله المثل للعبد الموحّد والعبد المشرك . بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه . وهو بينهم موزع . ولكل منهم فيه توجيه ، ولكل منهم عليه تكليف . وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق . ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه .. وعبد يملكه سيد واحد وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به فهو مستريح على منهج واحد صريح .

٤ - بلاغ وإنذار : (أستخرج من هذا المبحث)

(هذا بلاغ للناس لينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب) إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار . هي أن يعلم الناس (أنما هو إله واحد) .. فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحياة . وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم . إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم .. المقصود هو الدينونة لله وحده . ما دام أنه لا إله غيره . فالإله هو الذي يستحق أن يكون ربّاً - أي حاكماً وسيّداً ومُستصفاً ومُشرعاً وموجهاً - وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافاً جوهرياً عن كل حياة

تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد - أي حاكمية العباد للعباد ودينونة العباد للعباد - وهو اختلاف يتناول الاعتقاد والتصوير، ويتناول الشعائر والمناسك، كما يتناول الأخلاق والسلوك، والقيم والمعايير، وكما يتناول الأوضاع السيامية والاقتصادية والاجتماعية وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء.

إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل، وليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمائر. وحدود العقيدة أبعد كثيراً من مجرد الاعتقاد الساكن.. إن حدود العقيدة تتسع وتترامي حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة.. وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي قضية عقيدة. كما أن قضية الأخلاق يعمليتها هي قضية عقيدة. فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم. كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء.. ونحن لا ندرك مرامي هذا القرآن قبل أن ندرك حدود العقيدة في هذا الدين، وقبل أن ندرك مدلولات: (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) على هذا المستوى الواسع البعيد الآماد وقبل أن نفهم مدلول: العبادة لله وحده، ونحدد بأنه الدينونة لله وحده، لا في لحظات الصلاة، ولكن في كل شأن من شؤون الحياة..

إن عبادة الأصنام التي دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يُجنيه هو وبنيه إليها - لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم. أو التي كانت تزاولها شتى الوثنيات في صور شتى، مجسمة في أحجار أو أشجار، أو حيوان أو طير، أو نجم أو نار أو أرواح أو أشباح.. إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور الشرك بالله ولا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون الله.

والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصورة الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها. ومنعنا من الرؤية الصحيحة للحقيقة ما يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجذبة.. ولا بد من التعمق في إدراك طبيعة الشرك وعلاقة

للأصنام بها . كما أنه لا بد من التعمق في معنى الأصنام . وتمثل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة .

إن الشرك بالله المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله — يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الديونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده . ويكني أن يدين العبد لله في جانب من جوانب حياته . بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله ، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته . وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الديونة الكثيرة والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي لشرك في أعماق طبيعته ..

— إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر . بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله .. ويدين في قيمه وموازنه الاجتماعية بتصورات واصطلاحات من صنع غير الله . ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأرجائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأرباب — مخالفة لشرع الله وأمره . إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ، ويخالف عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في أخص حقيقته .. وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتيسع . وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان .. والأصنام .. ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة .. فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت . يتخفى وراءها لتجهيد الناس باسمها . وضمآن دينوتهم له من خلالها .. إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر .. إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها . يتمنم حنوها بالتعاويد والرقى .. ثم ينطق باسمها بما يريد هو ، وهو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها .. فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان ، ويقرون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازن والتصرفات والأعمال .. فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها .. إذا رفعت القومية شعاراً ، أو

رفع الوطن شعاراً ، أو رفع الشعب شعاراً ، أو رفعت الطبقة شعاراً ... ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله ، وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض . بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها ، نُحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه ، ونفذت إرادة تلك الشعارات — أو بالتعبير الصحيح الدقيق : إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات — كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله .. هلصم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة إنما يكون الصنم مذهباً أو شعاراً . إن الإسلام لم يجر لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية . ولم تبدل فيه تلك الجهود الموصولة ، من موكب الرسل الموصول ، ولم تُقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام ، لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب .. إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة .. ولا بُدّ من تتبّع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة ، وتقرير ما إذا كانت توحيداً أم شركاً ؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشئ الطواغيت والأرباب والأصنام .

﴿ والذين يظنون أنفسهم في (دين الله) لأنهم يقولون بأفواههم (نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ويدعون الله فعلاً في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث .. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله ، ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله — وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله — ثم هم يبدلون أرواحهم وأموالهم أو أعراضهم وأخلاقهم — أرادوا أملاً يريدوا — ليحققوا ما تطلبه منهم الأصنام الجديدة ، فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام ، نُبتت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام .. الذين يظنون أنفسهم مسلمين وفي (دين الله) وهذا حالهم .. عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم إن دين الله ليس بهذا الهزال الذي يتصوره من يزعمون أنفسهم (مسلمين) في مشارق الأرض ومغاربها . إن دين الله منهج شامل ﴾

لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها . والدينونة لله وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها — فقصلا على أصولها وكتلياتها — هي دين الله ، وهي الاسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه .. وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بالوهمية غيره معه . ولكنه يتمثل ابتداءً في تحكيم أرباب غيره معه .. وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب ، بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات .

سـ ولن ينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم ؟ ولن الدينونة الكاملة ؟ ولن الطاعة والاتباع والامتثال ؟ .. فإذا كان هذا كله لله فهم في دين الله .. وإن كان لغير الله ... معه أو من دونه — فهم في دين الطواغيت والأصنام .. والعبادة بالله .. (هذا بلاغ للناس ليتنبهوا به وليعلموا أنما هو الله واحد وليذكر أولو الألباب) .

٥ — الدين والطاغوت :

الطاغوت هو صياغة من الطغيان ، نحو ملكوت وعظموت ورحموت تفيد المبالغة والاضخامة . والطاغوت كل ما طغى وتجاوز الحد .. والذين اجتنبوا عبادتها هم الذين اجتنبوا عبادة غير المعبود في أية صورة من صور العبادة ، وهم الذين أنابوا إلى ربهم ، وعادوا إليه ووقفوا في مقام العبودية له وحده (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتجهون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) . إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله ، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله . وكل عدوان يتجاوز الحق . والعدوان على سلطان الله والوهميته . وحاكيتته هو أشنع العدوان ، وأشدّه طغياناً . وأدخله في معنى الطاغوت لفظاً ومعنى .. وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحرار والرهيان . ولكن اتبعوا شرعهم فسمّاهم الله عباداً لهم وسمّاهم مشركين (اتخذوا أحرارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .. فهم عبدوا الطاغوت أي السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها . وهم لم يعبدوها بمعنى السجود والركوع .

نبي ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة . وهي عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله
 ومن دين الله . وان الدعوة إلى دين الله رب العالمين لا تحمل إلا مدلولاً واحداً هو
 انتزاع السلطان من يد العبيد الطواغيت وردّه إلى صاحبه سبحانه . أما معنى
 هذه الدعوة إلى ربّ العالمين عند هؤلاء الطواغيت فهي الفساد في الأرض ، أو
 كما يُقال اليوم في قوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها أنها محاولة لقلب نظام
 الحكم (وقال موسى يا فرعون اني رسول ربّ العالمين ...) (وقال الملأ من
 قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويلذّكوا والمهلك) .. ان نظام
 الحكم في الجاهليات يقوم على ربوبية عبد من العبيد لبقية العبيد ، بينما الدعوة
 إلى ربّ العالمين تعني أن تكون الربوبية على العبيد لخالق العبيد .. والسحرة
 الذين آمنوا بربّ العالمين ، وأسلموا لله وحده ، وأعلنوا الخروج من العبودية
 الزائفة للطواغوت المُنصب للربوبية واختصاصاتها . كانوا يعلمون حقيقة
 المعركة بينهم وبين الطواغوت أنها المعركة على العقيدة . لأن هذه العقيدة
 تهدد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خالصة لربّ
 العالمين . بل بمجرد إعلان أن الله ربّ العالمين . ومن ثم قالوا لفرعون رداً
 على اتّهامه لهم بأن هذا مكر مكرّمه في المدينة اتخرجوا منها أهلها - وهو
 مرادف للاتّهام في الجاهليات الحديثة لكل من يعلن ربوبية الله للعالمين بمعناها
 الجاد ، بأنه يعمل على قلب نظام الحكم .. هذه هي بعينها كلمة كل طاغية
 مفسد من كل داعية مصلح (اني اخاف ان يبدل دينكم أو ان يظهر في
 الأرض الفساد) . أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل ؟
 أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لاثارة الخواطر في وجه الايمان الهادي ..
 انه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل . والايمان والكفر . والصالح
 والطغيان . على توالي الزمان واختلاف المكان . ويأخذ كل طاغية توجه اليه
 النصيحة ، تأخذ العزة بالاثم ، ويرى في النصيح الخالص (ما أريكم الا ما
 أرى وما أهديكم الا سبيلا للرشاد) وهكذا لا يرى الطغاة الا الرشد والخير

والصواب ؟ وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون ، وهل يجوز أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً والا فليكن كانوا طغاة ... وبصر الطاغوت على الباطل في وجه الحق ويقاوم الدعوة إلى رب العالمين .. ذلك أنه يعلم علم اليقين أن هذه الدعوة بذاتها هي حرب عليه بانكار شرعية قيامه من أساسه .. وما يمكن أن يسمح الطاغوت باعلان أن لا اله الا الله ، أو أن الله رب العالمين ، الا حين تفقد هذه الكلمات مدلولها الحقيقي ، وتصبح مجرد كلمات .. لا مدلول لها .. وهي في مثل هذه الحالة لا تؤذيه لأنها لا تعنيه . فأما حين تتأخذ عصبية من التناهي هذه الكلمات جداً بمدلولها الحقيقي ، فان الطاغوت الذي يزاول الربوبية - بمزاويله الحاكية بغير شرع الله ، وتعبيد الناس له بهذه الحاكية وعدم ارسالهم لله - لا يطبق هذه العصبية ..

وكثيراً ما يوهم الباطل أن وراء الدعوة الجديدة خبيثاً غير ظاهرها ، وأنهم هم الكبراء العليمون ببواطن الأمور مدركون لما وراء هذه الدعوة من خبيث . (وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آفتكم إن هذا شيء يَراد) فليس هو الدين ، وليست هي العقيدة ، انما هو شيء آخر يُراد من وراء هذه الدعوة . شيء يجب أن يدعه الجماهير لأربابه ولن يحسنون فهم المخبات وأدراك المناورات . وتنصرف هي إلى عاداتها الموروثة وألفتها المعروفة . ولا تعني نفسها بما وراء المناورة الجديدة . فهذه اربابها الكفيلون بمقاومتها . فينتظمين الجماهير . فالكبراء سيأهرون على مصالحهم وعقائدهم وآفتهم . هذه الصريفة المألوفة المكرورة التي يصرف بها اطعاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة والبحث وراء الحقيقة . وتدبر ما يواجههم من حقائق خطيرة . ذلك أن اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة . وحظر على الكبراء . وكشف للأباطيل التي يغرغرون فيها الجماهير . وهم لا يعيشون الا بغراق الجماهير في الأباطيل .. وحينما يحسن الطغاة بأن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم . عندئذ يلبسون في اقول بعد التجبر (فقال للملائة حوله ان هذا ساحر عليم يريد أن يخترحكم من أرضكم بسحره فمادام تأمرون) ومتى كان الطاغية يطلب أمر تناعه وهم له

يسجدون .. وتلك شحنة الطغاة تلجأون إلى الشعوب . وقد كانوا يدوسونها بالأقدام . ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى : ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر . ثم إذا هم جبابرة مستبدون ظالمون .

لأن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان . تحرير من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله . تحرير من شرع البشر ، ومن هوى البشر ، ومن تقاليد البشر . ومن حكم البشر . وإعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله : ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشرية من عنده للناس .. والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صنع البشر — أي لربوبية غير ربوبية الله — واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون .. (أنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله) وقانونهم غير شريعة الله ، إنهم في دين حاكمهم ذاك .. في دين الملك لا في دين الله .

وان الطاغية يدرك خطورة هذه الدعوة .. لقد قال الرجل العربي — بفطرته وسليقته — حين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله :

(هذا أمر تكرهه الملوك) وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته : (إذن تُحاربك العرب وانعجم) .. لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لعتة . كان يفهم أن شهادة أن لا إله إلا الله تؤدي على الحاكمين بغير شرع الله عرباً كانوا أم عجماً . كانت لشهادة أن لا إله إلا الله حديثها في حس هؤلاء العرب . لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيداً . فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب وأجد ، ولا في أرض واحدة . شهادة أن لا إله إلا الله . مع الحكم بغير شرع الله فيكون هناك آفة مع الله . ما كان أحد يفهم شهادة أن لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم من يدعون أنفسهم (مسلمين) .. ذلك الفهم الباهت المزيحل .

وان عبودية الناس لغير الله سبحانه تُنشئ في نفوسهم الذلّة . وقد أراد الله أن يقيمها على الكرامة . وتنشئ في الحياة الظلم والبني . وقد أراد الله أن يقيمها على القسط والعدل ، ونحول جهود الناس إلى عبث في تأليه الأرباب الأرضية : والطبل حولها والزمر والنفخ فيها دائماً . لتكبر حتى تملأ مكان الرب الحقيقي . وأما كانت هذه الأرباب في ذاتها صغيرة هزيلة . لا يمكن أن تملأ مكانة الرب الحقيقي ، فان عبادها المساكين يظنون في تعب دائم . وهم مقعد مقيم ينفخون فيها ليل نهار ، ويسلطون عليها الأضواء والأنظار . ويضربون حولها بالدفوف والمزامير ، والترانيم والتسابيح . حتى يستحيل الجهد البشري كله من الانتاج الثمر للحياة إلى هذا الكدّ البائس التكد والى هذا الهمّ المقعد المقيم ...

ان الله سبحانه يعلم طبيعة هذا الانسان الذي خلقه ، وحدود طاقته . فلم يكتب على الناس في الدين الذي جاء للبشر أجمعين الا ما هو ميسر للجميع حين تصحّ العزيمة . وتعندل الفطرة وينوي العبد الطاعة . ولا يستهين ولا يستهين .. وتقرير هذه الحقيقة ذو أهمية خاصة في مواجهة الدعوات الهدامة التي يدمعها الطواغيت . والتي تدعو الانسان إلى الانحلال واخپوانية والتلبط في الوحل كالودود بحجة أن هذا هو واقع الانسان . وطبيعته وفطرته . وحدود طاقته . وان الدين ذبوة مثالية لم يجيء لتحقيق في واقع الأرض . وإذا نهض بتكاليفها فرد فان مئة لا يطيقون ... هذه دعوى كاذبة أولاً . وشاذة ثانياً . وجاهلة ثالثاً . لأنها لا تفهم الانسان ولا تعلم منه ما يعلمه خالقه الذي فرض عليه تكاليف الدين . وهو يعلم سبحانه . أنها داخلية في مقدور الانسان العادي لأن الدين لم يجيء للقلائل الممتازين . وان هي الا العزيمة — عزيمة الفرد العادي . واخلاص النية . والبدء في الطريق . وعندئذ يكون ما يعد به العاملين (ولو أنهم فعلوا ما يوعدون به لكان خيراً لهم وأشدّ تبييناً واذا آتيناهم من لدنا أجراً عظيماً وطديناهم صراطاً مستقيماً) فمجرد البدء يتبعه العون من الله ، ويتبعه التثبيت على المنهج في الطريق ويشعه الأجر العظيم . وتتبعه الهداية إلى الطريق المستقيم .. وصدق الله العظيم

هناك دائماً شبهة كاذبة أو الأمنية العائبة : لماذا يا رب ؟ لماذا يصاب الحق وينجو الباطل لماذا يبتلى أهل الحق وينجو أهل الباطل ؟ ولماذا لا يتنصر الحق كلما التقى مع الباطل ويعود بالغلبة والغنيمة ؟ أليس هو الحق الذي ينبغي أن يتنصر ؟ وفيما للباطل هذه الصولة ؟ وفيما يعود الباطل من صدامه مع الحق بهذه النتيجة ، وفيما فتنة للقلوب وهزة ...

لقد وقع بالفعل أن قال المسلمون في غزوة أحد في دهشة واستغراب (أنتي هذا) .. ويريح الله القلوب المتعبة ويجلو كل خاطرة تندس إلى القلوب من هذه الناحية ويبين سنته وقدره وتديره أمس واليوم وغدا ... إن ذهاب الباطل ناجياً في معركة من المعارك وبقائه منتفشاً فترة من الزمان ليس معناه أن الله تاركه أو أنه من القوة بحيث لا يغلب أو بحيث يضمر الحق ضرراً . وإن ذهاب الحق مبطل في معركة من المعارك وبقائه ضعيف الحول فترة من الزمان ليس معناه أن الله متجافيه أو ناسيه أو أنه متروك للباطل يهلكه ويرديه ... كلا انما هي حكمة وتدير هنا .. وهناك .. يُملي للباطل ليمضي إلى نهاية الطريق وليرتكب أبشع الآثام وليحمل أثقل الأوزار ، ولينال أشد العذاب باستحقاق . ويبطل الحق ليميز الخبيث من الطيب ، ويعظم الأجر لمن يمضي مع الابتلاء وبشئ .. فهو الكسب للحق والخسار للباطل مُضاعفاً هذا وذلك هنا وهناك .. والمعركة يريد بها الله أن تكون قضيته هو .. فالعقدة التي تحيك في بعض الصدور والشبهة التي تجول في بعض القلوب وهي ترى أعداء الله وأعداء الحق متروكين لا يأخذهم العذاب ممتعين في ظاهر الأمر بالقوة والسلطة والمال والجأء مما يوقع الفتنة في قلوبهم وقلوب الناس من حولهم ومما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يحسون أن الله سبحانه لا يتدخل في المعركة بين الحق والباطل فتدع للباطل أن يحطم الحق ولا يتدخل لنصرته . أو يحسون أن هذا الباطل حق ، والا فليمر الله ينمو ويكبر ويغلب ؟ .. أو يحسون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق في هذه الأرض وأن ليس من

شأن الحق أن ينتصر ثم ... يدع المبطلين الظلمة الطغاة المفسدين يكجئون في عتوهم ويسارعون في كفرهم ويكجئون في طغيانهم ويظنون أن الأمر قد استقام لهم وأن ليس هناك من قوة تقوى على الوقوف في وجههم ...

وهذا كله وهم باطل وظن بالله غير الحق والأمر ليس كذلك وما هو ذا سبحانه وتعالى يحذر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظن ... إنه إذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم الذين يسارعون فيه وإذا كان يعطيهم حظاً في الدنيا يستمتعون به ويكفون فيه ... إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء وإنما هي الفتن وإنما هو الكيد المتين وإنما هو الاستدراج البعيد (ولا يحسن الذين كفروا أنما نملي لهم خبير لأنفسهم .. لأنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا) وهكذا يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة لا تُصيب إلا من يريد الله به الخير فإذا أصابت أوليائه فإنما تُصيبهم خير يُريده الله لهم .. ولو وقع الابتلاء مرتباً على تصرفات هؤلاء الأولياء فإنما هناك الحكمة المعينة والتدبير اللطيف وفضل الله على أوليائه المؤمنين .. وهكذا تستقر القلوب وتطمئن النفوس وتستقر الحقائق الأصبية البسيطة في النصور الاسلامي الواضح المستقيم .. وقد شاءت حكمة الله وبره بالمؤمنين أن يميزهم عن المنافقين الذين اندسوا في الصفوف فيستلبهم الله بسبب تصرفاتهم وتصوراتهم ليميز الخبيث من الطيب من هذا الطريق ... (ما كان الله ليبدّر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) فإنه لن يدع إصطف المسلم مختلطاً غير مميز يتوارى المنافقين فيه وراء دعوى الإيمان ومظهر الاسلام بينما قلوبهم خالية من بشاشة الايمان ومن روح الاسلام .. والله يريد من الأمة المسلمة أن تؤدي دوراً كونياً كبيراً وتتحصل منها إضياء عظيم وانشيء في الأرض واقعاً وريداً ونظماً جديداً ... وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والصفاء والتميز والتماسك ويقتضي ألا يكون في الصف خلل ولا في بنائه دخل ... وكل هذا يقتضي أن يصهر لصف ليخرج منه الحث وأن يضغط لنتهاوى اللبانات الضعيفة وأن تسلط عليه الأصواء ليتكشف الدخائل والضمائر ... لذلك يرسم لنا القرآن الكريم منهج هذا الدين ويحدد لدعائه الطريق ..

١ - إن في طبيعة هذا الدين الذي هو المنهج الالهي للحياة البشرية ، وفي طريقته في العمل في حياة الشر حقيقة أولية بسيطة ولكنها كثيراً ما تُنسى ، ولا تُدرك ابتداءً ، فَنَسِياً عن نسيانها أو عدم ادراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين : في حقيقته وفي واقعته التاريخي في حياة الانسانية ، وفي دوره أمس واليوم وغدا ...

[ان بعضنا ينتظر من هذا الدين ما دام هو المنهج الالهي للحياة البشرية أن يعمل في حياة البشرية بطريقة سحرية خارقة دون اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقاتهم الفطرية ولواقعهم المادي في أية مرحلة من مراحل نموهم وفي أية بيئة من بيئاتهم . وحين يرون أنه لا يعمل بهذه الطريقة ، وإنما هو يعمل في حدود الطاقة البشرية ، وحدود الواقع المادي للبشر وأن هذه الطاقة وهذا الواقع يتفاعلان معه فيتأثران به في فترات تأثراً واضحاً ، أو يؤثران في مدى استجابة الناس له ، وقد يكون تأثيرهما مضاداً في فترات أخرى فتعتمد بالناس ثقله الطين وجاذبية المطامع والشهوات ودون تلبية هتاف الدين أو الاتجاه معه في طريقه اتجاه كاملاً ... حين يرون هذه الظواهر فاتهم يُصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها - ما دام هذا الدين من عند الله - أو يُصابون بحكة خلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته أو يُصابون بالشك في الدين إطلاقاً . وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد هو عدم ادراك طبيعة هذا الدين وطريقته أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة .

إن هذا الدين منهج للحياة البشرية يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد بشري ، في حدود الطاقة البشرية . ويبدأ في العمل من النقطة التي يكون البشر عندها بالفعل من واقعهم المادي ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود جهدهم البشري وطاقاتهم البشرية ، ويبلغ بهم أقصى ما تمكنهم طاقتهم وجهدهم من بلوغه ...

ومميزته الأساسية أنه لا يتغفل لحظة . في أية لحظة ، في أية خطوة . وفي أية خطوة عن طبيعة فطرة الانسان وحدود طاقته وواقعه المادي أيضاً . وأنه

في الوقت ذاته يبلغ به — كما تتحقق ذلك فعلاً في بعض الفترات ، وكما يمكن أن يتحقق دائماً كلما بذلت محاولة جادة — ما لم يبلغه أي منهج آخر من صنّع البشر على الإطلاق ...

ولكن الخطأ كله ينشأ من عدم الادراك لطبيعة هذا الدين أو نسيانها . ومن انتظار الخوارق التي لا تتركن على الواقع البشري والتي تبدل فطرة الانسان وتُنشئ نشأة أخرى لا علاقة لها بفطرته وميوله واستعداداته وطاقاته وواقعه المادي كله . أليس هو من عند الله ؟ أليس ديناً من عند القوة القادرة التي لا تعجزها شيء ؟ فلماذا إذن يعمل فقط في حدود الطاقة البشرية ؟ ولماذا يحتاج إلى الجهد البشري ليعمل ؟ ثم لماذا لا يتنصر دائماً ؟ ولا يتنصر أصحابه دائماً ؟ لماذا تغلب عليه ثقله الطبع والشهوات والواقع المادي أحياناً ؟

وكُلُّها كما نرى أسئلة وشبهات تنبع من عدم ادراك الحقيقة الأولية البسيطة لطبيعة هذا الدين وطريقته أو نسيانها ... ان الله قادر طبعاً على تبديل فطرة الانسان عن طريق هذا الدين أو من غير طريقه وكان قادراً على أن يخلقه منذ البدء بفطرة أخرى ولكنه شاء أن يخلق الانسان بهذه الفطرة وشاء أن يجعل لهذا الانسان إرادة واستجابة وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والتلقي والاستجابة. وشاء أن تعمل فطرة الانسان دائماً ولا تُمحى ولا تُبدل ولا تُعطل وشاء أن يتم تحقيق مسهمه للحياة عن طريق الجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية . وشاء أن يبلغ الانسان من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد في حدود ملايسات حياته الواقعة . وليس لأحد من خلقه أن يسأله : لماذا شاء هذا ؟ ما دام أن أحداً من خلقه ليس إلهاً وليس لديه العلم ولا إمكان العلم بالنظام الكلي للكون وبمقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود وبالحكمة المعنوية وراء خلق كل كائن بهذا التصميم الخاص .. و (لماذا ؟) في هذا المقام سؤال لا يسأله مؤمن جاد ، ولا يسأله كذلك ملحد جاد .. المؤمن لا يسأله لأنه أكثر أدباً مع الله الذي يعرفه قلبه بحقيقته وصفاته وأكثر معرفة بأن الادراك البشري لم يهيا للعمل في هذا السجال ..

والكافر لا يسأله لأنه لا يعترف بالله ابتداء .. فان اعترف بالوحيته عَرَفَ معها
 أن هذا شأنه سبحانه ومقتضى الوحيته . ولكنه سؤال قد يسأله هازل
 مانع . لا هو مؤمن جاد ولا هو مُلحد جاد ... ومن ثم لا ينبغي
 الاحتفال به ولا الجد في أخذه . وقد يسأله جاهل بحقيقة الألوهية ...
 فالسبيل لإجابة هذا الجاهل ليس هو الجواب المباشر . إنما هو تعريفه
 بحقيقة الألوهية حتى يعرفها فهو مؤمن . أو ينكرها فهو ملحد . وبهذا
 ينتهي الجدال إلا أن يكون مراء .

ليس لأحد من خلق الله إذن أن يسأله سبحانه لماذا شاء أن يخلق
 الكائن الانساني بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن تبقى فطرته هذه عاملة لا
 تُمحى ولا تُعدل ولا تُعطل . ولماذا شاء أن يجعل المنهج الالهي يتحقق في
 حياته عن طريق الجهد البشري وفي حدود الطاقة البشرية ؟ ولكن لكل
 أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقيقة ، ويراها وهي تعمل في واقع البشرية
 ويُفسر التاريخ البشري على ضوءها فيفقه خط سير التاريخ من ناحية ، ويعرف
 كيف يواجه هذا الخط من ناحية أخرى لهذا المنهج الالهي الذي يُمثله
 الاسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . لا يتحقق في الأرض في
 دنيا الناس بمجرد تنزيله من عند الله . ولا يتحقق بمجرد ابلاغه للناس وبيانه
 ولا يتحقق بالقهر الالهي على نحو ما يمتص الله ناموسه في دورة الفلك وسير
 الكواكب وترتب النتائج على أسبابها الطبيعية .. إنما يتحقق بأن تحمله مجموعة
 من البشر تؤمن به ايماناً كاملاً وتستقيم عليه بقدر طاقتها وتجعله وظيفة
 حياتها وغاية آمها وتجهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم العملية
 كذلك وتجاهد لهذه الغاية بحيث لا تستبقي جهداً ولا طاقة .. تجاهد الضعف
البشري والهوى البشري والجهل البشري في أنفسها وأنفس الآخرين .. وتجاهد
الذين يدفعهم الضعف والهوى والجهل للوقوف في وجه هذا المنهج .. وتبلغ
 بعد ذلك كله من تحقيق هذا المنهج الالهي إلى المحنة والمستوى الذي تطبقه
 فطرة البشر . على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعلاً ولا تغفل

وواقعهم ومقتضيات هذا الواقع في سير مراحل هذا المنهج وتتابعها .. ثم تنصرف هذه المجموعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة وتنهزم في المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة . يقدر ما تبذل من جهد ويقدر ما تتخذ من الأساليب العملية ، ويقدر ما توفق في اختيار هذه الأساليب ... وقبل كل شيء وقبل كل جهد وقبل كل وسيلة ... هناك عنصر آخر : هو مدى تجرد هذه المجموعة لهذا الغرض ومدى تمثيلها لحيقة هذا المنهج في ذات نفسها ومدى ارتباطها بالله صاحب هذا المنهج وثقتها به وتوكلها عليه . هذه هي حقيقة هذا الدين وهذه هي خطته الحركية ووسيلته .. وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها الله للجماعة المسلمة وهو يريد بها ..

حينما نقصر الجماعة المسلمة في تمثيل حقيقة هذا الدين في ذات نفسها في بعض مواقف المعركة . وحينما نقصر في اتخاذ الوسائل العملية الحقيقية الأولية أو يتساقط ، وتفهم أنه من مقتضى كونها مسلمة أن تنصرف حتماً بغض النظر عن تصورها وتصرفها حينئذ يتركها الله تلاقى الهزيمة وتُعاني آلامها المريرة . ويأتي هذا البيان لجازم من الله عز وجل في بيان هذه الحقيقة (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير) .. ولكنه سبحانه لا يترك لمسلمين عند هذه النقطة بل يصلهم يقدر الله من وراء الأسباب والنتائج . ويكشف لهم عن إرادة الخير بهم من وراء الابتلاء الذي وقع بأسبابه الظاهرة من تصرفاتهم الواقعة ..

إن ترك المنهج الإلهي يعمل ويتحقق عن طريق الجهد البشري ويتأثر بتصرف البشر إزاءه هو خير في عمومته . فهو يصلح الحياة البشرية ولا يفسدها أو يعطلها ويصلح الفطرة البشرية ويوقظها ويردّها إلى سواها .. ذلك أن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان مجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان ومجاهدتهم بإلبد لدفعهم عن طريق الهدى حين يتعرضونه بالقوة الباغية ..

وحيث يتعرض في هذه المِجَاهِدَة لِلإِبْتِلَاء والصَّبْر على الجُهِد والصَّبْر على
الْأَذَى والصَّبْر على الهَزِيمَة ، والصَّبْر على النَصْر أيضاً - فالصَّبْر على النَصْر
أشَقُّ من الصَّبْر على الهَزِيمَة - وحيث يَتَمَحَّصُ الْقَلْبُ وَيَتَمَيَّزُ الصِّفُّ وَتُسْتَقِيمُ
الْجَمَاعَة على الطَّرِيق وتَمُضِي فِيهِ رَاشِدَة صَاعِدَة مَتَوَكِّلَة على اللَّهِ . حَقِيقَة
الْإِيمَان لَا يَتِمُّ تَمَامُهَا فِي قَلْبٍ حَتَّى يَتَعَرَّضَ لِمُجَاهِدَةِ النَّاسِ فِي أَمْرِ هَذَا
الْإِيمَانِ . لِأَنَّهُ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ أَوَّلًا فِي أَثْنَاءِ مُجَاهِدَتِهِ لِلنَّاسِ وَتَتَفَتَّحُ لَهُ فِي الْإِيمَانِ
أَفَاقٌ لَمْ تَكُنْ لِنَتَفَتُّحٍ لَهُ أَبَدًا وَهُوَ قَاعِدٌ آمِنٌ سَالِمٌ ، وَتَبَيَّنَ لَهُ حَقَائِقُ فِي
النَّاسِ وَفِي الْحَيَاةِ لَمْ تَكُنْ لِنَتَبَيَّنَ لَهُ أَبَدًا بَغَيْرِ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ . وَيَبْلُغُ هُوَ بِنَفْسِهِ
وَمَشَاعِرِهِ وَتَصَوُّرَاتِهِ وَعَادَاتِهِ وَطَبَايَعِهِ ، وَبِأَنْفَعَالَانِهِ وَاسْتِجَابَاتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَبْلُغَهُ
أَبَدًا ، بِدُونِ هَذِهِ التَّجَرِبَةِ الشَّاقَّةِ الْمُرِيرَةِ ...

وَحَقِيقَةُ الْإِيمَانِ لَا يَتِمُّ تَمَامُهَا فِي جَمَاعَةٍ حَتَّى تَتَعَرَّضَ لِلتَّجَرِبَةِ وَالْإِمْتِحَانِ
وَالْبَلَاءِ . وَحَتَّى يَتَعَرَّفَ كُلُّ فَرْدٍ فِيهَا عَلَى حَقِيقَةِ طَاقَتِهِ ، وَعَلَى حَقِيقَةِ غَايَتِهِ ،
ثُمَّ تَتَعَرَّفَ هِيَ عَلَى حَقِيقَةِ اللَّبَنَاتِ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا . مَدَى اِحْتِمَالِ كُلِّ لَبَنَةٍ
ثُمَّ مَدَى تَمَاسُكِ هَذِهِ اللَّبَنَاتِ فِي سَاعَةِ الصَّدَامِ وَهَذَا مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
أَنْ يَعْلَمَهُ لِلْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ وَهُوَ يُرَبِّيهَا بِالْأَحْدَاثِ وَهُوَ يَقُولُ لَهَا (مَا كَانَ اللَّهُ
لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) ، ثُمَّ .. وَهُوَ
يَرُدُّهُمْ إِلَى قَدْرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ مِنْ وَرَاءِ الْأَسْبَابِ وَالْأَوَاقِعِ جَمِيعًا فَيَرُدُّهُمْ إِلَى
حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ الْكَبِيرِ الَّتِي لَا يَتِمُّ تَمَامُهَا إِلَّا بِاسْتِقْرَارِهَا فِي النَّفْسِ
الْمُؤْمِنَةِ (إِنْ يَمْسِسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ
النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ
وَلِيَمُحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) وَإِذَنْ فَهُوَ فِي الْإِنْتِهَاءِ قَدْرُ اللَّهِ وَتَدْبِيرُهُ
وَحِكْمَتُهُ مِنْ وَرَاءِ الْأَسْبَابِ وَالْأَحْدَاثِ وَالْأَشْخَاصِ وَالْحَرَكَاتِ .. وَهُوَ التَّصَوُّرُ
الْإِسْلَامِيُّ الشَّامِلُ الْكَامِلُ يَسْتَقِرُّ فِي النَّفْسِ مِنْ وَرَاءِ الْأَحْدَاثِ وَالتَّعْقِيبِ الْمُنِيرِ
عَلَى هَذِهِ الْأَحْدَاثِ ..

٢ - وَهَنَاكَ حَقِيقَةٌ أُسَاسِيَّةٌ كَبِيرَةٌ عَنْ طَبِيعَةِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَطَبِيعَةِ الْفُطْرَةِ

الانسانية وطبيعة الجُهد البشري، ومدى ما يُمكن أن يبلغه في تحقيق المنهج
الآلهي .

سبحر إنَّ النفس البشرية ليست كاملة في واقعها ولكنها في الوقت ذاته قابلة
لنمو والارتقاء حتى تبلغ أقصى الكمال المُقدر لها في هذه الأرض . وهما نحن
أولاء نرى قطاعاً من قطاعات البشرية - كما هو وعلى الطبيعة - مُثلاً في
الجماعة التي تُمثل قمة الأمة التي يقول الله عنها (كُنْتُمْ خَيْر أُمَّة أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ) وَهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المثل الكامل للنفس البشرية
على الإطلاق . فماذا نرى ؟ . نرى مجموعة من البشر فيهم الضعف وفيهم
النقص وفيهم من يبلغ أن يقول الله عنهم : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى
الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَمَّا اللَّهُ عَنْهُمْ) وهؤلاء
مؤمنون مسلمون ولكنهم كانوا في أوائل الطريق كانوا في دور التربية
والتكوين . ولكنهم كانوا جادّين في أخذ هذا الأمر ، مسلمين أمرهم الله
مرتضين قيادته ومستسلمين لمنهجه ومن ثم لم يطردهم الله من كنفه ، بل
رحمهم وعفا عنهم .. نعم إنه سبحانه تركهم يتذوقون عاقبة تصرفاتهم
وابتلاهم ذلك الابتلاء الشاق المرير .. ولكنه لم يطردهم خارج الصف . ولم
يقُل لهم إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر . بعدما بدأ منكم في تجربة
من النقص والضعف . لقد قبِلَ ضعفهم هذا ونقصهم ورباهم بالابتلاء ثم
رباهم بالتعقيب على الابتلاء والتوجيه إلى ما فيه من غير وعظات في رحمة
وفي عفو وفي سماحة كما يربى الكبير على الصغار وهم يكتون بالنار
ليعرفوا ويدركوا وينضجوا وكشف لهم ضعفهم وخجبت نفوسهم ليأخذ بأيديهم
ويُوحى اليهم أن يثقوا بأنفسهم ولا يياسوا من الرُصول ما داموا موصولين
بجلل الله المتين .. ثم وصلوا .. وصلوا في النهاية وغلبت فيهم النماذج التي قال
الله عنها (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ
إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) ولقد بلغت بهم التربية لاهية المستوى
السامق ولكنهم مع هذا ظلوا بشرا . وظلَّ فيهم الضعف والنقص والخطأ .

ولكن ظلّ فيهم كذلك الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله ..

إنّما الطبيعة البشرية التي يُحافظ عليها هذا المنهج ولا يُبدلها أو يعطلها ولا يحملها ما لا تطيق . وإن بلغ بها أقصى الكمال المقدّر لها في هذه الأرض .. وهذه الحقيقة ذات قيمة كبيرة في إعطاء الأمل الدائم للبشرية لِتُحاول وتبلغ في ظلّ هذا المنهج الفريد . فهذه القمة السامقة التي يُلعبتها تلك الجماعة . إنّما بدأت تنهد إليها من السفح التي التقطها منه .. وبهذه الخيطي المتعثرة في الطريق الشاق زاولتها جماعة بشرية متخلفة في الجاهلية . متخلفة في كل شيء .. وكلّ ذلك يُعطى البشرية أملاً كبيراً في إمكان الوصول إلى ذلك المرتقى السامي ، متبهما تكن قابضة في السفح ولا يعزل هذه الجماعة المصاعدة فيجعلها وليدة معجزة خارقة لا تتكرر . فهي ليست وليدة خارقة عابرة . إنّما هي وليدة المنهج الإلهي الذي يتحقق بالجهود البشري في حدود الطاقة البشرية والطاقة البشرية كما نرى قابلة للكثير ...

(هذا المنهج يبدأ بكل جماعة من النقطة التي هي فيها ، ومن الواقع المادي التي هي فيه . ثمّ يمتضي بها صعوداً . كما بدأ بتلك الجماعة من الجاهلية العربية الساذجة .. من السفح .. ثم انتهى بها في فترة وجيزة لم تبلغ ربع قرن من الزمان إلى ذلك الأوج السامق . شرص واحد لا بدّ أن يتحقق .. أن تُسلم الجماعات البشرية قيادها لهذا المنهج . أن تؤمن به . وأن تستسلم له . وأن تتخذ قاعدة حياتها ، وشعار حركتها ، وحادي خطاها في الطريق الشاق الطويل .

٣ - وحقيقة ثالثة .. حقيقة الارتباط الوثيق في منهج الله بين واقع النفس المسلمة والجماعة المسلمة . وبين كلّ معركة تخوضها مع أعدائها في أي ميدان ، الارتباط بين العقيدة والتصور ، وبين النصر أو الهزيمة في كلّ معركة .. فكل هذه عوامل أساسية فيما يُصيّبها من نصر أو هزيمة . والمنهج الإلهي من ثمّ يعمل في مساحة هائلة في النفس الإنسانية وفي الحياة البشرية . مساحة متداخلة السّاحات والنقّط والخطوط والخيوط . متكاملة في الوقت ذاته وشاملة . والخطّة يصيبها الخلل والفتش حين يختلط الترابط والتناسق بين هذه السّاحات كلّها والنقّط والخطوط والخيوط ..

وهذه مَبِيزة ذلك المنهج الكلي الشامل الذي يتأخذ الحياة جُملة ولا يأخذها مِرْقاً وتَفَاريق . والذي يتناول النفس والحياة من أقطارها جَمِيعاً . ويلمّ خيوطها المتشابكة المتباعدة ، في قبضته ، فيحركها كلها حركة واحدة متناسقة لا تنصيب النفس بالقبضام ولا تُصيب الحياة بالتمزق والانقسام .

٤ - وحقيقة رابعة .. عن طبيعة منهج التربية الاسلامي .. فهو يتأخذ الجماعة المسلمة بالأحداث : وما تنشئه في النفوس من مشاعر وانفعالات واستجابات . ثم يتأخذهم بالتعقيب على الأحداث .. وهو في التعقيب يتلمس كل جانب من جوانب النفس البشرية تأثرً بالحادثة ، ليُصحح تأثره ويرسم فيه الحقيقة التي يُريد لها أن تستقر وتستريح . وهو لا يدع جانباً من الجوانب ولا خائفة من الخواطر ولا تصوراً من التصورات ، ولا استجابة من الاستجابات حتى يُوجه إليها الأنظار ويُسلط عليها الأنوار . ويكشف عن المخبوء منها في دُروب النفس البشرية ومنحنيات الكثرة . وتقف النفس تجاهها مكشوفة عارية . وبذلك يُمحّص الدخائل . وينظفها ويُظهرها في وَضَح النور . ويُصحح المشاعر والتصورات ويُقيم . ويقر المبادئ التي يُريد أن يقوم عليها التصور الاسلامي المتين ، وأن تقوم عليه الحياة الاسلامية المستقرة .. مما يلهم وحب اتخاذ الأحداث التي تقع للجماعة المسلمة في كل مكان وسيلة للتنوير والتربية على أوسع نطاق ..

٥ - وحقيقة خامسة كذلك .. عن واقعية المنهج الالهي .. فمن وسائل هذه المنهج لانشاء آثاره في عالم الواقع . مُزاوئته بالفعل ، فهو لا يقدم مبادئ نظرية ، ولا توجهات مُجردة .. ولكنه يطبق ويُزاول نظرياته وتوجيهاته .

٦ - وهناك حقيقة أخيرة نتعلمها وهي حقيقة نافعة لنا في طريقنا إلى استئناف حياة اسلامية بعون الله .. ان منهج الله ثابت : وقيمه وموازينه ثابتة ، والبشر يتعدون أو يقربون من هذا المنهج . ويخطئون ويصيبون في قواعد التصور وقواعد السلوك . فان المنهج القرآني يتصفهم بالخطأ وحين ينحرفون عنه فإنه يتصفهم بالانحراف ولا يتعاضى عن خطأهم وانحرافهم مهما تكن

متازلهم واقدارهم ولا يتحرف هو لييجاري انحرافهم . وتعلم نحن من هذا أن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج وأنه من الخير للأمة المسلمة أن تبقى مبادئ منهجها سليمة ناصعة قاطعة ، وأن يوصف المخطئون والمنحرفون عنها بالوصف الذي يستحقونه - أي كانوا - وألا تبرر أخطائهم وانحرافهم أبداً بتحريف المنهج وتبديل قيمة وموازينه فهذا التحريف والتبديل أخطر على الاسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ والانحراف .. فالمنهج أكبر وأبقى من الأشخاص .

والواقع التاريخي للاسلام ليس هو كل فعل وكل وضع صنعه المسلمون في تاريخهم . وإنما هو كل فعل وكل وضع صنعوه موافقاً تمام الموافقة للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة .. وإلا فهو خطأ أو انحراف لا يحسب على الاسلام وعلى تاريخ الاسلام . إنما يحسب على أصحابه وحدهم . ويوصف أصحابه بالوصف الذي يستحقونه : من خطأ أو انحراف أو خروج على الاسلام ..

إن تاريخ الاسلام ليس هو تاريخ المسلمين ولو كانوا مسلمين بالاسم أو باللسان . إن تاريخ الاسلام هو تاريخ التطبيق الحقيقي للاسلام في تصورات الناس وسلوكهم ، وفي أوضاع حياتهم ونظام مجتمعاتهم .. فالاسلام محور ثابت تدور حوله حياة الناس في إطار ثابت . فإذا هم خرجوا عن هذا الإطار ، أو هم تركوا ذلك المحور بتماماً ، فما للاسلام وما لهم يومئذ ؟ وما لتصرفاتهم وأعمالهم هذه تحسب على الاسلام . أو يفسر بها الاسلام ؟ بل ما لهم هم يوصفون بأنهم مسلمون إذا خرجوا على منهج الاسلام . وأبوا تطبيقه في حياتهم ، وهم إنما كانوا مسلمين لأنهم يطبقون هذا المنهج في حياتهم ، لا لأن أسماءهم أسماء مسلمين ولا لأنهم يقولون بأفواههم : إنهم مسلمون .

٧ - فقه الدين :

إن فقه هذا الدين لم ينشأ في فراغ ، كما أنه لا يعيش ولا يفهم في فراغ . لقد نشأ

الفقه الاسلامي في مجتمع مسلم ، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع ، في مواجهة الحياة الاسلامية الواقعية كذلك لم يكن الفقه الاسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم ، إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الاسلامية هو الذي أنشأ الفقه الاسلامي .. وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعتان عظيمتا الدلالة ، كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الاسلامي ، وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الاسلامية . والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة ، دون إدراك لهايتين الحقيقتين ، ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ، ونشأت فيها تلك الأحكام ، ودون استحضار لطبيعة الجو ، والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تليها وتوجهها ، وكانت تلك الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها .. الذين يفعلون ذلك ، ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت في فراغ ، وكأنها يمكن أن تعيش في فراغ .. هؤلاء ليسوا فقهاء ، وليس لهم (فقه) بطبيعة الفقه وبطبيعة هذا الدين أصلاً .

ان فقه الحركة يأخذ في اعتباره الواقع الذي نزلت فيه النصوص وصيغت فيه الأحكام . ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركباً لا تنفصل عناصره ، فاذا انفصلت عناصر هذا المركب ، فقدت طبيعته واختل تركيبه . ومن ثم فليس هناك حكم فقهي واحد مستقل بذاته يعيش في فراغ ، لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأ نشأته الأولى فيها .. انه لم ينشأ في فراغ ومن ثم لا يستطيع أن يعيش في فراغ . ان فقه الحركة يختلف اختلافاً أساسياً عن فقه الأوراق . مع استمداده أصلاً وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها فقه الأوراق . والتجارب تجزم بأن الذين لا يتندجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه مهما تفرغوا لدراسته في الكتب لأنها دراسة باردة ، وأن اللامحات الكاشفة في هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس ، ولا تتجلى للمستغرقين في الكتب العاكفين على الأوراق .

❦ ان فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة ، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة . ان الفقه الاسلامي وليد الحركة الاسلامية ، فقد وجد الدين أولاً ،

ثم وُجد الفقه وليس العكس هو الصحيح .. وُجدت الدينونة لله وحده ، ووجد المجتمع الذي قرّر أن تكون الدينونة فيه لله وحده ، والذي نبذ شرائع الجاهلية وعاداتها وتقاليدها ، والذي رفض أن تكون شرائع البشر هي التي تحكم أي جانب من جوانب الحياة فيه .. ثم أخذ هذا المجتمع يُزاول الحياة فعلاً وفق المبادئ الكلية في الشريعة الإسلامية : إلى جانب الأحكام الفرعية التي وردت في أصل الشريعة . وفي أثناء مزاولته للحياة الفعلية في ظل الدينونة لله وحده ، واستحياء شريعته وحدها تحقيقاً لهذه الدينونة ، جدّت له أقضية فرعية بتجدد الحالات الواقعية في حياته .. وهنا فقط بدأ استنباط الأحكام الفقهية وبدأ نمو الفقه الإسلامي .. الحركة بهذا الدين هي التي أنشأت ذلك الفقه ، والحركة بهذا الدين هي التي حققت نموه . ولم يكن قط فقهاً مستنبطاً من الأوراق الباردة بعيداً عن حرارة الحياة الواقعة .. من أجل ذلك كان الفقهاء متفهمين في الدين ، يتحجّون فقهم للدين من تحركهم به ، ومن تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حتى يعيش بهذا الدين ، ويجاهد في سبيله ، ويتعامل بهذا الفقه الناشئ بسبب حركة الحياة الواقعة .

﴿ فأمّا اليوم فماذا ؟ أين هو المجتمع المسلم الذي قرّر أن تكون دينونته لله وحده ، والذي رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد ، والذي قرر أن تكون شريعة الله شريعته ، والذي رفض بالفعل شريعة أي تشريع لا يتجّون من هذا المصدر الشرعي الأول ؟ لا أحد بمالك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود ، ومن ثم لا ينتج مسلم يعرف الإسلام ويفقه منهجه وتاريخه إلى محاولة تسمية الفقه الإسلامي في ظل مجتمعات لا تعرّف ابتداءً بأن هذا الفقه هو شريعته الوحيدة التي بها تعيش . ولكن المسلم الحادّ ينتج ابتداءً لتحقيق الدينونة لله وحده وتقرير مبدأ أنه لا حاكمية إلا لله : وأن لا تشريع إلا مستمداً من شريعته وحدها تحقيقاً لتلك الدينونة . انه هزل فارغ لا يليق بجديّة هذا الدين أن يشغل ناس أنفسهم بتسمية الفقه الإسلامي في ظل مجتمع لا يتعامل بهذا الفقه ، ولا يقيم عليه حياته . كما أنه جهل فاضح بطبيعة هذا الدين أن يفهم أحد أن

يستطيع التفقه في هذا الدين وهو قاعد يتعامل مع الكتب والأوراق الباردة . .
إنَّ الفقه لا يُستنبط من الشريعة الا في مجرى الحياة الدافق ، والا مع الحركة
بهذا الدين في عالم الواقع .

﴿ ان الدينونة لله وحده أنشأت المجتمع المسلم . والمُجتمع المسلم أنشأ الفقه
الاسلامي ، ولا بد من هذا الترتيب .. لا بد أن يوجد مجتمع مسلم ناشئ من
الدينونة لله وحده . مُصمم على تنفيذ شريعته وحدها . ثم بعد ذلك لا قبله
بنشأ فقه اسلامي مفصل على قَدَر المجتمع الذي ينشأ . وليس جاهزاً معداً من
قبل .

ذلك أن كل حكم فقهي هو بطبيعته تطبيق للشريعة الكلية على حالة واقعة
ذات حجم معين ، وملابسات معينة ، وهذه الحالات تنشئها حركة الحياة داخل
الاطار الاسلامي ، لا بعيداً عنه . وتحدد حجمها وشكلها وملابساتها ، ومن ثم
يُفصل لها حكم مباشر على قَدَرها . فأما تلك الأحكام الجاهزة في بطون
الكتب فقد فصلت من قبل لحالات معينة في أثناء جريان الحياة الاسلامية
على أساس تحكيم شريعة الله فعلاً ، ولم تكن وقتها جاهزة باردة . كانت وقتها
حيّة مليئة بالحياة . وعلينا اليوم أن نفصل مثلها للحالات الجديدة .. ولكن
قبل ذلك يجب أن يُوجد المجتمع الذي يُقرر ألا يتدين لغير الله في شرائعه ،
وألا يفصل حكماً شرعياً الا من شريعة الله دون سواها ، وفي هذا يكون الجهد
الجهاد المثمر اللائق بحياة هذا الدين .. وفي هذا يكون الجهاد الذي يفتح البصائر ،
ويمكن من التفقه في الدين حقاً .. وغير هذا لا يكون الا هزلاً ترفضه طبيعة
هذا الدين ، والا هروباً من واجب الجهاد الحقيقي تحت التستر بستر (تجديد
الفقه الاسلامي) أو تطويله .: هروب خير من الاعتراف بالضعف والتقصير ،
وطلب المغفرة من الله على التخلّف والتقصير مع المتخلفين القاعدين . وان الواجب
الحالي هو الجهاد في سبيل الله . جهاد لتقرير ألوهية الله في الأرض وطرد
الطواغيت المنتهبة لسلطان الله .

ان الفقه الاسلامي لا ينشأ في فراغ ، ولا يعيش في فراغ كذلك .. لا

ينشأ في الأدمغة والأوراق . انما ينشأ في واقع الحياة ، وليست أية حياة . انما هي حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد .. ومن ثم لا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولاً بتركيبه العضوي الطبيعي ، فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الاسلامي ويطبق .. وعندئذ تختلف الأمور جداً .. وان المحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنهم يتصورون أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه . ولكن الأمر غير ذلك تماماً .. ان دين الله هو الأصل الذي يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه ، وأن تحور من واقعها الجاهلي وتغير حتى تتم هذه المطابقة .. ولكن هذا التحور وهذا التغير لا يتمان عادة إلا عن طريق واحد .. هو التحرك في وجه الجاهلية لتحقيق ألوهية الله في الأرض وربوبيته وحده للعبد . وتحرير الناس من العبودية للطوائف بتحكيم شريعة الله وحدها في حياتهم .. وهذه الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء . فيفتن من يفتن ، ويرتد من يرتد . ويصدق الله من يصدق فيقضي بحبه ويستشهد ، ويصبر من يصبر ويمضي في حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق ، وحتى يمكن الله له في الأرض .. وعندئذ فقط يقوم النظام الاسلامي . وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه وتميزوا بقيمه .. وعندئذ تكون حياتهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها ، وفي طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ، ومطالبها وطرق تلبيتها ..

وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستبطن الأحكام ، وينشأ فقه اسلامي حتى متحرك ، لا في فراغ ولكن في وسط واقعي محدّد المطالب والحاجات والمشكلات .. ان نقطة البدء في المتاهة كما قلنا : هي افتراض أن هذه المجتمعات القائمة هي المجتمعات الاسلامية ، وأنه سيجاء بأحكام الفقه الاسلامي من الأوراق لتطبق عليها ، وهي بهذا التركيب العضوي ذاته . وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها . كما أن أصل المحنة هو الشعور بأن واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه . وأن يحور ويظهر ويغير في أحكامه ليلاحق حاجات هذه

المجتمعات ومشكلاتها . حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلاً من مخالفتها للإسلام . ومن خروج حياتها جملة من اطاره . ونحسب أنه قد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاة ، فلا يجعلوه مجرد خدام للأوضاع الجاهلية ، والمجتمعات الجاهلية والحاجات الجاهلية . وأن يقولوا للناس وللذين يستفتونهم بوجه خاص .. تعالوا أنتم أولاً إلى الإسلام . وأعلنوا خضوعكم سلفاً لأحكامه .. أو بعبارة أخرى .. تعالوا أنتم أولاً فادخلوا في دين الله وأعلنوا عبوديتكم لله وحده وأشهروا أن لا اله إلا الله . بمدلولها الذي لا يقوم الايمان والإسلام الا به ، وهو افراد الله بالوحيته في الأرض كافراده بالالوهية في السماء . وتقرير ربوبيته أي حاكميته وسلطانه وحده في حياة الناس بجمليتها . وتنحية ربوبية العباد للعباد . بتنحية حاكمية العباد للعباد ، وتشريع العباد للعباد .. وحين يستجيب الناس أو الجماعة منهم لهذا القول ، فان المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته في الوجود . وهذا المجتمع يكون حينئذ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الاسلامي الحي ، وينمو لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المسلم لشريعة الله فعلاً ..

فأما قبل قيام هذا المجتمع ، فالعمل في حقل الفقه والأحكام التنظيمية هو مجرد خداع للنفس بامتنبات البذور في الهواء، وإن ينبت الفقه الاسلامي في الفراغ كما أنه لن تست البذور في الهواء . ان العمل في الحقل (الفكري) للفقه الاسلامي عمل سريع لأنه لا خطر فيه . (ولكنه ليس عملاً للإسلام) . ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته . وخير للذين يشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب والفن أو بالتجارة . أما الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو (مؤلم) بوصفه عملاً للإسلام في هذه الفترة . فأحسب والله أعلم أنه مضيعة للعبير وللأجر أيضاً . ان دين الله بأبى ان يكون مجرد مطية ذلول ، ومجرد خادم مطيع لتلبية هذا المجتمع الجاهلي الآبق منه ، المتنكر له . انشاد عنه .. الذي يسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه في مشكلاته وحاجاته ، وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه .. ان فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ في فراغ .. ولا تعمل في فراغ .. وان النشأة الاسلامية ومراحلها هي دائماً واحدة . والانتقال من الجاهلية إلى

الاسلام لن يكون يوماً ما ، سهلاً ولا يسيراً . ولن يبدأ أبداً من صياغة الاحكام
الفقهية في الفراغ .. لتكون معدة جاهزة يسوم يقوم المجتمع الاسلامي ،
والنظام الاسلامي . ولن يكون وجود هذه الاحكام المفصلة على (الجاهز)
والناشئة في الفراغ هي نقطة البدء في التحول من الجاهلية إلى الاسلام . وليس
الذي ينقص هذه المجتمعات الجاهلية لكي تتحول إلى الاسلام هو الاحكام
الفقهية الجاهزة . وليست الصعوبة في ذلك التحول ناشئة عن قصور احكام
الفقه الاسلامي الحاضرة عن ملاحقة حاجات المجتمعات المتطورة .. إلى آخر
ما يخادع به بعضهم ، وينخدع به بعضهم الآخر . كلا إن الذي يحول دون
تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الاسلامي هو وجود الطواغيت التي
تأبى أن تكون الخاضعة لله . فتأبى أن تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية
في الأرض لله وحده . وتخرج بذلك من الاسلام خروجا كاملاً . بعد الحكم
عليه من المعلوم من الدين بالضرورة .. ثم هو بعد ذلك وجود جماهير من
البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله أي تدين لها وتخضع وتتبع فتحملها
بذلك أرباباً متفرقة معبودة مطاعة . وتخرج هذه الجماهير بهذه العبادة من
التوحيد إلى الشرك .. فهذا أخصّ مداولات الشرك في الاسلام .. وبهذا
وذلك تقوم الجاهلية نظامها في الأرض ، وتعتمد على ركائز من خلال التصور
بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المادية .

وصياغة احكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية اذن بوسائل متكافئة . انما
الذي يواجهها دعوة إلى الدخول في الاسلام مرة أخرى . وحركة تواجه الجاهلية
بكل ركائزها . ثم يكون ما يكون من شأن كل دعوة للاسلام في وجه الجاهلية
ثم يحكم الله بين من يسلمون لله وبين قومهم بالحق .. وعندئذ فقط يتجيء
دور احكام الفقه . التي تنشأ نشأة طبيعية في هذا لوسط الواقعي الحتمي .
وتواجه حاجات الحياة الواقعة المتجددة في هذا المجتمع الوايد . وفق حجم هذه
الحاجات يومئذ وشكلها وملابساتها ، وهي أمور كلها في ضمير الغيب ولا
يمكن التكهن بها سلفاً . ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجدل
المناسب لطبيعة هذا الدين ..

﴿ ان هذا لا يعني بحال من الأحوال أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلاً من الوجهة الشرعية .. ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت فيه هذه الأحكام له ، والذي لا تطبق هذه الأحكام الا فيه ، بل الذي لا تعيش هذه الأحكام الا به . ايس قائماً الآن فعلاً . ومن ثم يصبح وجودها فعلي مُعلقاً بقيام ذلك المجتمع .. ويبقى الالتزام بها قائماً في عتق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلي . ويتحرك في وجه الجاهلية لاقامة النظام الاسلامي ، ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألفة ، وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية ..

✱ ان ادراك طبيعة النشأة الاسلامية على هذا النحو الذي لا يتغير ، كلما قامت الجاهلية ، وقامت في وجهها محاولة اسلامية . هو نقطة البدء في العمل الحقيقي لاعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي . بعد أن انقطع هذا الوجود منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة الله في خلال القرنين الأخيرين . وخلال وجه الأرض من الوجود الحقيقي للاسلام . وان بقيت المآذن والمساجد . والأدعية والشعائر ، تُخَدَّر مشاعر الباقيين على الولاء العاطفي لهذا الدين . وتوهمهم أنه لا يزال يحير .. وهو يسمحي من الوجود محواً .. ان المجتمع المسلم وجد قبل أن توجد الشعائر ، وقبل أن توجد المساجد . وجد من يوم قيل للناس : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. فعبدوه . ولم تكن عبادتهم له ممثلة في الشعائر ، فالشعائر لم تكن بعد قد فرضت . انما كانت عبادتهم له ممثلة في الدينونة له وحده من ناحية المبدأ . ولم تكن بعد قد نزلت شرائع ، وحين أصبح هؤلاء الذين قرروا الدينونة لله وحده سلفاً مادي في الأرض ، تنزلت الشرائع ، وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم هم ، استنبطت بقية أحكام الفقه إلى جانب ما ورد بنصه في الكتاب والسنة .. وهذا هو الطريق وحده ، وليس هنالك طريق آخر ..

وليست هنالك طريقاً سهلة عن طريق تحول الجماهير يحملتها إلى الاسلام منذ أول وهلة في الدعوة باللسان ، وبيان أحكام الاسلام . ولكن هذه انما

هي (الأماني) . فالجماهير لا تتحول أبداً من الجاهلية وعبادة الطواغيت إلى الاسلام وعبادة الله وحده إلا عن طريق ذلك الطريق البطيء الذي سارت فيه دعوة الاسلام في كل مرة . والذي يبلّؤه فرد ثم تتبعه طليعة ، ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية ، لتعاني ما تُعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ، ويمكن لها في الأرض .. ثم .. يدخل الناس في دين الله أفواجا .. ودين الله هو مستهجه وشرعه ونظامه الذي لا يرضى من الناس ديناً غيره (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فقلن يقبل منه) .

٨ - آفة الدين : تجار الدين

وإنما آفة الدين تتمثل في معظم الأحيان في فئة من رجاله وآفة رجال الدين حين يفسدون ، أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين . وهذه الحال يذكرها القرآن الكريم عن فريق من أهل الكتاب (وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) ... هؤلاء كانوا يؤولون نصوص كتابهم ويلوونها ليلاً ليصلوا منها إلى مقررات معينة . يزعمون أنها مدلول هذه النصوص . وأنها تمثل ما أراده الله منها . بينما هذه المقررات تُصادم حقيقة دين الله في أساسها معتمدين على أن كثرة السامعين لا تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية . وبين تلك المقررات المنتحلة المكذوبة التي يكتنون إليها الجاهل . ونحن اليوم نعرف هذا النموذج جيداً في بعض رجال الدين ، الذين ينسبون إلى الدين ظلماً ، الذين يحرفون الدين . ويُسخرونه في تلبية الأهواء كلها . ويحملون النصوص ويُسجرون بها وراء هذه الأهواء . حيثما لاح لهم أن هناك مصلحة تتحقق . وأن هناك عرضاً من أعراض هذه الحياة الدنيا يحصل . يحملون هذه النصوص ويلهثون بها وراء تلك الأهواء ويلوون أعناق هذه النصوص ليلاً لتوافق هذه الأهواء السائدة ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ليوافقوا بينه وبين اتجاهات

تُصادِمُ هذا الدين وحقائقه الأساسية . ويبذلون جهداً لاهثاً في التمثل وتصيد أدنى ملابسة لفظية ليوافقوا بين مدلول آية قرآنية ، وهوى من الأهواء السائدة التي يهتمهم تمليقاً .. (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) فهي آفة لا تختص بهم أهل كتاب وحدهم . إنما تبلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من يتسبون إليه ، حتى ما يساوي ارضاء هوى من الأهواء التي يعود تمليقها بعرض من أعراض هذه الأرض وتفسد الذمة حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله ، وتحريف كلماته عن مواضعها لتمليق عبيد الله وتجارة أهوائهم المنحرفة التي تصادم دين الله — هؤلاء نماذج من رجال الدين — نماذج المضللين الذين يتخذون من كتاب الله مادة للتضليل ، يلون ألستهم به عن مواضعه ، ويقولون نصوصه لتوافق أهواء معينة ليشتروا عرضاً من عرض هذه الحياة الدنيا .. لأنهم يريدون الطريق العوجاء . ولا يريدون الطريق المستقيم . ويريدون العوج ولا يريدون الاستقامة . فالاستقامة لها صورة واحدة : صورة المضي على طريق الله ونهجه وشرعه ، وكل ما عداه فهو أعوج ، وهو ارادة العوج ، وهذه الارادة تلتقي مع الكفر بالآخرة . فما يؤمن بالآخرة أحد ويستيقن أنه راجع إلى ربه ثم يصد عن سبيل الله ، ويحيد عن نهجه وشرعه (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون) .. وهذا هو التصوير الحقيقي لطبيعة النفوس التي تلوي شرع الله حسب الأهواء . التصوير الذي يحلوا حقيقة هذه النفوس ويصفها الوصف الداخلي الصحيح ...

إن آفة رجال الدين ، حين يُصبح الدين حرفة وصناعة ، لا عقيدة حارة دافعة ، إنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، يأمرون بالخير ولا يفعلونه . ويدعون إلى البر ويهملونه ، ويحرفون الكلم عن مواضعه . ويقولون النصوح القاطعة خدمة للغرض والهوى ، ويتجدون فتاوى وتأويلات قد تنفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص ولكن تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين ، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملك المال أو السلطان .. والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعية

اليه . هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك ، لا في الدعاة وحدهم ، ولكن في الدعوات ذاتها ، وهي التي تُبلبل قلوب الناس وأفكارهم لأنهم يسمعون قولاً جميلاً ، ويشهدون فعلاً قبيحاً فتملكهم الحيرة بين القول والفعل . وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة ، وينطلق في قلوبهم النور الذي يشعه الايمان ، ولا يعودون يثقون بالدين بعدما فقدوا ثقتهم برجال الدين .

إن الكلمة لتنبعث منبثة وتصل هامة . مهما تكن طنانة ورائحة منعمة ، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها . ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمه حقيقة لا يقول ، وتجسيميا واقعيا لما ينطق .. عندئذ يؤمن الناس ويثق الناس ، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق .. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها . وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها .. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة لأنها منبثقة من حياة . والمطابقة بين القول والفعل وبين العقيدة والسلوك ليست مع هذا أمراً هيناً ، ولا طريقاً معيَّداً .. إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة .. وإلى صلة بالله واستمداد منه واستعانة بهديه ، فملايسات الحياة وضروراتها واضطرابات كثيرة مما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقد في ضميره . أو عما يدعو اليه غيره . والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته ، لأن قوى الشر والطغيان والاغواء أكبر منه ، وقد يغلبها مرة ومرة ومرة ، ولكن لحظة ضعف تنديه ، فيتخادع ويتهاوى ويخسر ما ضيه . وحاضر ومستقبله . فأما وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوي قوي . أقوى من كل قوي ، قوي على شهوته وضعفه ، قوي على ضروراته واضطرابات ، قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه

تصوركم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها . ويعلن غيرها . ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل . يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرمانه في الأرض جميعاً . (وانزل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها . فاتبعه الشيطان فكان من الفاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل

الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فأقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) .. إنه نبأ يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم ، فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها .. وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر . ما أكثر الذين يعطون علم دين الله ثم لا يهتدون به ، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه ، واتباع الهوى به . وهواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم - في وهمهم - عرض الحياة الدنيا . لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول : إن التشريع حق من حقوق الله سبحانه . من ادعاه فقد ادعى الألوهية . ومن ادعى الألوهية فقد كفر . ومن أقبر له بهذا الحق وابعه عليه فقد كفر أيضاً . ومع ذلك مع علمه بهذه الحقيقة التي يعلمها من الدين بالضرورة ، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدعون حق التشريع ، ويدعون الألوهية بادعاء هذا الحق .. ممن حكم عليهم هو بالكفر .

وقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاماً ، ثم يكتب في حله كذلك عاماً آخر .. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس ، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه . فماذا يكون هذا إلا مصداقاً لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ؟ وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذي يحكيه الله سبحانه عن صاحب النبأ (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) ..

ولو شاء الله لرفع به ما آتاه من العلم بآياته . ولكنه سبحانه لم يشأ ، لأن ذلك الذي عليم الآيات أخلد إلى الأرض واتبع هواه ولم يتبع الآيات .. إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله ، فلم ينتفع بهذا العلم ولم يستقم على طريق الإيمان . وانسلخ من نعمة الإيمان ، ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان ، ولينتهي إلى مرتبة المسخ في مرتبة الحيوان .

ثم ما هذا اللاهث الذي لا ينقطع ؟ إنه اللاهث وراء أعراض هذه الحياة

الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها . ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبداً ، والذي لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه ، فهو متعلق فيه أبداً ..

إن الحياة البشرية ما تنهي تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة . حتى أنه لتمر فترات كثيرة ، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثله . فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله ، ممن لا ينسلخون من آيات الله . ولا يخلدون إلى الأرض ، ولا يتبعون الهوى ، ولا يستلهم الشيطان ، ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان .. فهو مثل لا ينقطع وروده ووجوده ، وما هو بمحصور في قصة وقعت في جيل من الزمان . وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلو على قومه الذين كانت تنتزل عليهم آيات الله ، كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها . ثم لتبقى من بعده ومن بعدهم بتلى .. ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة . وأن يصبروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً ، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدو . فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة . ولقد رأينا من هؤلاء والعياذ بالله في زماننا هذا من كان كأنما يحرص على ظلم نفسه ، أو كمن يتعصب بالنيابذة على مكان له في قعر جهنم . يخشى أن ينازعه إياه أحد من المتسابقين معه في الحلبة ، فهو ما يتي يقدم كل صباح ما بثبت به مكانه هذا في جهنم . وما يتي يلهث وراء هذا المطمع هائلاً لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا .. اللهم اعصمنا وثبت أقدامنا وأفرغ علينا صبراً وتوفناً مسلمين ..

إن القرآن الكريم يعمل ولا يزال يعمل في قيادة المجتمع المسلم ، وفي توجيهه وفي توعيته ، وفي إعداده لمهمته الضخمة . ولن يفهم هذا القرآن إلا وهو يدرس في مجاله الحركي المائل . ولن يفهمه إلا أناس يتحركون به .. والقرآن الكريم يحذر من انشكبات التي تتخذ سناراً إسلامياً وفي حقيقتها إصراراً بالإسلام (والذين اتخذوا مسجداً ضرراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله) .. لقد اتخذ مسجد الضرار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مكيدة المسلمين ، لأيزاد به إلا الإضرار بالمسلمين وإلا الكفر بالله ، وإلا ستر المتآمرين على الجماعة المسلمة الكائدين لها في الظلام ، وإلا التعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين ..

وليعرف الدعاة في كل زمان وفي كل مكان أن هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين . تتخذ في صُور نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام . أو تشويهه أو تمويهه ، وتجميعه . وتتخذ في صور أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتترس وراءها . وهي ترمي هذا الدين . وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات . وكتب وبحوث تتجذث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات ، وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير .. لا خوف عليه ولا قلق .. وتتخذ في صور شتى .. ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم على الدعاة كشفها . وإنزال اللافتات الخادعة عنها ، وبيان حقيقتها للناس . وما تحقيقه وراءها ، ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان الله القوي الصريح ..

الباب الثاني

الفرع الأول (المسند عليه السلام)

الولاء

إن هذا القرآن يربي الفرد المسلم على أساس إخلاص ولائه لربه ورسوله وعقيدته وجماعته المسلمة ، وعلى ضرورة المفاصلة الكاملة بين الصف الذي يقف فيه ، وكل صف آخر لا يرفع راية الله ، ولا يتبع قيادة رسول الله ، ولا ينضم إلى الجماعة التي تمثل حزب الله ، وإشعاره أنه موضع اختيار الله ليكون ستارا لقدرته وأداة لتحقيق قدره في حياة البشر ، وفي وقائع التاريخ .

وإن هذا الاختيار بكل تكاليفه فضل من الله يؤتيه من يشاء وأن موالة الجماعة غير المسلمة معناه الارتداد عن دين الله . والنكول عن هذا الاختيار العظيم ، والتخلي عن هذا التفضل الجميل فالولاء لله (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) .. هكذا على وجه التقصر الذي لا يدع مجالاً لتأول . ولا يترك فرصة لتميع الحركة الإسلامية أو تميع التصور... ولم يكن بد أن يكون الأمر كذلك . لأن المسألة في صميمها هي مسألة العقيدة . ومسألة الحركة بهذه العقيدة . وليكون الولاء خالصاً لله ، والثقة به مطلقة : وليكون الإسلام هو (الدين) وليكون الأمر أمر مفاصلة بين الصف المسلم وبين سائر الصفوف التي لا تتخذ الإسلام ديناً . ولا تجعل الإسلام مهبجاً للحياة ، ولتكون للحركة الإسلامية جدّيتها ونظامها ، فلا يكون الولاء فيها لغیر

قيادة الله ورايته . ولا يكون الناصر إلا بين العصبة المؤمنة ، لأنه تناصر في المنهج المستمد من العقيدة .. ولكن حتى لا يكون الإسلام مجرد عنوان أو مجرد راية وشعار ، أو مجرد كلمة تُقال باللسان ، أو مجرد نسب ينتقل بالوراثة ، أو مجرد وصف يلحق القاطنين في مكان .. فإن البيان الإلهي يذكر بعض السمات الرئيسية للذين آمنوا (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) ..

وهذه ملازمة مثيرة لكل من له حمية المؤمن ، الذي لا يرى لنفسه كرامة إذا أهين دينه ، وأهينت عقيدته ، وأهينت صلاته ، واتخذ موقفه بين ربه مادة للهزاء واللعب . فكيف يقوم ولاء بين الذين آمنوا وبين أحد من هؤلاء الذين يرتكبون هذه الفعل ، ويرتكبونها لنقص في عقولهم ، فما يستهزئ بدين الله وعباده المؤمنين إنسان سوي العقل .

ولقد كان الاستهزاء واللعب يقع من الكفار وأهل الكتاب في الفترة التي كان القرآن يتنزل فيها على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولكن الله سبحانه يتضح للجماعة المسلمة قاعدة تصورها ومنهجها ، وحياتها الدائمة ، وكان الله سبحانه يعلم ما سيكون على مدار الزمان مع أجيال المسلمين .

وها نحن أولاء رأينا أن أعداء هذا الدين وأعداء الجماعة المسلمة على مدى التاريخ أمس واليوم هم هم ، قد ناصبوا العداء للإسلام وترصدوه القرون تلو القرون . وحاربوه حربا لا هوادة فيها . وقد قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخلوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) . وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخلوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)

وهذا القرآن جاء ليكون كتاب الأمة المسلمة في حياتها إلى يوم القيامة . الكتاب الذي يبني تصورها الاعتقادي ، كما يبني نظامها الاجتماعي ، كما يبني خططها الحركية .. سواء .. وما هذا يعلمها ألا يكون ولاءها إلا لله ولرسوله وللمؤمنين ، ويتنهاها أن يكون ولاءها لأهل الكتاب والكافرين ، ويجزم ذلك الحزم الحاسم في

هذه القضية وأن العقيدة هي الشريعة الأولى التي يتلاقى عليها الناس في الإسلام ، حين لا يلتقون على نسب ولا أرومة ولا جنس ولا أرض . إذا أنبت تلك الشريعة التي بتجمع عليها أهل الإيمان فالإنسان في نظر الإسلام إنسان بروحه ، بالنفخة التي جعلت منه إنسانا . ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة "أخص" خصائص الروح فيه . ولا يلتقي على مثل ما يلتقي عليه البهائم من الأرض والكلاأ والمرعى والحدأ والسياج . والولاية بين فرد وفرد وبين مجموعة ومجموعة وبين جبل من الناس وجبل ، لا ترتكن إلى وشيعة أخرى سوى وشيعة العقيدة . يتلاقى فيها المؤمن بالمؤمن والجماعة المسلمة بالجماعة المسلمة . والجبل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان ومن وراء فواصل الدم والنسب والقوم والجنس ويتجمعون أولياء بالعقيدة وحدها والله من ورائهم ولي الجميع (والله ولي المؤمنين) . ومن كان الله مولاه فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء . وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراه الخير ، لا تخليا من الله عن ولايته له ، ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده . ومن لم يكن الله مولاه ، فلا مولى له ، ولو اتخذ الانس والجن كلهم أولياء فهو في النهاية وتضع عاجز ، ولو تجمعت له كل أسباب الحماية ، وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) .

١ - مشكلة الخلط بين الولاء والتسامح :

إن القرآن الكريم ليقفنا أمام خطر شديد على العقيدة يكمن في الطريق . وهذا التوجيه واضح في هذه الآية العظيمة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ...) (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) إن هذا القرآن بُرئ وعي المسلم بحقيقة أعدائه وحقيقة المعركة يخوضها معهم ويخوضونها معه . إنها معركة العقيدة فالعقيدة هي القضية القائمة بين المسلم وبين كل أعدائه .. وهم يعادونه لعقيدته ودينه قبل أي شيء آخر

وهم يعادونه هذا العداء الذي لا يهدأ لأنهم فاسقون عن دين الله ، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله (هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون) فهذه هي العقيدة وهذه هي النوافع الأصلية ..

س: إن قيمة هذا المنهج الإلهي وقيمة التوجيهات الأساسية فيه عظيمة . فإخلاص الولاء لله ورسوله ودينه والجماعة المسلمة القائمة على هذا الأساس ومعرفة طبيعة المعركة ، وطبيعة الأعداء فيها أمران مهمان سواء في تحقيق شرائط الإيمان أو في التربية الشخصية للمسلم أو في التنظيم الحركي للجماعة المسلمة .. فالذين يحملون راية هذه العقيدة لا يكونون مؤمنين بها أصلاً ، ولا يكونون في ذواتهم شيئاً ، ولا يحققون في واقع الأرض أمراً ما لم تتم في نفوسهم المفاضلة الكاملة بينهم وبين سائر المعسكرات التي لا ترفع رايتهم ، وما لم يتمحض ولاءهم لله ورسوله ولقيادتهم الخاصة المؤمنة به ، وما لم يعرفوا طبيعة أعدائهم وبواعثهم وطبيعة المعركة التي يخوضونها معهم وما لم يستيقنوا أنهم جميعاً ألب عليهم . وأن بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة والعقيدة الإسلامية على السواء ..

وسداجة أية سداجة ، وغفلة أية غفلة أن نظن أن لنا وأهل الكتاب طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين أمام الكفار والملحدين ، فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة مع المسلمين ..

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان ، وفي كل زمان حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد بوصفنا جميعاً أهل دين ، فاسين تعاليم القرآن كله ، وناسين تعليم التاريخ كله . فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين (هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلاً) .. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألجأوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة ، وكانوا لهم درعاً وردة .. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شنتوا الحروب الصليبية خلال مئتي عام ، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس . وهم الذين شردوا المسلمين في فلسطين ، وأحلوا اليهود محلهم متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون

المسلمين في كل مكان .. في الحبشة والصومال وأريتيرية ، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافية والصين والتركستان والهند وفي كل مكان .. ثم يظهر بيننا من يظن أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولواء وتناصر تدفع به المادية الإلحادية عن الدين .. إن هؤلاء لا يقرأون القرآن .. وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام ، فظنوها دعوة الولاء الذي يحلر منه القرآن .. إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم ، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من أساس غيرها ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم ، كما وقفت له بالأمس الموقف الذي لا يمكن تبديله لأنه الموقف الطبيعي الوحيد .. إن نداء الله موجه إلى كل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة ، موجه لكل من يطبق عليه ذات يوم صفة (الذين آمنوا) .. لقد نزل نقرآن ليبيث الوعي إلزام للمسلم في المعركة التي يخوضها بمقيدته ولبنشئ تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها ، المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية ، فهذه صفة المسلم دائما ، ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا إلى الله ورسوله وائذين آمنوا .. الوعي والمفاصلة اللذان لا يبدآن منهما للمسلم في كل أرض وفي كل جيل . فهذا مفرق الطريق ، وما يمكن أن يتبع حس المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام . وبينه وبين كل من لا يرفع راية الإسلام ، ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملا ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف أول ما تستهدف إقامة نظام واقعي في الأرض فريد . يختلف عن كل الأنظمة الأخرى . ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى ..

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم الذي لا أرجحة فيه ولا تردد بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبأن منهجه الذي كلفه الله أن يقيم الحياة عليه منهج متفرد لا نظير له بين سائر الماهيات ولا يمكن الاستغناء عنه منهج آخر ، ولا تصلح الحياة البشرية ولا

تستقيم إلا أن تقيم على هذا المنهج وحده دون سواه ، ولا يعفيه الله ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه : الاعتقادية والاجتماعية ، لم يأت في ذلك جهداً ولم يقبل منه منهجاً بديلاً - ولا في جزء منه صغير - ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي ولا في نظام اجتماعي ولا في أحكام تشريعية إلا ما استبقاه الله في هذا المنهج من شرائع من قبلنا ..

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو - وحده - الذي يدفعه للاضطلاع بععب النهوض بتحقيق منهج الله الذي رضىه للناس ، في وجه العقبات الشاقة واشكاليف المضنية والمقاومة العنيدة والكيد الناصب ولألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من الأحيان ..

إن الذين يحاولون تميع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية ، يخطئون في فهم معنى الأديان كما يخطئون في فهم معنى التسامح .. فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله . والتسامح يكون في المعاملات الشخصية ، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي .. لأنهم يحاولون تميع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام وبأن عليه أن يحقق منهج الله المثل في الإسلام ، ولا يقبل دونه بديلاً ، ولا يقبل فيه تعديلاً - ولو طفيفاً - هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر (إن الدين عند الله الإسلام) ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك) .. (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولم منكم فإنه منهم) . وفي القرآن كلمة الفصل .. ولا على المسلم من تميع المتصيعين وتميعهم لهذا اليقين .

وما يزال الإسلام والذين يتصفون به - ولو أنهم ليسوا من الإسلام في شيء - يلقون من عنت الحرب المشبوبة عليهم وعلى عقيدتهم في كل مكان على سطح الأرض ، ما يصدق قول الله تعالى « بعضهم أولياء بعض » .. وما يحتم أن يتدور المسلمون الواعون بنصيحة ربهم لهم ، بل بأمره الجازم ونبيه القاطع وقضائه الحاسم

في المفصلة الكاملة بين أولياء الله ورسوله ، وكل معسكر آخر لا يرفع راية الله ورسوله .. إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعاً على أساس العقيدة .. فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة .. ومن ثم لا يمكن أن يقوم الولاء - وهو التناصر - بين المسلم وغير المسلم . إذ أنهما لا يمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة .. ولا حتى أمام الإلحاد مثلاً - كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن - وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه ؟ .. إن بعض من لا يقرأون القرآن ولا يعرفون حقيقة الإسلام ، وبعض المخدوعين أيضاً يتصورون أن الدين كله دين ، كما أن الإلحاد كله إلحاد ، وأنه يمكن أن يقف الدين بمجملته في وجه الإلحاد - لأن الإلحاد ينكر الدين كله . ويحارب الدين على الإطلاق . ولكن الأمر ليس كذلك في التصور الإسلامي ولا في حس المسلم الذي يتذوق الإسلام ، ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة ، وحركة بهذه العقيدة لإقامة النظام الإسلامي . إن الأمر في التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح مُحدد .

الدين هو الإسلام ، وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام لأن الله سبحانه يقول (إن الدين عند الله الإسلام) ويقول (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) ومن ثم فليس هناك جبهة تدين ، يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد .. هناك (دين) هو الإسلام وهناك (لا دين) هو غير الإسلام .. ثم يكون هذا اللادين عقيدة أصلها سماوي ولكنها مُحَرَقَة ، أو عقيدة أصلها وثني باقية على وثنيها أو إلحاداً ينكر الأديان .. تختلف فيما بينها كلها . ولكنها تختلف كلها مع الإسلام ، ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء .. (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء) هذه هي كلمة الفصل ، كلمة الله في هذه القضية لم يبق هناك له موضع لاعتبار أهل الكتاب أهل دين - وليس للمسلم أن يُقرر غير ما قرره الله (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) . وكلمة الله باقية لا تغيرها الملايسات والظروف .. والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء ..

إنه لا يكون مكلفاً بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد ، هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين وأنه يدعوهم إلى الدين .. وإذا تقرر هذه البديهية ، فإنه لا يكون منطقياً في عقيدته إذا دخل في ولاء أو تناصر للتمكين للدين في الأرض مع من لا يدين بالإسلام .. إن هذه القضية في الإسلام قضية إعتقادية إيمانية . كما أنها قضية تنظيمية حركية .

٢ - التمييز والمفاصلة :

إن الاختصاص والتمييز ضروريان للجماعة المسلمة : الاختصاص والتمييز في التصور والاعتقاد ، والاختصاص والتمييز في القبلة والعبادة ، وهذه كذلك لا بد من التمييز فيها والاختصاص . والجماعة المسلمة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه . إن القبلة ليست مجرد مكان ، أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة ، فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز .. رمز للتمييز والاختصاص : تمييز الشخصية وتمييز الهدف ، وتمييز الاهتمامات وتمييز الكيان .. والأمة المسلمة اليوم بين شتى التصورات الجاهلية التي تعج بها الأرض جميعاً ، وبين شتى الأهداف الجاهلية ، وبين شتى الاهتمامات الجاهلية التي تشغل بال الناس جميعاً وبين شتى الرايات الجاهلية التي ترفعها الأقوام جميعاً .. الأمة المسلمة اليوم في حاجة إلى التمييز بشخصية خاصة لا تتلبس بشخصيات الجاهلية السائدة ، والتمييز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وهذا التصور والتمييز براهية خاصة تحمل اسم الله وحده (قل هذه سبيلي أدعُو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) .. هذه سبيلي واحدة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة .. وأدعو إلى الله على بصيرة .. فنحن على هدى من الله ونور . نعرف طريقنا جيداً ، ونسير فيها على بصر وإدراك ومعرفة .. هذه طريقي فمن شاء فليتابع ومن لم يشأ فأنا سائر في الطريق المستقيم .. وأصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من هذا التمييز . لا بد لهم أن يعلموا أنهم أمة وحدهم يفرقون عن لا يعتقد عقيدتهم . ولا يسلك مسلكهم ولا يدين لقيادتهم . ويتميزون ولا يختلطون .. ولا يكفي أن يدعو

أصحاب هذا الدين إلى دينهم وهم متميعون في المجتمع الجاهلي . فهذه دعوة لا تؤدي شيئاً ذا قيمة . إنه لا بد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم شيء آخر غير الجاهلية . وأن يتميزوا بتجمع خاص أصبرته العقيدة المتميزة ، وعنوانه القيادة الإسلامية ، لا بد أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي ، وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلي أيضاً . إن اندماجهم وتمييعهم في المجتمع الجاهلي ، وبقاءهم في ظل القيادة الجاهلية يذهب بكل السلطان الذي تحمله عقيدتهم ، وبكل الأثر الذي يمكن أن تنشئه دعوتهم ، وبكل الجاذبية التي يمكن أن تكون للدعوة الجديدة . وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية في أوساط المشركين .. إن مجالها هو مجال هذه الدعوة كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس ..

وجاهلية القرن العشرين لا تختلف في مقوماتها الأصلية ، وفي ملامحها المميزة عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ . والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي والأوضاع الجاهلية .. والتلمس الناعم من خلال تلك المجتمعات . ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام .. هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة ، ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب .. إن أصحاب المذاهب الإحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم ووجهتهم . أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص ؟ وطريقهم الخاص ؟ وسبيلهم التي تفرق تماماً عن سبيل الجاهلية ؟

صحيح وتنقسم البشرية إلى حزبين اثنين : حزب الله وحزب الشيطان ، وإلى رابطين اثنتين : راية الحق وراية الباطل . فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق ، وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل .. وهما صنفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان .. لا نسب ولا صهر ، ولا أهل ولا قرابة . ولا وطن ولا جنس ولا عصبية ولا قومية .. إنما هي العقيدة والعقيدة وحدها .

فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية أخوة في الله ، تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم . وتختلف عشايرهم .

وتختلف أسرهم ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تولف حزب الله . فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة . ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة .. لأنها المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان ، والانحياز النهائي للصف المتميز ، والتجرد من كل عائق وكل جاذب .

وهذه هي القاعدة الثابتة التي يقف عليها المؤمنون أو الميزان الدقيق للإيمان في النفوس (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألاّ إنّ حزب الله هم المفلحون) .. فما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه . وما يجمع إنسان في قلب واحد ودّين : ودّ الله ورسوله ، ودّاً لأعداء الله ورسوله . فإما إيمان أو لا إيمان . أما هما معا فلا يجتمعان .. والمسلم له نسب عريق وماض طويل وأسوة ممتدة على آمد الزمان . فيشعر أن له رصيда من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيده جيله الذي يعيش فيه (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم : إنّنا برءاء منكم وما نعبدون من دون الله . كفرنّا بكم وبدّأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّى تؤمنوا بالله وحده) .. إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله ، الواقفين تحت راية الله ، قد مرّت بمثل ما يمر به .. وإن هذه البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم . وهو الكفر بهم والإيمان بالله . وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتّى يؤمن القوم بالله وحده . وهي المفاصلة الخامسة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وأصرة الإيمان .. هذا وإن المنهج الإلهي ليحدد بوضوح كامل أن يهمل المسلم شأن الذين يتخذون دينهم سخرية . والإهمال يجب أن يتبع بالقول كما يتبع بالفعل . فالذي لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذ قاعدة حياته اعتقاداً وعبادة وخلقاً وسلوكاً وشريعة وقانوناً . إنما يتخذ دينه هزواً ولعباً .. (وذّر الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً) .

والذي يتحدث عن مبادئ هذا الدين وشرائعه فيصفها أوصافاً تدعو إلى 'هزء' والسخرية كالذين يتحدثون عن الغيب - وهو أصل من أصول العقيدة - حديث الاستهزاء . والذين يتحدثون عن الزكاة وهي ركن من أركان هذا الدين حديث الاستصغار . والذين يتحدثون عن الحياء والحلق والعفة - وهي من مبادئ هذا الدين - يصفونها من أخلاق المجتمعات الزراعية أو الإقطاعية أو البورجوازية الرأبلة . والذين يتحدثون عن قواعد الحياة الزوجية المقررة في الإسلام حديث إنكار واستنكار .

والذين يصفون الضمانات التي يجعلها الله للمرأة لتحفظ عفتها بأنها (أغلل) ..

وقبل كل شيء وبعد كل شيء .. الذين ينكرون حاكمية الله المطلقة في حياة الناس الواقعية : السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية .. ويقولون : إن للبشر أن يزاولوا هذا الاختصاص دون التقيد بشرعية الله - أولئك جميعاً يتحدثون دينهم هزواً ولعياً . يأمره ربه بمفاصلتهم ومقاطعتهم إلا للذكرى . وقد روى القرطبي : (قال ابن خويز منداد : من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر مؤمناً كان أو كافراً - قال : وكذلك منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم والبيع . ومجالسة الكفار وأهل البدع ، وألا تعتقد مودتهم ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم . وقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي : اسمع مني كلمة . فأعرض عنه وقال ولا نصف كلمة .. ومثله عن أبيوب السخيتاني وقال الفضيل بن عياض : من أحب صاحب بدعة أحببت الله عمله وأخرج الإسلام من قلبه . ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها . ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة . وإذا علم الله من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت أن يغفر الله له .. وروى أبو عبد الله الحايك عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام) . فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله .. وكنه لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية تزاولته ناحاكية . ومن يقره على هذا الإدعاء .. فليس هذا بدعة مبتدع . ولكنه كفر كافر . أو شرك مشرك . مما

لم يتعرض له السلف لأنه لم يكن في زمانهم . فمنذ أن قام الاسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعي هذه الدعوى وهو يزعم الاسلام ..

وينهى الله عز وجل المؤمن أن يجعل ناساً همّ دونه في الحقيقة والمنهج موضع ثقة واستشارة ، ومرة بعد مرة تصفنا التجارب المرة ولكننا لا نفقد .. ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر ومرة بعد مرة تنقلت ألسنتهم فتتسم عن أحقادهم ..

ومع ذلك تعود فنفتح لهم صدورنا . ونتخذ منهم رفقاء في الحياة والطريق ، وتبلغ بنا المحاملة . أو تبلغ بنا المزيعة الروحية أن نجاملهم في عقيدتنا ، فتتحاشى ذكرها ، وفي منهج حياتنا فلا نقيمه على أساس الإسلام . وفي تروير تاريخنا وطمس معالمه كي نتقي فيه ذكر أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين .

ومن ثم يحلّ علينا جزاء المخالفين عن أمر الله ومن هنا نذل ونضعف ونستخذي ، ومن هنا نلقى العنت الذي يوده أعداؤنا لنا ، وها هو ذا كتاب الله يُعلمنا كما علم الجماعة المسلمة الأولى ، كي تنفي كيدهم وتدفع أذاهم . وننجو من الشر الذي تكته صدورهم (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خيالا ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) .. فلنصبر ولنصمد أمام قوتهم إن كانوا أقوياء . وأمام مكرهم وكيدهم ان سلكوا طريق الوقعة والخداع . الصبر والتماسك لا الانهيار والتخاذل . ولا التنازل عن العقيدة كلها أو بعضها اتقاء لشرهم المتوقع ، أو كسبا لودهم المدخول ثم هو التقوى .. الخوف من الله وحده .. ومراقبته وحده . هو تقوى الله فلا تلتقي مع أحد إلا في منهجه . ولا تعنصم بحبل إلا حبله . وحين يتصل القلب بالله فانه سيحقر كل قوة غير قوته ، وستشد هذه الرابطة من عزيمته فلا يستسلم من قريب ، ولا يتوادم من حادّ الله ورسوله طلبا للنجاة أو كسبا للعزة أو مجاملة للناس .. هذا هو الطريق الصبر والتقوى . التماسك والاعتصام بحبل الله . وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة الله وحدها ، وحققوا منهج الله في حياتهم كلها إلا عزوا

وانتصروا، ووقاهم الله كيده أعدائهم وكانت كلمتهم هي العليا . وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة أعداء الدين واستمعوا إلى مشورتهم ، واتخذوا من دونهم بطانة ، وأصدقاء وأعوان ومستشارين إلا كتب الله عليهم الهزيمة . وأذل رقابهم فمن عَمِيَ عن سنة الله المشهودة في الأرض ، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والإنكسار والهوان ..

وأخيراً لا بُدَّ أن ندرك أنَّ تدخل القوة الكبرى ، إنما يكون دائماً بعد المفاصلة . بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم بعد إذ أتجأهم الله منها . وبعد يصروا على تميزهم بدينهم وبتجمعهم الإسلامي الخاص بقيادته الخاصة .. وبعد أن يُفَاصِلُوا قومهم على أساس العقيدة . فيقسم القوم الواحد إلى أمتين مختلفتين عقيدة ومنهجاً وقيادة وتجمعاً .. عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضرب ضربتها الفاصلة . ولتدمر الطواغيت الذين يتهددون المؤمنين ، ولتتمكن المؤمنين في الأرض ولتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) ولا يكون هذا التدخل أبداً والمسلمون متبعون في المجتمع الجاهلي : عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته ، غير منفصلين عنه ولا مُتميزين بتجمع حركي مستقل وقيادة إسلامية مستقلة .

سواء إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم ، ثم يزاوئ هذا الحق فعلاً . إنها الفتنة التي تحمل الناس شيعاً ملتبسة . لأنهم من ناحية المظهر يبدوون أمة واحدة أو مجتمعاً واحداً . ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيداً لبعض . ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها — لأنها غير مقيدة بشريعة من الله — ويكون بعضهم في نفسه الحق والتربص .. ويلدق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضهم بأس بعض ! وهم شيع ، ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة .

والأرض كلها تعيش اليوم في هذا العذاب البطيء المديد ! وهذا يقودنا إلى موقف العصاة المسلمة في الأرض وضرورة ميسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها

والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها ولا يفرد الله سبحانه بالالهية والحاكية - ضرورة مفاصلتها للجاهلية من حوطا ، باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذين يؤثرون البقاء في الجاهلية ، والتقيّد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمتها .

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها العذاب : (أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض) .. إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقدياً وشعورياً . ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها - حتى يآذن الله بقيام (دار إسلام) تعتصم بها - وإلا أن تشعر شعوراً كاملاً بأنها هي (الأمة المسلمة) وأن ما حوطا ومن حوطا ، ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه . جاهلية وأهل جاهلية . وأن تفاصيل قومها على العقيدة والمنهج وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين .

فلماذا لم تفصل هذه المفاصلة ولم تتميز هذا التميز - حق عليها وعيد الله هذا : وهو أن تظل شيعة من الشيعة في المجتمع - شيعة تلبس بغيرها من الشيعة - ولا تبين نفسها ، ولا يبينها الناس مما حوطا . وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقهر المديد ، دون أن يدركها فتح الله الموعود !

سبح إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات . غير أن هذه التضحيات والمشقات لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه . ونتيجة اندغامها وتجميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حوطا .. بمراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي جميع رسل الله ، يعطينا اليقين الجازم بأن فتح الله ونصره .. وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم .. لم يقع في مرة واحدة قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة - أي الدين - والفصاها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها - أي نظام حياتها - وإن هذه كانت هي نقطة الفصل ومفرق الطريق في الدعوات جميعاً .

وطريق هذه الدعوة واحد . ولن يكون في شأنها إلا ما كان على عهود رسل الله
جميعاً صلوات الله عليهم وسلامه (أنظر كيف نصرف الآيات لعلمهم بفقهون) والله
نسأل أن يجعلنا من يُصرف لهم الآيات فيفقهون ..

٣ - رابطة العقيدة :

إنها وقفة على معلّم واضح بارز في طبيعة هذه العقيدة ، وفي خطها الحركي ..
وقفة يجب أن يفهمها الدعاة على مفرق الطريق لتكشف لهم معالم الطريق ...

إن الوشيعة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيعة فريدة تتميز بها
طبيعة هذا الدين ، وتعلق بأفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج
الرباني الكريم .. إن هذه الوشيعة ، ليست وشيعة الدم والنسب ، وليست وشيعة
الأرض والوطن وليست وشيعة القوم والعشيرة ، وليست وشيعة اللون واللغة ، وليست
وشيعة الجنس والعنصر ، وليست وشيعة الحرفة والطبقة .. إن هذه الوشائج جميعها
قد توجد ثم تقطع العلاقة بين الفرد والفرد ، كما قال سبحانه وتعالى
لعبده نوح وهو يقول (ربّ إن ابني من أهلي) .. (يا نوح إنه ليس من أهلك) .
ثم يبين الله له . لماذا يكون ابنه ليس من أهله .. (إنه عمل غير صالح) .. إن
وشيعة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح (فلا تسألن ما ليس لك به علم) . فأنت
تحسب أنه من أهلك ، ولكن هذا الحسبان خاطئ . أما المعلوم المستيقن فهو أنه
ليس من أهلك ولو كان هو ابنك من صلبك .. وهذا هو المعلّم الواضح البارز
على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط ، وبين نظرات الجاهلية
المضترقة .

الجاهلية تجعل الروابط آناً هي الدم والنسب ، وآناً هي الأرض والوطن .
وآناً هي القوم والعشيرة ، وآناً هي اللون واللغة ، وآناً هي الجنس والعنصر ، وآناً
هي الحرفة والطبقة . وتجعلها آناً هي المصالح المشتركة .. أو التاريخ المشترك .. أو
المصير المشترك . وكلها تصورات جاهلية على تفرقها أو على تجمعها ، تخالف
مخالفة أصيلة عميقة أصول النصور الاسلامي ..

والمنهج الرباني القويم، مُثَلا في هذا القرآن الذي يَهْدِي للتي هي أقوم .
وفي توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم . وهي من هذا القرآن وعلى نسقه
وانجابه ، قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير والمعلم الواضح
البارز في مفرق الطريق . وقد ضرب الله أمثالا شتى للوشائج والروابط الجاهلية
ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يَعتَبرها ... ضرب الله
المثل فيما يكون بين الولد والوالد . وذلك فيما كان من إبراهيم عليه السلام وأبيه
وقومه كذلك .. (واذكر في الكتاب إبراهيم إنَّهُ كان صديقا نبيًا إذ قال لأبيه يا
أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا؟ يا أبت إني قد جاءني
من العلم ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن
الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إني أخاف أن يحبسك عذاب من الرحمن
فتكون للشيطان وليا .. قال أراغب أنت عن آلهي يا إبراهيم لئن لم تستتِرْ لأرجمنك
واهجرني مليا ، قال سلام عليك ساستغفر لك ربي إنسه كان بي حفيّا
وضمير . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي
شقيّا . فلما اعتزلهم وما يعبثون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا
جعلنا نبيّا وهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليّا) .

كذلك ضرب الله المثل فيما كان بين إبراهيم وذريته كما علمه سبحانه
ولقنه وهو يعطيه عهده وميثاقه ويشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة في عقبه (وإذ
ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فتأَمَّن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي
قال لا ينال عهدي الظالمين) .. (وإذ قال إبراهيم رَبِّ اجعل هذا بلدًا آمناً
وادزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه
قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) .

وضرب الله المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه . وذلك فيما كان بين نوح
وامرأته . ولوط وامرأته ، وفي الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون وفرعون (ضرب
الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من
عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار

مع الداخلين) .. (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين) ..

وضرب الله المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وأموالهم وديارهم ومصالحهم وماضيهم ومصيرهم ، وذلك فيما كان بين ابراهيم والمؤمنين به مع قومهم .. وما كان من الفتية أصحاب الكهف مع أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم .. (قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم وما نعبدون من دون الله كفرننا بكم وبدلنا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) .. (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً . فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض إن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسقطان يسفون فمن أضل ممن افترى على الله كذبا ، وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا) .. وبهذه الأمثلة التي ضربها الله سبحانه للأمة المسلمة من سيرة الرهط الكريمة من الأنبياء والمؤمنين الذين سبقوها في موكب الإيمان الضارب في شباب الزمان ، وضحت معالم الطريق لهذه الأمة ، وقام هذا المعلم البارز أمامها عن حقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم ، ولا يقوم على سواها ، وطلبها ربه بالاستقامة على الطريق في حسم ووضوح يتمثلان في مواقف كثيرة ، وفي توجيهات من القرآن كثيرة .. هذه نماذج منها :
(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا

آباءهم أو إبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم
بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم
ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) (يا أيها الذين آمنوا

لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل) (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ينصل بينكم والله بما تعملون بصير) (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وأخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين)....

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصلية الحاسمة من علاقات المجتمع الاسلامي ، وفي طبيعة بنائه التكويني العضوي الذي يتميز عن سائر المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا إلى آخر الزمان . ولم يعد هناك مجال للجمع بين الإسلام وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله للأمة المختارة .

والذين يدعون صفة الإسلام ثم يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحل الإسلام محلها قاعدة العقيدة ، إما أنهم لا يعرفون الإسلام ، وإما أنهم يرفضونه . والإسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة التي يدعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها . بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلا . هذا المتعلم الواضح يجب أن يقف أمامه انداعة طويلا فهذه قاعدة العقيدة .

~~كما~~ ويحسن أن نذكر أن أعداء هذا الدين . الذين يعرفون مواضع القوة في طبيعته وحركته وهم الذين يقول الله تعالى فيهم (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) .. لم يفنهم أن يدركوا أن التجمع على أساس العقيدة سر من أسرار قوة هذا الدين . وقوة المجتمع الاسلامي الذي يقوم على هذا الأساس .. ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذي يسهل عليهم السيطرة عليه ، وشفاء ما في صدورهم من هذا الدين وأهله . ولاستغلالهم كذلك واستغلال مقدراتهم وديارهم وأموالهم .. لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع لم يفنهم

أن يوهنوا من القاعدة التي يقوم عليها ، وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد . أصناماً
تُعبد من دون الله اسمها تارة (الوطن) واسمها تارة (القوم) واسمها تارة (الجنس) .
وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ باسم (الشعوبية) وتارة باسم (الجنسية
الطورانية) وتارة باسم (القومية العربية) وتارة بأسماء شتى ، تحملها جبهات شتى
تتصارع فيما بينها في داخل المجتمع الإسلامي الواحد القائم على أساس العقيدة .
المنظم بأحكام الشريعة .. إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية ،
وتحت الايحاءات الخبيثة المسمومة . وإلى أن أصبحت تلك (الأصنام) مقدسات
يعتبر المنكر لها خارجاً على دين قومه ، أو خائناً لمصالح بلده

وأخبرت المعسكرات التي عملت وما زالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي
كان يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد في التاريخ .. كان هو المعسكر اليهودي
الحيث . الذي جرَّب سلاح : (القومية) في تحطيم التجمع المسيحي ، ونحوه إلى
قوميات سياسية ذات كنائس قومية .. وبذلك حطمو الحصار المسيحي حول
الجنس اليهودي . ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنودي ..
وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الإسلامي — بعد جهد قرون كثيرة في إثارة
التعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس المتحمة في المجتمع الإسلامي ..
ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله . كما
استطاعوا أن يمزقوهم ويروضوهم على الاستعمار الأوربي الصليبي . وما يزالون .
حتى يأذن الله بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة . ليقوم التجمع الإسلامي
من جديد على أساسه المتين الفريد ..

وأخيراً فإن الناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكتلياتهم حتى تكون
العقيدة وحدها هي قاعدة تجمعهم . ذلك أن الدينونة لله وحده لا تتم تمامها إلا بقيام
هذه القاعدة في تصورهم وفي تجمعهم ... يجب أن تكون هناك قداسة واحدة
لمقدس واحد ، وألا تتعدد المقالعات ، ويجب أن يكون هناك شعار واحد وألا
تتعدد الشعارات . ويجب أن تكون هناك قبله واحدة يتجه إليها الناس بكتلياتهم
ألا تتعدد القبلات والمتجهات .. إن الوثنية ليست صورة واحدة هي وثنية الأصنام

الحجرية والآلهة الأسطورية . إن الوثنية يمكن أن تتَّمتل في صور شتى ، كما أن الأصنام يمكن أن تتخذ صُورا متعددة ، وآلهة الأساطير يمكن أن تتَّمتل مرة أخرى في المقدسات والمعبودات من دون الله أيا كانت أسماؤها ، وأيا كانت مراسمها . وما كان الإسلام ليخلص من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية ، ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجحشيات والقوميات والأوطان . . وما إليها . . يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها . وهو يدعوهم إلى الله وحده ، وإلى الدينونة له دون شيء من خلقه . لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشري . . أمة المسلمين من أتباع الرسل — كل في زمانه حتى يأتي الرسول الأخير إلى الناس كافة — وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون . . وعندما أراد الله أن يعرف المسلمين بأمتهم التي تجمعهم على مدار القرون ، عرفها لهم في صورة أتباع الرسل — كل في زمانه — وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأمة : (إنَّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) . . ولم يقل للعرب : إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء . ولا قال لليهود : إن أمتكم هي بنو إسرائيل أو المبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء . ولا قال لسلمان الفارسي : إن أمتك هي أمة فارس ولا لصهيب الرومي : إن أمتك هي الرومان . ولا لبلال الحبشي : إن أمتك هي الحبشة . إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش : إن أمتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقاً على أيام موسى وهارون ، وإبراهيم ولوط ، ونوح وداود وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل وإدريس وذئب الكفل ، وذئب النون ، وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم . . كما جاء في سورة الأنبياء : (آيات ٤٨ — ٩١) . . هذه هي أمة المسلمين في تعريف الله سبحانه . فمن شاء له طريقاً غير طريق الله فليسلكه ، ولكن ليقل : إنه ليس من المسلمين . أما نحن الذين أسلمنا لله ، فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التي عرفها لنا الله . والله يقص الحق وهو خير المفصلين . .

وهكذا إن التصور الإسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على أساس العقيدة والعمل ، ولا يعترف بقربى ولا رحم إلا إذا أنبتت وشيجة العقيدة والعمل . ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل .

الباب الثالث

السمة الرئيسية للدعوة الإسلامية

١ - إن السمة الرئيسية للدعوة الإسلامية هي الواقعية الجدية في هذا الدين ، فهو حركة تواجه واقعا بشريا وتواجه وجوداً واقعياً . إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية تقوم عليها أنظمة واقعية تسندها سلطات ذات قوة مادية . لذلك يجب أن تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه .. تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات . وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدتهم لغير ربهم الخليل ..

إن الدعوة الإسلامية لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي ، كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضحايا الأفراد ولكن طبيعتها هي الواقعية الحركية ، فهي حركة ذات مراحل ، لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها . فالدين الاسلامي لا يقابل الواقع بنظريات مجردة ، كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة ..

والذي يراجع أحداث السيرة النبوية ووقائعها ليرى من خلالها الواقع التاريخي للمنهج الحركي الإسلامي . فيتبين للدعاة أنه لا يمكن التعايش بين منهجين للحياة ، بينهما هذا الاختلاف الجذري العميق البعيد المدى الشامل لكل جزئية من جزئيات

الاعتقاد والتصور والخلق والسلوك ، والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والإنساني . وهو الاختلاف الذي لا بُدَّ أن ينشأ من اختلاف الاعتقاد والتصور بين منهجين للحياة أحدهما يقوم على عبودية العباد لله وحده لا شريك له ، والآخر يقوم على عبودية البشر للبشر والآلهة المدعاة والأرباب المتفرقة . ثم يقع بينهما التصادم في كل خطوة من خطوات الحياة ، لأن كل خطوة من خطوات الحياة في أحد المنهجين لا بُدَّ أن تكون مختلفة مع الأخرى . ومتصادمة معها تماماً في مثل هذين المنهجين وفي مثل هذين النظامين ..

وليدرك الدعاة أنها لم تكن فلتة عارضة أن تقف قريش تلك الوقفة العنيدة لدعوة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في مكة ، ولا أن تحاربها هذه الحرب الجائرة في المدينة . ولم تكن فلتة عارضة أن يقف اليهود في المدينة كذلك لهذه الحركة ، وأن يجمعهم مع المشركين معسكر واحد لاستئصال شأفة ذلك الخطر الذي يتهدد الجميع بمجرد قيام الدولة الإسلامية في المدينة على أساس هذه العقيدة ، وإقامة نظامها وفق ذلك المذهب الرباني المتفرد . وكذلك لتعلم أنها لم تكن فلتة عابرة أن يقف النصارى لهذه الدعوة منذ ذلك الحين إلى آخر الزمان .. إنها طبائع الأشياء .. إنها أولاً طبيعة المذهب الإسلامي التي يعرفها جيداً أصحاب المذاهب الأخرى طبيعة الإصرار على إقامة مملكة الله في الأرض ، وإحراج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومخاطبة الحواجز المادية التي تحول بين الناس كافة وبين حرية الاختيار الحقيقية .. ثم أنها طبيعة التعارض بين منهجين للحياة ، لا التقاء بينهما في كبيرة ولا صغيرة . وحرص أصحاب المذاهب الأرضية على سحق المذهب الرباني الذي يتهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم . فهي حتمية لا اختيار فيها في الحقيقة لهؤلاء ولا هؤلاء... وكانت هذه الحتمية تفعل فعلها على مدى الزمن ، وعلى مدى التجارب ، وتتجلى في صور شتى تؤكد وتعمق أصلها في هذا المذهب الإلهي .

وهذه الظاهرة يقرها الله سبحانه (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) (ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم

كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) فيعلن سبحانه بهذه النصوص عن وحدة الهدف بين جميع معسكرات الجاهلية تجاه الإسلام والمسلمين ، وعن قوة الاصرار على هذا الهدف وامتدادها عبر الزمان ، وعدم توقيتها بظرف أو زمان .. فهذا قانون حتمي في طبيعة العلاقات بين التجمع الاسلامي والتجمعات الجاهلية : قانون يجب أن يقف أمامه الدعاة طويلاً ، فيفسرون الظواهر التي تنشأ عنه بالرجوع اليه فلا يمكن فهم طبيعة الجهاد في الإسلام ، ولا طبيعة تلك الصراعات الطويلة بين المعسكرات الجاهلية والمعسكر الإسلامي ولا يمكن فهم بواعث المجاهدين الأوائل ، ولا أسرار الفتنوحات الإسلامية ، ولا أسرار الحروب الوثنية والصليبية ، التي لم تفر قط طوال أربعة عشر قرناً والتي ما تزال مشبوبة على ذراري المسلمين — وإن كانوا لسوء حظهم تخلوا عن حقيقة الإسلام ولم يبق منه إلا العنوان — في المعسكرات الشيوعية ، والصليبية كلها ، في روسيا والصين ويوغسلافية وألبانيا وفي الهند وكشمير ، وفي الحبشة وزنجبار وقبرص وكينيا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة .. وذلك فوق عمليات السحق الوحشية البشعة لطلائع البعث الإسلامي وفي كل مكان في العالم الإسلامي ، أو الذي كان إسلامياً بتعبير أدق . وتعاون الشيوعية والوثنية والصليبية مع الأوضاع التي تتولى سحق هذه الطلائع ، ومد يد الصداقة اليها ، وإمدادها بالمعونات التي تبلغ حدّ الكفالة ، وإقامة ستار من الصمت حولها وهي تسحق هذه الطلائع الكريمة ..

إنه قانون حتمي يقرره العلم الخبير (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) هذا هو التقرير الصادق الذي يكشف عن الاصرار الخبيث على الشر ، وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم . وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل .

إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين . ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين . إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم ، فهو من القوة والمتانة بحيث يخشاه كل مبطل ، ويرهبه كل باغ ويكرهه كل مفسد . إنه حرب بذاته وبما فيه من حقّ أبليج ومن منهج قويم ومن

نظام سليم .. إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد . ومن ثم لا يطيقه المبتطلون والمفسدون ، ومن ثم يرصلون لأهله ليفتنوهم عنه ويردوهم كفارا في صورة من صور الكفر الكثيرة . ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم ، وفي الأرض جماعة مسممة تؤمن بهذا الدين وتتبع هذا المنهج وتعيش بهذا النظام . وتتنوع وسائل هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواتهم . ولكن الهدف يظل ثابتا . أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا ، وكلما انكسر في يدهم سلاح انتصوا سلاحا غيره ، وكلما كُتِلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها .

والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام ، وينبها إلى الخطر ، ويدعوها إلى الصبر على الكيد ، والصبر على الحرب وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة والعذاب الذي لا يدفعه عنه ولا يرد (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .. وهكذا يطلب المنهج الرباني من حملة هذا الدين أن يشبوا تحت مطارق الأذى والفتنة بكل شدتها حتى لا يرتدوا عن الإسلام فتحبط أعمالهم . إن القلب الذي يلدوق الإسلام ويعرفه ، لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادا حقيقيا أبداً ، إلا إذا فسد فسادا لا صلاح له وهذا التحذير من الله تبارك وتعالى قائم إلى آخر الزمان .. وليس لمسلم عذر في أن يخضع للعذاب فيترك دينه ويقينه ، ويرتد عن إيمانه وإسلامه . ويرجع عن الحق الذي ذاقه وعرفه ..

وهناك المجاهدة والمجاهدة والصبر والثبات حتى يأذن الله . والله لا يترك عباده الذين يؤمنون به ويصبرون على الأذى فهو معوضهم خيرا إحدى الحسينين .. النصر أو الشهادة .. وهذا هو طريق المؤمنين . إن قوة العقيدة لا تتلعم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد . لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة .. نقطة المسألة والتعاضد ، على أن يترك لمن يشاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء . وأن يدين للسلطان الذي يشاء . في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين — وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة . تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت والانتازل

كلية عن الحق الذي يمثله وخانه. وإن الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية ،
التي لا يخلص فيها الناس الدينونة لله وحده ، والتي يتخذ الناس فيها أربابا من
دون الله يقرون لهم بسلطان الله . إن الذي يعود إلى هذه الملة — بعد إذ قسم
الله له الخير وكشف له الطريق وهده إلى الحق وأنقذه من العبودية للعبيد —
إنما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله
غيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت . أو مؤداها على الأقل أن ملة الطاغوت
حقاً في الوجود وشرعية في السلطان ، وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله .
فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله وهي شهادة خطيرة أخطر
من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الاسلام . شهادة الاعتراف
براية الطغيان ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة . . إن تكاليف
الخروج من العبودية للطاغوت ، والدينونة لله وحده — مهما عظمت وشقت
أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت . إن تكاليف العبودية للطواغيت
مهما لآح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق . أنها
تكاليف بطيئة مديدة . تكاليف في إنسانية الانسان ذاته . فهذه الإنسانية لا توجد .
والإنسان عبد للإنسان . وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان ؟
وأى عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه أو غضبه
عليه ؟ وأي عبودية شر من أن تعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته
وشهواته ؟ وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لحام بقوده منه كيفما
شاء إنسان . على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة . . إنه يهبط
ويهبط حتى يكلف الناس — في حكم الطواغيت — أموالهم التي لا يحميها شرع ولا
يحفظها سياج . كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من
التصورات والأفكار والمفاهيم والأخلاق والتقاليد والعادات . فوق ما يتحكم في
أرواحهم وفي حياتهم ذاتها . فيذبذبهم على مديح هواه . ويقم من جماجمهم
وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية . . حيث
لا يخلو أب أن يجمع فتاته من الدعارة التي يربدها بها الطواغيت سوء في صورة

الغصب المباشر كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ . أو في صورة تنشهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهياً مباحاً للشهوات تحت أي شعار ، وتمهدهن الدعارة والفجور تحت أي ستار .. والذي يتصور أن ينحو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه في حكم الطواغيت من دون الله . إنه يعيش في وهم . أو يفقد الإحساس بالواقع . إن عبادة الطواغيت عظيمة التكليف في النفس والعرض والمال . إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر وردة كله لله ، إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد ، كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوى الطواغيت وشهواتهم .. إنه يكفهم أعباء المعركة مع الطاغوت تحت رايته بكل ما فيها من تضحيات ، ولكنه يتقدم من تضحيات أكبر وأطول ، كما أنها أذل وأحقر .. إنه يدعوهم للكرامة والسلامة في آن .

وعندما يشعر التجمع الجاهلي بوصفه كياناً عضوياً واحداً متسانداً ، بالخطر الذي يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية . كما يتهدد وجوده ذاته بتمثل الاعتقاد الإسلامي في تجمع آخر منفصل عنه ومواجه له . فعندئذ يسفر التجمع الجاهلي عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام . إنها المعركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام والمعركة بين تجمعين عضويين كل منهما يقوم على قاعدة متناقضة تماماً للقاعدة التي يقوم عليها التجمع الآخر . فالتجمع الجاهلي يقوم على قاعدة تعدد الآلهة . أو تعدد الأرباب ، ومن ثم يدين فيه العباد للعباد . والتجمع الإسلامي يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحداية الربوبية ، ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد .. ولما كان التجمع الإسلامي إنما يأكل في كل يوم من جسم التجمع الجاهلي لتسلم القيادة منه ، وإخراج الناس كافة من العبودية للعباد إلى عبودية لله وحده .

ولما كانت هذه كلها احتميات لا بُدَّ منها متى سارت الدعوة الإسلامية في طريقها الصحيح ، فإن الجاهلية لا تطيق منذ البدء دعوة الإسلام .. ومن هنا تدرك لماذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام . أنها مواجهة الدفاع عن

النفس في وجه الاجتياح . ومراجعة الدفاع عن الحاكمة المختصة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد .. وإذا كان هذا شعور الجاهلية يخطر الدعوة الإسلامية عليها . فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت . لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام .. (وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا) . وهكذا يسفر الطغيان عن وجهه . لا يجادل ولا يناقش ولا يفكر ولا يتعقل لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار العقيدة فيسفر بالقوة المادية الغليظة التي لا يملك غيرها المنجبرون (لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا) وهنا تتجلى حقيقة المعركة ، وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية .. إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها . ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها . وهي لا تسلم الإسلام حتى لو سلمها . فالإسلام لا بد أن يبدو في صورة تجمع حركي مستقل بقيادة مستقلة وولاء مستقل . وهذا ما لا تطيقه الجاهلية .

لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسولهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم . ولكنهم يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم ، وأن يتدمجوا في تجمعهم الجاهلي ، وما يرفضه الرسل من ثم وبأبونه . فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى .. إن التجمع الجاهلي بطبيعة تركيبه العضوي لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله . إلا أن يكون عملاً المسموح وحده . وضاقته لحساب التجمع الجاهلي وتنويع جاهليته . والذين يخيل اليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي والتميع في تشكيلاته وأجهزته هم فاس لا يدركون الطبيعة العضوية للمجتمع . هذه الطبيعة التي ترغب كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع ولحساب منهجه وتصوره ..

إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي لا بد أن يتبعه حتما تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه .. وليس في ذلك اختيار .. إنها هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات . هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساسا بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قناعة عبودية الناس لله وحده ، وتنحية الأرباب

الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان . كما يجعل كل عضو مسلم متميع في المجتمع الجاهلي . خادما للتجميع الجاهلي لا خادما لإسلامه كما يظن بعض الأغرار . ثم تبقى الحقيقة القدريّة التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى الله في جميع الأحوال وهي أن تحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر والتمكين . والفصل بينهم وبين قومهم بالحق ، لا يقع ولا يكون ، إلا بعد تمييز أصحاب الدعوة ، وإلا بعد مفاصلهم لقومهم على الحق الذي معهم . فذلك الفصل من الله لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي ، ذائبون في أوضاعه ، عاملون في تشكيلاته ، وكل فترة تجميع على هذا النحو هي فترة تأخير وتأجيل لوعد الله بالنصر والتمكين . وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى الله وهم واعون مقدرين . وإن طاغوت الباطل لا يطيق مجرد وجود الحق .. وحتى حين يريد الحق أن يعيش في عزلة عن الباطل — تاركا مصيرهما لفتح الله وقضائه — فإن الباطل لا يقبل منه هذا الموقف . بل يتابع الحق ويتنازله ويطارده ..

ولقد قال شعيب لقومه (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) . ولكنهم لم يقبلوا هذه الحطة ، ولم يطبقوا رؤية الحق ولا رؤية جماعة تدين لله وحده وتخرج من سلطان الطواغيت : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) .. وهنا صدع شعيب بالحق رافضا هذا الذي يعرضه الطواغيت : (قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ..) ذلك ليعلم أصحاب الدعوة إلى الله أن المعركة مفروضة عليهم فرضا . وأنه لا يحديهم فتىلا أن يتقوها ويتجنبوها . فالطواغيت لن تتركهم إلا أن يتركوا دينهم كلية ويتعودوا إلى ملة الطواغيت بعد إذ نجاهم الله منها . وقد نجاهم الله منها بمجرد أن خلعت قلوبهم عنها العبودية للطواغيت ودانت بالعبودية لله وحده .. فلا مفر من خوض المعركة والصبر عليها وانتظار فتح الله بعد المفاصلة فيها وأن يقولوا مع شعيب (على الله توكلنا .. ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) ثم تجري سنة الله بما جرت به كل مرة على مدار التاريخ .

إن شهادة أن لا إله إلا الله معناها إعلان التمرد على سلطان البشر كافة والخروج من حاكمية العبد جملة . والقرار إلى ألوهية الله وحده . والذي يؤمن بهذه الشهادة يخرج لثره من سلطان الطواغيت وقيادتها وحاكمتها وينضم إلى التجمع الحركي ويخضع لقادته وسلطانه .. إنه لا خطر على الطاغوت من الاعتقاد السلي والشيائر التعبدية إن هذا ليس هو الإسلام . كما يظن بعض الطيبين الخيرين الذين يريدون اليوم أن يكونوا مسلمين . ولكنهم لا يعرفون ما هو الإسلام معرفة اليقين . إنما الإسلام هو تلك المصاحبة للنطق بالشهادتين .. هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه . والولاء لقادة الدعوة الإسلامية والعصية المسلمة التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع ...

وإن المعركة لن تكف وأعداء هذا الدين لن يدعوه في راحة . ولن يتركوا أولياء هذا الدين في أمن (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية ، وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم قدرة الجاهلية على العدوان ، ثم لإعلاء راية الله حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت .. والطفاني يخشى الحق أن يظل طلبا ، يحاول أن يصل إلى الناس في سلام وهدوء . ومن ثم يحارب الحق بالبطش ولا يسأله أبدا . فمعنى المسألة أن يزحف الحق ويستولي في كل يوم على النفوس والقلوب . ومن ثم يبطش الباطل برجم ولا يعتزل الحق . ولا يدعه يسلم أو يستريح .

إن السمة الرئيسية للدعوة الإسلامية هي الواقعة الجدية .. فالدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب ، للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة . وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى . كما أنه ليس مجرد شعائر تعبدية يرد بها الناس لربهم فيما بينهم وبينه .. إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان . وهو منهج حركي واقعي يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة .. يواجه حواجر الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان .. ويواجه حواجر الأوضاع والسلطة بالجهاد المادي لتحطيم سلطان الطواغيت وتقرير سلطان الله . والحركة بهذا الدين في واقع بشري ..

الصراع فيه وبين الجاهلية ليس مجرد صراع نظري يقابل بنظرية . إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع وسلطة . ولا بُدَّ كي يقابلها الدين بوسائل مكافئة أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة . ولا بُدَّ بعد ذلك أن يجاهد ليكون الدين كله لله . فلا تكون هناك دينونة لسواه .

٢ — احقاق الحق :

إن الحق لا يحق ، وأن الباطل لا يبطل في المجتمع الإنساني بمجرد البيان النظري للحق والباطل . ولا بمجرد الاعتقاد النظري بأن هذا حق ، وهذا باطل .. إن الحق لا يحق ولا يوجد في واقع الناس ، وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق . وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا ، ويهزم جند الباطل ويندحروا .

فهذا الدين منهج حركي واقعي لا مجرد نظرية للمعرفة والجدل ، أو مجرد الاعتقاد السلبي (ليحق الحق ويبطل الباطل) وهذه إشارة من الله لتقرير هذه الحقيقة الكبيرة للدعاة .. هذا الحق الذي يتمثل في تفرد الله سبحانه بالألوهية والسلطان والتدبير ، والتقدير في عبودية الكون كله : سمائه وأرضه . أشيائه وأحيائه ، لهذه الألوهية المتفردة . ولهذا السلطان المتوحد ، وهذا التقدير بلا مقب ولا شريك .. وهذا الباطل الزائف الطارئ الذي يعم وجه الأرض . ويغشى على ذلك الحق الأصيل . ويقوم في الأرض صواعيت تنصرف في حياة عباد الله بما تشاء ، وأهواء تنصرف أمر الحياة والأحياء ..

إن هذا الحق يعلن تحرير الإنسان في الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكيته ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته وحاكيته .. الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بُدَّ من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، لأنه لم يكن يملك أن يقف كاهن على طول الأمد . لم يكن يستطيع أن يطل عقيدة مجردة في نفوس أصحابه تتمثل في شعائر تعبدية لله ، وفي أخلاق سلوكية فيما بينهم . ولم يكن له بُدَّ أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد ، والمنهج الجديد ، والمجتمع الجديد في واقع الحياة . وأن

يزيل من طريقها العوائق المادية التي تكبتها ، وتحول بينها وبين التطبيق الواقعي في حياة المسلمين أولاً ثم في حياة البشرية كلها أخيراً . وهي هذا التطبيق الواقعي جاءت من عند الله ..

إنها عقيدة في أعماق الضمير فرقانا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور ، وفي الخلق والسلوك . وفي العبادة والعبودية . وبين الشرك في كل صوره التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات . ولتنتصر العقيدة على أصحابها أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ، لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة . وأن هذا ليس كلاماً يُقال إنما هو واقع متحقق للبيان (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) . وهذه واقعة بدر فرقانا بين الحق والباطل . فلقد حق الحق وبطل الباطل .. إننا ندرك اليوم ضرورة هذا الفرقان . حين ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين . حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يؤمنون بدعوة الناس إلى هذا الدين ...

إن الحق قد يفة في يد القدرة تقذفه به على الباطل فينشق دماغه ، فإذا هو زاهق هالك ذاهب (بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) هذه هي السنة المقررة . فالحق أصيل في طبيعة الكون ، عميق في تكوين الوجود ، والباطل منفي عن خلقه هذا الكون أصلاً . طارئ لا أصالة فيه ، ولا سلطان له .. يطارده الله ويقذف عليه بالحق فيدمغه . ولا بقاء لشيء يطارده الله ، ولا حياة لشيء تقذفه يد الله فتدمغه . ولقد يُخيل للناس أحياناً أن واقع الحياة يُخالف هذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير . وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفصاً كأنه غالب ويبدو فيها الحق منزوياً كأنه مغلوب . وإن هي إلا فترة من الزمان . يمد الله فيها ما يشاء . للفتنة والابتلاء . ثم تجري السنة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء اسماء والأرض . وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء . والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك في صدق وعده . وفي أصالة الحق في بناء الوجود

ونظامه ، وفي نصرة الحق الذي يقذف به على الباطل فيدمغه .. فإذا اجتلاهم بغلبة الباطل حينئذ من الدهر عرفوا أنها القننة ، وأدركوا أنه الابتلاء ، وأحسوا أن ربهم يربيههم لأن فيهم ضعفا أو نقصا .. وهو يريد أن يعدهم لاستقبال الحق المنتصر . وأن يجعلهم ستر القدرة فيدعهم يجتازون فترة الابتلاء . يستكملون فيها النقص ، ويعالجون فيها الضعف .. وكلما سارعوا إلى العلاج قصر عليهم فترة الابتلاء . وحقق على أيديهم ما يشاء ، أما العاقبة فهي مقررة (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) والله يفعل ما يريد .

== ٣ - كلمة الحق :

هناك حقائق عن طبيعة منهج هذه الدعوة التي لا يجوز للدعاة الاجتهاد فيها . وهي أن عليهم أن يجهروا بالحقائق الأساسية في هذا الدين . وأن يحقوا منها شيئا . وأن يؤجلوا منها شيئا ، وفي مقدمة هذه الحقائق : أنه لا ألوهية ولا ربوبية إلا لله . ومن ثم فلا دينونة ولا طاعة ولا خضوع ولا اتباع إلا لله .. فهذه الحقيقة الأساسية يجب أن تعلن أيا كانت المعارضة والتحدي ، وأيا كان الإعراض من المكذبين والنوثي ، وأيا كانت وعورة الطريق وأخطارها كذلك .

وليس من الحكمة والموعظة الحسنة ، إخفاء جانب من هذه الحقيقة أو تأجيله . لأن الطواغيت في الأرض يكرهونه أو يؤذون الذين يعلنونه ، أو يعرضون بسببه عن هذا الدين ، أو يكيدون له وللدعاة إليه . فهذا كله لا يجوز أن يجعل الدعاة إلى هذا الدين يكتُمون شيئا من حقائقه الأساسية أو يؤجلونه . ولا أن يبدأوا مثلا من الشعائر والأخلاق والسلوك والتهذيب الروحي . متجنبين غضب الطواغيت في الأرض . لوبدأوا من إعلان وحدانية الله والربوبية . ومن ثم توحيد الدينونة والطاعة والخضوع والاتباع لله وحده ..

إن هذا هو منهج الحركة بهذه العقيدة كما أراد الله سبحانه . ومنهج الدعوة إلى الله كما مار بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بتوجيه من ربه .. فليس لداع إلى الله أن يتنكب هذا الطريق وليس له أن ينهج غير ذلك النهج .. والله بعد ذلك

متكفل بدينه وهو حسب الدعوة إلى هذا الدين وكافهم شرّ الطواغيت .. ويوجه الله المؤمنين ليدعوا الله وحده ، ويخلصوا له الدين غير عابئين بكرة الكافرين (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) ، وإن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله ، وأن يدعوه وحده ، دون سواه ، ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لاطفهم المؤمنون أو هادئهم أو تلمسوا رضاهم بشئ الأساليب . فليعض المؤمنون في وجهتهم يدعون ربهم وحده ، ويخلصون له عقيدتهم ويصفون له قلوبهم ، ولا عليهم رضى الكافرون أو سخطوا ، وما هم يوما براضين .

والذين يقولون أنهم مسلمون ، ولا يقيمون ما أنزل إليهم من ربهم ، هم كآهل الكتاب ليسوا على شيء . والذي يريد أن يكون مسلماً ، يجب عليه بعد إقامة كتاب الله في نفسه ، وفي حياته أن يواجه الذين لا يقيمونه بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموه ، وأن دعواهم أنهم على دين يردّها عليهم ربّ العالمين . فالفاصلة في هذا الأمر واجبة ودعوتهم إلى الإسلام من جديد هي واجب المسلم الذي أقام كتاب الله في نفسه وفي حياته . فدعوى الإسلام باللسان والورثة دعوى لا تفيد إسلاماً ، ولا تحقق إيماناً ، ولا تعطي صاحبها صفة التدين في أي ملة وفي أي زمان . إن دين الله ليس راية ولا شعاراً ولا وراثه ..

✽ إن دين الله حقيقة تتمثل في الضمير وفي الحياة سواء . تتمثل في عقيدة تعمر القلب وشعائر تقام للتعبّد ونظام يصرف الحياة . ولا يقوم دين الله إلا في هذا الكل المتكامل . ولا يكون إنسان على دين الله إلا وهذا الكل المتكامل متمثل في نفوسهم وفي حياتهم .. وكل اعتبار غير هذا الاعتبار تميع للعقيدة ، وتخداع للضمير ، لا يقدم عليه مسلم بظيف اضسير .. وعنى المسلم أن يجهر بهذه الحقيقة ، ويفاضل الناس كلهم على أساسها . لا عليه مما ينشأ عن هذه المفاصلة والله هو العاصم . وصاحب الدعوة لا يكون قد بلغ عن الله . ولا يكون قد أقام الحجة لله على الناس إلا إذا أبلغهم حقيقة الدعوة كاملة ، ووصف لهم ما هم عليه ، كما هو في حقيقته بلا مجاملة ولا مداينة : فهو قد يؤذيه إن لم يبين لهم أنهم ليسوا على شيء . وإن ما هم عليه باطل كله من أساسه ، وأنه هو يدعوهم إلى شيء آخر

ثاماً ، غير ما هم عليه .. يدعوهم إلى نقلة بعيدة ورحلة طويلة : وتغيير أساسي
 (٤) في تصوراتهم ، وفي أوضاعهم وفي نظامهم وفي أخلاقهم .. فالناس يحبون أن يعرفوا
 من الداعية أين هم من الحق الذي يدعوهم اليه .. (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا
 من حي عن بينة) . وحين يجمع صاحب الدعوة : ويتم ولا يبين عن الفارق
 الأساسي بين واقع الناس من الباطل وبين ما يدعوهم اليه من الحق . وعن الفاصل
 بين حقه وباطلهم .. حين يفعل صاحب الدعوة هذا مراعاة للظروف والملاسات .
 وحذراً من مواجهة الناس بواقعهم الذي يملأ عليهم حياتهم وأفكارهم وتصوراتهم
 فإنه يكون قد خدعهم وأذاهم . لأنه لم يعرفهم حقيقة المطلوب منهم كله . وذلك
 فوق أنه يكون لم يبلغ ما كلفه الله تبليغه . إن التلطف في دعوة الناس إلى الله ينبغي
 أن يكون في الأسلوب الذي يبلغ به الداعية ، لا في الحقيقة التي يبلغهم إياها . إن
 الحقيقة يجب أن تبلغ اليهم كاملة . أما الأسلوب فيتبع مقتضيات القائمة ،
 ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة . ولقد ينظر بعضنا اليوم مثلاً فيرى أن
 أهل الكتاب . هم أصحاب الكثرة العددية وأصحاب القوة المادية ، وينظر فيرى
 أصحاب الوثنيات المختلفة يعدون بمئات الملايين في الأرض : وهم أصحاب كلمة
 مسموعة في الشؤون الدولية ، وينظر فيرى أصحاب المذاهب المادية ذوي أعداد
 ضخمة وأصحاب قوة مدمرة . وينظر فيرى الذين يقولون : آيهم مسلمون ليسوا على
شيء لأنهم لا يقيمون كتاب الله المنزل اليهم . فيتعاطفه الأمر ، ويستكثر أن يواجه
 هذه البشرية الضالة كلها بكلمة الحق الفاصلة . ويرى عدم الجدوى في أن يبلغ
 الجميع أنهم ليسوا على شيء ، وأن يبين لهم الدين الحق . وليس هذا هو الطريق ..
 إن الجاهلية هي الجاهلية . ولو عثمت أهل الأرض جميعاً ، وواقع الناس كله
 ليس بشيء ما لم يقم على دين الله الحق ، وواجب صاحب الدعوة هو واجبه لا
 تغيره كثرة الضلال ولا ضخامة الباطل .. فالباطل زكام ، وكما بدأت الدعوة
 الأولى بتبليغ أهل الأرض قاطبة : أنهم ليسوا على شيء .. كذلك ينبغي أن
 تستأنف . وقد استدار الزمان كهيشته يوم بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم .
 هذه هي الحقيقة الأساسية التي لا يجوز للمسلم الحق أن يجمع فيها أو يتمم أمام

ضخامة الواقع الجاهلي الذي تعيش فيه البشرية، فلا يحمله ضغط الواقع الجاهلي أن يدهن بشعار أو راية .. إنما يجب أن تصدع بكلمة الحق ولا يخاف من قوى الباطل والجاهلية المترامية .. إن كلمة الحق في العقيدة لا ينبغي أن تجمجم . إنما يجب أن تبلغ كلمة فاصلة . وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء . وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل . فإنها كلمة الحق في العقيدة . لا تتعلق الأهواء ولا تراعي مواقع الرغبات ، إنما تراعي أن تصدع حتى تصل إلى القلوب . في قوة وفي نفاذ .. وكلمة الحق في العقيدة حين تصدع تصل إلى مكان القلوب التي يكمن فيها الاستعداد للهدى .. وحين تجمجم لا تلبس لها القلوب التي لا استعداد فيها للإيمان ، وهي القلوب التي قد يطمح صاحب الدعوة في أن تستجيب له لوداعها في بعض الحقيقة (إن الله لا يهدي القوم الكافرين) .. وإذن فلنكن كلمة الحق حاسمة فاصلة كاملة شاملة .. والهدى والضلال إنما مناطهما استعداد القلوب وتفتحها . لا المداينة والملاطفة على حساب كلمة الحق . أو في كلمة الحق . والمطلوب هو عدم المداينة في بيان كلمة الحق كاملة في العقيدة ، وعدم اللقاء في منتصف الطريق في الحقيقة ذاتها . فالحقيقة الاعتقادية ليست فيها أنصاف حلول .

٤ — المداينة وأنصاف الحلول :

هناك كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغي أن يعيش فيها الدعوة إلى الله طويلا . وأن يتعمقوها تعمقا كاملا . وأن ينظروا بتدبر في مدلولاتها الواقعية والنفسية والإيمانية الكبيرة .. لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده : وهو لم يكن يواجه في نفوسهم مجرد عقيدة ولو كان الأمر كذلك لكان أبسر كثيرا . فإن عقيدة الشرك المهلهلة التي كانوا عليها لم تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة . إنما كانت الملايسات التي تحيط بالعقيدة وبالموقف هي التي تقود إلى تلك المعارضات العنيدة . التي شهدت بها الروايات التاريخية ، وحكاها القرآن الكريم في مواضع متو شتى .. كانت المكانة الاجتماعية ، والاعتزاز بالقيم السائدة في البيئة وما يتلبس بها

كذلك من مصالح مادية .. هي العنصر الأول الذي يقود إلى التثبيت بالعقيدة الواهنة الظاهرة البطلان في وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ، ولذائدها وشهواتها ، إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأني على العقيدة الجديدة . وما فيها من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة ، لا تسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ، ولا بالحياة العابثة المأجنة المطلقة من كوابح الأخلاق . وهذه الأسباب سواء ما يتعلق منها بالمكانة والقيم الاجتماعية والسلطان والمال والمصالح ، وما يتعلق منها بالألف والعادة ، وصور الحياة التقليدية ، وما يتعلق منها بالانطلاق من القيم والقيود الأخلاقية . كانت قائمة في وجه الدعوة الأولى ، وهي هي قائمة في وجه الدعوة في كل أرض وفي كل جيل وهي تمثل العناصر الثابتة معركة العقيدة التي تجمعها معركة عنيدة . لا تنتهي من قريب ، وتجعل مشاقها وتكاليفها والتهات عليها من أعسر التكاليف .. ومن ثم ينبغي للدعاة إلى دين الله في أي أرض وفي أي زمان أن يعيشوا طويلا في الحقيقة الكبيرة الكامنة وراء قول الله العظيم (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا) .. وملابسات نزولها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهي ملابسات معركة واحدة ، يخوضها كل صاحب دعوة إلى الله في أي أرض وفي أي زمان ..

لقد تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم التكليف من ربه لينذر وقيل له (يا أيها المدثر قم فأنذر) فلما أن نهض ، واجهته تلك العوامل والأسباب التي تصد القوم عن الدعوة الجديدة ، وتثير في نفوسهم التثبيت بما هم عليه ، وتقودهم إلى العناد الشديد ، ثم إلى الدفاع العنيد عن معتقداتهم وأوضاعهم ، ومكانتهم ومصالحهم ومألوف حياتهم ، ولذائدهم وشهواتهم إلى آخر ما تهدده الدعوة الجديدة أشد التهديد .

وأخذ هذا الدفاع العنيد صورا شتى ، في أولها إيذاء القلة المؤمنة التي استجابت للدعوة الجديدة ، ومحاولة فتنها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد ثم تشويه هذه العقيدة وإثارة الغبار حولها ، بثني التهم والأساليب كي لا ينضم إليها مؤمنون جدد .. فمنع الناس عن الانضمام إلى راية العقيدة قد يكون أيسر من فتنه الذين

عرفوا حقيقتها وذاقوها ، وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، طرقا شتى من الإغراء إلى جانب التهديد والإيذاء . ليلتقي بهم في منتصف الطريق ، ويكف عن الحملة الساحقة على معتقداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ، ويصالحهم ويصالحونه على شيء يرتضيه ويرتضونه ، كما تعود الناس أن يلتقوا في منتصف الطريق . عند الاختلاف على المصالح والمفاهيم وشؤون هذه الأرض المعهودة .

وهذه الوسائل ذاتها أو ما يشابهها هي التي يواجهها صاحب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل . والنبي صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه رسول حفظه الله من الفتنة وعصمه من الناس .. إلا أنه بشر يواجه الواقع الثقيل في قلة من المؤمنين وضعف . والله يعلم منه هذا فلا يدعه وحده لمواجهة الواقع الثقيل بلا عون ومدد وتوجيه إلى معالم الطريق . وها هو العون والمدد والتوجيه (انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) وهي الفتنة الأولى إلى مصدر التكليف بهذه الدعوة وينبوع حقيقتها . إنها من الله هو مصدرها الوحيد ، وهو الذي نزل بها القرآن فليس لها مصدر آخر ، ولا يمكن أن تحتلط حقيقتها بشيء آخر لا يفيض من هذا ينبوع ، وكل ما عدا هذا المصدر لا ينلقى عنه . ولا يستمد منه . ولا يستعار لهذه العقيدة منه شيء ، ولا يخلط بها منه شيء .

ثم إن الله الذي نزل هذا القرآن ، وكلف بهذه الدعوة لمن يتركها . ولن يترك الداعي إليها . وهو كلفه وهو نزل القرآن عليه . ولكن الباطل يتبجح والشر ينتفش . والأذى يصيب المؤمنين . والفتنة ترصد لهم . والصد عن سبيل الله يملكه أعداء الدعوة ويقومون به ويصرون عليه . فوق إصرارهم على عقيدتهم وأوضاعهم وتقاليدهم وفسادهم وشرهم الذي يلجئون فيه . ثم هم يعرضون المصالح وقسمة البلد بلدين . والالتقاء في منتصف الطريق . وهو عرض يصعب رده ورفضه في مثل تلك الظروف العvisية .. هنا نجيء الفتنة الثانية (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا) .. إن الأمور مرهونة بقدر الله ، وهو يمهل الباطل ، ويملي للشر . ويبطل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص .. كل أولئك

الحكمة يعلمها يجري بها قدره وينفذ بها حكمه (فاصبر لحكم ربك) حتى يجيء موعده المرسوم . اصبر على الأذى والفتنة . واصبر على الباطل يغلب ، والشر يتفج . ثم اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق الذي نزل به القرآن عليك .. اصبر ولا تستمع لما يعرضونه من المصالحاة والالتقاء في منتصف الطريق . ، على حساب العقيدة : (ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى بر ، ولا إلى خير فهم آثمون كفار . يدعونك إلى شيء من الإثم والكفر . إذن حين يدعونك إلى الالتقاء بهم في منتصف الطريق . وحين يعرضون عليك ما يظنونه يرضيك ويفريك ، وقد كانوا يدعونه باسم شهوة السلطان ، وباسم شهوة المال ، وباسم شهوة الجسد : فيعرضون عليه مناصب الرياسة فيهم ، والراء حتى يكون أغنى من أغناهم ، كما يعرضون عليه الحسان القاتنات ، حيث كان عتبة بن ربيعة يقول له : (ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجهك ابنتي فإني من أجمل قریش بنات) . كل الشهوات التي يعرفها أصحاب الباطل لشراء الدعاة في كل أرض وفي كل جيل .. (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) فإنه لا لقاء بينك وبينهم . ولا يمكن أن تقام قنطرة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التي تفصل منهنك عن منهنهم ، وتصورك للوجود كله عن تصورهم ، وحققك عن باطلهم ، وإيمانك عن كفرهم ، وفورك عن ظلماتهم ، ومعرفتك بالحق عن جاهليتهم .. اصبر ولو طال الأمد ، واشتدت الفتنة ، وقوي الإغراء ، وامتد الطريق ..

والحقيقة التي ينبغي أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هي هذه الحقيقة التي لقنها الله لصاحب الدعوة الأولى صلى الله عليه وسلم .. هي أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند الله فهو صاحبها ، وأن الحق الذي تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الآثمون الكفار . فلا سبيل إلى التعاون بين حقا وباطلهم ، أو الالتقاء في منتصف الطريق بين القائم على الحق ، والقائم على الباطل . فهما منهجان مختلفان .. وطريقان لا يلتقيان . فأما حين يغيبه الباطل بقوته وجمعه ، على قلة المؤمنين وضعفهم . لحكمة يراها الله .. فالصبر حتى يأتي الله بحكمه ، والاستعداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح وهي الزاد المضمون لهذا

الطريق .. انها حقيقة كبيرة لا بُد أن يدركها ويعيش فيها وواد هذا الطريق ..
فالمحاولات كثيرة التي حاولها المشركون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في
المساومة بالدعوة ، ولكن الله عَصِمَ منها رسوله . وهي محاولات أصحاب السلطان
مع أصحاب الدعوات دائما . محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلا عن استقامة الدعوة
وصلابتها . ويرضوا بالحل الوسط الذي يغروهم به في مقابل مغايم كثيرة . ومن جملة
الدعاة من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هينا فأصحاب السلطان لا يظنون
انه ن يترك دعوته كليا . إنما هم يطلبون تعديلات صفيفة ليلتقي الطرفان في
منتصف الطريق .

وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة . فيتصور أن خبير الدعوة
في كسب أصحاب السلطان اليها ، ولو بالتنازل عن جانب منها .. ولكن الانحراف
الضئيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق . وصاحب
الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير . وفي إغواء طرف منها ولو ضئيل
لا يملك أن يقف ، عندما سلم به أول مرة . لأن استعدادة للتسليم يتزايد كلما رجع
خطوة إلى الوراء . والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها . فالذي ينزل عن جزء منها
مهما صغر ، والذي يسكت عن طرف منها مهما خُذول . لا يمكن أن يكون مؤمنا
بدعوته حق الايمان . فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق
كالآخر . وليس فيها فاضل ومفضول . وليس فيها ضروري ونافلة . وليس فيها ما
يمكن الاستغناء عنه . وهي كل متكامل . يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد
أجزائه . كالمركب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره .

وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات ، فإذا سلموا في الجزء فقدوا
هبتهم وخصائصهم . وعرف المستطون أن استمرار المساومة وارتفاع السعر يتجهان إلى
تسليم الصفيقة كلها . والتسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب
أصحاب السلطان هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصره
الدعوة . والله وحده هو الذي يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم . ومتى دبّت الهزيمة في
أعماق المريعة فلن تنقلب الهزيمة نصرا (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحى

اليك لتفكري علينا غيره . وإذا لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً . إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً . وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يبتشون خلافك إلا قليلاً . ستة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لستنا تحويلاً .

بل إن الانحراف في العقيدة ولو كان ضئيلاً ، لا تقف آثاره عند حدود العقيدة ، بل يتمشى في أوضاع الحياة الاجتماعية وتقاليدها . فالعقيدة هي المحرك الأول للحياة . لذلك فمحاولات المساومة مع هذا الدين كثيرة للالتقاء في منتصف الطريق كما يفعلون في التجارة ، وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير . فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شيء منها لأن الصغير منها كالكبير . بل ليس في العقيدة صغير وكبير . إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء . لا يطيع فيها صاحبها أحداً . ولا يتخلى عن شيء أبداً .. وما كان يمكن أن ينقي الاسلام والجاهلية في منتصف الطريق ، ولا أن يلتقيا في أي طريق (ودّوا لو تدهن فيدهنون) .

وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان . جاهلية الأمم وجاهلية اليوم . وجاهلية الغد كلها سواء . إن الهوة بينها وبين الإسلام لا تعبر . ولا تُقام عليها قنطرة ولا تقبل قسمة ولا صلة . وإنما هو النضال الكامل الذي يستحيل فيه التوفيق . إن المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهرية الكامل . الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق . الاختلاف في جوهر الاعتقاد وأصل التصور . وحقيقة المنهج ، وطبيعة الطريق .. إن التوحيد منهج والشرك منهج آخر .. ولا يلتقيان .. التوحيد منهج يتحده بالإنسان - مع الوجود كنه - إلى الله وحده لا شريك له . ويعدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان عقيدته وشرعيته ، وقيمه ومواريثه ، وآدابه وأخلاقه ، وتصوراتها كلها عن الحياة وعن الوجود . هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله . الله وحده بلا شريك . ومن ثم تقوم أخية كلها على هذا الأساس غير متلصة بالشرك في أية صورة من صور الظاهرة والخفية .. وهي تسيير .. وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورة للدعاية ، وضرورية للمدعوين .. إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان .

وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها . وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المجردة من الغش والالتواء والانحراف . أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلا . ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافات وتتلوى . واختلاط عقائدها وأعمالها . وخط الصالح بالفساد فيها ، قد يُغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها ، إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد .. وهذا الإغراء في منتهى الخطورة ..

إن الجاهلية جاهلية ، والإسلام إسلام ، والفارق بينهما بعيد ، والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بحملتها إلى الإسلام بحملته . هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها ، والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه .. وأول خطوة في الطريق هي تمييز الداعية وشعوره بالانزعاج التام عن الجاهلية : تصورا ومنهجيا وعملا . الانزعاج الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق . والانفصال الذي يستحيل معه التعاون ، إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام .. لا ترقيع .. ولا أنصاف حلول . ولا التقاء في منتصف الطريق ، مهما تزيّت الجاهلية بزّي الإسلام ، أو ادعت هذا العنوان . وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس . شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء . لهم دينهم وله دينه ، لهم طريقته وله طريقته . لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم ، ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو ، بلا مdahنة ، ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير . وإلا فهي البراءة الكاملة . والمفاصلة التامة ، والحسم الصريح (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين) .

وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم .. ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة . وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة ، ثم طال عليهم الأمد (فقسمت قلوبهم وكثير منهم فاسقون) .. وإنه ليس هناك أنصاف حلول . ولا التقاء في

متتصف الطريق ، ولا إصلاح عبوب ، ولا ترقيع مناهج . إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان : الدعوة بين الجاهلية . والتميز الكامل عن الجاهلية (لكم دينكم ولي دين) ، وبغير هذه المفاصلة . سيبقى الغبش ، وتبقى المداهنة ويبقى اللبس ، ويبقى الترقيع .. والدعوة إلى الإسلام التي لا تقوم على هذه الأسس مدخولة واهنة ضعيفة .. إنها لا تقوم على الحسم والصرامة والشجاعة والوضوح ، وهذا هو طريق الدعوة الأول (لكم دينكم ولي دين) .

٥- رد حاسم :

إن الإسلام منهج واقعي للحياة لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية ، إنه يواجه الحياة البشرية . كما هي بعرائقها وجواذبها وملابسها الواقعية . يواجهها ليقودها قيادة واقعية إلى السير والارتقاء في آن واحد ، يواجهها بحلول عملية تكافئ واقعيتها ، ولا ترفرف في خيال حالم : لا تجدي على واقع الحياة شيئاً ..

إن الإسلام يرفع حرمة من يرفعون الحرمات ، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه . ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن يتهاون بالحرمات ، ويؤذون الطيبين ويقتلون الصالحين . ويفتنون المؤمنين ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان . والإسلام يحضي في هذا المنهج .. إنه يحرم الغيبة .. ولكن لا غيبة لفاسق . فالفاسق الذي يشتهر بفسقه ، لا حرمة له يعف عنها الذين يكتون بفسقه وهو يحرم الجهر بالسوء من القول ولكنه يستثنى (إلا من ظلم) فله أن يجهر في حق ظالمه بالسوء من القول لأنه حق ولأن السكوت عن الجهر به يطمح الظالم في الاحتفاء بالمبدأ الكريم الذي لا

يستحقه .. ومع هذا يبقى الإسلام في مستواه الرفيع لا يتدنى إلى مستوى الأشرار البغاة ، ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخبيثة . إنه فقط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم وإلى قتالهم وقتلهم وإلى تطهير جثث الحياة منهم هكذا جهره .. هذا هو الإسلام صريحاً قوياً دامناً . لا يلف ولا يدور ولا يدع

الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله أو يدور .. وهذا هو القرآن يقف بالمسلمين على أرض صلبة لا تتأرجح فيها أقدامهم . وهم يمضون في سبيل الله لتطهير الأرض من الشر والفساد ولا يدع ضمايرهم قلقه متحرجة تأكلها الهواجس . وتأذيها الوسواس .. هذا شر وفساد وبغي وباطل .. فلا حرمة له إذن . ولا يجوز أن يتيسر بالحرمات . ليضرب من ورائها الحرمات . وعلى المسلمين أن يمتصوا في طريقهم في يقين وثقة وسلام في ضمايرهم وفي سلام من الله . هكذا يروج الباطل بدعايته المضللة بشق الأساليب الماكرة على الجماعة المسلمة أنها تعتدي وتنتهك الحرمات .. ومن قيادة الجماعة المسلمة يأتي هم الأمر المطمئن (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) وهكذا تطلق كلمة الحق . ولكن يراد بها باطل ، وهي مجرد ستار يحمي الباطل خلفه لتشريه موقف الجماعة المسلمة ..

هكذا يعلمنا الله أن هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون . لا يقيمون للمقدسات وزنا ولا يتحرجون امام الحرمات . ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة . يفتنون دون الحق فيصدون الناس عنه ، ويفتنون المؤمنين . ويؤذونهم أشد الإبداء . ثم بعد ذلك يتسترون وراء احرمات ويقيمون الدنيسا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات . فكيف يواجههم الإسلام ؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائفة ؟ إنه ان يفعل بمجرد المسلمين الأخيار من السلاح ، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح . ولا يتورعون عن سلاح . كلا . إن الإسلام لا يصنع هذا . لأنه يريد مواجهة الواقع لدفعه ورقعه . يريد أن يزيل البغي والشر . وأن يقلم أطراف الباطل ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة . ويسلم القيادة للجماعة الطيبة . ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة . ليرموا الطيبين الصالحين البناة وهم في مأمن من ردة الهجمات . وحين تكون القيادة في الأيدي النظيفه الطيبة المؤمنة المستقيمة حينئذ تهبان للمقدسات حرمتها كاملة كما أرادها الله .

الباب الرابع

أعداء الدين

ينبغي على الدعاة أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم ، فهذه نصف المعركة . وإن التوجيهات الإلهية للجماعة الإسلامية ما تزال هي هي . قائمة اليوم وغداً وتبصر كل جماعة مسلمة تعتزم سلوك الطريق لإعادة نشأة الإسلام ولاستئناف حياة إسلامية في ظل الله .. تبصرها بطبيعة أعدائها ، وهم هم مشركين وملحدين وأهل كتاب من الصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية . والشيعوية . وتبصرها بطبيعة العقبات والأفخاخ المرصودة في طريقها ، وطبيعة الآلام والتضحيات ، والأذى والابتلاء . وتعلق قلوبها وأبصارها بما هنالك . بما عند الله ويتهون عليها الأذى والموت والفتنة في النفس والمال . وتناديها كما نادى الجماعة المسلمة الأولى . والقرآن هو القرآن . كتاب هذه الأمة الخالد . دستورهما الشامل وحاديها الهادي وقائدهما الأمين . وأعداؤها هم أعداؤها .. والطريق هو الطريق .

إن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح فحسب . ولم يكونوا يؤلبون عليهم الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب . إنما كانوا يحاربونها أولاً في عقيدتها . كانوا يحاربونها باللسان والتشكيك ، ونشر الشبهات ، وتدمير المناورات . كانوا يعملون أولاً إلى عقيدتها الإيمانية التي انبثق منها كيانها . ومنها قام وجودها فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين . وذلك أنهم

كانوا يدركون ، كما يدركون اليوم أن هذه الأمة لا تؤق إلا من هذا المدخل ، ولا تن إلا إذا هنت عقيدتها ، ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها ، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا وهي ممسكة بعروة الإيمان مرتكئة إلى ركنه ، سائرة على نهجه ، حاملة لرايته . منتسبة إليه . معتزة بهذا النسب وحده .

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يلبيها عن عقيدتها الايمانية . ويحيد بها عن منهج الله وطريقه ، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة . إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة . وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلّبوا على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخصامات فانهم يحاولون أولا أن يغلّبوا على العقيدة ، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها ، ملتزمة بمنهجها ، مدركة لكيد أعدائها .. ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاتهم جهد الجبارين في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة . ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال . وهم آمنون من عزمة العقيدة في الصدور . وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة والتشكيك فيها والتوهين من عراها ، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المتريفة الجديدة . ولكن لنفس الغاية القديمة (ودت طائفة من أهل الكتاب **الله** يفضلونكم) فهذه هي الغاية الثابتة الدفينة .. وسيظل اليهود والنصارى يحاربون المسلم ويكيدون له حتى يتخلى عن عقيدته (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) .

إنها العقيدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ، وفي كل مكان . إنها هي العقيدة .. هذه هي حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة .. إنها معركة العقيدة .. إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها ، ولكن هؤلاء يلونونها بألوان شتى . ويرفعون عليها أعلاما شتى في خبث ومكر وتورية . أنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين يواجهونهم تحت راية العقيدة . ومن ثم استدار الأعداء العريقون فغبروا أعلام المعركة . لم يعلنوها حربا باسم العقيدة — على حقيقةتها — خوفا من حماسة العقيدة

وجيشانها . إنما أعلنوها باسم الأرض . والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية وما إليها ، وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت قديمة لا معنى لها ، ولا يجوز رفع رايتها وخوض المعركة باسمها : فهذه سمة المتخلفين المتعصبين . ذلك كى بأمنوا جيشان العقيدة وحماستها . بينما هم في قرارة نفوسهم - الصهيونية العالمية والصلبية العالمية بإضافة الشيوعية العالمية - جميعا يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء ، لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي تطحوها طويلاً فأدمتهم جميعاً ..

إنها معركة العقيدة . إنها ليست معركة الأرض ، ولا الغلة . ولا المراكز العسكرية . ولا هذه الراية المزيفة كلها . إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين : ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها . فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا ، ونحن نبعد عن توحيه الله وهو أصدق القائلين (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) . (وودّ لو تكفرون) . والذي يذوق حلاوة الايمان بعد الكفر ويهتدي بنوره بعد الضلال . ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامه طريقه . وطمأنينة قلبه . يكره العودة إلى الكفر ، كما يكره أن يلتقى في النار أولاً أشد . فعندو الله هو الذي يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر . وقد خرج منه إلى جنة الايمان ، وإلى فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الايمان المعمور ..

إن أهل الكتاب يحاربون هذا الحق وأهله ، رغم أنهم يعلمون . أن كتاب الحق منزل من عند الله (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك) وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذي يتلبس به ومن هذا الحق الذي يحتويه . وما يزالون من أحل علمهم هذا كله يحاربون هذا الدين ويحاربون هذا الكتاب حرباً لا تهدأ ..

وأشدّ هذه الحروب وأنكاهاً . هو تحويل الحاكمة عن شريعة هذا الكتاب . إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر . وجعل غير الله حكماً حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود . وإقامة أنوھيات أخرى في

البلاد التي كانت الأوهية فيها لله وحده . يوم كانت تحكمها شريعة الله التي في كتابه ، ولا تشاركها شريعة أخرى . ولا يوجد إلى جوار كتاب الله كتب أخرى تستمد منها أوضاع المجتمع ، وأصول التشريعات . ويرجع إليها . ويستشهد بقرائنها كما يستشهد المسلم بكتاب الله وآياته . وأهل الكتاب من صليبيين وصهيونيين من وراء هذا كله . ومن وراء كل وضع وكل حكم يقام لمثل هذه الأهداف الخبيثة .

سـ ١ - لافئة إسلامية :

إن أعداء هذا الدين الراصدين لحركات البعث الإسلامي الجديدة في هذا الجيل يرصدونها عن خبرة واسعة بطبيعة النفس البشرية . ويتاريخ الحركة الإسلامية على السواء ، وهم من أجل ذلك حريصون كل الحرص على رفع (لافئة إسلامية) على الأوضاع والحركات والاتجاهات والقيم والتقاليد والأفكار التي يبعثونها ويقيمونها ويطلقونها لسحق حركات البعث الإسلامي الجديدة في أرجاء الأرض جميعا . ذلك لتكون هذه اللافئة الخادعة مانعة من الانطلاق الحقيقي لمواجهة الجاهلية القابعة وراء تلك اللافئة الكاذبة ..

لقد أخطأوا مرة أو مرات في إعلان حقيقة بعض الأوضاع والحركات . وفي الكشف عن الوجه الكالح للجاهلية المنفضة على الإسلام فيها .. وأقرب مثال لذلك حركة (أتاتورك) اللإسلامية الكافرة في تركيا.. وكان وجه الاضطراب فيها هو حاجتهم الملحة إلى إلغاء آخر مظهر للتجمع الإسلامي تحت راية العقيدة . ذلك المظهر الذي كان يتمثل في قيام الخلافة . وهو وإن كان مجرد مظهر . كان آخر عروة تنقض قبل نقض عروة الصلاة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ينقض هذا الدين عروة عروة فأولها الحكم وآخرها الصلاة) .

ولكن أولئك الأعداء الواعين . من أهل الكتاب والملحدون الذين لا يجتمعون إلا حين تكون المعركة مع هذا الدين . لم يكادوا يتجاوزون منطقة الاضطراب في الكشف عن الوجهة اللإسلامية الكافرة في حركة أتاتورك . حتى عادوا يحرمون

بشدة على ستر الأوضاع التالية المماثلة لحركة أتاتورك في وجهتها الدنيئة بستر الإسلام، ويحرصون على رفع اللافتة على تلك الأوضاع - وهي أشد خطرا على الإسلام من حركة أتاتورك السافرة - ويفتنون افتنانا في ستر حقيقة هذه الأوضاع ، التي يقيمونها ويكفلونها اقتصاديا وسياسيا وفكريا ويبيئون لها أسباب الحماية بأقلام مخبراتهم وبأدوات إعلامهم العالمية ، وبكل ما يملكونه من قوة وحيلة وخبرة .

ويتعاون أهل الكتاب والملحدون على تقديم المعونات المتنوعة لها ، لتؤدي لهم هذه المهمة ، التي لم تنته فيها الحروب الصليبية قديما ولا حديثا ، يوم كانت هذه الحروب الصليبية معركة سافرة بين الإسلام وأعدائه المكشوفين الظاهرين . والسذج ممن يدعون أنفسهم مسلمين يخدعون بهذه اللافتة .. ومن هؤلاء السذج كثير من الدعاة إلى الإسلام في الأرض . فيتخرجون من إنزالها عن الجاهلية القائمة تحتها . ويتخرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها هذه اللافتة الخادعة .. صفة الشرك والكفر الصريحة .. ويتخرجون من وصف الناس الراضين بهذه الأوضاع بصفتهم الحقيقية كذلك .

وكل هذا يتحول دون الانطلاق الحقيقي الكامل لمواجهة هذه الجاهلية ، مواجهة صريحة ، لا تخرج فيها ولا تأثم من وصفها بصفتها الحقيقية الواقعة . بذلك تقوم تلك اللافتة بعملية تخدير خطيرة لحركات البعث الإسلامي ، كما تقوم دون الوعي الحقيقي ، ودون الانطلاق الحقيقي لمواجهة الجاهلية الحالية التي تتصدى لسحق الجنود الباقية لهذا الدين .. هؤلاء السذج من الدعاة إلى الإسلام أخطر على حركات البعث الإسلامي من أعداء هذا الدين الواعين الذين يرفعون لافتة الإسلام على الأوضاع والحركات والاتجاهات والأفكار والقيم والتقاليد التي يقيمونها ويكفلونها لتسحق لهم هذا الدين .

سبب إن هذا الدين يغلب دائما عندما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصبية المؤمنة في أي زمان وفي أي مكان. والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامنا في أن يكون له أعداء أقوياء واعين مدبرون ، بقدر ما يمكن في أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون ، يتخرجون في غير تخرج ، ويقبلون أن يتبرس

أعداؤهم بلافة خادعة من الإسلام ، بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه
اللافتة الخادعة . إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض ، أن ينزلوا تلك
اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية ، والتي تحمي هذه الأوضاع
لسحق جذور هذا الدين في الأرض . جميعا .. وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية
هي تعرية الجاهلية من رداؤها الزائف ، وإظهارها على حقيقتها .. شركاً وكفراً ..
ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم ، كيما تواجههم الحركة الإسلامية
بالطلاقة الكاملة . بل كيما ينتبه هؤلاء الناس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه
حالهم ، عسى أن يوقفهم هذا التنبيه إلى تغيير ما بأنفسهم ، ليغير الله ما بهم ، من
الشقوة والنكد والعذاب الأليم الذي هم فيه مبلسون . وكل تَحَرُّج في غير موضعه ،
وكل انخداع بالأشكال والظواهر واللافتات ، هو تعويق لنقطة الانطلاق الأولى
لأية حركة إسلامية في الأرض جميعا . وهو تمكين لأعداء هذا الدين من مكرمهم
الذي أرادوا بالحرص على إقامة تلك اللافتات بعدما انكشفت حركة أتاتورك في التاريخ
الحديث ، وباتت عاجزة عن السير خطوة واحدة ، بعد إلغاء آخر مظهر من مظاهر
التجمع الإسلامي على أساس العقيدة ، فَنَظَرُوا لانكشاف وجهتها هذا الانكشاف
الصريح .. مما دعا كاتباً صليبياً شديد المكر عميق الخبث مثل (ولفرد كانتول
سميث) في كتابه الإسلام في التاريخ الحديث إلى محاولة تغطية حركة أتاتورك مرة
أخرى ، ونفي الاتحاد عنها ، واعتبارها أعظم وأصح حركة بعث إسلامي (كذا)
في التاريخ الحديث ..

فما أحوج المسلمين اليوم في جميع بقاع الأرض إلى أن يدركوا طبيعة المعركة .
وحقيقة القضية ، فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التي تستر بها أحزاب الشرك
والكفر ، فانهم لا يُحَارِبُونَ المسلمين إلا على العقيدة مهما تنوعت الملل والأسباب ؛
فنقيم القيادات المضللة أصناماً تختلف أسماؤها وأشكالها ، وفق النعرة السائدة
في كل جاهلية . وتجمع حوالها الأتباع . وتسيج في قلوبهم الحمية هذه الأصنام .
كي توجههم من هذا الخطام إلى حيث نشاء . وتبقيهم على الضلال الذي يكفل لها
الطاعة والانقياد (وقد أضلوا كثيراً) . ككل قيادة ضالة تجس الناس حول الأصنام .

أصنام الأحمجار وأصنام الأشخاص ، وأصنام الأفكار .. سواء للصد عن الدعوة لله . وتوجيه القلوب بعيداً عن الدعاة . بالمكر ، والكيد والإصرار .

ومن خطط الكفر ضد أصحاب الإيمان قوله يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النخيزة . وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان ، يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان في حرب العقيدة . ومناهضة الأديان (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) وذلك أنهم لحسة مشاعرهم . يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة ، كما هي في حسهم . فيحاربون بها المؤمنين ، وهي خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصرته رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسلموه للمشركين .. وهي خطة المنافقين لينفض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه تحت وطأة الجوع والقيح .. وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ويتركوا الصلاة ، وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي بالحصار والتجويع ، وبمحاولة سد أسباب العمل والارتزاق .

٢ - خبث ومكر بزر

لقد كان من ثمرة اليأس من هذا الدين . حين كان أعداؤه يواجهونه وجهاً لوجه . أن عدل اليهود والصهيونيون والنصارى الصليبيون عن مواجهة الإسلام عن طريق الشيوعية ، أو عن طريق التبشير . فعدلوا إلى طرائق أخبث ، وإلى حبال أمكر ..

٢- بلحاظ إلى إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة كلها تتزيا بزي الإسلام . وتسمح في العقيدة ولا تنكر الدين جملة .. ثم هي تحت هذا الستار الجادع . تنفذ جميع المشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير وبيروت وكالات صهيون ، ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل ..

إن هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام أو على الأقل تعلن احترامها

للدين بينما هي تحكم بغير ما أنزل الله وتقصي شريعته عن الحياة ، ونحل ما حرم الله وتنشر تصورات وقيما مادية عن الحياة والأخلاق تدمر التصورات والقيم الإسلامية ، وتسلب جميع أجهزة التوجيه والاعلام لتدمير القيم الأخلاقية الإسلامية ، وسحق التصورات والاتجاهات الدينية . وتنفذ ما نصت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات الصهيونيين ، من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع وجعلها فتنه للمجتمع باسم التطور والتحضر ، ومصلحة العمل والاناج . بينما ملايين الأيدي العاملة في هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف .. ونسير وسائل الانحلال وتدفع الجنسين إليها دفعا بالعمل والتوجيه .. كل ذلك وهي تزعم أنها مسلمة وأنها تحترم العقيدة . والناس يتوهمون أنهم يعيشون في مجتمع مسلم ، وأنهم هم كذلك مسلمون .. أليس الطيبون منهم يصلون ويصومون ؟ أما أن تكون الحاكمية لله وحده ، أو تكون للأرباب المتفرقة . فهذا ما قد خدعتهم عنه الصليبية والصهيونية والتبشير والاستعمار والاستشراق وأجهزة الاعلام الموجهة . وأفهمتهم أنه لا علاقة له بالدين وأن المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين ، وفي دين الله ، بينما حياتهم كلها تقوم على تصورات وقيم وشرائع وقوانين ليست من هذا الدين ..

(١) وإمعانا في الخداع والتضليل ، وإمعانا من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية في التخفي ، فلنأثر حروبا مصطنعة — باردة أو ساخنة — وعداوات مصطنعة في شتى الصور ، بينها وبين هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها ، والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية ، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية ، وتجعل أفلام مخبراتها في خدمتها وحراستها المباشرة . تثير هذه الحروب المصطنعة ، والعداوات المصطنعة ، لتزيد من عمق الخدعة ، ولتبعد الشبهة عن العملاء ، الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تزيد من تدمير القيم والأخلاق ، وسحق العقائد والتصورات وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول .. وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم .. وتنفيذ المخططات الرهيبة التي تضمنتها بروتوكولات الصهيونيين ومؤتمرات المبشرين . في غفلة من الرقباء والعيون . فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة لم تجز عليها الخدعة ، ولم تستسلم

لتخدير باسم الدين المزيف ، وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لـتـحريف الكلم عن مواضعه ، ولوصف الكفر بأنه الإسلام ، والفسق والفجور والانحلال ، بأنه تطور وتقدم وتجدد.. إذا بقيت بقية كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة.. وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسحقت سحقاً . بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الاعلام العالمية خرساء صماء عمياء ..

٢٠ / ذلك . بينما الطييون السذج من المسلمين يحسبون أنها معركة شخصية ، أو طائفية ، لا علاقة لها بالمعركة المشوبة مع هذا الدين ، ويروحون يشتغلون في سداجة بلهاء — من تأخذ الحمية للدين منهم والأخلاق — بالتنبيه إلى مخالفات صغيرة ، وإلى منكرات صغيرة ، ويحسبون أنهم أدّوا واجبهم كاملاً بهذه الصبغات الخافتة .. بينما الدين كله يُسحق سحقاً ، ويدمر من أساسه ، وبينما سلطان الله يقتصبه المنتصبون ، وبينما الطاغوت — الذي أمرُوا أن يكفروا به — هو الذي يحكم حياة الناس جملة وتفصيلاً ..

٢١ < إن اليهود الصهيونيين والنصارى الصليبيين يفركون أيديهم فرحاً بنجاح الخطة وجواز الخدعة : بعدما يشوا من هذا الدين أن يقضوا عليه مواجهة باسم الالحاد ، أو يحولوا الناس عنه باسم التبشير . فترة طويلة من الزمان.. ولخبثتهم أحياناً ولتمرسهم في الخيل الماكرة وملابسات العصر الحديث قد لا يشون ثناء مباشراً مكشوفاً على الباطل وأهله ، بل يكتفون بتشويه الحق وأهله ليعينوا الباطل على هدمه وسحقه . ذلك أن ثناءهم المكشوف في هذا الزمان أصبح متهماً . وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين الذين يعملون لحسابهم في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان . بل لقد يبلغ بهم المكر والخذل أحياناً أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم الذين يسحقون لهم الحق وأهله . ويتظاهروا كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام ليعيدوا الشبهة تماماً عن أخلص حلفائهم الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة .. ولكنهم لا يكفون عن تشويه الإسلام وأهله . لأن حقدهم على الإسلام ، وعلى كل شئ من بعيد لأي بعث إسلامي أضخم من أن يداروه ولو للخداع ولتمويه .. إلا أن الأمل في الله أكبر . والثقة في هذا الدين أعمق ، وهم بمكرون والله خير

الماكرون وهو الذي يقول (وقد مكروا مكروهم . وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال . فلا تحسن الله مـُخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام ..) وهذه الإشارة الإلهية إنما تتحقق للمسلمين يوم يكونوا مسلمين .. وليحاول المسلمون أن يُجربوا مرة واحدة أن يكونوا مسلمين ثم يَروا بأعينهم نصر الله وتأييده .

٣ - تنكيل وإفناء :

(كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمة . برضونكم بأنفواهم وتآبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشترى آيات الله ثمنًا قليلًا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) ..

ماذا صنع الطواغيت والمشركون مع نوح وهود وصالح وإبراهيم .. عليهم صلوات الله وسلامه والمؤمنين بهم في زمانهم ثم ماذا صنع المشركون مع محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به . إنهم لم يرقبوا فيهم إلاّ ولا ذمة ، متى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم ، وهذا يترك للقرآن الكريم ..

والواقع التاريخي الحديث يعطينا هذه الصورة . إنّ ما وقع من الوثنيين الهنود ، عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عمّا وقع من التتار في بغداد .. إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند — ممن أفرعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند فأثروا الهجرة على البقاء — قد وصل منهم الى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا في الطريق بعدما طلعت عليهم العصابات الوثنية المنظمة المعروفة لفدولة الهندية جيدًا ، والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية . فذبحتهم كالحراف على طول الطريق وتركت جثثهم نهبًا للطير والوحش ، بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة لا تقل — إن لم تزد — على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد ..

أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل الموظفين

المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان ، حيث تَمَّ الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان ، واجتمع في هذا القطار خمسون ألف موظف .. ودخل القطار بالخمسين ألف موظف في نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى (ممر خير) وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء مُزقة متناثرة في القطار .. لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة القطار في النفق ولم تسمح له بالمضي في طريقه إلا بعد أن تحوّل الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء وصدق قول الله سبحانه (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة) وما تزال هذه المذابح تتكرر في صور شتى حتى الآن . كذلك قامت العصابات الهندية بإبادة المسلمين ابادة تامة في ولايات (بهات بور) و (الوار) و (كابورتالا) وكان عددهم في هذه الولايات على التوالي: ١١٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ و ٢١٣٧٠٤ فلم يعد أحد منهم يرى النور . ولقد بلغ قتل المسلمين خلال المذابح التي جرت في شرقي البنجاب في شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ وفقاً لتعداد رسمي ٤٧٢,٠٠٠ نفس .. ثم ماذا فعل خلفاء التتار في الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك ؟ لقد أبادوا من المسلمين في خلال ربع قرن ستة وعشرين مليوناً .. بمعدل مليون في السنة ، وما تزال عمليات الإبادة ماضية في الطريق .. وذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشع لها الأبدان (وأما البلاشفة فقد كتموا بمهارة خططهم السرية ، وحقيقة موقفهم من الدين ، وتمكنوا من الظهور أمام الشعوب - إلى حين تركيز القوة في أيديهم - بمظهر محبب إلى النفوس . وعلى أثر اطمئنانهم للموقف الخارجي ، بدأ الحزب الشيوعي ينتشر خلاياه المنظمة أدق تنظيم في أرجاء الاتحاد السوفيتي فعمدت هذه الخلايا الإلحادية إلى استئصال شأفة الدين ، أولاً بالقضاء على القضاة والمفتين ، والمدرسين والوعاظ والخطباء والأئمة والمؤذنين . واحتلوا المدارس والجامع ، والمساجد . وألغوا في القرم والبلاد الإسلامية الأخرى المحاكم الشرعية وديار الإفتاء . وقد أصبح كل ذلك أثراً بعد عين . ثم حوّلوا المساجد والجامع إلى مسارح واصطبلات لخيول فولخوز . أو مخازن لمؤن وذخائر ، أو إلى أندية ، أو إلى دور سينما . وما إلى ذلك من أشياء لا

يقرهم عليها شرع ولا قانون . وقد جتمع البلاشفة نسخ القرآن والكتب الدينية وأحرقوها حرقاً . لم يشهد الإنسان هذا الانحطاط الخلقي حتى في القرون الممجية الأولى ، ونجت من أيدي الملحدون بعض الجوامع النادرة التي اعتبرت آثاراً عمرانية ، أو أمرت موسكو بعدم مساسها لتتخذها عند الزوم دليلاً ضد ما قد يتسرب إلى البلاد الخارجية من (أخبار مزورة وكاذبة) في نظرها . وبذلك انقطع الأذان المحمدي في أنحاء القرم . والبلاد الإسلامية السوفيتية ، ولا أحد يجروء على أداء شعائره الدينية فيها لما فيه من خطر هلاكه . (وصل الاضطهاد الديني في القرم ذروته عام ١٩٣٨ حيث لم يعد الناس يشاهدون فيها شيئاً باسم الدين بعد إحراق نسخ القرآن والكتب الدينية ، وقلب المدارس والمساجد إلى مؤسسات شيوعية . وقتل العلماء والعظماء ، أو نفهم إلى سيبيريا . وقد حدث في — كوزلو — أن اعتقل في ليلة من ليالي عام ١٩٣٨ آخر من بقي من العلماء ، وبعد التعذيب أتى الشيوعيون بهم منهوكي القوى إلى مبنى تكرير مياه المدينة المقام على شاطئ البحر الأسود ، واسمه (فودا قنال) ثم رَجَّوْا بهم في سكون الليل وعلى الانفراد في عجلات الماكينات الخلفية المعدة بطريقة خاصة من قبل الإدارة الشيوعية . لتكون مذبحة للإنسان في (الفردوس الشيوعي) على أرض القرم .

وأما العمال المكرهون على القيام بهذه العملية الشنيعة فلا يزالون على قيد الحياة لاجئين إلى أوروبا وتركيا وإلى غيرهما . هذه الصورة البشعة المروعة في القرم لا تبلغ بشاعة الصورة الوحشية التي تمثلت في التركستان الغربية والشرقية حيث يقطن — أو كان يقطن — أربعة وأربعون مليوناً من المسلمين ، تناقص عددهم الآن على يد الإبادة السوفيتية الشنيعة إلى ستة وعشرين مليوناً فقط .

فلندع كاتباً أخذ يُحدثنا عن وسائل التعذيب الجهنمية التي سلطت على العنصر الإسلامي في التركستان الغربية الخاضعة لروسيا . والتركستان الشرقية التابعة للصين الشيوعية إسماعاً ولروسيا الشيوعية فعلاً . إنه الأستاذ (عيسى يوسف آلب تكين) الذي قدرت له الحياة من جديد بعد فراره من الإدارة الجهنمية الرهيبة . ليكتب كتابه (المسلمون وراء الستار الحديدي) يحدثنا فيه عن (صور من التعذيب والقتل)

وسنضطر أن نغفل ذكر بعضها هنا لأنها من القذارة بحيث يخرس ذكرها كل
أدب إنساني ، مكتفين بما تطبق الآداب الانسانية أن نذكره للناس ..

- وهذه هي : ١ - دق مسامير طويلة في الرأس حتى تصل إلى المخ ..
٢ - إحراق المسجون بعد صبّ البترول عليه وإشعال النار فيه .. ٣ - جعل
المسجونين هدفاً لرصاص الجنود يتمرتون عليه .. ٤ - حبس المسجونين في سجون لا
يغذ إليها هواء ولا نور ، وتجوعهم إلى أن يموتوا .. ٥ - وضع خوذات معدنية على
الرأس ومرار التيار الكهربائي فيها .. ٦ - ربط الرأس في طرف آلة ميكانيكية
وباقى الجسم في ماكينة أخرى ، ثم تُدار كل من الماكينتين في اتجاهات متضادة ،
فصم كل واحدة مقربة من أختها حيناً ومبتعدة حيناً آخر ، حتى يتمدد الجزء من
الجسم الذي بين الآتين ، فلما أن يقر المعضب وإما أن يموت .. ٧ - كتي كل
عضو من الجسم بقطعة من الحديد مسخنة إلى درجة الاحمرار .. ٨ - صب زيت
مغلي على جسم المعضب .. ٩ - دق مسمار حديدي أو إبر الجراموفون في
الجسم .. ١٠ - تسمير الأظافر بمسمار حديدي حتى يخرج من الجانب الآخر ..
١١ - ربط المسجون على سرير ربطاً محكماً ثم تركه لأيام عديدة .. ١٢ -
اجبار المسجون على أن ينام عارياً فوق قطعة من الثلج أيام الشتاء .. ١٣ - نسف
كتل من شعر الرأس بعنف ، مما يسبب اقتلاع جزء من جلد الرأس .. ١٤ -
تمشيط جسم المسجون بأمشاط حديدية حادة .. ١٥ - صب المواد
الحارقة والكأوية في فم المسجونين وأنوفهم وعيونهم بعد ربطهم ربطاً
محكماً .. ١٦ - وضع صخرة على ظهر المسجون بعد أن توثق يده إلى ظهره ..
١٧ - ربط يدي المسجون وتعليقه بهما إلى السقف وتركه ليلة كاملة أو أكثر ..
١٨ - ضرب أجزاء الجسم بعضاً فيها مسامير حادة .. ١٩ - ضرب الجسم
بالكرباج حتى يدميه ، ثم يقطع الجسم إلى قطع بالسيف أو بالسكين .. ٢٠ -
أحداث ثقب في الجسم وادخال حبل ذي عقد واستعماله بعد يومين كمنشار
لتنطيع قصب من أطراف الخرج المتاكل .. ٢١ - ولكي يضمنوا أن يظل المسجون
واقفاً على قدميه طويلاً يلجأون إلى تسمير أذنيه في الجدار .. ٢٢ - وضع

المسجون في بزميل مملوء بالماء في فصل الشتاء .. ٢٣ - خياطة أصابع اليدين والرجلين وشبك بعضهما الى بعض . . ٢٤ - والنساء حظهن من مثل هذا العذاب انهن يعرين ويضربن ضرباً مبرحاً على ثديهن وصدورهن . أما بقية تعذيب النساء فاننا نملك عنه . لأن المواقع التي اختاروها من أجسامهن والطرق الدنيئة التي استعملوها تجعلنا نستحي من ذكرها وكتابتها (١) .

وقبل أعوام وقع في القطاع الصيني من التركستان المسلمة ما يغطي على بشاعات التتار . لقد جيء بأحد الزعماء المسلمين ، فحفرت له حفرة في الطريق العام ، وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والارهاب أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرة . . وظلت العملية ثلاثة أيام ، والرجل يخنق بالحفرة على هذا النحو حتى مات . كذلك فعلت يوغسلافية الشيوعية بالمسلمين فيها حتى أبادت منهم مليوناً ، من الفترة التي صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية الى اليوم ، وما تزال عمليات الايادة والتعذيب الوحشي التي من أمثلتها البشعة القاء المسلمين رجالاً ونساء في مفارم الاحوم التي تصنع لحوم (البوبوليف) ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام . . ماضية الى الآن . وما يجري في يوغسلافية يجري في جميع الدول الشيوعية والوثنية . . الان . . في هذا الزمان ويصدق قوله سبحانه (لا يرقبون في مؤمن إلا) ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) أنها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية . . حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية لله وحده ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير الله في كل زمان وفي كل مكان . .

ويكفي أن نذكر ما حدث في زنجبار حديثاً . حيث أيد المسلمون فيها عن بكرة أبيهم فقتل منهم اثنا عشر ألفاً . وألقي الأربعة آلاف الباقيون في البحر منفيين من الجزيرة . ويكفي أن نذكر ماذا وقع في قبرص حيث منع الطعام والماء عن الجهات التي يقطنها بقايا المسلمين هناك ليموتوا جوعاً وعطشاً ، فوق

(١) فقرة من كتاب دراسات اسلامية .

ما سلب عليهم من التقتيل والتذبيح والتشريد ويكفي أن نذكر ما تزاوله الحبشة في أريتيرية وفي قلب الحبشة ، وما تزاوله كينيا مع المائة ألف مسلم الذين ينتمون إلى أصل صومالي ، ويريدون أن ينضموا إلى قومهم المسلمين في الصومال . . .

ويكفي لتصوير نظرة انصليين إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربي هو جورج براون صدر عام ١٩٤٤ يقول فيه (لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة . ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف . لقد كنا نخوف من قبل بانخطر اليهودي والخطر الأصغر وبالخطر اللشفي . إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه . اننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا . وعلى هذا يكون كل مصطهد لهم عدونا الألد ، ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا . أما الشعوب الصفراء فهناك دول ديموقراطية كبرى تقاومها . ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام . وفي قوته على التوسع والاختضاع وفي حيويته . انه الحداد الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي) .

٤ - طبيعة صامدة :

ان طبيعة هذا الدين واضحة لا تختمل التليس . صلبة لا تقبل التميع . والذين يلحدون في هذا الدين يجدون مشقة في تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلبة . . وهم من أجل ذلك يوجهون إليه جهوداً لا تكل ، وحملات لا تنقطع . يستخدمون في تحريفه عن وجهته ، وفي تميع طبيعته ، كل الوسائل وكل الأجهزة وكل التجارب . .

هم يسحقون سحقاً وحشياً كل طلائع البعث والحيوية الصلبة الصامدة في كل مكان على وجه الأرض عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها في كل بقاع الأرض ، وهم يسلطون المحترفين من علماء هذا الدين عليه بحرفون الكلم عن مواضعه ، ويحلون ما حرّم الله ، ويمنعون ما شرعه . ويباركون الفجور والفاحشة ، ويرفعون عليها رايات الدين وعناوينه . وهم يزحلقون المخلوعين في الحضارات المادية ، للأخوذ بنظرياتها وأوضاعها ، ليحاولوا زحلقة الإسلام في التشبه بهذه النظريات وهذه الأوضاع ،

ورفع شعاراتها ، أو الاقتباس من نظرياتها وشرائعها ومناهجها . وهم يصورون الاسلام الذي يحكم الحياة حادثاً تاريخياً ماضياً ، ولا يمكن اعادته ، ويشيدون بعظمة هذا الماضي ، ليخدروا مشاعر المسلمين ، ثم ليقولوا لهم في ظل هذا التحذير . ان الاسلام اليوم يجب أن يعيش في نفوس أهله عقيدة وعبادة ، لا شريعة ونظاماً ، وحسبه وحسبهم ذلك المجد التاريخي القديم . هذا والا فان على هذا الدين أن يتطور فيصبح محكوماً بواقع البشر ، يبصم لهم على كل ما يقدمونه له من تصورات وقوانين وهم يضعون للأوضاع التي يقيمونها في العالم الذي كان اسلامياً — نظريات تأخذ شكل العقيدة والدين . لتحل محل ذلك — الدين القديم . وينزلون لها قرآناً يتلى ويدرس ، ليحل محل ذلك القرآن القديم

وهم يحاولون تغيير طبيعة المجتمعات . كما يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين كوسيلة أخيرة ، حتى لا يجد هذا الدين قلوباً تصلح للهداية به فيحولون المجتمعات الى فئات غارق في وحل الجنس والفاحشة والفجور . مشغول بلقمة العيش لا يجدها الا بالكد والمسر والجهد ، كي لا يفیق بعد اللقمة والجنس ليستمتع الى هدى او يفيء الى دين .

انها المعركة الضاربة مع هذا الدين والأمة التي تهدى به وتحاول أن تعدل به (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) . . . المعركة التي تستخدم فيها جميع الاسلحة بلا تخرج ، وجميع الوسائل بلا حساب ، والتي تجند لها القوى والكفايات واجهزة الاعلام العالمية ، والتي تسخر لها الأجهزة والتشكيلات الدولية والتي تكفل من اجلها أوضاعاً ما كانت لتبقى يوماً واحداً لولا هذه الكفالة العالمية . ولكن طبيعة هذا الدين الواضحة الصلبة ما تزال صامدة لهذه المعركة الضارية . والأمة المسلمة القائمة على هذا الحق — وعلى قلة العدد وضعف العدد — ما تزال صامدة لعمليات السحق الوحشية . . والله غالب على امره .

٥ - تحذير :

ان الذي يكفر لا يستريح لوجود الايمان في الأرض ووجود المؤمنين . . ولا بد له من عمل وسعي ولا بد له من جهد وكيد ليرد المسلمين الى الكفر . . . وان طاعة الذين كفروا عاقبتها الحسارة المؤكدة وليس فيها ربح ولا

منفعة ، فيها الانقلاب الى الكفر لا فالمؤمنين اما أن يحضي في طريقه ، يجاهد
الكفر والكفار ويكافح الباطل والمبطلين . ولما أن يرتد كافراً والعياذ بالله .
وحال أن يقف سلباً بين بين . محافظاً على موقفه ومحتفظاً بدينه . . انه قد يحيل
اليه هذا . . انه يستطيع أن ينسحب من المعركة مع الباطل وان يسألهم ويطيعهم
وهو مع هذا محتفظ بدينه وعقيدته وإيمانه وكيانه . وهو وهم كبير فالذي
لا يتحرك الى الأمام في هذا المجال . لا بد أن يرتد الى الوراء .

والذي لا يكافح الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان . لا بد أن يتخاذل
ويتقهقر ويرتد على عقبيه الى الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان . والذي
لا تعصمه عقيدته . ولا يعصمه إيمانه من طاعة الكافرين والاستماع اليهم .
والثقة بهم يتنازل في الحقيقة عن عقيدته وإيمانه منذ اللحظة الأولى (يا أيها الذين
آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) . .
هذه عاقبتها الخسارة المؤكدة . . لأنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب
العقيدة الى أعداء عقيدته ، وأن يستمع الى وسوستهم ، وأن يطيع توجيهاتهم . .
الهزيمة بادية ذي بدء . فلا عاصم من الهزيمة في النهاية والارتداد على عقبيه
الى الكفر . ولو لم يحس في خطواته الأولى ، أنه في طريقه الى هذا المصير
البائس . . ان المؤمن يجد في عقيدته وفي نهجه غناء عن مشورة أعداء دينه . .
فاذا استمع اليهم مرة فقد سار في طريق الارتداد على الاعقاب . . حقيقة
فطرية . وحقيقة واقعية ينبه لها الله عز وجل ، وهو صاحب هذه الدعوة
ينبه لها الدعوة والمؤمنين . ، ويحذرهم وهو يناديهم باسم الايمان الذي ارتبطوا
به عز وجل (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم) .
وأخيراً . .

ان الذين يحاربون حقيقة الايمان أن تستقر في القلوب ، ويحاربون منهج
الايمان أن يستقر في الحياة ويحاربون شريعة الايمان أن تستقر في المجتمع . .
اتما هم أعدى أعداء البشرية ، وأظلم الظالمين لها ، ومن واجب البشرية ،
لو رشدت أن تطاردهم حتى يصبحوا عاجزين عن الظلم الذي يزاوونونه ،
وأن ترصد لحربهم كل ما تملك من الأنفس والأموال . وهذا هو واجب
الجماعة المسلمة الذي يندبها اليه ربها ، ويدعوها من أجله ، ويناديها دائماً . .

الباب الخامس

الدعوة

١ - دستور الدعوة :

آ - ان القرآن الكريم هو كتاب هذه الأمة الحلي ورائدها الناصح ، وأنه هو مدرستها ، التي تتلقى فيها دروس حياتها ، وان الله هو المربي . ولقد اراد الله سبحانه أن يكون هذا القرآن هو الرائد الحلي الباقي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لقيادة أجيال هذه الأمة ، وتربيتها واعدادها لدور القيادة الراشدة ، الذي وعدنا به كلما اهتدت بهديه ، واستمسكت بعهدتها معه ، واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن ، واستعزت به ، واستعلت على جميع المناهج الأرضية الجاهلية . .

ان هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى ولكنه دستور شامل . دستور للتربية ؛ كما أنه دستور للحياة العملية . وقد تضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية من لدن آدم عليه السلام ، وقدمها زاداً للأمة المسلمة في جميع أجيالها . تجاربها في الأنفس ، وتجاربها في واقع الحياة ، كي تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها ، وهي تزودها بذلك الزاد الضخم ، وذلك الرصيد المتنوع . .

ان هذا القرآن ينبغي أن يقرأ ، وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بروعي .

وينبغي أن يتدبر على أنه توجيهات حية تنزل اليوم لتعالج مسائل اليوم .
ولتنير الطريق الى المستقبل ، لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل ، أو على أنه
سجل لتحقيقه مضي ولن يعود .. ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه ، لنلمس
عنده توجيهات حياتنا الواقعة ، في يومنا وفي غدنا ، كما كانت الجماعة المسلمة
الأولى تلقاه لتلمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة . .

ففي هذا القرآن نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة المسلمة ،
وهو يصنعها على عينيه ، ويربيها بمنهج ، ويشعرها برعايته ، ويبني في
الضمير الشعور الحي بوجوده سبحانه معها في أخص خصائصها ، وأصغر
شؤونها ، وأخفى طواياها ، وحراسه لها من كيد أعدائها خفية وظاهرة ،
وأخذها في حماه وكفه وضمها الى لوائه وظله وتربية أخلاقها وعاداتها
تربية تليق بالجماعة التي تنضوي الى كنف الله ، وتتسبب اليه . وتؤلف
حزبه في الأرض وترفع لواءه لتعرف به في الأرض جميعاً .

ان هذا القرآن أتى بتوجيهاته وأسسها لكي ينشأ الجماعة المسلمة الأولى . وهذه
التوجيهات والأسس هي ، هي ما تزال ضرورية لقيام الجماعة المسلمة في
كل زمان ومكان . وان المعركة التي خاضها القرآن ، هي المعركة ذاتها التي
يمكن أن يخوضها في كل زمان ومكان . لا بل ان أعداءها التقليديين الذين
كانوا يواجههم القرآن . ويواجه دسائسهم وكيدهم ومكرهم . هم هم ..
ووسائلهم هي هي ، تتغير أشكالها بتغير الملبسات ، وتبقى حقيقتها وطبيعتها .
وتحتاج الأمة المسلمة في كفاحها وتوقفها الى توجيهات هذا القرآن ، حاجة
الجماعة المسلمة الأولى ، كما تحتاج في بناء تصورها الصحيح . وإدراك موقفها
من الكون والناس الى ذات النصوص والتوجيهات . وتجد فيها معالم طريقها
واضحة . ويظل القرآن كتاب هذه الأمة العامل في حياتها ، وقائدها الحقيقي
في طريقها الواقعي . ودستورها الشامل الكامل الذي تستمد منه منهج الحياة .
ونظام المجتمع وقواعد التعامل في كل شيء . . وما يزال هذا المنهج الذي
خرج ذلك الجيل وتلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال وقيادات على مدار

الزمان ، لو رجعت الأمة المسلمة الى هذا المعين ، ولو آمنت حقاً بهذا القرآن ، وجعلته منهجاً للحياة ، لا كلمات تغنى باللسان لتطرب الاذان .

ولقد سلك القرآن شتى السبل ، واتبع شتى الأساليب ليواجه شكوك القلب البشري وانحرافات وآفاته ، ويأخذ عليها المسالك ، ويعالجها بكل أسلوب . وفي أساليب القرآن المتنوعة زاد للدعوة والدعاة الى هذا الدين ، ويجب على الداعية أن يرجع الى القرآن دائماً . فيشعر أن ربه يؤويه الى كتفه ، ويمسح على آلامه ، ومتاعبه ، ويهدئ هدئه ، ويسري عنه ويهون عليه مشقة ما يلقي من عنت الجاهلية وسوءها وتطاوها . فيفيض الله عليه بالثقة والطمأنينة ، وينسم عليه من أنسام الرعاية واللفظ والمودة ..

انه خطاب الله للإنسان في رحمة علوية فدية يقول للناس : خلوا هذا ودعوا ذلك . ها هوذا طريقي فاسلكوه . لقد تعثرت خطاكم فماكم حبلي لقد أخطأتم وأنتم فتوبوا وها هوذا بابي مفتوح . تعالوا ولا تشردوا بعيداً ، ولا تقنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء . وأنت يا فلان بذاتك وشخصك قلت كذا وهو خطأ ، ونويت كذا وهو أثم . وفعلت كذا وهي خطيئة . فتعال هنا قدامي ، وتطهر وتُب ، وعُد الى حمائي . وأنت يا فلان بذاتك وشخصك أمرتك الذي يعضلك هذا حله .. وسؤالك الذي يشغلك هذا جوابه . وعملك الذي عملت هذا وزنه ..

حسب فالقرآن هو المدرسة الالهية .. انه من صانع القلوب ، وخالق كل شيء بقدر . من هذه المدرسة الالهية يتخرج الدعاة المستجابون الموفقون .. تخلص نفوسهم لدعوة الله فلا تضن عليها بشيء .. ولا تحتجز دونها شيء ، لا الأرواح ولا الأموال . ولا خلجات القلوب . ولا ذوات الصدور . وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض .. موازينها هي موازين الله ، والقيم التي تعتز بها وتسابق اليها هي القيم التي تثق في هذه الموازين ..

وان هذا القرآن لهو الفرقان بما فيه من فارق بين الحق والباطل ، والهدى

والضلال . بل بما فيه من تفرقة بين نهج في الحياة ونهج . وبين عهد لبشرية وعهد .. فالقرآن يرسم منهجا واضحا للحياة كلها في صورتها المستقرة في الضمير ، وصورتها المثلة في الواقع . منهجا لا يختلط بأي منهج آخر ، مما عرفته البشرية ، ويمثل عهدا جديدا للبشرية في مشاعرها وفي واقعها فـ (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا).

ان هذا القرآن يبني عقيدة المسلم وتصوره وأخلاقه ومشاعره وأوضاعه ، الى جانب تعليم الجماعة المسلمة كل شيء عن طبيعة أعدائها ووسائلهم ، ويحذر من كيدهم ومكرهم ، ويوجههم الى المعركة معهم بقلوب مطمئنة وعيون مفتوحة ، وارادات محشودة ، ومعرفة بطبيعة المعركة وطبيعة الأعداء .. لقد كان في القرآن كل شيء .. وهو ما يزال فيه كل شيء ، يخوض المعركة بالجماعة المسلمة في كل جبهة .. يخوضها في الضمائر والمشاعر ، حيث ينشأ فيها عقيدة جديدة ومعرفة بربها جديدة . وتصورا للوجود جديدا ، ويقيم فيها موازين جديدة ، وينشئ اليها قيما جديدة . ويستنقذ فطرتها من ركام الجاهلية . ويمحو ملامح الجاهلية في النفس والمجتمع ، وينشئ ويث ملامح الاسلام الوضيئة الجديدة .. ثم يقودها في المعركة مع أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج . وهي على أتم استعداد للقائم والتفوق عليهم بمئاتها بناؤها الداخلي الجديد : الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي والتنظيمي سواء ..

ان التفوق الحقيقي للجماعة المسلمة على المجتمعات الجاهلية من حوطا هو تفوقها في البناء الروحي والخلقي والاجتماعي والتنظيمي وذلك بفضل المنهج القرآني الرباني . قبل أن يكون تفوقا عسكريا أو ماديا .. إن أعداء الجماعة الاسلامية دائما أكثر عددا وأقوى عدة ، وأغنى مالا ، وأوفر مقدرات مادية على العموم . ولكن التفوق الحقيقي يكون في البناء الروحي والخلقي والاجتماعي ، ومن ثم السياسي والقيادي الذي يؤسسه الاسلام بمنهجه الرباني .. وبهذا التفوق الساحق على الجاهلية : اجتاحتها أولا في الجزيرة العربية ، واجتاحتها ثانيا في الامبراطوريتين العظيمتين الممتدتين حوله كسرى وقبصر .. ثم بعد ذلك في الجوانب الأخرى سواء ،

كان معه جيش وسيف أم كان معه مصحف وقرآن . ولولا هذا التفوق الساحق ما وضعت تلك الحارقة التي لم يعرف لها التاريخ نظيرا .

وان اجتياح الجاهلية سيتم بهلها القدر دائما حين تتفوق الجماعة الاسلامية في كل زمان وفي كل مكان . تتفوق بيناتها الروحي والخلقي والاجتماعي ومن ثم السياسي والقيادي الذي ينشئه القرآن .. هكذا نجد هذا القرآن لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب . ولا يعلمهم الأخلاق والآداب فحسب . كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين .. انما هو يأخذ حياتهم كلها جملة ، ويعرض كل ما تتعرض له حياة الناس من ملايسات واقعية . وان هذا القرآن لا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم أقل من أن تكون حياته يحملتها من صنع هذا المنهج ، وإلا فلا إيمان أصلا ولا اسلام .. ان هذا القرآن جاء ليربي الضمائر والأخلاق والعقول . كما أنه يبصر الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها وحقيقة دورها وطبيعة طريقها . وما في هذا الطريق من مزالق وأشواك وشباك يرصدها لها أعداؤها وأعداء هذا الدين .. وان الله عز وجل قد أعلن اكمال العقيدة واكمال الشريعة معا . فهذا هو الدين . فسبحانه يقول (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) . وبهذا غدأ القرآن عدة هذا الدين فهو كامل . وان شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن هي شريعة كل زمان ، لأنها بشهادة الله شريعة هذا الدين الذي جاء به للانسان في كل زمان وفي كل مكان ، لا للجماعة من بني الانسان في جيل من الأجيال . في مكان من الأمكنة .. إن الأحكام التفصيلية جاءت لتبقي كما هي ..

والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الاطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية الى آخر الزمان ، دون أن تخرج عليه ، الا أن تخرج من اطار الايمان . والله خلق الانسان ويعلم من خلق ، هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة . فلا يقول أن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم الا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الانسان وأطوار الانسان .. ويقف المؤمن امام ارتضاء الله الاسلام دينا للذين آمنوا يقف أمام رعاية الله وعنايته . والا فما أنكد وما أحق من

يهمل أو يرفض ما رضى به الله له ، ليختار لنفسه غير ما اختاره الله .. ان هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها ، وحادى طريقها على طول الطريق . وهو يكشف لنا عن حال أعدائنا معها وعن جبلتهم .

ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها وتسمع توجيهاته ، وتقيم قواعده وتشرعاته في حياتها ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام .. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها ، وحين اتخذت القرآن مهجورا وان كانت تتخذ منه ترانيم مطربة، وتعاويد ورقية وأدعية، أصابها ما أصابها . فلقد غفلت الأمة عن هذا القرآن فسارت في طريق غير هذا الطريق . فزع منها قيادة البشرية ، وتركها هكذا ذبيلا للقافلة .. فلنعد الى هذا القرآن الذي يصفه الله لنا (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) . ما أخرجنا نحن الآن أن ندرك هذه الحقيقة والجاهلية من حولنا ومن بيننا تذييق البشرية الويلات .. من كل ألوان الحرب في الضمائر والمجتمعات قرونا بعد قرون .. ما أخرجنا نحن الذين عشنا في هذا السلام في فترة من تاريخنا ثم خرجنا من السلام الى الحرب التي تحطم أرواحنا وقلوبنا ، وتحطم أخلاقنا وسلوكنا . وتحطم مجتمعاتنا وشعوبنا .. بينما نملك الدخول في السلم الذي منحه الله لنا في ظل القرآن حين نتبع رضوانه ونرضى لأنفسنا ما رضى به الله لنا .

وأخيرا ان هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة ودستورها ووسيلتها كذلك .. وفيه وحده الغناء في جهاد الأرواح والعقول ، وفيه ما يأخذ على النفوس أقطارها ، وعلى المشاعر طرقها ، وفيه ما يزلزل القلوب الجاسية ويهزها هذا لا تبقى معه على قرار .. لذلك ينبغي أن يكون هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة الذي يعتمد عليه الدعاة الى الله قبل الاتجاه الى أي مصدر سواء . والذي ينبغي لهم بعد ذلك أن يتعلموا منه كيف يدعون الناس ، وكيف يوقفون القلوب الغافنة وكيف يجيئون الأرواح الحامدة . ان الذي أوحى بهذا القرآن هو الله . خالق هذا الانسان العليم بطبيعة تكوينه ، الخبير بدروب نفسه ومنحنياتنا .. وكما أن الدعاة الى الله يجب أن

أن يتبعوا منهج الله في البدء بتقرير ألوهية الله سبحانه وربوبيته وحاكميته وسلطانه .
فإنهم كذلك يجب أن يسلكوا الى القلوب طريق هذا القرآن في تعريف الناس ببره
الحق كيما تنتهي هذه القلوب الى الدينونة لله وحده والاعتراف بربوبيته المتفردة
وسلطانه .

ب - الحياة في جو القرآن :

نزل هذا القرآن الكريم على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لينشئ به أمة
وليقيم به دولة ، لينظم به مجتمعا ، وليربي به ضمائرا وأخلاقا وعقولا .. لقد
كانت الأمة تتلقى هذا القرآن ، لتقرر وفق توجيهاته وتقريراته خطتها وحركتها ..
ولتتخذ وفق توجيهاته مواقفها من الناس جميعا . فقد كان هذا الكتاب هو موجهها
ومحركها ومرشدها . ومن ثم كانت تغلب ولا تغلب ، لأنها تخوض معركتها مع
أعدائها تحت القيادة الربانية المباشرة . وهذه القيادة الربانية وإرشاداتها ما تزال .
والذين يحملون دعوة الاسلام اليوم وغداً خليقون أن يتلقوا هذه التقارير وتلك
الإرشادات كأنهم يخاطبون بها اللحظة ، ليقرروا على ضوءها موقفهم من شئ
طوائف الناس . ومن شئ المذاهب والمعتقدات والآراء ، ومن شئ الأوضاع
والأنظمة وشئ القوانين والموازين . اليوم وغدا وإلى آخر الزمان ..

وان الله الذي أخرج هذه الأمة وجعلها خير أمة أخرجت للناس كان يعدّها
لأمر عظيم هائل . كان يعدّها لحمل أمانة منهجه في الأرض لتستقيم عليه . كما لم
تستقم أمة قط . ولتقيم في حياة الناس كما لم يقيم كذلك قط . ولم يكن بدّ
أن تراخ هذه الأمة رياضة طويلة . رياضة تخلمها أولاً من جاهليتها . وترفعها
من سفح الجاهلية المابط وتمضي بها صعودا في المرتقى الصاعد الى قمة الاسلام
الشامخة . ثم تعكف بعد ذلك على تنقية تصوراتها . وعاداتها ومشاعرها من رواسب
الجاهلية . وتربية ارادتها على حمل الحق وتبعاته . ثم تنتهي بها الى تقييم الحياة
جُملة وتفصيلا وفق قيم الاسلام في ميزان الله . حتى تكون ربانية حقا ،
وحتى ترتفع بشريتها الى أحسن تقويم . فتزن النفس بميزان الله ، فحين يستفش

الباطل فيراه الناس رابيا ، وتؤخذ الأعين بمظهره وكثرته وقوته .. ثم ينظر المؤمن الذي يزن بميزان الله الى هذا الباطل المنتفش . فلا تضطرب يده ، ولا يزوغ بصره ، ولا يحتل ميزانه . انما هو الحق . الحق المجرد ، الا من صفته وذاته ، والا من ثقله في ميزان الله وثباته .

لقد ربّى الله هذه الأمة بمنهج القرآن حتى وصلت الى المستوى الذي تؤمن فيه على دين الله . لا في نفوسها وضائرها فحسب ، ولكن في حياتها ومعاشها في هذه الأرض ، بكل ما يضطرب في هذه الحياة من رغبات ومطامع ، وأهواء ومشارب ، وتصادم بين المصالح ، وجعلها كلها حزمة واحدة تؤدي دورا في النهاية ، هو اعداد هذه الأمة بعقيدتها وتصوراتها وبمشاعرها واستجاباتها وسلوكها وأخلاقها وبشريعتها ونظامها ، لأن تقوم على دين الله في الأرض ولأن تتولى القوامة على البشر .

وحقق الله ما يريد بهذه الأمة والله غالب على أمره ، وقامت في واقع الحياة الأرضية تلك الصورة الوضيئة من دين الله في واقع . وتملك البشرية أن ترسمه في كل وقت حين تجاهد لبلوغه فيعينها الله ..

لذلك يجب أن نعيش في جو القرآن . وان الحياة في جو القرآن ، لا تعني مجرد دراسته وقراءته ، والاطلاع على علومه .. ان هذا ليس جو القرآن . ان الحياة في جو القرآن ، هو أن يعيش الانسان في جو وفي ظروف وفي حركة وفي معاناة وفي صراع وفي اهتمامات .. كالتّي كان ينتزل فيها هذا القرآن .. أن يعيش الانسان ، في مواجهة هذه الجاهلية ، التي تعمّ وجه الأرض اليوم ، وفي قلبه ، وفي همه وفي حركته . أن ينشئ الاسلام في نفسه وفي نفوس الناس ، وفي حياته ، وفي حياة الناس ، مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية بكل تصوراتها وكل اهتماماتها وكل تقاليدها ، وكل واقعها العملي ، وكل ضغطها كذلك عليه وحربها له ومناهضتها لعقيدته الربانية عن منهجها الرباني ، وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج وهذه العقيدة بعد الكفاح والجهد والاصرار .. هذا هو الجو القرآني الذي يمكن ان يعيش فيه الانسان فيتدق هذا القرآن .. فهو في مثل هذا الجو نزل ، وفي هذا الخضم

عمل .. والذين لا يعيشون في مثل هذا الجو معزولون عن القرآن ، مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والاطلاع على علومه ..

وان الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي الا للقلب المفتوح لها ، والعقل الذي يستشرفها ويتقبلها . وان هذا القرآن لا يفتح كنوزه ، ولا يكشف أسرارها ، ولا يعطي ثماره ، الا لقوم يؤمنون . ولقد وردَ عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : كنا نؤتي الايمان قبل أن نؤتي القرآن ، وهذا الايمان هو الذي كان يجعلهم يتذوقون القرآن ذلك التذوق ، ويدركون معانيه وأهدافه ذلك الادراك .. ويصنعون به تلك الخوارق التي صنعوها في أقصر وقت من الزمان . لقد كان ذلك الجليل المتفرد يجد حلاوة القرآن ومن نوره ، ومن فرقانه ، ما لا يحده الا الذين يؤمنون بايمان ذلك الجليل . ولئن كان القرآن هو الذي أخذ بأرواحهم الى الايمان . لقد كان الايمان هو الذي فتح لهم في القرآن ما لا يفتحها الا الايمان . لقد عاشوا بهذا القرآن . وعاشوا له كذلك . ومن ثم كانوا ذلك الجليل المتفرد الذي لم يتكرر — بهذه الكثرة وبهذا التوافي على ذلك المستوى — في التاريخ كله .. اللهم الا في صورة أفراد على مدار التاريخ يسرون على أقدام ذلك الجليل السامق العجيب لقد خلصوا لهذا القرآن فترة طويلة من الزمان ، فلم تشب نبعه الشائب الرائق شائبة من قول البتر ، اللهم الا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهديه .. وقد كان من فجع القرآن ذاته كذلك .. ومن ثم كان ذلك الجليل المتفرد ما كان ، وان هذا القرآن هو الذي التقط الانسان من سفح الجاهلية ودرج به في المرتقى الصاعد الى القمة السامقة في يسر وفي رفق وفي لين .

وما أجدر الذين يُحاولون أداء ما أدّاه ذلك الجليل أن ينهجوا نهجه فيعيشوا بهذا القرآن ، ولهذا القرآن فترة طويلة من الزمان ، لا يخالط عقولهم ولا قلوبهم غيره من كلام البشر ليكونوا كما كان . ويجب أن نعرف أن هذا القرآن جاء ليعمل في كل جيل وفي كل بيئة ، وذلك دون الاختلال بالقاعدة الاصولية العامة : (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب). وهذا القرآن هو ذاته الذي يواجه الجماعة الانسانية في أي طور من أطوارها . والمنهج الذي التقط الجماعة المسلمة من سفح الجاهلية . هو ذاته الذي يلتقط أية مجموعة أياً كان موقفها على الدرج الصاعد حتى يبلغ بها الى

السامقة (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً) ..

لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة ويقيم لها نظاماً فتحملة هذه الأمة الى مشارق الأرض ومغاربها ، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل . ومن ثم جاء القرآن مفرقاً وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة ، ووفق الملايسات التي صاحبت فترة التربية الأولى . والتربية تتم في الزمن الطويل . وبالتجربة العملية في الزمن الطويل . جاء ليكون منهجاً عملياً يتحقق جزءاً جزءاً في مرحلة الاعداد ، لا فقها نظرياً ، ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني .. ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى ، تلقوه توجيهاً يطبق في واقع الحياة ، كلما جاءهم منه أمر أو نهي ؛ وكلما تلقوا منه أدباً أو فريضة . ولم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية ، كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ، ولا تسلياً وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والاساطير فتكيفوا به في حياتهم اليومية . تكيفوا به في مشاعرهم وضمائرهم ، وفي سلوكهم ونشاطهم ، وفي بيوتهم ومعاشهم . فكان منهج حياتهم الذي طرخوا كل ما عداه مما ورثوه ، وما عرفوه ؛ وما مارسوه قبل أن يأتيهم القرآن . قال ابن مسعود رضي الله عنه : كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .. ان هذا القرآن لا يتذوقه الا من يخوض مثل المعركة التي نزل معها القرآن ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل بها ليواجهها ويواجهها والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون يدرسون دراسة بيانية أو فنية ، لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة الساكنة بعيداً عن المعركة وبعيداً عن الحركة .. ان حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبداً وان سره لا يتجلى لمن يؤثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله ، والدينونة للطاغوت من دون الله ...

ج — المنهج المحدد للدعوة في القرآن :

ان هذا القرآن ليرسي قواعد الدعوة ومبادئها ، ويعين وسائلها وطرائقها ، ويرسم

المنهج للرسول الكريم ، والدعاة من بعده بدينه القويم . فلتنظر في دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن ... (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن . ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين . وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون . ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . ان الدعوة دعوة الى سبيل الله ، لا لشخص الداعية ولا لقومه . والدعوة بالحكمة والنظر في احوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة ، حتى لا يشغل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها ، والطريقة التي يخاطبهم بها ، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها . فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة ، فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه . وبالموعظة الحسنة التي تدخل الى القلوب برفق ، وتعمق المشاعر بلطف ، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب . ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو عن حسن نية . فان الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة . ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ . وبالجدل بالتي هي احسن . بلا تحامل على المخالف ، ولا ترذيل له وتقييح حتى يطمئن الى الداعي ، ويشعر أنه ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ، ولكن الاقتناع والوصول الى الحق . فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها . وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه الا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة ، وسرعان ما يختلط على النفس قيمة الرأي ، وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها . والجدل بالحسنى هو الذي يطمئن من هذه الكبرياء الحساسة ، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمتها كريمة . وأن الداعي لا يقصد الا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء اليها في سبيل الله . لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر . ولكي يطمئن الداعية من حماسه واندفاعه يشير النص القرآني الى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . فلا ضرورة للجاجة في الجدل . انما هو البيان والأمر بعد ذلك .

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة . فأما اذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فان الموقف يتغير . فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله اعزازا لكرامة الحق . ودفعاً لغلبة الباطل . على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده الى التمثيل والتفطير فالاسلام دين العدل والاعتدال .. ودين السلم والمسالمة . انما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا ينبغي (وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به) . وليس ذلك بعيدا عن دستور الدعوة . فهو جزء منه . فالدفع عن الدعوة ، في حدود القصد والعدل ، يحفظ لها كرامتها وعزتها . فلا تهون في نفس الناس ، والدعوة المهينة لا يعتقها أحد ، ولا يثق أنها دعوة الله . فאלله لا يترك دعوته مهينة لا تدفع عن نفسها . والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعوة الى الله والعزة لله جميعا . ثم هم أمناء على اقامة الحق في هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس . وقيادة البشرية الى الطريق القويم . فكيف ينهضون بهذا كله ، وهم يُعاقَبُونَ ، فلا يُعاقِبُونَ . ويعتدى عليهم فلا يردون؟ ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل فان القرآن الكريم يدعو الى العفو والصبر حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر . ووقف العدوان في الحالات التي قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثراً . فأما اذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها فالقاعدة الأولى هي الأولى .. ولأن الصبر يحتاج الى مقاومة للانفعال . وضبط للعواطف ، وكبت للفطرة فان القرآن يوصله بالله ويزين عقابه (ولئن صبرتم هو خير للصابرين .. واصبر وما صبرك الا بالله) . فهو الذي يعين على الصبر وضبط النفس . والاتجاه اليه هو الذي يطامن من الرغبة الفطرية في رد الاعتداء بمثله ، والقصاص له بقدرة . ويوصي القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي وصية لكل داعية من بعده ، ألا يأخذ الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون . فانما عليه واجبه يؤديه . والهدى والضلال بيد الله وفق سنته في فطرة النفوس واستعداداتها . واتجاهاتها ، ومجاهدتها للهوى أو الضلال ، وألا يضيق صدره بمكرهم . فانما هو داعية الى الله . فאלله حافظه من المكر والكيد ، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص في دعوته لا يبتغي من ورأها شيئاً لنفسه .. ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره ويبطىء عليه النصر لا ابتلاء

ثقت به بربه . ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم
محسنون). ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون ومن يمكرون .. هذا هو دستور
الدعوة الى الله كما رسمه الله . والنصر مرهون باتباعه كما وعد الله ومن اصدق من الله .

لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة وينشئ مجتمعا وبقيم نظاما .. والتربية تحتاج الى
زمن وإلى تأثير وانفعال بالكلمة ، وإلى حركة تترجم التأثير والانفعال الى وقع ..
والنفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا شاملا بين يوم وليلة وبقراءة كتاب كامل
شامل للمنهج الجديد . انما تتأثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج ، وتتدرج في
مراقبه رويدا رويدا ، وتعناد على حمل تكاليفه شيئا فشيئا . ولقد جاء القرآن بمنهج
كامل شامل للحياة كلها .. وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوفق الفطرة
البشرية عن علم بها من خالفها . فجاء لذلك منجما وفق الحاجات الحية
للجماعة المسلمة ، وهي في طريق نشأتها ونموها . ووفق استعدادها الذي ينمو يوما
بعد يوم في ظل المنهج التربوي الالهي الدقيق . جاء ليكون منهج تربية ، ومنهج
حياة ، لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة . أو لمجرد المعرفة . جاء لينفذ
حرفاً حراً ، وكلمة كلمة ، وتكليفا تكليفا ، جاء لتكون آياته هي الأوامر اليومية
التي يتلقاها المسلمون ليعملوا بها فتور تلقوها . ولقد حقق القرآن بمنهجه ذلك خوارق
في تكيف تلك النفوس التي تلقت وتأثرت به . فلما غفل المسلمون عن هذا
المنهج . واتخذوا القرآن كتاب متاع للثقافة وكتاب تعبد للتلاوة فحسب . لا منهج
تربية للانطباع والتكيف ، ومنهج حياة للعمل والتنفيذ . لم ينتفعوا من القرآن بشيء
لأنهم خرجوا عن منهجه الذي رسمه العلم الخبير ..

د - منهج التلقي :

(يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد
إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن
يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم) لقد جاءت هذه الأمة المسلمة لتنشئ
في الأرض طريقها على منهج الله وحده متميزة منفردة ظاهرة . لقد انبثق وجودها

ابتداء من منهج الله لتؤدي في حياة البشرية دوراً خاصاً لا ينهض به سواها .
لقد وجدت لأقرار منهج الله في الأرض وتحققه في صورة عملية ذات معالم
منظورة ، تترجم فيها النصوص إلى حركات ، وأعمال ومشاعر وأوضاع وارتباطات .
وهي لا تحقق غاية وجودها ، ولا تستقيم على طريقها ولا تنشئ في الأرض هذه
الصورة الوضيئة الفريدة من الحياة الواقعية المتميزة إلا إذا تلقت من الله وحده .
لا التلقي من أحد من البشر ، ولا اتباع أحد من البشر ، ولا طاعة أحد من
البشر . إما هذا وإما الكفر والضلال والانحراف . هذا ما يؤكد القرآن ويكرره
في شتى المناسبات . وهذا ما يقيم عليه مشاعر الجماعة المسلمة وأفكارها وأخلاقها
كلما سنحت الفرصة . وهو التوجيه الدائم لهذه الأمة في كل جيل من أجيالها
لأنه هو قاعدة حياتها بل قاعدة وجودها .

لقد وجدت هذه الأمة لقيادة البشرية ، فكيف تتلقى اذن من الجاهلية
التي جاءت لتبطلها ولتصلها بالله ولتقودها بمنهج الله ؟ وحين تتخلي عن مهمة
القيادة فما وجودها اذن ، وليس وجودها في هذه الحال من غاية .. لقد وجدت
الأمة المسلمة للقيادة .. قيادة التصور الصحيح والاعتقاد الصحيح . والشعور
الصحيح ، والخلق الصحيح والنظام الصحيح والتنظيم الصحيح .. وفي ظل هذه
الأوضاع الصحيحة يمكن أن تنمو العقول وأن تتفتح وأن تتعرف إلى هذا الكون ،
وأن تعرف أسرارها ، وأن تسخر قواه وطاقاته ومدخراته . ولكن القيادة الاساسية
التي تسمح بهذا كله وتسيطر على هذا كله ، وتوجهه بخير البشر . لا تهديدهم
بالخراب والدمار ، ولا لتسخيره في المآرب والشهوات .. ينبغي أن تكون للايمان ،
وأن تقوم عليها الجماعة المسلمة مهتدية فيها بتوجيه الله ، لا بتوجيه أحد من
عبيد الله . وإن طاعة أهل الكتاب والكفار والتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم
وأوضاعهم تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية والتخلي عن دور القيادة الذي
من أجله أنشئت الأمة المسلمة ، كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله
لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعباً في طريق النماء والارتقاء . وهو بذاته
دبيب الكفر في النفس وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب ..

وان أهل الكتاب والمشركون لا يحرصون على شيء حرصهم على اضلال هذه الأمة من عقيدتها . فهذه العقيدة هي صخرة النجاة ونخط الدفاع ، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة . وأعداؤه يعرفون هذا جيداً ، يعرفونه قديماً ويعرفونه حديثاً . ويبدلون في سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة ومن قوة كذلك وعدة . وحين يعجزهم أن يحاربوها بأنفسهم وحدهم يجندون من المنافقين المتظاهرين بالاسلام ، أو ممن ينتسبون زوراً إلى الاسلام جنوداً مجنّدة لتختر لهم في جسم هذه العقيدة . من داخل الدار ، ولتصد الناس عنها ، ولتزين لهم مناهج غير منهجها . وأوضاعاً غير أوضاعها : وقيادة غير قيادتها .. ومن ثم هذا التحذير من القيادة الربانية (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين) وما كان يفرع المسلم ما يفرعه أن يرى نفسه منتكساً إلى الكفر بعد الايمان وراجعاً إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة . وهذا شأن المسلم الحق في كل زمان ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطاً يلهب الضمير ويوقظه بشدة لصوت النذير ..

ونحن اليوم - مخاطبون بهذا القرآن كما نخطب به الأولون . هذا هو الطريق .. وليقف أمامه الدعاة (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) انه الاعتصام بالله وحده سبحانه الخي القيوم .. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشدد مع أصحابه رضوان الله عليهم في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج ، بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة كشؤون الزرع وخطط القتال وأمثالها من المسائل العملية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي ولا بالنظام الاجتماعي ، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الانسان .. وفرق بين هذا وذاك بين . فمنهج الحياة شيء والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر .

والاسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله ، هو الاسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل ابداع مادي في نطاق منهجه للحياة .. روى الامام

أحمد عن عبد الله بن ثابت قال جاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني أمرت بأخ يهودي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة .. ألا أعرضها عليك قال : فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال عبد الله بن ثابت : قلت له ألا ترى ما وجه رسول الله عليه وسلم ؟ فقال عمر رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا . قال فسرى عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم انكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » وفي بعض الأحاديث (لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما الا اتباعي) ..

هذا هو هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولا ضير وفق روح الاسلام وتوجيهه من الانتفاع بجهود البشر كلهم في غير هذا من العلوم البحتة علماً وتطبيقاً مع ربطها بالمنهج اليماني : من ناحية الشعور بها ، وكونها من تسخير الله للانسان . ومن ناحية توجيهها والانتفاع بما في خير البشرية وتوفير الأمن لها والرخاء وشكر الله على نعمة المعرفة ، ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية ، شكره بالعبادة وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية .. فأما التلقي عن أهل الكتاب في التصور اليماني وفي تفسير الوجود ، وغاية الوجود الانساني ، وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها . وفي منهج الأخلاق والسلوك ايضاً .. أما التلقي في شيء من هذا كله فهو الذي تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم لأيسر شيء منه . وهو الذي حذر الله منه الأمة المسلمة عاقبته وهو الكفر الصراح .. وهذا توجيه الله سبحانه . وهذا هو هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون . فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا صلى الله عليه وسلم عن المستشرقين . وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء ومن الفلاسفة والمفكرين : الاغريق والرومان والأوربيين والامريكان .. وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة . وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن الذي انتهت اليه الحضارة المادية المجردة من روح

الدين .. أي دين .. ثم نزعهم والله اننا مسلمون ، وهو زعم أنهم أنقل من إثم الكفر الصريح . فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ . ان الاسلام منهج ، وهو منهج ذو خصائص متميزة : من ناحية التصور الاعتقادي ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها . ومن ناحية القواعد الأخلاقية التي تقوم عليها هذه الارتباطات ولا تفارقها سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها . فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تتحمل هذا المنهج لتتقود به البشرية .. وما يتناقض مع طبيعة القيادة أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتي .. ولخير البشرية جاء هذا المنهج يوم جاء .. ولخير البشرية يدعو الدعاة لتحكيم هذا المنهج اليوم وغداً . بل الأمر اليوم ألزم ، والبشرية بمجموعها تعاني من النظم والمناهج التي انتهت إليها ما تعاني . وليس هناك منقذ الا هذا المنهج الالهي . الذي يجب أن يحتفظ بخصائصه كي يؤدي دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى . لقد أحرزت البشرية انتصارات شتى في جهادها لتسخير القوى الكونية ، وحققّت في عالم الصناعة والطب ما يشبه الخوارق بالنسبة للماضي ، وما تزال في طريقها إلى انتصارات جديدة .. ولكن ما أثر هذا كله في حياتها ؟ ما أثره في حياتها النفسية ؟ هل وجدت السعادة . هل وجدت الطمأنينة . هل وجدت السلام ؟ .. كلا .. لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف . والأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والجريمة على أوسع نطاق . وهذه البشرية هي التي يعمل ناس منها على حرمانها من منهج الله الهادي ، وهم الذين يُسمون التطلع إلى هذا المنهج (رجعية) ويحسبونه مجرد حنين إلى فترة ذاهبة من فترات التاريخ .. وهم بجهاالتهم هذه أو بسوء نيتهم يحرمون البشرية التطلع إلى المنهج الوحيد الذي يمكن أن يقود خطاها إلى السلام والطمأنينة ، كما يقود خطاها إلى النمو والرفق .

ونحن الذين نؤمن بهذا المنهج نعرف إلى ماذا ندعو .. اننا نرى واقع البشرية النكد ، ونشم رائحة المستنقع الآسن الذي تنمرغ فيه ، ونرى هنالك على الأفق الصاعد راية النجاح تلوح للمكذوبين في تجير الصحراء المحرق ، والمرتقى

الوضعي ، النظيف يلوح للغارقين في المستنقع . ونرى أن قيادة البشرية ان لم ترد إلى هذا المنهج فهي في طريقها إلى الارتكاس الشائن لكل تاريخ الانسان ، ولكل معنى من معاني الانسان . وأولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم ، كما يظل المنهج نظيفاً سليماً إلى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى ، والله أرحم بعباده أن يدعهم لأعداء البشر الداعين إلى الجاهلية من هنا ومن هناك .. وهذا ما أراده الله سبحانه أن يُلْقِنَه للجماعة المسلمة الأولى في كتابه الكريم ، ولكل جماعة مسلمة في كل زمان وفي كل مكان .

٢ - طبيعة الدعوة :

ان طبيعة الدعوة إلى الله على مدار التاريخ البشري تستهدف الاسلام .. اسلام العباد لرب العباد ، واخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، باخراجهم من سلطان العباد وحاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم إلى سلطان الله وحاكميته وشرعيته وحده في كل شأن من شؤون الحياة ..

وفي هذا جاء الاسلام جاء ليرد الناس إلى حاكمية الله ، كشأن الكون كله الذي يحتوي الناس ، فيجب أن تكون السلطة التي تُنظم حياتهم هي السلطة التي تُنظم وجوده . والناس مَحْكُومُونَ بقوانين فطرية من صنع الله في نشأتهم ونموهم وصحتهم ومرصهم وحياتهم وموتهم ، كما هم مَحْكُومُونَ بهذه القوانين في اجتماعهم وعواقب ما يتحل بهم نتيجة لحركتهم الاختيارية ذاتها وهم لا يملكون تغيير سنة الله بهم في هذا كله ، كما أنهم لا يملكون تغيير سنة الله في القوانين الكونية التي تحكم هذا الكون وتصرفه .. ومن ثم ينبغي أن يعودوا إلى الاسلام في الجانب الارادي من حياتهم فيجعلوا شريعة الله هي الحاكمة في كل شأن من شؤون هذه الحياة تنسيقاً بين الجانب الارادي في حياتهم والجانب الفطري وتنسيقاً بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكوني ..

وليُعرف الدعوة إلى هذا الدين أن الجاهلية التي تقوم على حاكمية البشر ،

والشذوذ بهذا عن الوجود الكوني ، والتصادم بين منهج الجانب الارادي في حياة الانسان والجانب الفطري . هذه الجاهلية التي واجهها كل رسول بالدعوة إلى الاسلام لله وحده . والتي واجهها الداعية العظيم محمد صلى الله عليه وسلم بدعوته ، والتي يواجهها الدعوة في كل زمان وفي كل مكان . ان هذه الجاهلية لم تكن متمثلة في نظرية مجردة ، بل ربما أحياناً لم تكن لها نظرية على الاطلاق ، انما كانت متمثلة في تجمع حركي ، متمثلة في مجتمع خاضع لتصورات وقيم ومفاهيم ومشاعر ، وتقاليد وعادات ، وهو مجتمع عضوي بين أفراده ذلك التفاعل ، والتكامل والتناسق ، والولاء والتعاون العضوي الذي يجعل هذا المجتمع يتحرك بإرادة واعية أو غير واعية للمحافظة على وجوده ، والدفاع عن كيانه ، والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان في أي صورة من صور التهديد . ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية مجردة ، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو ، فإن محاولة الغاء هذه الجاهلية وردّ الناس إلى الله مرة أخرى لا يجوز ولا يسجدي شيئاً أن تتمثل في نظرية مجردة ، فانها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلاً والمتمثلة في تجمع حركي عضوي فضلاً على أن تكون متفوقة عليها ، كما هو المطلوب في حالة محاولة الغاء وجود قائم بالفعل لاقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وفي جزئياته ... بل لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية ، وفي روابطه وعلاقاته ومُنتَجه من ذلك التجمع الجاهلي القائم فعلاً .

والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الاسلام على مدار التاريخ البشري هي قاعدة شهادة أن لا اله الا الله ، أي افراد الله سبحانه بالالوهية والربوبية والقيامة والسلطان والحاكمة افراده بها اعتقاداً في الضمير ، وعبادة في الشعائر وشريعة في واقع الحياة . ولا توجد فعلاً ، ولا تُعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تُعطى وجوداً جلياً حقيقياً ، يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم . ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية أن تعود

حياة البشر بحملتها إلى الله . لا يقضون هم في أي شأن من شؤونها . ولا في أي جانب من جوانبها من عند أنفسهم بل لا بدّ لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه ، وحكم هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه ، وهو رسول الله ، وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الاسلام الأول ، شهادة أن محمداً رسول الله . هذه هي القاعدة النظرية التي يتمثل فيها الاسلام ويقوم عليها ، وهي تُنشئ منهجاً كاملاً للحياة ، حين تُطبق في شؤون الحياة كلها ، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية ، في داخل دار الاسلام وخارجها ، في علاقاته بالمجتمع المسلم ، وفي علاقة المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى ..

❧ ولكن الاسلام لم يكن يملك أن يتمثل في نظرية مجردة ليعتنقها من يعتنقها اعتقاداً ، ويزاوطا عبادة ، ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفراداً ضمن الكيان العضوي للتجمع الحركي الجاهلي القائم فعلاً . فان وجودهم على هذا النحو مهما كثر عددهم لا يمكن أن يؤدي إلى وجود فعلي للاسلام ، لأن الأفراد المسلمين نظرياً الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتماً للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية . سيتحركون طوعاً أو كرهاً ، بوعي أو بغير وعي لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده . وسيدافعون عن كيانه ، وسيدفعون العوامل التي تهدد وجوده وكيانه ، لأن الكائن العضوي يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أَرَادُوا أم لم يريدوا .. أي أن الأفراد المسلمين نظرياً سيظلون يقومون فعلاً بتقوية المجتمع الجاهلي الذين يعملون نظرياً لازالته ، وسيظلون ختلايا حية في كيانه تملده بعناصر البقاء والامتداد ، وسيعطونه كفايتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا ويقوى ، وذلك بدل أن تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي لاقامة المجتمع الاسلامي ... ومن ثم لم يكن بدّ أن تتمثل القاعدة النظرية للاسلام (أي العقيدة) في تجمع عضوي حركي منذ اللحظة الأولى .. لم يكن بدّ أن ينشأ تجمع عضوي حركي آخر غير التجمع الجاهلي ، منفصل ومستقل عن التجمع

العضوي الحركي الجاهلي الذي يستهدف الاسلام الغاءه ، وأن يكون محور هذا التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده في كل قيادة اسلامية تستهدف ردّ الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته ، وأن يتخلع كل من يشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ولاءه من التجمع العضوي الحركي الجاهلي ، ومن قيادة ذلك التجمع في أية صورة كانت ، سواء كانت في صورة قيادة دينية من الكهنة والسنة ومن اليهم ، أو في صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية ، وأن يحصر ولاءه في التجمع العضوي الحركي وفي قيادته المسلمة .

هذه الحقيقة يجب أن تكون نيرة للدعاة .. لم يكن بدّ أن يتحقق هذا منذ اللحظة الأولى لدخول المسلم في الاسلام ولنطقه بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، لأن وجود المجتمع المسلم لا يتحقق الا بهذا ، لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية في قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم لا يتمثلون في تجمع عضوي متناسق متعاون له وجود ذاتي مستقل يعمل أعضاؤه عملاً عضوياً كأعضاء الكائن الحي على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه ، وعلى الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه ، ويعملون في هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلي . تنظم تحركاتهم وتنسقها وتوجهه لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الاسلامي . ولكافة مقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلي . وهكذا وجد الاسلام .. هكذا وجد متمثلاً في قاعدة نظرية مجملية . ولكنها شاملة يقوم عليها في نفس اللحظة تجمع عضوي حركي مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي ويواجه هذا المجتمع .. ولم يوجد قط في صورة نظرية مجردة عن هذا الوجود الفعلي .. فليعرف الدعاة الى هذا الدين أنه بهذا يمكن أن يوجد الاسلام مرة أخرى .

٣ - مخطط الدعوة :

ان الانسان ليأخذ الدهش والعجب ، كما تغمزه الروعة والخشوع ، وهو يستعرض ذلك الجهد الموصول من الرسل صلوات الله عليهم وسلامه لهداية البشرية

الضالة المعاندة . ويتدبر ارادة الله المستقرة على ارسال هؤلاء الرسل واحداً بعد واحد لهذه البشرية المعرضة العنيدة . وقد يعن للانسان أن يسأل : ترى هل تساوي الحصيلة هذا الجهد الطويل . وتلك التضحيات النبيلة من لدن نوح عليه السلام الى محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام ؟ ترى هل تساوي تلك الجهود الموصولة منذ ذلك الزمن البعيد وتلك التضحيات النبيلة التي لم تنقطع على مدار التاريخ . من رسل يستهزأ بهم أو يحرقون بالنار ، أو ينشرون بالمنشار ، أو يهجرون الأرض والديار ، حتى تنجي الرسالة الأخيرة فيجهد فيها محمد صلى الله عليه وسلم ذلك الجهد المشهود المعروض ، هو والمؤمنون معه ، ثم تتوالى الجهود المضنية والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل .. ترى هل تساوي الحصيلة كل هذه الجهود وكل هذه التضحيات ، وكل هذا الجهاد المرير الشاق؟ ثم .. ترى هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله المتجلية في استقرار ارادته سبحانه على ارسال الرسل تترى بعد العناد والاعراض والاصرار والاستكبار من هذا الخلق الهزيل المسمى بالانسان .

والجواب بعد التدبر : أن نعم .. وبلا جدال .. ان استقرار حقيقة الايمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد وكل هذا الصبر وكل هذه المشقة . وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل .. ولعل استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الانسان ذاته ، بل أكبر من الأرض وما عليها ، بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن تكون فيه هبادة ضائعة لا تكاد تحس أو ترى .. وقد شاعت ارادة الله أن يخلق هذا الكائن الانساني بخصائص معينة ، تجعل استقرار هذه الحقيقة في ضميره وفي نظام حياته موكولا الى الجهد الانساني ذاته . يعون الله وتوفيقه . ولنا نعلم لم خلق الله هذا الكائن بهذه الخصائص ، ووكله الى ادراكه وجهده وارادته في تحقيق حقيقة الايمان في ذاته وفي نظام حياته . ولم يجعله على الايمان والطاعة لا يعرف غيرهما كالملائكة ، أو يمحض للشر والمعصية لا يعرف غيرهما كابليس . لسا نعلم سرّ هذا ولكننا نؤمن بأن

هنالك حكمة تتعلق بنظام الوجود كله في خلق هذا الكائن بهذه الخصائص ، واذن فلا بد من جهد بشري لاقرار حقيقة الايمان في عالم الانسان . هذا الجهد اختار الله له صفوة من عباده هم الأنبياء والرسل وثلة مختارة من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون اختارهم لاقرار هذه الحقيقة في الأرض لأنها تساوي كل ما يبذلون فيها من جهود مضيئة ومريرة وتضحيات شاقة نبيلة .

ان استقرار هذه الحقيقة في القلب معناه أن ينطوي هذا القلب على قبس من نور الله وأن يكون مستودعاً لسرٍّ من أسرارهِ ، وأن يكون أداة من أدوات قدرهِ النافذ في هذا الوجود وهذه حقيقة لا مجرد تصوير وتقرير ، وهي حقيقة أكبر من الانسان ذاته ومن أرضهِ وسماواتهِ ومن كل هذا الكون الكبير كما أن استقرار حقيقة الايمان في حياة البشر أو جماعة منهم معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية وارتفاعها الى المستوى الذي يؤهلها لهذا الاتصال .

معناه اتصال الفناء بالبقاء والخزء بالكل . والمحدود الناقص بالكمال المطلق .. وهي حصيلة تربي على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوماً أو بعض يوم في عمر البشرية الطويل لأن تحققها ولو في هذه الصورة يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل النور في صورة عملية واقعية تجاهد لتبلغ اليها طوال الأجيال .

ولقد أثبت الواقع التاريخي المتكرر أن النفس البشرية لم تبلغ الى آفاق الكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغت باستقرار حقيقة الايمان بالله فيها ، وان الحياة البشرية لم ترتفع الى هذه الآفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة ، وان الفترات التي استقرت فيها هذه الحقيقة في الأرض وتسلم أهلها قيادة البشرية كانت قمة في تاريخ الانسان سامقة . بل كانت حلماً أكبر من الخيال ولكنه متمثل في واقع يحياه الانسان .

وما يمكن أن ترتقي البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام الى المستوى الذي وصلت أو تصل اليه عن طريق

استقرار حقيقة الايمان بالله في نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازيتهم .

وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج الحياة الكاملة ، سواء جاءت مجملة كما هي في الرسالات الأولى أو مفصلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة . والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله هو هذا الذي أثبتته الواقع التاريخي من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الايمان في حياتها ما لم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر . لا علم ولا فلسفة ولا فن ولا نظام من النظم وأنها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله . بل انحدرت قيمها وموازيتها وإنسانياتها ، كما غرقت في الشقاء النفسي والحيرة الفكرية والأمراض العصبية على الرغم من تقدمها الحضاري في سائر الميادين ، وعلى الرغم من توافر الراحة البدنية والمتاع العقلي وأسباب السعادة المادية بمجملها ولكنها لم تنل السعادة والطمأنينة والراحة الانسانية أبداً ولم يرتفع تصورهما للحياة قط كما ارتفع في ظل الحقيقة اليمانية . ولم تثبت صلتها بالوجود قط كما تثبتت في ظل هذه العقيدة ولم تشعر بكرامة النفس الانسانية قط كما شعرت بها في تلك الفترة التي استقرت فيها تلك الحقيقة . والدراسة الواعية للتصور الاسلامي لغاية الوجود كله وغاية الوجود الانساني تنتهي حتما الى هذه النتيجة .

وهذا كله يستحق بدون تردد كل ما يبذله المؤمنون من جهود مضيئة ومن تضحيات نبيلة لإقرار حقيقة الايمان بالله في الأرض وإقامة قلوب تنطوي على قبس من نور الله وتتصل بروح الله ، وإقامة حياة انسانية يتمثل فيها منهج الله في الحياة وترتفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم ، كما يرتفع فيها واقع حياتهم الى ذلك المستوى الرفيع الذي شهدته البشرية واقعا في فترة من فترات التاريخ .

١- وستعرض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وأخوانهم الكرام . وستذهب مع القيادات الضالة المضلة الممعة في الضلال . وستعذب الدعاة الى الحق أنواعا مختلفة من العذاب ، وتكمل بهم أواني شتى من

النكال ، كما ألفت إبراهيم في النار ونشرت غيره بالنشار ، وسحرت واستهزأت
بالرسل والأنبياء على مدار التاريخ .

ولكن الدعوة الى الله لا بد أن تمضي في طريقها كما أراد الله لأن الحصيلة
تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة ولو صغرت فانحصرت في قلب واحد
ينطوي على قيس من نور الله ويتصل بروح الله . ان هذا الموكب المتصل من
الرسول والرسالات من عهد نوح عليه السلام الى عهد محمد عليه أزكى السلام
لينبئ عن استقرار ارادة الله على اطراد الدعوة الى حقيقة الايمان الكبيرة ، وعلى قيمة
هذه الدعوة وقيمة الحصيلة . وأقل نسبة لهذه الحصيلة هي أن تستقر حقيقة الايمان في
قلوب الدعاة أنفسهم حتى يلاقوا الموت وما هو أشد من الموت في سبيلها ، ولا
يتكصرون عنها ، وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون من جواذها ويتحررون
من ربقتها ، وهذا وحده كسب كبير أكبر من الجهد المرير ، كسب للدعاة
وكسب للإنسانية التي تشرف بهذا الصنف منها وتكرم . وتستحق أن يسجد الله
الملائكة لهذا الكائن الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء ولكنه يتهياً بجهده هو
ومحاولته وتضحيته لاستقبال قيس من نور الله كما يتهياً لأن ينهض وهو الضعيف
العاجز لتحقيق قدر الله في الأرض وتحقيق منهجه في الحياة ويبلغ من الطلاقة
والتحرر الروحي أن يضحي بالحياة ويحتمل من المشقة ما هو أكبر من ضياع
الحياة لينجو بعقيدته وينهض بواجبه في محاولة لاقرارها في حياة الآخرين وتحقيق
السعادة لهم والتحرر والارتفاع وحين يتحقق لروح الانسان هذا القدر من التحرر
والانطلاق يهون الجهد وتهون المشقة ، وتهون التضحية ، ويتوارى هذا كله لتبرز
تلك الحصيلة الضخمة التي ترجع الأرض والسماء في ميزان الله ..

ويجمع الله في الطريق أسرة النبوة كلها في ندوة واحدة تتلقى من ربها حديثاً
واحداً ترتبط بها أرواحها وقلوبها وتتصل به طريقها ودعوتها . ويحس المسلم الأخير
أنه فرع من شجرة وارفة عميقة الجذور (ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من
قبلك) . انه وحي واحد ورسالة واحدة وعقيدة واحدة . وأنه كذلك استقبال واحد من
البشرية وتكذيب واحد واعتراضات واحدة ثم هي بعد ذلك وشيعة واحدة وشجرة

واحدة وأسرة واحدة وآلام واحدة وتجارب واحدة وهدف في نهاية الأمر واحد .
وطريق وإصل محدود . أي شعور بالانس والقوة والتصبر والتصميم . توحيد هذه
الحقيقة لأصحاب الدعوة السالكين في طريق سار فيها من قبل نوح وإبراهيم وموسى
وعيسى ومحمد وأخوانهم جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وأي شعور
بالكرامة والاعزاز والاستعلاء على مصاعب الطريق وعثراتها وأشواكها وعقباتها ،
وصاحب الدعوة يعضي وهو يشعر أن أسلافه في هذا الطريق هم تلك العصابة المختارة
من نبي البشر أجمعين . أنها حقيقة (ما يُقَالُ لك إلا ما قد قيل للرسول) ولكن أي
آثار هائلة عميقة يُنشئها استقرار هذه الحقيقة في نفوس المؤمنين . وهذا ما يصنعه
القرآن وهو يقرر مثل هذه الحقيقة الضخمة ويزرعها في القلوب ...

ان دعوة الله التي حملها نوح عليه السلام والرسول بعده حتى وصلت الى خاتم
النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . هي دعوة واحدة من عند إله واحد ذات هدف
واحد هو ردّ البشرية الضالة الى ربها . وهدايتها الى طريقه . وتربيتها بمنهج .
وان المؤمنين بكل رسالة لأخوة المؤمنين بسائر الرسالات كلهم أمة واحدة تعبد
إلهاً واحداً وأن البشرية في جميع أجيالها صنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم
حزب الله . وصنف المشاكين وهم حزب الشيطان بغض النظر عن تطاول الزمان
وتباعد المكان . وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة في تلك السلسلة الطويلة
الممتدة على مدار القرون . هذه هي الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التي يقوم
عليها الاسلام والتي يقررها القرآن (وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل اليكم وإلنا
والحكم واحد ونحن له مسلمون) هذه الحقيقة التي ترفع العلاقات بين البشر على
أن تكون مجرد علاقة أم أو نسب أو جنس أو وطن أو تبادل أو تجارة . يرفعها
القرآن الكريم عن هذا كله ليصلها بالله . ممثلة في عقيدة واحدة تذوب فيها
الأجاس والألوان وتحتفي فيها القوميات والأوطان . ينلاشني فيها الرمد والمكان .
ولا تبقى الا العروة الوثقى بالخالق الديان ..

٤- تبعة ثقيلة :

ان الإيمان حقيقة انجاذبة متحركة . ما إن تستقر في الضمير حتى تسمى

بذاتها الى تحقيق ذاتها في الخارج ، في صورة عمل صالح ودعوة الى الله ، هذا هو الايمان الاسلامي .. لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك ، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن . فان لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها . فالدعوة الى الله تنبعث من ايمان المؤمن بدينه وشريعته انبعثاً طبيعياً والا فلا ايمان غير موجود .. ومن هنا تبدو قيمة الايمان .. انه حركة وعمل ودعوة وبناء وتعمير يتجه الى الله ، انه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير ، وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الاسلام التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة ، والدعوة الى دين الله هي من بدسيات الايمان ، وهذه لفظة القرآن (قل اني لن ينجيني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً الا بلاغاً من الله ورسالاته). هذه هي القولة الرهيبة التي تملأ القلب بجديّة هذا الأمر ، أمر الرسالة والدعوة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يؤمر باعلان هذه الحقيقة الكبرى ، اني لن يُجبرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملجئاً أو حماية الا أن أبلغ هذا الأمر وأؤدي .. يا للرغبة .. ويا للروعة .. وباللهجد ان الدعوة ليست تطوعاً يتقدم بها صاحب الدعوة انما هو التكليف الصارم الجازم الذي لا مفرّ من أدائه فانه من ورائه ، وانها ليست اللذة الذاتية في حمل الخير والهدى للناس ، انما هو الأمر العلوي الذي لا يمكن التفلسف منه ولا التردد فيه . وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد . انها تكليف واجب وراءه الهول ووراءه الجلد ووراءه الكبير المتعال .. وليعرف الدعاة أن أمامهم واجباً ثقيلاً لأنهم أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهو حجة الله على الناس .

فلا فكاك من التبعة الثقيلة ، تبعه اقامة حجة الله على الناس ، وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا . الا بالتبليغ والاداء على ذات المنهج الذي يُلغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدّى . فالرسالة هي الرسالة ، والناس هم الناس ، وهناك ضلالات وشبهات وشهوات وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس ودون الدعوة وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة . والموقف هو الموقف : والعقبات هي العقبات ، والناس هم الناس . ولا بد من بلاغ . ولا بد من أداء ، بلاغ

بالبیان وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعية عما يبلغون . وبلاغ
بإزالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة وتفتن الناس بالباطل وبالقوة . وإلا فلا بلاغ
ولا أداء . انه الأمر المفروض لا حيلة في النفوس عن حملها (لئلا يكون للناس على
الله حجة بعد الرسل) وإلا فهي التبعة الثقيلة ، تبعة ضلال البشرية كلها وشقوقها في
هذه الدنيا وعدم قيام حجة الله عليها في الآخرة . وحمل التبعة في هذا كله وعدم
النجاة من النار . فمن ذا الذي يستهين بهذه التبعة ؟ وهي تبعة تقصم الظهر وترعد
الفرائص وتهز المفازل . إن الذي يقول انه مسلم . اما أن يبلغ ويؤدي هيكذا .
والا فلا نجاة له في الدنيا ولا في الآخرة . انه حين يقول انه مسلم ثم لا يبلغ ولا
يؤدي كل ألوان البلاغ والأداء هذه إنما يؤدي شهادة ضد الاسلام الذي يدعيه
بدلاً من أداء شهادة له تحقق في قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً
لك تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) .

وتبدأ شهادته للاسلام من أن يكون هو بذاته ثم بيته وعائلته ثم بأسرته
وعشيرته ، صورة واقعية من الاسلام الذي يدعو اليه . وتخطو شهادته الخطوة الثانية
بقيامه بدعوة الأمة الى تحقيق الاسلام في حياتها كلها . وتنتهي شهادته بالجهاد
لإزالة العوائق التي تضلل الناس وتفتنهم من أي لون كانت هذه العوائق . فاذا
استشهد في هذا فهو اذن شهيد . أدنى شهادته لدينه ومضى الى ربه . وهذا هو
وحده هو الشهيد . ان المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدي شهادة لهذا
الدين . شهادة تؤيد حق هذا الدين في البقاء . وتؤيد الخير الذي يحمله هذا الدين
للإنس . وهو لا يؤدي هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن
حياته صورة حية لهذا الدين . صورة يراها الناس فيرون فيها مثلاً رفيعاً . يشهد
لهذا الدين بالاحقية في الوجود والخيرية والأفضالية على سائر ما في الأرض من أنظمة
ومشكلات . (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) . والمسلم لا
يؤدي هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته ونظام مجتمعه
وشريعة نفسه وقومه ، فيقوم مجتمعه من حوله تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهي
للقويم .. وجهاده لقيام هذا المجتمع وتحقق هذا المنهج وإثارة الموت في سبيله على

الحياة في ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله في حياة الجماعة البشرية . هو شهادة بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها وهي أعز ما يحرص عليه الأحياء ، ومن ثم يدعى شهيدا . أنها وقفة أمام هذه الحقيقة ، فمن لم يؤدّ هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه . فأما إذا ادعى الاسلام ثم سار في نفسه غير سيرة الاسلام أو حاولها في نفسه ولكنه لم يؤدها في المجال العام ولم يجاهد لاقامة منهج الله في الحياة ايثارا للعافية واثيرا لحياته على حياة الدين فقد قصّر في شهادته وأدى شهادة ضد هذا الدين شهادة تصد الآخرين عنه وهم يرون أهله يشهدون عليه لا لله ، وويل لمن يصدّ الناس عن دين الله عن طريق ادعائه . انه مؤمن بهذا الدين وما هو من المؤمنين ...

انها الأمانة للشهادة لهذا الدين .. الشهادة في النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له ، ترجمة حيّة في شعورها وسلوكها حتى يرى الناس صورة الايمان في هذه النفس فيقولوا ما أصيب هذا الايمان وأحسنه وأزكاه . وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس . يتأثر بها الآخرون . والشهادة له بدعوة الناس اليه وبيان فضله ومزيته بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية . فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للايمان في ذات نفسه اذا هو لم يدع اليها الناس كذلك وما يكون قد أدّى الدعوة والتبليغ والبيان . ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة اقراره في الأرض منهجا للجماعة المؤمنة ومنهجا للبشرية جميعا ، المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة . فإقرار هذا المنهج في حياة البشر هو كبرى الأمانات بعد الايمان الذاتي ، ولا يعنى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة ومن ثم فالجهاد ماض الى يوم القيامة على هذا الأساس .

ان حمل أمانة العقيدة والشرعية يقتضي فيها الادراك والفهم والفقه ويستهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع . ولكن هناك صورة زرية باثثة . ومثل سيء شائن . ولكنها معبرة عن حقيقة صادقة عن الذين كلّفوا بحمل الأمانة فلم يحملوها ، كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام وليس له فيها الا

تقلها فهو ليس صاحبها وليس شريكاً في الغاية فلهذا (مثل الذين حُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) يس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) : ومثل الذين حُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها .. كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها . والمسلمون الذين غيبت بهم أجيال كثيرة والذين يعيشون في هذا الزمان . وهم يعملون أسماء مسلمين . ولا يعملون عمل المسلمين . وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب وهم لا ينهضون بما فيها أولئك كلهم كالحمار يحمل أسفاراً وهم كثيرون كثيرون . فليست المسألة مسألة كتب تعمل وتدرس . إنما هي مسألة فقه وعمل بما في الكتب .

٥ - منهج الدعوة :

إن الداعية . داعية إلى الله (وداعياً إلى الله) .. لا إلى دنيا ولا إلى مجد . ولا إلى عزة قومية . ولا إلى عصبية جاهلية . ولا إلى مغنم . ولا إلى سلطان أو جاه . ولكن داعياً إلى الله في طريق واحد يصل إلى الله بأذنه (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً) فالدعوة دعوة إلى الله (وادع إلى ربك) دعوة خاصة وصحة لا لبس فيها ولا غموض . دعوة إلى الله لا لقومية ولا لعصبية : ولا لأرض ولا لراية . لا لمصلحة ولا لمغنم . ولا لتمايق هوى . ولا لتحقيق شهوة . ومن شاء أن يتبع هذه الدعوة على تجرد ما فليتبعتها . ومن أراد غيرها معها فليس هذا هو الطريق . وإن الدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبية . ومن يعتنقونها ليقودوا بها الاتباع . ومن يعتنقونها ليحققوا بها الاطماع : ولينجروا بها في سوق الدعوات تشتري منهم وتباع . إنما تقوم الدعوات بالقلوب التي تنجس إلى الله خالصة له . لا تبغي جاهاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً . إنما تبغي وجهه وترجو رضاه . وينبغي ألا تغفل عن هذه الحقيقة البسيطة التي كثيراً ما ننساها وهي أن الناس هم الناس والدعوة هي الدعوة والمعركة هي المعركة . أنها أولاً وقبل كل شيء معركة مع الضعف والنقص والشح والحرص في داخل النفس . ثم هي معركة مع الشر والباطل وبصلاص والضعفاء في واقع الحياة . والمعركة بصرفها لا بد من خوضها . ولا بد للقائمين على الجماعة المسلمة في الأرض من مواجهتها بطرفيها كما واجهها القرآن أول

مرة وواجهها الرسول صلى الله عليه وسلم . ولا بد من الأخطاء والعثرات . ولا بدّ من ظهور الضعف والنقص في مراحل الطريق . ولا بدّ من المضي أيضاً في علاج الضعف والنقص كل ما أظهرتهما الأحداث والتجارب ، ولا بدّ من توجيه القلوب الى الله بالأساليب التي اتبعها القرآن في التوجيه .

ويُوجه الله توجيهاً حاسماً لبيان طبيعة الدعوة وطبيعة الدعاة (واما نُرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب).

ان الدعاة الى الله ليس عليهم الا أن يؤدوا تكاليف الدعوة في كل مراحلها . وليس عليهم أن يبلغوا بها الا ما يشاؤه الله . كما أنه ليس لهم أن يستعجلوا خطوات الحركة ولا أن يشعروا بالفشل والخيبة اذا رأوا قدّر الله يُبطيء بهم عن الغلب الظاهر والتمكين في الأرض . انهم دعاة وليسوا الا دعاة .. بذلك يتعلم الدعاة الى الله أن يتأدّبوا في حقّ الله ، انه ليس لهم أن يستعجلوا النتائج والمصائر . ليس لهم أن يستعجلوا هداية الناس ولا أن يستعجلوا وعد الله ووعدته للمهتدين والمكذّبين . ليس لهم أن يقولوا دعونا كثيراً . فلم يستجب لنا الا القليل . أو لقد صبرنا طويلاً فلم يأخذ الله الظالمين بظلمهم ونحن أحياء ..

ان عليهم الا البلاغ أما حساب الناس في الدنيا أو في الآخرة فهذا ليس من شأن العبيد انما هو من شأن الله . فيتبني تأدياً في حقّ الله واعترافاً بالعبودية له أن يترك له سبحانه يفعل فيه ما يشاء .. وانه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغى أو المستهتر الفاسد أو الملحد الكافر . مُمكننا له في الأرض . غير مأخوذ من الله .. لكن الناس انما يستعجلون .. انهم يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق . ونهاية الطريق لا ترى الا بعد أن نحى .. لا ترى الا مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث والقرآن الكريم يوجه الى هذه المصارع ليتنبّه المخدوعون الذين لا يرون في حياتهم الفردية القصيرة نهاية الطريق فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق .. وهذا هو القرآن يقرر في كثير من جوانبه الحقيقة (فأهلكناهم بذنوبهم) ..

وان صاحب الدعوة لا يجوز أن يعلّق قلبه وأمله وعمله بالمعرضين عن الدعوة الذين لا تنفتح قلوبهم لدلائل الهدى وموجيات الايمان (انبع ما أوحى اليك من ربك لا اله الا هو وأعرض عن المشركين) . هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم يُحدد الله المجال الذي يتناوله اهتمام الرسول وعمله . كما يُحدد هذا المجال لخلفائه وأصحاب الدعوة الى دينه في كل الأرض . في كل جيل ، يجب أن يفرغ قلب صاحب الدعوة وبوجه أمله وعمله للذين سمعوا واستجابوا فهو لاء في حاجة الى بناء كيانتهم كله على القاعدة التي دخلوا الدين عليها . قاعدة العقيدة .. وفي حاجة لانشاء تصور لهم كامل عميق عن الوجود والحياة على أساس هذه العقيدة . وفي حاجة الى بناء أخلاقهم وسلوكهم وبناء مجتمعهم الصغير على هذا الأساس نفسه . وهذا كله يحتاج الى الجهد ويستحق الجهد . فأما الواقفون على الشق الآخر فجزاؤهم الاهمال والاعراض بعد الدعوة والبلاغ وحين ينمو الحق في ذاته فان الله يُجري سنته فيقذف بالحق على الباطل فيقذفه فاذا هو زاهق .. ان على الحق أن يوجد . ومنى ويُجد في صورته الصادقة فان شأن الباطل حين وعمره كذلك قريب ..

والمؤمنون وحدة منفصلة عن سواهم . متضامنون متكاملون فيما بينهم . فعليهم أنفسهم . عليهم أنفسهم ليزكروها ويطهروها .. وعليهم جماعتهم فليتزموها ويرعوها . ولا عليهم أن يفضل غيرهم اذا هم اهدوا . فهم وحدة منفصلة عن سواهم وهم أمة متضامنة فيما بينها بعضهم أولياء بعض (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون) ..

وان هذه الآية تقرر مبادئ أساسية في طبيعة الأمة المسلمة وفي طبيعة علاقاتها مع الآخرين . ان الأمة المسلمة هي حزب الله . ومن عداها فهم حزب الشيطان ومن ثم لا يقوم بينها وبين الآخرين ولاء ولا تضامن لأنه لا اشتراك في عقيدة ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة ولا اشتراك في تبعة أو جزاء ولكن ليس معنى هذا أن تتخلّى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم الى الهدى . والهدى هو دينها . وشريعتها نظامها . ان كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام

الله ، لا يضرها من ضل إذا اهدت ، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها ، ثم في الأرض جميعاً ، وأول المعروف : الاسلام لله وتحكيم شريعته وأول المنكر : الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت . والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه ، ان هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التابعة في كفاح الشر ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان ، وأطفي الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه ، وتعبيد الناس شريعة غير شريعته وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ، ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم ، ولقد روى أصحاب السنن أن أبا بكر رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس انكم تقرأون هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وانكم تضعونها على غير موضعها واني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ان الناس اذا راوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله أن يعذبهم بعقابهم) وهكذا صَحَّحَ الخليفة الأول ما ترامى إلى وهم بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة ، ونحن اليوم أحوج الى هذا التصحيح لأن القيام بتكليف التغيير للمنكر قد صارت أشق ، فما أيسر ما يلجأ الضعاف الى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه ويريحهم من عناء الجهاد وويلاته . وكلا والله ان هذا الدين لا يقوم الا بجهاد وجهاد ولا يصلح الا بعمل وكفاح ولا بُدَّ لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس اليه واخراج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ولتقرير ألوهية الله في الأرض ولردّ المعتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان ولإقامة شريعة الله في حياة الناس وإقامة الناس عليها . لا بُدَّ من جهاد بالحسنى حين يكون الضالون أفراداً ضالين يحتاجون الى الارشاد والانارة ، وبالقوة حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصلهم عن الهدى وتعطل دين الله أن يوجد . وتعوق شريعة الله أن تقوم . وبعد ذلك تسقط التبعية عن الذين آمنوا وبذل الضالون جزاءهم من الله حين يرجع هؤلاء وهؤلاء الى الله (الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون) .

وان الله عز وجل يقرر حقيقة في منح الدعوة وهي أن أمر القلوب وهما
وضلاهما ليس من شأن أحد من خلق الله ولو كان هو رسول الله صلى الله عليه
وسلم . انه من أمر الله وحده فهذه القلوب من صنعه ولا يحكمها غيره ولا يصرفها
سواه ولا سلطان لأحد عليها الا الله . وما على الرسول الا البلاغ . فأما الهدى فهو
بيد الله يعطيه من يشاء ممن يعلم سبحانه أنه يستحق الهدى ويسمى اليه . واخراج
هذا الأمر من اختصاص البشر يقرر الحقيقة التي لا بد أن تستقر في حس
المسلم ليتوجه في طلب الهدى الى الله وحده وليتلقى دلائل الهدى من الله وحده . ثم هي
تفسح في احتمال صاحب الدعوة لعناد الضالين فلا يضيق صدره بهم وهو يدعوهم
ويعطف عليهم ويرتقب اذن الله لقلوبهم في الهدى وتوفيقهم اليه بمعرفته حين يريد
(ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) فلتنفسح لهم صدرك وتنفذ عليهم
سماحتك ، وتبذل لهم الخير والعون ما احتاجوا اليه منك وأمرهم الى الله . ان ما على
الداعية الا التبليغ وليس له ردّ طبيعتهم التي لا حيلة له فيها وانطماس بصيرتهم
(فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما انت بهادي العمى
عن ضلالتهم ان تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) وهكذا يصور الله موتى لا
حياة فيهم . صم لا سمع لهم . عميا لا يتدون طريق . والذي يتفصل حسه عن
الوجود فلا يدرك نواميسه وسنته . ميت لا حياة فيه . إنما هي حياة حيوانية بل هو
أضل وأقل ، فالحيوان مهدي بفطرته التي قلما تحونه والذي لا يستجيب لما يسمع
من آيات الله ذات السلطان النافذ في القلوب أصم ولو كانت له أذنان تسمعان
ذبذبة الأصوات والذي لا يبصر آيات الله المبثوثة في صفحات الوجود ولو كانت
له عيان كالحيوان . أما الذين يسمعون الدعوة فهم أصحاب القلوب الحية والبصائر
المفتوحة والادراك السليم . فهم يسمعون فيسلمون ولا تزيد الدعوة أن تنبه فطرتهم
فتستجيب فلهذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) ان الكلمة الهادية لا يتشرفها
الا القلب المؤمن المفتوح للهدى ، والعظة البالغة لا ينتفع بها الا القلب التقي الذي
يخفق لها ويتحرك بها . والناس قلما ينتصهم العلم بالحق والباطل وبالهدى والضلال .

ان الحق بطبيعته من الرضوخ والظهور بحيث لا يحتاج الى بيان طويل انما

تنقص الناس الرغبة في الحق والقدرة على اختيار طريقه . وإن النصيحة لتثقل على نفوس الأشرار لأنها تقيدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه ، وتثقل على نفوس المتكبرين الصغار ، الذين يحسبون النصيحة نقصاً لأقدارهم . إن الصغير هو الذي يبعد يدك عنه التي تمتد لتسانده . ليظهر أنه كبير ..

ليس للداعية إلا التبليغ والبيان . وإن الله هو الذي يتصرف في الأمر كله ، فليس على الداعية إلا أن يمضي وفق هذا الأمر ، لا يستعجل خطوة ولا يقترح على الله شيئاً حتى ولو كان هو النبي الرسول .. إنه ليس الذي ينقص الذين يلجئون في الضلال أنه لا توجد أمامهم دلائل وبراهين ، إنما الذي ينقصهم آفة في القلب وعطل في الفطرة وانطماس في الضمير .

٦ - نقطة البدء

إن نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق فيشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ومن ثم يدينون الله وحده بالحاكمة والسلطان والتشريع ويطبّقون هذا في واقع الحياة .. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الاعلان العام لتحرير الإنسان .. هذه نقطة البدء التي يجب أن يقف أمامها الدعاة . أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق فيعبدون الله .. وحقيقة العبادة لو كانت هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقّت كل هذا الموكب من الرسل والرسالات ، وما استحقّت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وما استحقّت كل هذه العذابات والآلام التي تعرّض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان . إنما الذي استحقّ كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جُملة من الدينونة للعباد وردّهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ، وفي منهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء .

إن توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد القنّامة وتوحيد الحاكّية وتوحيد مصدر الشريعة وتوحيد منهج الحياة وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة

الشاملة .. إن هذا التوحيد هو الذي يُستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل وأن تبدل في سبيله كل هذه الجهود . وأن تتحمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان .. لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه . فإله سبحانه غني عن العالمين . ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لا ثقة بالإنسان إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء .

.. ننظر ابتداءً إلى أثر حقيقة التوحيد في كيان الكائن الإنساني نفسه من ناحية وجوده الذاتي وحاجته الفطرية وتركيبه الإنساني أثرها في تصوّره وأثر هذا التصور في كيانته : إن هذا التصور إذ يتناول الأمور على هذا النحو الشامل بكل معاني الشمول يُخاطب الكينونة البشرية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها ويردّها إلى جهة واحدة تتعامل معها جهة تطلب عندها كل شيء وتتوجه إليها بكل شيء . جهة واحدة تبرز جوها وتخشأها . وتقي غضبها وتبغّي رضاها جهة واحدة تلك لها كل شيء لأنها خالقة كل شيء ومالكة لكل شيء ومندبرة كل شيء ... كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد . تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها وقيمها وموازينها ، وشرائعها وقوانينها . وتتجدد عنده اجابة عن كل سؤال يتجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والإنسان بكل ما يُشير كل منها من علامات الاستفهام ... عندئذ تتجمع هذه الكينونة تتجمع شعوراً وسلوكاً وتصوراً واستجابة . في شأن العقيدة والمنهج . وشأن الاستعداد والنافع . وشأن الحياة والموت وشأن السعي والحركة . وشأن الصحة والرزق . وشأن الدنيا والآخرة . فلا تتفرق مرقاً ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق ...

والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو . تصبح في خير حالاتها ، لأنها تكون حينئذ في حالة الوحدة التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها .. فالوحدة هي حقيقة الخالق سبحانه والوحدة هي حقيقة هذا الكون على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال ، والوحدة هي حقيقة الحياة والأحياء على تنوع الأنواع

والأجناس والوحدة هي حقيقة الإنسان على تنوع الأفراد والاستعدادات والوحدة هي غاية الوجود الإنساني وهي العبادة على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها : وهكذا نحيطما بحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود .

وحين تكون الكينونة الانسانية في الوضع الذي يطابق الحقيقة في كل مجالاتها تكون في أوج قوتها الذاتية وفي أوج تناسقها كذلك مع حقيقة هذا الكون الذي تعيش فيه وتتعامل معه ومع حقيقة كل شيء في هذا الوجود مما تتأثر به وتتأثر فيه .. وهذا التناسق هو الذي يتيح لها أن تنشئ أعظم الآثار وأن تؤدي أعظم الأدوار .. حينئذ تبلغ هذه الحقيقة أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل صنع الله بها في الأرض أدواراً عميقة الآثار في كيان الوجود الإنساني وفي كيان التاريخ الإنساني .. حينئذ توحيد هذه الحقيقة مرة أخرى وهي لا يد كائنة باذن الله سيصنع الله بها الكثير مهما يكن في طريقها من العراقيل ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته ينشئ قوة لا تقاوم لأنها من صميم قوة هذا الكون وفي اتجاه قوة المبدع لهذا الكون .. ان هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني . وان كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كله ، بل إن أهميتها كذلك في حسن تذوق الحياة . ويلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق فقيمة الحياة الانسانية دائمة ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله : حين يصبح كل نشاط فيها صغراً أم كبير جزءاً من هذه العبادة أو كل العبادة ، متى نظرنا الى المعنى الكبير الكامن فيه وهو افراد الله سبحانه بالالوهية والاقرار له وحده بالعبودية .. هذا المقام الذي لا يرتفع الانسان الى ما هو أعلى منه ولا يبلغ كماله الإنساني الا في تحقيقه .. وهو المقام الذي بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى مقاماته التي ارتقى اليها .. مقام تلقي الوحي من الله ومقام الأسراء أيضا . (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنُريه من آياتنا انه هو السميع البصير) .

وننتقل الى قيمة أخرى من قيم توحيد العبادة بمعنى الدينونة لله وحده وآثارها في

الحياة الانسانية : ان الدينونة لله تُحور البشر من الدينونة لغيره وتُخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . وبذلك تُحقق للانسان كرامته الحقيقية ، هذه الحرية وتلك . اثنان يستحيل ضمّانها في ظلّ أي نظام آخر غير النظام الاسلامي يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية في صورة من صورها الكثيرة .. سواء عبودية الاعتقاد أو عبودية الشعائر أو عبودية الشرائع .. فكلها عبودية وبعضها مثل بعض تُخضع الرقاب لغير الله باخضاعها لمتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله . والناس لا يمكنون أن يعيشوا غير مدينين . لا بُدّ للناس من دينونة .

والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شرّ ألوان العبودية لغير الله في كل جانب من جوانب الحياة .. انهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حذر ولا ضابط . ومن ثمّ يفقدون خاصتهم الآدمية ويتدرجون في عالم البهيمة : (والذين كفروا يمتنعون وبأكلون كما تأكل الأنعام وانتار متوى لهم) ولا يخسر الانسان شيئاً كان يخسر آدميته ويتدرج في عالم البهيمة وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة لله وحده والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة ...

ثم هم يقعون فرائس لألوان من العبودية للعبيد .. يقعون في شرّ ألوان العبودية للحكام والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم ، لا ضابط لها ولا هدف الا حماية مصالح المشرعين أنفسهم سواء تَمَثَّل هؤلاء المشرعون في فرد ساكن أو في طبقة حاكمة أو في جنس حاكم . فالنظرة على المستوى الانساني لشامل تكشف عن هذه الطاهرة في كل حكم بشري لا يستمد من الله وحده ولا يعتمد بشريعة الله لا يتعدّاها .. ولكن العبودية للعبيد لا تقف عند حدود العبودية للحكام والرؤساء والمشرعين ..

فهذه هي الصورة الصارخة ، ولكنها ليست هي كل شيء ان العبودية للعباد تتمثل في صور أخرى خفية ولكنها قد تكون أقوى وأعمق وأقسى من هذه الصورة . ونضرب مثلاً لهذا تلك العبودية لِمَصَانِي المودات والأزياء مثلاً . أي سلطان هؤلاء على قطيع كبير جداً من البشر ؟ كل الذين يسمونهم متحضرين .. إن الزبي المفروص من آفة الأزياء سواء في الملابس أو العربات أو المباني أو المناظر أو الحفلات ..

الخ . ليمثل عبودية صارمة لا سبيل للجاهلي أو للجاهلية أن يفلت منها ، أو يفكر في الخروج عنها. ولو دأب الناس في هذه الجاهلية الحضارية لله بعض ما يدينون لصانعي الأزياء لكانوا عباداً متبتلين .. فماذا تكون العبودية إن لم تكن هي هذه ؟ وماذا تكون الحاكِية والربوبية إن لم تكن هي حاكِية وربوبية صناعي الأزياء أيضاً ؟...

وان الانسان ليُبصر أحياناً بالمرأة المسكينة وهي تلبس ما يكشف عن سوءاتها وهو في الوقت ذاته لا يناسب شكلها ولا تكوينها . وتصنع من الأصباغ ما يتركها شائبة أو مثاراً للسخرية . ولكن الالهية القاهرة لأرباب الأزياء والمودات تُعْهَرها وتذلّها لهذه المهانة التي لا تملك لها رَدّاً ، ولا تقوى على رَفْض الدينونة لها لأن المجتمع كله من حوطا يدين لها .. فكيف تكون الدينونة إن لم تكن هي هذه ؟ وكيف تكون الحاكِية والربوبية إن لم تكن هي تلك ؟ .. وليس هذا إلا مثلاً واحداً للعبودية المذلة حين لا يدين الناس لله وحده وحين يدينون لغيره من العبيد .. وليست حاكِية الرؤساء والحكام وحدها هي الصورة الكريمة المذلة لِحاكِية البشر للبشر ولعبودية البشر للبشر ... وهذا يَفْقِدُنَا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صِيَانَةِ أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم التي تُصْبِح كلها ولا عَاصِم لها عندما يدين العباد للعباد في صورة من صور الدينونة .. سواء في حاكِية التشريع أو في صورة حاكِية الأعراف والتقاليد وفي صورة حاكِية الاعتقاد والتصور .. هذه هي الحقيقة ..

هكذا تصنع الجاهلية بالناس .. هكذا تمسخ فطرتهم وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم . ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلا أن تُعْرِيمهم من اللباس وتعْرِيمهم من التقوى والحياء ؟ ثم تدعو هذا رُقياً وحضارة وتجديداً . ثم تُعَيِّر الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات بأنهن (رحميات) . (تقليديات) . (ربفيات) .. المسخ هو المسخ .. والانتكاس عن الفطرة . وماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدي الله ؟ أنها تُسميهم الضالين . وتعد من يهتدي منهم ويرجع بالرضى والقبول . أجل من يهتدي إلى المستنقع الكريه وإلى الوَحْل الذي تتمرغ الجاهلية

فيه . وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف لحمها ، وماذا تقول للفتى الذي يستفذر اللحم الرخيص ؟ أنها تُسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما ، رجعية وتخلفاً وجُمُوداً وريفيّة . وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والاعلام أن تُفرّق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذي تنمرغ فيه ، في المستنقع الكريسه ..

ان الجاهلية هي الجاهلية فلا تتغير الا الاشكال والظروف . إنه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف . هذا الاستعباد الذي يسلب الانسان خصائص الانسان ، ويدعه عبداً للعادة والتقليد ، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله .. ان مشرّكي اليوم ومشرّكاته يتلقون هذه الأزياء عن الأرباب الأرضية ..

سبح ان بيوت الأزياء ومصمميها وأسائذة التجميل ودكاكينها هي الأرباب التي تكمن وراء هذا الخبل الذي لا تفتيق منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك .. ان هذه الأرباب تُصدر أوامرها فتطيعها القطعان والبهاائم العارية في أرجاء الأرض طاعة مزرية . وسواء كان الزي الجديد لهذا العام يُناسب قوام أية امرأة أو لا يُناسبه ، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أو لا تصلح فهي تطيع صاغرة .. تُطيع تلك الأرباب . والا عيّرت من بقية البهاائم المغلوبة على أمرها .. ومن ذا الذي يقبع وراء بيوت الأزياء . ووراء دكاكين التجميل ؟ ووراء سعار العري والتكشف ؟ ووراء الأفلام والصور والروايات والقصص والمجلات والصحف التي تقود هذه الحملة المسعورة .. وبعضها يبلغ في هذا الى حدّ أن تصبح المجلة أو القصة مأخوذاً منتقلاً للدعارة ؟ من الذي يقبع وراء هذا كله ؟ الذي يقبع وراء هذا كله ، وراء هذه الأجهزة كلها في العالم كله . يهود .. يهود يقومون بخصائص الربوبية على البهاائم المغلوبة على أمرها ، ويبلغون أهدافهم كلها من اخلاق هذه المروجات المسعورة في كل مكان .. أهدافهم من تلهية العالم كله بهذا السعار واشاعة الانحلال النفسي والخلقي من ورائه . وافساد الفطرة البشرية وجعلها أنعوبة في أيدي مصممي الأزياء والتجميل وأدوات الزينة ، وسائر الصناعات الكثيرة التي تقوم على هذا السعار وتغذيه .

إن قضية اللباس والأزياء ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة .. أنها ترتبط بالعقيدة وبالشرعية بأسباب شتى : أنها تتعلّق قبل كل شيء بأرثوذية وتحديد الجهة التي تُشرع للناس في هذه الأمور ذات التأثير العميق في الأخلاق والاقتصاد وشتى جوانب الحياة . كذلك تتعلّق بابرار خصائص الانسان في الجنس البشري ، وتغليب الطابع الانساني في هذا الجنس على الطابع الحيواني ..

والجاهلية تمسح التصورات والأذواق والقيم والأخلاق ، وتجعل العري الحيواني تقدماً ورقياً ، والستر الانساني تأخراً ورجعية . وليس بعد ذلك مسح لفطرة الانسان وخصائص الانسان .. وبعد ذلك عندنا جاهليون يقولون ما للدين والزي ؟ ما للدين ومكلايس النساء ؟ ما للدين والتجميل ؟ إنه المسح الذي يُصيب الناس في الجاهلية في كل زمان وفي كل مكان .. ولأن هذه القضية التي تبدو فرعية ، لها كل هذه الأهمية في ميزان الله وفي حساب الاسلام لارتباطها أولاً بقضية التوحيد والشرك ، ولارتباطها ثانياً بصلاح فطرة الانسان ، وخلقه وجمعه وحياته ، أو بفساد هذا كله .

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوائها الجسدية والنفسية وتحرص على سترها ومواراتها .. والذين يُحاولون تعرية الجسم من اللباس وتعرية النفس من التقوى ومن الحياء ومن الله ومن الناس . والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والاعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة هم الذين يُريدون سلب الانسان خصائص فطرته وخصائص إنسانيته التي بها صار انساناً ، وهم الذين يُريدون اسلام الانسان لعدوه الشيطان ، وما يريد من نزع لباسه وكشف سوائه ، وهم الذين يُنفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الانسانية واشاعة الانحلال فيها لتخضع للملك صهيون بلا مقاومة . وقد فقدت مقوماتها الانسانية ..

إن العري فطرة حيوانية ولا يميل الانسان اليه الا وهو يترتكس الى مرتبة أدنى من مرتبة الانسان .. وإن رؤية العري جمالاً هو انكاس في الذوق البشري طبعاً .. والمتخلفون في أواسط أفريقيا عراة . والاسلام حين يدخل بحضارته الى هذه

المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة . فأمّا في الجاهلية الحديثة (التقدمية) فهم يرتكسون الى الوهدة التي يتشكّل الاسلام المتخلفين منها وينقلهم الى مستوى الحضارة بمفهومها الاسلامي الذي يستهدف استنقاذ خصائص الانسان ، والعري هو النكسة والردة الى الجاهلية ..

ان الدينونة ليغير الله في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في برأثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي والتي تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صوراً منها وتمثل أوهام العوام المختلفة صوراً منها . وتقدم فيها النذور والأصاحي من الأموال وأحياناً من الأولاد تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأرباب من السحرة المتصلين بالجن والعفاريت .. ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار ومن .. ومن .. ومن الأوهام التي ما ينزّل الناس منها في رعب وفي خوف وفي تقرب وفي رجاء حتى تنقطع أعناقهم وتوزع جهودهم وتتبدّد طاقتهم في مثل هذا الهراء ... وقد مثلنا لتكاليف الدينونة لغير الله في الأعراف والتقاليد بأرباب الأزياء والمودات فينبغي أن نعلم كم من الأموال والجهود تضيع الى جانب الأعراض والأخلاق في سبيل هذه الأرباب .. ان البيت ذا الدخل المتوسط يُنفق على الدهون والعطور والأصباغ وعلى تصفيف الشعر وكيّهِ وعلى الأقمشة التي تُصنع منها الأزياء المتقلبة عاماً بعد عام وما يتبعها من الأحذية المناسبة والحلي المتناسقة مع الزيّ والشعر والحذاء .. الى آخر ما تقضي به تلك الأرباب النكدة ..

ان البيت ذا الدخل المتوسط يُنفق نصف دخله ونصف جهده للاحقة أهواء تلك الأرباب المتقلبة التي لا تثبت على حال . ومن ورأها اليهود أصحاب رؤوس الاموال الموظفة في الصناعات الخاصة بدنيا تلك الأرباب . ولا يملك الرجل والمرأة وهما في هذا الكدّ الناصب أن يتوقفا لحظة عن تلبية ما تقتضيه تلك الدينونة النكدة من تضحيات في الجهد والمال والعرض والخلق على السواء ...

وأخيراً نجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية .. وما من أضحية

يقدمها عابد الله الا ويقدّم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة من الأموال والأنفس والأعراض ..

وتقام أصنام من (الوطن) ومن (القوم) ومن (الجنس) ومن (الطبقة) ومن (الانثاج) ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب .. وتُدقّ عليها الطبول وتنصب لها الرايات ويدعى عباد الأصنام الى بئس النفوس والأموال لها بغير تردد .. والا فالتردد هو الخيانة وهو العار ..

وحين يتعارض العرض مع متطلبات هذه الأصنام فان العرض هو الذي يُضحي ، ويكون هذا هو الشرف الذي يُراق على جوانبه الدم كما تقول الأيواف المنصوبة حول الأصنام ومن رآها أولئك الأرباب من الحكام .. إن كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليُعبّد الله وحده في الأرض (١٦) ولتحرّر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام ولترتفع الحياة الانسانية الى الأفق الكريم الذي أراده الله للانسان .. ان كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليلد مثلها وأكثر من يدينون لغير الله .. والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال اذا هم جاهلوا في سبيل الله ، عليهم أن يتأملوا ماذا تُكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد وقوتها الأخلاق والأعراض .. ان تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تُكلفهم ما تُكلفهم الدينونة لغير الله ، وفوق ذلك كله الذلّ والدنس والعار وأخيراً فان توحيد العبادة والدينونة لله وحده ، ورفض العبودية والدينونة لغيره من خلقه ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن يُنفق في تآليه الأرباب الزائفة كي يوجه بحملته الى عمارة الأرض وترقيتها وترقية الحياة فيها ...

وهناك ظاهرة واضحة متكررة وهي أنه كلما قام عبد من عبید الله ليقیم من نفسه طاغوتا يُعبّد الناس لشخصه من دون الله .. احتاج هذا الطاغوت كي يُعبّد (أي يُطاع ويُتبع) الى أن يُسخر كل القوى والطاقات : تُسبّح بحمده وتُرتل ذكره وتنفخ في صوزته العبدية الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان الالهية العظيمة . والا تكف لحظة واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة وأطلاق

الترانيم والتراتيل حولها : وحشد الجموع بشتى الوسائل للتسبيح باسمها وإقامة طقوس العبادة لها ... وهو جهد ناصب لا يفرغ أبدا . لأن الصورة العبدية المزيّنة تنكمش وتهزل وتتضاءل كلما سكّن من حولها النفخ والطلل والزمير والسحور والتساييع والتراتيل .. وفي هذا الجهد الناصب تُصرف طاقات وأموال وأرواح أحيانا وأعراض . ولو أنفق بعضها في عمارة الأرض والانتاج المثمر لترقية الحياة البشرية واغنائها لعماد على البشرية بالخير الوفير .. ولكن هذه الطاقات والأموال والأرواح والأعراض لا تُنفق في هذا السبيل المثمر ما دام الناس لا يُدينون لله وحده وإنما يدينون للطواغيت من دونه ... ومن هذه اللمحة يتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال ولعمارة والانتاج من جراء تنكبها عن الدينونة لله وحده وعبادة غيره من دونه .. وذلك فوق خسارتها في الأرواح والأعراض والقيم والأخلاق وفوق الدّل والقهر والدنس والعار . وليس هذا في نظام أرضي دون نظام وإن اختلفت الأوضاع واختلفت ألوان التضحيات ..

والخلاصة التي ينتهي إليها القول في هذه القضية : أنه يتجلى بوضوح أن قضية الدينونة والاتباع والحاكية التي يُعبّر القرآن عنها بالعبادة هي قضية عقيدة وإيمان وإسلام وليست قضية فقه أو سياسة أو نظام .. إنها قضية عقيدة تقوم أو لا تقوم . وقضية إيمان يوجد أو لا يوجد . وقضية إسلام يتحقق أو لا يتحقق .. نعم هي بعد ذلك لا قبله قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام وفي أوضاع وتجمّعات تتحقق فيها الشريعة والنظام وتنفذ فيها الأحكام . وكذلك إن قضية العبادة ليست قضية شعائر وإنما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة .. وأنها من أجل أنها كذلك استحققت كلّ هذه الرُّسل والرسالات واستحققت كلّ هذه العذابات والتضحيات .. وهنا يقف الدعاة ليواجهوا الجاهلية العنيدة ..

إن البشرية اليوم يحملتها تُزاول رجعية شاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منها آخر رسول . مُحمد صلى الله عليه وسلم وهي جاهلية تتمثل في صور شتى : بعضها يتمثل في الحاد بالله سبحانه وإنكار لوجوده .. فهي جاهلية اعتماد وتصور

كجاهلية الشيوعيين .. وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود الله سبحانه وانحراف في الشعائر التعبدية وفي الدينونة والاتباع والطاعة كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم .. وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك ... وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود الله سبحانه وأداء الشعائر التعبدية مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله . ومع شرك كامل في الدينونة والاتباع والطاعة وذلك كجاهلية من يُسمون أنفسهم مسلمين ويتظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الاسلام وحقوقه بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ومع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد ..

وكلها جاهلية . وكلها كفر بالله كالأولين أو شرك بالله كالآخرين ..

ان رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح ، تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجمئتها قد ارتدت الى جاهلية شاملة وأنها تعاني رجعية نكدة الى الجاهلية التي أنقذها منها الاسلام مرات متعددة كان آخرها الاسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وهذا بدوره ، يُحدد طبيعة الدور الأساسي لطلائع البعث الاسلامي والمهمة الأساسية التي عليها أن تقوم بها للبشرية ونقطة البدء الحاسمة في هذه المهمة ...

إن على هذه الطلائع أن تبدأ في دعوة البشرية من جديد الى الدخول في الاسلام ككرة أخرى والخروج من هذه الجاهلية النكدة التي ارتدت اليها . على أن تُحدد للبشرية مدلول الاسلام الأساسي : وهو الاعتقاد بألوهية الله وحده . وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده : والدينونة والاتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها لله وحده .. وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول في الاسلام ولا تُحتسب للناس صفة المسلمين ولا تكون لهم تلك الحقوق التي يُرتبها الاسلام لهم في أنفسهم وأموالهم كذلك . وإن تخلف أحد هذه المدلولات كنت خلفها جميعا ، يُخرج الناس من الاسلام الى الجاهلية ويصممهم بالكفر أو بالشرك قطعاً .. انها دورات جديدة من دورات الجاهلية التي تعقب الاسلام . فيجب أن

تواجهها دورة من دورات الاسلام الذي يواجه الجاهلية ليردّ الناس الى الله مرة أخرى ، ويُخرجهم من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . ولا بُدّ أن يصل الأمر الى ذلك المستوى من الحسم والوضوح في نفوس العصابة المسلمة التي تُعاني من مواجهة الجاهلية الشاملة في هذه الفترة النكدة من حياة البشرية .. فانه بدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع البعث الاسلامي عن أداء واجبها في هذه الفترة المخرجة من تاريخ البشرية : وتنتأرجح أمام المجتمع الجاهلي - وهي تحسبه مجتمعا مسلما - وتفقد تحديد أهدافها الحقيقية بفقدانها لتحديد نقطة البدء من حيث تقف البشرية فعلا ، لا من حيث تزعم . والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع .. بعيدة جدا ..

ان نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الاسلام أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق فيشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .. ومن ثم يدينون الله وحده بالحاكمية والتشريع ويطبقون هذا في واقع الحياة .. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الاعلان لتحرير الانسان .

٧ - منهج محمّد :

يجب أن نقف وقفة طويلة مع القرآن الكريم نحن أصحاب الدعوة الى هذا الدين في هذا الجيل وفي كل جيل ، فان مدى التوجيه في القرآن الكريم يتجاوز المناسبة التاريخية الخاصة ، وينسحب على جميع الأجيال ، وجميع الدعاة ، ويرسم منهجاً للدعوة الى هذا الدين لا يتقيّد بالزمان والمكان ، ولنقف هنا عند معالم الطريق :

ان طريق الدعوة الى الله شاقّ متحفوف بالمكاره ، مع أن نصر الله للحق آت لا ريب فيه ، الا أن هذا النصر انما يأتي في موعده الذي يقدره الله وفق علمه وحكمته وهو غيب لا يعلم موعده أحد حتى ولا الرسول . والمشقة في هذا الطريق تنشأ عن عاملين أساسيين : عن التكذيب والاعراض اللذين تُقابل بهما الدعوة في أول الأمر ، والحرب والأذى اللذين يُعلنان على الدعاة .. ثم من الرغبة البشرية في

نفس الداعية في هداية الناس الى الحق الذي تدوّقه وعرف طعمه . والحماسة للحق والرغبة في استعلائه . وهذه الرغبة لا تقل مشقة عن التكذيب والاعراض والحرب والأذى فكلها من دواعي مشقة الطريق .

والتوجيه القرآني يعالج هذه المشقة من جانبيها . . وذلك حين يُقرر أن الذين يكذبون بهذا الدين أو يحاربون دعوته . يعلمون علم اليقين أن ما يُدعون اليه هو الحق وأن الرسول الذي جاء من عند الله صادق . ولكنهم مع هذا العلم لا يستجيبون ويستمرّون في جحودهم عناداً واصراراً . لأن لهم هوى في الاعراض والتكذيب . وأن هذا الحق يحمله معه دليل صدقه وهو يخاطب الفطرة فتستجيب له متى كانت هذه الفطرة حيّة . وأجهزة الاستقبال فيها صالحة (انما يستجيب الذين يسمعون) . فأما الذين يمحذون فان قلوبهم ممتة وهم موتى وهم صم وبكم في الظلمات . والرسول لا يسمع الموتى ولا يسمع الصم الدعاء .

والداعية ليس عليه أن يبعث الموتى . فذلك من شأن الله . . هذا كله من جانب ومن الجانب الآخر فان نصر الله آت قريب لا ريب فيه . . كل ما هنالك أنه يجري وفق سنة الله ويقدر الله . وكما أن سنة الله لا تستعجل . وكلماته لا تبدل . من ناحية متجيء النصر في النهاية . فكذلك هي لا تبدل ولا تستعجل من ناحية الموعد المرسوم . . والله لا يعجل لأن الأذى والتكذيب يكبحان بالدعاة ولو كانوا هم الرسل . فان استسلام صاحب الدعوة نفسه لقدر الله بلا عجلة . وصبره على الأذى بلا تعلل ويتيقنه في العاقبة بلا شك . . كلها مطلوبة من وراء تأجيل النصر الى متوعده المرسوم . ويحدد التوجيه القرآني دور الرسول في هذا الدين ودور الدعاة بعده في كل جيل . . انه التبليغ والمضي في الطريق . والصبر على مشاق الطريق . . أما هدى الناس وضلالهم انما يتبعان سنة الهية لا تبدل فهو خارج عن حدود واجبه ومطاقته . ولا يغير منها رغبة الرسول في هداية من يحب . كما لا يغير منها ضيقه ببعض من يعاند ويحارب ان شخصه لا اعتبار له في هذه القضية وحسابه ليس على عدد المهتدين انما حسابه على ما أدّى . صبر وما التزم . وما استقام كما أمر . . وأمر الناس بعد ذلك الى ربّ الناس

(من يشأ الله يُضِلَّهُ ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) .. (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) (إنما يستجيب الذين يسمعون)....

ومن هنا لا ينبغي لصاحب الدعوة الى هذا الدين أن يستجيب لافتراحات المقترحين من يوجه اليهم الدعوة في تحوير منهج دعوته عن طبيعته الربانية . ولا أن يُحاول تزيين هذا الدين لهم وفق رغباتهم وأهوائهم وشهواتهم .. ولقد كان المشركون يطلبون الخوارق وفق مألوف زمانهم ومستوى مداركهم كما حكى عنهم القرآن في مواضع منه شتى (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه) .. (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) (وقالوا لئن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) .

والتوجيه القرآني نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يرغبوا في اتباعهم بآية .. آية آية بما يطلبون . وقيل للرسول (وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يعيشهم الله ثم اليه يرجعون) .. وقيل للمؤمنين الذين رغبت نفوسهم في الاستجابة للمشركين في طلبهم آية عندما أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قيل لهم : (قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) ليعلموا أولاً أن الذي ينقص المكذبين ليس هو الآية والدليل على الحق ولكن الذي ينقصهم أنهم لا يسمعون ، وأنهم موتى ، وأن الله لم يقسم لهم الهدى وفق سنة الله في الهدى والضلال ثم ليعلموا كذلك أن هذا الدين يجري وفق سنة لا تتبدل . وأنه أعز من أن يصبح تحت رغبات المقترحين وأهوائهم .. وهذا يتقودنا الى المجال الأشمل لهذا التوجيه القرآني .. انه ليس خاصاً بزمن ولا متحصورا في حادث .

ولا مُقيداً باقتراح مُعين . فالزمن يتغير وأهواء الناس تتمثل في اقتراحات أخرى .
وأصحاب الدعوة الى دين الله ينبغي ألا تستخفهم أهواء البشر ..

ان الرغبة في الاستجابة لمقترحات المقترحين هي التي تقود بعض أصحاب
الدعوة الاسلامية اليوم الى مُحاولَة بلورة العقيدة الاسلامية في صورة (نظرية
مذهبية) على الورق كالذي يجدونه في النظريات المذهبية الأرضية الصغيرة ، التي
يصوغها البشر لفترة من الفترات ، ثم يمضي الزمن فاذا كلها عَوَرات وشَطَطات
ومُتَنافِضات .. وهي التي تقود بعض أصحاب الدعوة الاسلامية الى مُحاولَة بلورة
النظام الاسلامي في صورة مشروع نظام على الورق أو صورة تشريعات مُنفصلة
على الورق أيضاً تواجه ما عليه أهل الجاهلية الحاضرة من أوضاع لا علاقة لها
بالاسلام (لأن أهل هذه الجاهلية يقولون : ان الاسلام عقيدة ولا علاقة له
بالنظام الواقعي للحياة) وتنظم لهم هذه الأوضاع ، بينما هم باقون على جاهليتهم
يتحاضرون الى الطاغوت ، ولا يحكمون أو يتحاضرون الى شريعة الله .. وكلها
محاولات ذليلة لا يجوز للمسلم أن يحاولها استجابة لأزياء التفكير البشري المتقلبة
التي لا تثبت على حال باسم تطور وسائل الدعوة الى الله .

وأذن من هذه المحاولَة من يضعون على الاسلام أقتعة أخرى ويصفونهم
بصفات من التي تروج في فترة من الفترات .. كالاشتراكية .. والديمقراطية .. وما
اليها طائنين أنهم انما يخدمون الاسلام بهذه التقدمة الذليلة ..

ان الاشتراكية مذهب اجتماعي اقتصادي من صنع البشر قَبْلُ للصواب
والخطأ . وان الديمقراطية نظام للحياة أو للحكم من صنع البشر كذلك ، يحمل
صنع البشر من القابلية للصواب والخطأ أيضاً .. والاسلام منهج حياة يشمل
التصور الاعتقادي والنظام الاجتماعي والاقتصادي ، والنظام التنفيذي
والتشكيلي .. وهو من صنع الله المبرأ من النقص أو العيب .. فأين يقف من
الاسلام من يريد أن يستشفع لمنهج الله سبحانه عند البشر بوصفه بصفة من
أعمال البشر ؟ بل أين يقف من الاسلام من يريد أن يستشفع لله سبحانه عند
العبيد يقول من أقوال هؤلاء العبيد ؟...

لقد كان كل شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون عند الله ببعض خلقه يتخذونهم أولياء : (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زُلْفى ..) فهذا هو الشرك . فما الوصف الذي يطلق اذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده ، ولكنهم ويا للنكر والبشاعة يستشفعون لله سبحانه عند العبيد بمذهب أو منهج من مذاهب العبيد ومناهجهم ؟ ..
ان الاسلام هو الاسلام . والاشتراكية هي الاشتراكية . والديمقراطية هي الديمقراطية . ذلك منهج الله ولا عنوان له ولا صفة الا العنوان الذي جعله الله له ، والصفة التي وصفه بها .. وهذه وتلك من مناهج البشر ومن تجارب البشر .. واذا اختاروها فليختاروها على هذا الأساس .. ولا ينبغي لصاحب الدعوة الى دين الله أن يستجيب لاغراء الزي الرائج من أزياء الموى البشري المتقلب وهو يحسب أنه يحسن الى دين الله ..

على أننا نسأل هؤلاء الذين هان عليهم دينهم ولم يقدروا الله حق قدره .. اذا كنتم تقدمون الاسلام اليوم للناس باسم الاشتراكية وباسم الديمقراطية لأن هذين الزين من أزياء الاتجاهات المعاصرة .. فلقد كانت الرأسمالية في فترة من الفترات هي الزي المحبوب عند الناس وهم يخرجون بها من النظام الاقطاعي ، كما كان الحكم المطلق في فترة من الفترات هو الزي المطلوب في فترة التجمع القومي للولايات المتناثرة كما في ألمانيا واطاليا أيام بسمارك وما ترينى مثلاً .. وغداً من يدري ماذا يكون الزي الشائع من الأنظمة الاجتماعية الأرضية وأنظمة الحكم الذي يضعها العبيد للعبيد ، فكيف يا ترى ستقولون غداً عن الاسلام لتقدموه للناس في الثوب الذي يُحبه الناس ؟

ان التوجيه القرآني في هذه الموجه التي نحن بصدددها وفي غيرها كذلك يشمل هذا كله .. انه يريد أن يستعلي صاحب الدعوة بدينه ، فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين . ولا يُحاول تزوين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه ولا مخاطبة الناس به بغير منهجه ووسيلته .. ان الله غني عن العالمين ومن لم يستجب لدينه ، عبودية له ، وانسلاخاً من العبودية لسواه فلا حاجة لهذا الدين به . كما أنه لا حاجة لله

سبحانه بأحد من الطائعين أو العصاة . ثم انه اذا كان هذا الدين أصالته من ناحية مقوماته وخصائصه التي يريد الله أن تسود البشرية . فان له كذلك أصالته في منهجه في العمل وفي أسلوبه في خطاب الفطرة البشرية . إن الذي نزل هذا الدين بمقوماته وخصائصه ومنهجه الحركي وأسلوبه ، هو سبحانه الذي خلق الانسان ويعلم ما توسوس به نفسه .. بذلك تلثم جوانب التصور الاسلامي للأمر كله الى جانب وضوح المنهج في الدعوة وتقرير موقف صاحب الدعوة وهو يتحرك بهذه العقيدة : ويواجه النفوس البشرية في كل حال وفي كل جيل ..

٨ - خط فاصل :

ان المنهج القرآني لا يعني بيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب . إنما يعني كذلك بيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضا .. ان استبانة سبيل المجرمين ضرورة لاستبانة سبيل المؤمنين . وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق (وكذلك تفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) .. ان هذا المنهج هو المنهج الذي قرره الله سبحانه ليتعامل مع نفوس البشرية ذلك أن الله سبحانه يعلم ان انشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخبر يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر . والتأكد من أن هذا باطل محض وشر خالص وأن ذلك حق محض وخير خالص .. كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط عن شعور صاحب الحق أنه على حق . ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يشاهده ويحاربه إنما هو على الباطل . وأنه بسلك سبيل المجرمين الذين يذكر الله في آية أخرى أنه جعل لكل نبي عدوا منهم (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين) ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين ان الذين يعادونهم إنما هم المجرمون عن ثقة في وضوح وعن يقين ..

ان سفور الكفر والشر والاجرام ضروري لوضوح الايمان والخير والصلاح واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات . ذلك أن أي غيب أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم تترد غيبا وشبهة في موقف

المؤمنين وفي سبيلهم فهما صفحتان متقابلتان وطريقان مفترقان . ولا بُدَّ من وضوح الألوان والخطوط .. ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة اسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين ، وتعريف سبيل المجرمين ، ووضع العنوان المميز للمؤمنين والعنوان المميز للمجرمين في عالم الواقع لا في عالم النظريات . فيعرف أصحاب الدعوة الاسلامية والحركة الاسلامية من هم المؤمنون من حولهم ، ومن هم المجرمون . بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم . بحيث لا يختلط السبيلان ، ولا يتشابه العنوانان ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين .. وهذا التحديد كان قائماً ، وهذا الموضوع كان كاملاً يوم كان الاسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية . فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه .. وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين . ومع هذا التحديد وهذا الموضوع كان القرآن ينزل وكان الله سبحانه يُفصل الآيات على ذلك النحو لتستبين سبيل المجرمين .

وحيثما واجه الاسلام الشرك والوثنية والاحاد ، والديانات المنحرفة المختلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعدما بدلتها أو أفسدتها التحريفات البشرية ، حيثما واجه الاسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة ، وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك لا يجدي معها التلبيس ..

ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الاسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا أنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين في أوطان كانت في يوم من الأيام دياراً للإسلام يسيطر عليها دين الله ، وتحكمهم بشريعته ، ثم اذا هذه الأرض ، واذا هذه الأقوام تهجر الاسلام حقيقة وتعلنه إسماء . واذا هي تنكر لمقومات الاسلام اعتقاداً وواقعاً ، وان ظنت أنها تدين بالاسلام اعتقاداً . فالاسلام شهادة أن لا اله الا الله وشهادة أن لا اله الا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا الكون والمتصرف فيه ، وأن الله وحده هو الذي يتقدم اليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله ، وأن الله وحده هو الذي

يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله ، وأما فرد لم يشهد أن لا اله الا الله بهذا المدلول ، فانه لم يشهد ولم يدخل في الاسلام بعد . كائناً ما كان اسمه ولقبه ونسبه ، وأما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا اله الا الله بهذا المدلول ، فهي أرض لم تدين بدين الله ، ولم تدخل في الاسلام بعد . وفي الأرض أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين ، وهم من سلالات المسلمين ، وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دَآرًا للإسلام ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا اله الا الله بذلك المدلول ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول . وهذا أشق ما تواجهه حركات الاسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام : أشق ما تعانيه هذه الحركات . هو الغش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا اله الا الله ، ومدلول الاسلام في جانب ، ومدلول الشرك ومدلول الجاهلية في الجانب الآخر . أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين وطريق المشركين المجرمين ، واختلاط الشارات والعناوين . والتباس الأسماء والصفات ، والته الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق .

ويعرف أعداء الحركات الاسلامية هذه الثغرة ، فيعكفون عليها توصيعة وتبيعا وتليسا وتخليطا ، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام .. تهمة تكفير المسلمين ، ويصبح الحكم في أمر الاسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم . لا الى قول الله . ولا الى قول رسول الله . هذه هي المشقة الكبرى ، وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة الى الله في كل جيل .. يجب أن تبدأ الدعوة الى الله سبحانه باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة الى الله في كلمة الحق والفصل هتادة ولا مهادنة . وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف وألا تقعدهم عنها لومة لائم ، ولا صيحة صائح . انظروا ! انهم يكفرون المسلمين .. ان الاسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدعون . ان الاسلام يبين والكفر يبين . الاسلام شهادة أن لا اله الا الله بذلك المدلول . فمن لم يشهد على ذلك النحو ، ومن لم يقيمها في الحياة على هذا المدلول فحكم الله

ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين ... (وكذلك تفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) .. أجل يجب أن يختار أصحاب الدعوة الى الله هذه العقبة ، وأن تم في نفوسهم هذه الاستبانة كي تنطلق طاقتهم كلها في سبيل الله ، لا تصدّها شبهة ، ولا يعوقها غبش ، ولا يجمعها لبس . فان طاقتهم لا تنطلق الا اذا اعتقدوا في يقين أنهم هم (المسلمون) وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم (المجرمون) ...

ولا نزال نجدنا في حاجة الى تقرير من هم المشركون : أنهم الذين يشركون بالله أحداً في محصائص الألوهية سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله . أو بقبول الحاكمية والشرعية من أحد مع الله ، ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه مهما تسموا بأسماء المسلمين ، فلنكن من أمر ديننا على يقين .

أجل يجب أن يختار أصحاب الدعوة الى الله هذه العقبة ، وأن تم في نفوسهم هذه الاستبانة ...

كذلك فانهم لن يحملوا متاعب الطريق الا اذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان ، وأنهم يدعونهم على مفرق الطريق ، وأنهم على ملة ، وقومهم على ملة ، وأنهم في دين ، وقومهم في دين ... (وكذلك تفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) ...

.. .. وصدق الله العظيم ..

٩ - قاعدة الدعوة :

يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الاسلامية أنهم حين يدعون الناس الى اعادة انشاء الدين يجب أن يدعوهم أولاً الى اعتناق العقيدة حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون .. ويجب أن يعلمهم أن الاسلام هو أولاً اقرار عقيدة : لا اله الا الله بمدلولها الحقيقي . وهو

رَدَّ الحاكِية لله في أمرهم كله . اقرارها في ضمائرهم وشعائرهم ، واقرارها في أوضاعهم وواقعهم . ولتكن هذه القضية هي أساس دعوتهم الى الاسلام كما كانت هي أساس دعوتهم الى الاسلام أول مرة . هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة .. فاذا دَخَلَ في هذا الدين بمفهومه هذا الأصل عصبة من الناس فهذه العصبة هي التي تصاح لمزاولة النظام الاسلامي في حياتها الاجتماعية لأنها قررت بينها وبين نفسها أن تقوم حياتها على هذا الأساس وألا تحكم في حياتها كلها الا الله . وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أسس النظام الاسلامي عليه كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سنّ التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية في اطار الأسس العامة للنظام الاسلامي . فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الاسلامي الواقعي العملي الجاد ..

ولقد يُخِيل الى بعض المخلصين المتعجلين ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين وطبيعة منهجه الرباني القويم المؤسس على حكمة العليم الحكيم وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة .. نقول لقد يُخِيل لبعض هؤلاء أن عرض أسس النظام الاسلامي ، بل التشريعات الاسلامية كذلك على الناس مما يُيسر لهم طريق الدعوة ويُحِب الناس في هذا الدين .. وهذا وَهْم تُنشئه العجلة . ان النفوس يجب أن تخلص أولاً لله وتعلن عبوديتها له بقبول شرعه وحده ورفض كل شرع غيره .. من ناحية المبدأ .. قبل أن يُخاطب بأي تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه . ان الرغبة يجب أن تنبثق من الرغبة في اخلاص العبودية لله والتحرر من سلطان سواه . لا من أن النظام المعروض عليها في ذاته خير مما لديها في كُتْدَا وكُتْدَا على وجه التفصيل .

ان نظام الله خير في ذاته لأنه شرع الله ولن يكون شرع العبيد يوماً كشرع الله ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة .. ان قاعدة الدعوة قبول شرع الله وحده ورفض كل شرع غيره هو ذاته الاسلام .. وليس للاسلام مدلول سواه فمن رَغِب في الاسلام فقد فصل في هذه القضية ولم يَعد في حاجة الى ترغيبه بحمال النظام وأفضليته فهذه احدى بديهيات الايمان ... لقد كان القرآن الكريم يُخاطب

فطرة الانسان بما في وجوده وبما في الوجود من حوله من دلائل وإيماءات .. كان يستفد فطرته من الركام ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما رآه عليها وعُطِّلَ وظائفها ، ويفتح منافذ الفطرة لتستلقي الموجبات المؤثرة وتستجيب لها .

هكذا يجب أن تطول مرحلة بناء العقيدة وأن تتم خطواتها على مهل وفي عمق وتثبت وينبغي أيضاً ألا تكون مرحلة بناء العقيدة مرحلة دراسة نظرية للعقيدة ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة في صورة حية متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ومُتمثلة في بناء جماعي يعبر نموه عن نمو العقيدة ذاتها ، ومتمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك لتمثل العقيدة حية وتنمو نمواً حياً في خضم المعركة .

وخطأ أي خطأ بالقياس الى الاسلام أن تتبلور النظرية في صورة نظرية مجردة للدراسة النظرية .. المعرفة الثقافية بل خطر أي خطر كذلك . ان القرآن الكريم لم يقض ثلاثة عشر عاماً كاملة في بناء العقيدة بسبب أنه كان يستترك للمرة الأولى كلا .. فلو أراد الله لأُنزل هذا القرآن جملة واضحة ثم ترك أصحابه يدرسون ثلاثة عشر عاماً أو أكثر أو أقل حتى يستوعبوا النظرية الاسلامية . ولكن الله سبحانه كان يريد أمراً آخر .. كان يريد منهجاً معيناً منفرداً ، كان يريد بناء الجماعة وبناء الحركة وبناء العقيدة في وقت واحد ، كان يريد أن يتبنى الجماعة والحركة بالعقيدة ، وأن يبنى العقيدة بالجماعة والحركة . كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الفعلي ، وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو صورة العقيدة . وكان الله سبحانه يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة فلم يكن بد من أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذي يستغرقه بناء النفوس والجماعة .. حتى اذا تضحى التكوين العقيدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج .

هذه هي طبيعة الدين الاسلامي ولا بد أن نعرف طبيعته ولا نحاول أن نغيرها لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية . فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يُراد أن يُعاد اخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة . يجب أن نُذكر خطأ المحاولة

وخطرها معاً في تحويل العقيدة الإسلامية الحية التي يجب أن تتمثل في واقع نام مُتحرك ، الى نظرية للدراسة والمعرفة الثقافية لمجرد أننا نريد أن نواجه النظريات البشرية الهزيلة بنظرية اسلامية . ان العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل في نفوس حية وفي تنظيم واقعي وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها كما تتفاعل مع الجاهلية الراسية في نفوس أصحابها بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة الى نفوسهم وتزعجها من الوسط الجاهلي . وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ومن الحياة أيضاً مساحة أضخم وأوسع وأعمق مما تشغله النظرية ، وتشمل فيما تشمل مساحة النظرية ومادتها ولكنها لا تقتصر عليها .

انّ التصور الاسلامي للالوهية والوجود الكوني وللحياة وللإنسان تصور شامل كامل . ولكنه كذلك تصور ايجابي وهو بطبيعته يكره أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي ، لأن هذا يخالف طبيعته وغايته ويجب أن يتمثل في بشر وفي تنظيم حيّ وفي حركة واقعية .. وطريقته في التكوين أن ينمو خلال الأناسي والتنظيم الحيّ والحركة الواقعية حتى يكتمل نظرياً في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعياً ، ولا يفصل في صورة نظرية بل يظل مُمثلاً في الصورة الواقعية .

وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي ولا يتمثل من خلاله هو خطأ وخطر كذلك بالقياس الى طبيعة هذا الدين وغايته وطريقة تركيبه الذاتي والله سبحانه يقول (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً) فالفرق مقصود والمكث مقصود كذلك ليتم البناء التكويني المؤلف من عقيدة في صورة (منظمة حية) لا في صورة (نظرية معرفية) .

يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين أنه كما أن هذا الدين دين رباني ، فان منهجه في العمل منهج رباني كذلك متواف مع طبيعته ، وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل ، ويجب أن يعرفوا كذلك أن هذا الدين كما أنه جاء ليغير التصور الاعتقادي ومن ثم يغير الواقع الحيوي فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الفكري والحركي الذي يبني به التصور الاعتقادي ويغير به الواقع الحيوي جاء لبنى عقيدة وهو يبني أمة .. ثم لينشئ منهج تفكير خاصاً به بنفس

الدرجة التي ينشئ بها تصوراً اعتقادياً وواقعاً حيوياً . ولا انفصال بين منهج التفكير الخاص وتصوره الاعتقادي وبنائه الحيوي ، فكلها حزمة واحدة .

فاذا عرفنا منهجه في العمل على النحو الذي بيناه ، فلنعرف أن هذا المنهج أصيل وليس منهج مرحلة ولا بيئة ولا ظروف خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الأولى . إنما هو المنهج الذي لا يقوم بناء هذا الدين الا به .. انه لم تكن وظيفة الاسلام أن يغير عقيدة الناس وواقعهم فحسب . ولكن وظيفته كانت أن يغير طريقة تفكيرهم ، وتناولهم للتصور والواقع ، ذلك أنه منهج رباني مخالف في طبيعته كلها للمناهج البشر القاصرة الهزيلة .

ونحن لا نملك أن نصل الى التصور الرباني والحياة الربانية الا عن طريق منهج تفكير رباني كذلك . منهج أراد الله أن يقيم منهج الناس في التفكير على أساسه ليصبح تصورهم وتكوينهم الحيوي ...

ونحن حين نريد من الاسلام أن يجعل من نفسه نظرية للدراسة نخرج عن طبيعة المنهج الرباني للتكوين وعن طبيعة المنهج الرباني للتفكير . ونخضع الاسلام لطرائق التفكير البشرية .. كأنما المنهج الرباني أدنى من المناهج البشرية ، وكأنما نريد أن نرتقي بمنهج الله في التصور والحركة ليوازي مناهج العبيد .. والأمر من هذه الناحية يكون خطيراً والهزيمة تكون قاتلة .

ان وظيفة المنهج الرباني أن يُعطينا نحن أصحاب الدعوة الاسلامية متهجاً خاصاً للتفكير نبرأ به من رواسب مناهج التفكير الجاهلية السائدة في الأرض والتي تضغط على عقولنا وترسب في ثقافتنا .. فاذا نحن أردنا أن نتناول هذا الدين بمنهج تفكير غريب عن طبيعته من مناهج التفكير الجاهلية الغالبة . كنا قد أبطلنا وظيفته التي جاء ليؤديها لبشرية . وحرماناً أنفسنا من فرصة الخلاص من ضغط المنهج الجاهلي السائد في عصرنا . وفرصة الخلاص من رواسبه في عقولنا .. والأمر من هذه الناحية يكون خطيراً والخسارة تكون قاتلة ..

ان منهج التفكير والحركة في بناء الاسلام لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج

التصور الاعتقادي والنظام الحيوي ، ولا يفصل عنه كذلك .. ومهما يخطر لنا أن نقدم ذلك التصور وهذا النظام في صورة تعبيرية ، فيجب ألا يغيب عن بالنا أن هذا لا ينشئ (الاسلام) في الأرض في صورة حركة واقعية . بل يجب ألا يغيب عن بالنا أنه لن يفيد من تقديمنا الاسلام في هذه الصورة الا المشتغلون فعلاً بحركة اسلامية واقعية .

وأن قصارى ما يفيده هؤلاء من تقديم الاسلام لهم في هذه الصورة هو أن يتفاعلوا معها بالقدر الذي وصلوا اليه هم فعلاً في أثناء الحركة . ومرة أخرى نُكرر أن التصور الاعتقادي يجب أن يتمثل من فوره في تجمع حركي ، وأن يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلاً صحيحاً وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي . ومرة أخرى نُكرر كذلك أن هذا هو المنهج الطبيعي للاسلام الرباني ، وأنه منهج أعلى وأقوم وأشدّ فاعلية وأكثر انطباقاً على الفطرة البشرية من منهج صياغة النظريات الكاملة مستقلة وتقديمها في الصورة الذهنية الباردة للناس ، قبل أن يكون هؤلاء الناس مشغولين بالفعل بحركة واقعية ، وقبل أن يكونوا هم أنفسهم ترجمة تنمو خطوة خطوة لتمثيل ذلك المفهوم النظري . فاذا صحّ هذا في أصل النظرية فهو أصحّ بطبيعة الحال فيما يختص بتقديم أسس النظام الذي يتمثل فيه التصور الاسلامي ، أو تقديم التشريعات المفصلة لهذا النظام . ان الجاهلية التي حولنا كما أنها تُضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة الاسلامية فتجعلهم يستعجلون خطوات المنهج الاسلامي ، كذلك هي تتعمد أحياناً أن تُخرجهم فتسألهم : أين تفصيلات نظامكم الذي تدعون اليه ؟ وماذا أعددتكم لتنفيذه من بحوث ومن تفصيلات ومن مشروعات ؟ وهي في هذا تنعمد أن تعجلهم عن منهجهم ، وأن تجعلهم يتجاوزون مرحلة بناء العقيدة . وأن يُحولوا منهجهم الرباني عن طبيعته التي تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة ، ويتحدد فيها النظام من خلال الممارسة ، وتُسن فيها التشريعات في ثنايا مواجهة الحياة الواقعية بمشكلاتها الحقيقية .

ومن واجب أصحاب الدعوة الاسلامية ألاّ يستجيبوا للمناورة . من واجبهم أن

برفضوا املاء منهج غريب على حركتهم وعلى دينهم . من واجبهم ألا يستخفوا
من لا يوقنون . ومن واجبهم أن يكشفوا معاورة الاحراج وأن يستعملوا عليها . وأن
يتحركوا بدينهم وفق منهج هذا الدين في الحركة . فهذا من أسرار قوته ، وهذا هو
مصدر قوتهم كذلك ..

ان المنهج في الاسلام يساوي الحقيقة ولا انفصام بينهما .. وكل منهج غريب
لا يمكن أن يحقق الاسلام في النهاية . والمناهج الغربية الغربية يمكن أن تحقق
أنظمتها البشرية . ولكنها لا يمكن أن تحقق نظامنا الرباني ... فالالتزام بالمنهج
ضروري كالتزام العقيدة ، والتزام النظام في كل حركة اسلامية . لا في الحركة
الاسلامية الأولى كما يظن بعض الناس .

١٠ - مصلحة الدعوة :

ولقد تدفع الحماسة أصحاب الدعوات بعد الرسل ، والرغبة الملحة في انتشار
الدعوات وانتصارها .. الى استمالة بعض الأشخاص أو بعض العناصر بالاغضاء
في أول الأمر عن شيء من مقتضيات الدعوة . يحسبونهم هم ، ليس أصيلاً
فيها ، ومجاراتهم في بعض أمرهم . كي لا ينفروا من الدعوة ويخاصموها ولقد
تدفعهم كذلك الى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة ، ولا
مع منهج الدعوة المستقيم وذلك حرصاً على سرعة انتصار الدعوة وانتشارها ، واجتهاداً
في تحقيق (مصلحة الدعوة) ومصلحة الدعوة الحقيقية في استقامتها على النهج دون
انحراف قليل أو كثير . أما النتائج فهي غيب لا يعلمه الا الله . فلا يجوز أن
يحسب حملة الدعوة حساب هذه النتائج . إنما يجب أن يمشوا على نهج الدعوة
الواضح الصريح الدقيق وأن يدعوا نتائج هذه الاستقامة لله . ولن تكون الا خيراً في
نهاية المطاف وها هو ذا القرآن ينبههم إلى ان الشيطان يربص بآمانيهم تلك ليستفد
منها إلى صميم الدعوة (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى
ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم
حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان

الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله فلم يمكن للشيطان أن يفقد من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم . فغير المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية ، والتحرج البالغ خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة في نصره الدعوة . والحرص على ما يسمونه (مصلحة الدعوة) ..

ان كلمة (مصلحة الدعوة) يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات لأنها مزلة ومدخل للشيطان يأتيهم منه ، حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص . ولقد تحول (مصلحة الدعوة) إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة . وينسون معه منهج الدعوة الأصيل . ان على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على منهجها ويتحروا هذا المنهج دون التفات إلى ما يعقبه هذا التحري من نتائج قد يلوح لهم أن فيها خطراً على الدعوة وأصحابها . فالخطر الوحيد الذي يجب أن يتقوه هو خطر الانحراف عن النهج لسبب من الأسباب سواء كان هذا الانحراف كثيراً أو قليلاً . والله أعرف منهم بالمصلحة ، وهم ليسوا بها مكلفين .. إنما هم مكلفين بأمر واحد . ألاّ ينحرفوا عن المنهج وألاّ يجحدوا عن الطريق .

١١ - جهد مضاعف :

إنّ الأمد حين يطول على الأمم تفسد قلوبها وتنحرف أجيال منها . وان الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة ، ستصادفها فترات تمثل فترات من حياة بني اسرائيل ، فجعل الله سبحانه أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددي الدعوة في أجيالها الكثيرة . نماذج من العقائيل التي تكلم بالأمم . يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته ..

ذلك أن أشدّ القلوب استعصاءً على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت . فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة ، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها وينفض عنها الركام لجلدته عليها ، وانبهارها بهذا الجديد

الذي يَطْرُق فطرتها لأول مرة . فأما القلوب التي تُوديت من قبل ، فالنداء الثاني لا تكون له جدته . ولا تكون له هزته ، ولا يقع فيها الاحساس بضمخامته وجدته ، ومن ثم تحتاج الى الجهد المضاعف والى الصبر الطويل .

كذلك ان طبيعة الذين طال عليهم طول العبودية والذل والخضوع للارهاب والتعبد للطواغيت لطبيعة صعبة على الدعاة . تبدو عليها أعراض الالتواء والاحتياح والأخذ بالأسهل تجنباً للمشقة .. كما هو الملحوظ في واقع كثير من الجماعات البشرية التي نطالعتها في زماننا هذا . والتي تهرب من العقيدة لتهرب من تكاليفها . وتسير مع القطيع ، لأن السير مع القطيع لا يكلفها شيئاً .. انها الطبيعة الخائرة المفككة المتنوية التي كانت تعالجها العقيدة والشرعة ..

وانه ليقع حينما يشتد الظلم ويفسد المجتمع وتختل الموازين ويخيم الظلام ، أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذي يشكل الأوضاع والقوانين والعرف ويفسد الفطرة العامة حتى يرى الناس الظلم فلا يثورون عليه . ويرون البغي فلا تجيش بعوسهم لدفعه . بل يقع أن يصل فساد الفطرة الى حد انكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ويقاوم ، ويسمون من يدفع عن نفسه أو غيره (جباراً في الأرض) ذلك أنهم ألقوا برؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون . حتى وهموا أن هذا هو الأصل . وأن هذا هو الفضل . وأن هذا هو الأدب . وأن هذا هو الصلاح . وأذا رأوا مظلوماً يدفع الظلم عن نفسه ، فيحطم السياج الذي أقامه الطغيان لحماية لأوضاع التي يقوم عليها .. اذا رأوا مظلوماً يهتج لتحطيم ذلك السياج المصطنع الباطل . وتوكلوا ودُهِشوا وسموا هذا المظلوم الذي يسمع الصلح سفاكاً أو جباراً . وصبوا عليه لومهم ونقمتهم . ولم يتجدوا للمظلوم عذراً من صيقه بالظلم الثقيل .. أنهم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمروا مذاقه فمردوا عليه واستكانوا . والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتعفن ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع والاشمئزاز من العفن والنق والرجس والدنس واستنقاذ قوم كهؤلاء شاق عسير ..

وان متاعب كل صاحب دعوة يواجه نفوساً طال عليها الأمد لكبيرة جدا .

وهي تستمرىء حياة الذئ تحت قنهر الطاغوت . وبخاصة اذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التي يدعوها اليه ، ثم طال عليها الأمد ، فبهت صورتها ، وعادت شكلا لا روح فيها ..

إنَّ جهد صاحب الدعوة في مثل هذه الحال لمجر جهد مضاعف . ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك .. يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات وثقله الطبائع وتفاهة الاهتمامات ، ويجب أن يصبر على الانتكاس الذي يفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة والاندفاع الى الجاهلية عند أول بادرة ..

ان هذا القلب البشري سريع التقلب ، سريع النسيان ، وهو يشف وبشرق فيقبض بالنور ، ويرف كالشعاع . فاذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تلبّد وقسا ، وانطمست اشراقته وأظلم وأعمّ (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد غفست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) فلا بدّ من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع ، ولا بدّ من الطرق عليه حتى يرق ويشف ، ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التلبّد والقساوة ..

ولكن لا يأس من قلب ختمد وجمد وقسا وتلبّد . فانه يمكن أن تدبّ فيه الحياة ، وأن يشرق فيه النور وأن يخشع لذكر الله .. فانه يحى الأرض بعد موتها فتنبض بالحياة وتزخر بالنبات والزهر وتمنع الأكل والثمار . وكذلك القلوب حين يشاء الله (اعلموا ان الله يحى الأرض بعد موتها)

١٢ - قلعة للدعوة :

ان المؤمن مكلف هداية أهله واصلاح بيته كما هو مكلف هداية نفسه واصلاح قلبه (يا أيها الذين آمنوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ). وان الاسلام دين أسرة ومن ثم يقرر تبعة المؤمن في أسرته وواجبه في بيته . والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة ، وهو الخلية التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي .. المجتمع الاسلامي ..

* ان البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة ، ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها ، حصينة في ذاتها ، كل فرد فيها يقف على ثغرة لا يُنفذ إليها . والا يكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه فلا يصعب على طارق ولا يستعصي على مهاجم .. وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه الى بيته وأهله . واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها . واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيدا .. ولا بُد من الأم المسلمة . فالأب المسلم وحده لا يكفي لتأمين القلعة .

لا بُد من أب وأم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات . فعبثاً يُحاول الرجل أن يُنشئ المجتمع الاسلامي بمجموعة من الرجال .

لا بُد من النساء في هذا المجتمع ، فهن الحارسات على الشيء ، وهو بلزور المستقبل . ومن ثم كان القرآن يترّل للرجال والنساء ، وكان يُنظم البيوت ويقيمها على المنهج الاسلامي ، وكان يُحمل المؤمنين تبعة أهلهم كما يُحملهم تبعة أنفسهم (يا أيها الذين آمنوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً) .. هذا أمر ينبغي أن يُدرکه الدعاة الى الاسلام وأن يُدرکوه جيداً .

ان اول الجهد ينبغي أن يُوجّه الى البيت . الى الزوجة . الى الأم . ثم الى الأولاد ، وإلى الأهل بعامه . ويحبّ الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لشيء البيت المسلم . وينبغي لمن يُريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولاً عن الزوجة المسلمة . والا فسيؤخر طويلاً بناء الجماعة الاسلامية .

وسيطّل البنيان متخاذلاً كثير الثغرات . وفي الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر أيسر مما هو في أيامنا هذه .. كان قد أنشئ مجتمع مسلم في المدينة يُهيمن عليه الاسلام ، يُهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية . ويُهيمن عليه بتشريع المنبثق من هذا التصور . وكان المرجع فيه مرجع الرجال والنساء جميعاً الى الله ورسوله . وإلى حكم الله وحكم رسوله . فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلاً بالنسبة للمرأة لكي تصوغ نفسها كما يريد الاسلام .

وكان الأمر سهلاً بالنسبة للأزواج كي يتصحوا نساءهم ويُرَبُّوا أبناءهم على منهج الاسلام .

نحن الآن في موقف متغير . نحن نعيش في جاهلية . جاهلية مجتمع . وجاهلية تشريع . وجاهلية أخلاق . وجاهلية تقاليد . وجاهلية نُظُم . وجاهلية آداب . وجاهلية ثقافة كذلك . والمرأة تتعامل مع هذا المجتمع وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تَهم أن تلي الاسلام . سواء اهتدت اليه بنفسها ، أو هتداها اليه رجلها . زوجها أو اخوها أو ابوها ..

هناك كان الرجل والمرأة والمجتمع يتحاکون إلى تصور واحد وحكم واحد . وطابع واحد . فأما هنا .. فالرجل المسلم يتحاکم إلى تصور مجرد لا وجود له في دنيا الواقع . والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذي يُعادي ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح ، وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حسن المرأة أضعاف ضغطه على حسن الرجل .

وهنا يتضاعف واجب الرجل المؤمن . ان عليه أن يقي نفسه النار ثم عليه أن يقي أهله . وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف . فينبغي له أن يدرك ثقل هذا الواجب ليبذل له من الجهد المباشر أضعاف ما كان يبذله أخوه في الجماعة المسلمة الأولى .

ويتعين حيثل على من يريد أن ينشئ بيتاً أن يبحث أولاً عن حارسة للقلعة ، تستمد تصورهما من مصدر تصوره هو .. من الاسلام .. وسيضحى في سبيل هذا بأشياء : سيضحى بالالتماع الكاذب في المرأة . سيضحى بخضراء الدمن . سيضحى بالمظهر البراق للجيف الطافية على وجه المجتمع . ليجتث عن ذات الدين التي تُعينه على بناء بيت مسلم . وعلى انشاء قلعة مسلمة . ويتعين على الآباء المؤمنين الذين يريدون البعث الاسلامي ، أن يعلموا أن الخلايا الحية لهذا البعث وديعة في أيديهم وأن عليهم أن يتوجهوا اليهن واليهن بالدعوة والتربية والاعداد قبل أي أحد آخر . وأن يستجيبوا لله وهو يدعوهم (يا أيها الذين آمنوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً) .

ونرجع الكرة إلى طبيعة الاسلام التي تقتضي قيام الجماعة المسلمة التي يهيمن عليها الاسلام ، والتي يتحقق فيها وجوده الواقعي ، فهو مبني على أساس أن تكون هناك جماعة . الاسلام عقيدتها ، والاسلام نظامها ، والاسلام شريعتها ، والاسلام منهجها الكامل الذي تستقي منه كل تصوراتها . هذه الجماعة هي المحضن الذي يحمي التصور الاسلامي ويحمّله إلى النفوس . ويحميها من ضغط المجتمع الجاهلي كما يحميها من فتنة الابداء سواء . ومن ثمّ تبين أهمية الجماعة المسلمة التي تعيش فيها الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة ، مُحْتَمية بها من ضغط المجتمع الجاهلي حولها . فلا تَتَمَزَّقُ مشاعرها بين مقتضيات تصورها الاسلامي وبين تقاليد المجتمع الجاهلي الضاغط الساحق . ويحد فيها الفنى المسلم شريكة في العيش المسلم او في القلعة المسلمة ، التي يتألف منها ومن نظيراتها المعسكر الاسلامي .. انها ضرورة وليست نافلة أن تقوم جماعة مسلمة ، تتّوَصَّى بالاسلام وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراتها كلها فيعيش بها فيما بينها ، وتعيش لها تحرسها وتحميها وتدعو اليها ، في صورة واقعية يراها من يدعون اليها من المجتمع الجاهلي الضال ليخرجوا من الظلمات إلى النور بأذن الله ، إلى أن يأذن الله بهيمنة الاسلام حتى تنشأ الاجيال في ظله ، في حمايته من الجاهلية الضاربة الأطلاب .

❦ ١٣ - القاعدة الصلبة :

الجاهلية حين تحسّ بالخطر الحقيقي الذي يتهدها من دعوة أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان الله . ومن تمرد على كل طاغوت في الأرض والقرار منه إلى الله ، ثم بالخطر الجدّي من التجمع الحركي العضوي الذي أنشأته الدعوة . تنتفض الجاهلية وينتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوي خطّ الموت عن نفسه ..

وهذا الشأن الطبيعي الذي لا مفرّ منه : كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين في مجتمع جاهلي يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد ، وكلما تمثّلت

الدعوة الإسلامية في تجمع حركي جديد يتبع في تحركه قيادة جديدة ويواجه التجمع الجاهلي القديم مواجهة النقيض للنقيض .. عندئذ يتعرض كل فرد في التجمع الاسلامي للأذى والفتنة بكل صنوفها إلى حدّ اهدار الدّم في كثير من الأحيان ، وعندئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله الا كل من تدر نفسه لله ونهياً لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في أغلب الأحيان ..

بذلك يتكون للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر ، فأما العناصر التي لم تحتل الضغوط فقد فتت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى. ويجب أن يكون هذا الأمر مكشوفاً معروفاً للدعاة: ان الانتقال من الجاهلية إلى الاسلام هو الدخول في هذا الطريق الشائك الخطر .. هذه هي قاعدة الدعوة في كل زمان وفي كل مكان .. ولقد اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة ، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة مع السابقين من الأنصار .

لقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله لا ينتظرون شيئاً سوى الجنة وهم موقنون بأنهم لن يعيشوا في سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب . هذه هي قاعدة الدعوة كما قامت وكما ستقوم .. روى ابن كثير في كتاب البداية والنهاية (قال الامام أحمد .. عن جابر قال : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم .. عكاظ والمجنة .. وفي المواسم ، يقول « من يؤويني ؟ من ينصرني ؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة » فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره ، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه وذوو رحمة فيقولون : احذر غلام قريش لا يقتلك . ويمضي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله اليه من يترب فأويناه وصدّقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون باسلامه حتى لم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الاسلام . ثم ائتمروا جميعاً ، فقلنا : حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟

فرحل اليه منّا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم فَوَاعَدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا . فقلنا يا رسول الله سلام نباعك * قال « تباعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني اذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة » فقمنا اليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم فقال رويداً يا أهل يثرب . فانا لم نضرب اليه أكباد الابل الا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وان اخراجه اليوم مائة لعرب كافة وقتل خياركم وتعضكم السيوف . فأما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، واما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله .. قالوا أبطل علينا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبداً . قام فقمنا اليه فباعناه وأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة . فهؤلاء الأنصار الذين أرادوا الدخول في الاسلام كانوا على يقين واضح من تكاليف هذه البيعة وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئاً في هذه الحياة الدنيا حتى ولا النصر ولا الغلبة ، وأنهم لم يوعدوا عليها الا الجنة .

وأن الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج القويم لتربية الجماعة الاسلامية وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة وأنه بدون المحن الطويلة لا تصلب الأعواد ولا تثبت للضغط ، وأن هذه الدرجة من الصلابة والخلوص والتجرد والاصرار والمضي في سبيل الله على الأذى والعذاب والقتل والتشكيل والتشريد والتجويع وقلة العدد وانعدام النصير الأرضي .. ان هذه الدرجة هي وحدها التي تصلح للقاعدة الأصلية الثابتة عند نقطة الانطلاق . هذه هي التي يجب أن يقوم عليها الاسلام . فدعاة الاسلام هم هذه القاعدة وهم خراس الأقوياء والأشداء . فالتوسع الأفقي قبل قيام هذه القاعدة خطر ماحق يهدد وجود أية حركة لا تسليط طريق الدعوة الأولى من هذه الناحية ولا تراعي طبيعة المنهج الحركي الرباني النبوي الذي سارت عليه الجماعة الأولى . على أن الله سبحانه هو الذي يتكفل

بِهَذَا لدَعْوَتِهِ ، فَحَيْثُمَا أَرَادَ لَهَا حَرَكَةً صَحِيحَةً عَرَّضَ طَلَانَهَا وَدَعَاتَهَا
لِلْمِحْنَةِ الطَوِيلَةِ وَأَبْطَأَ عَلَيْهِمُ النَّصْرَ وَقَلَّلَهُمْ ، وَبَطَأَ النَّاسُ عَنْهُمْ حَتَّى يَعْلَمَ
مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ صَبَرُوا وَثَبَّتُوا وَتَبَيَّنُوا وَصَلَحُوا لِأَن يَكُونُوا هُمُ الْقَاعِدَةُ الصَّلَاحُ الْخَالِصَةُ
الْوَاعِيَةُ الْأَمِينَةُ ثُمَّ نَقَلَ خَطَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنْ
أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ .

.....

فَلَا بَدَ مِنْ جَمَاعَةٍ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) وَإِنَّ الطَّرِيقَ أَمَامَ الدَّعَاةِ هُوَ نَفْسُ
النَّاسِ .

فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى طَبِيعَتِهِمْ ، شَهَوَاتِ النَّاسِ وَنَزَوَاتِهِمْ وَمَصَالِحِ بَعْضِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ
وَعُرُورِ بَعْضِهِمْ وَكِبَرِيَّاتِهِمْ . وَفِيهِمُ الْخَبَارُ الْغَاشِمُ ، وَفِيهِمُ الْحَاكِمُ الْمَتَسَلِّطُ .
وَفِيهِمُ الْهَابِطُ الَّذِي يَكْرَهُ الصُّعُودَ ، وَفِيهِمُ الْمُسْتَرْخِي الَّذِي يَكْرَهُ الْأَشْتِدَادَ ، وَفِيهِمُ
الْمُنْحَلُ الَّذِي يَكْرَهُ الْجِدَّةَ ، وَفِيهِمُ الظَّالِمُ الَّذِي يَكْرَهُ الْعَدْلَ ، وَفِيهِمُ الْمُنْحَرِفُ
الَّذِي يَكْرَهُ الْأَسْتِقَامَةَ .. وَفِيهِمْ مَنْ يُشْكِرُ الْمَعْرُوفَ وَيَعْرِفُونَ الْمُنْكَرَ . وَلَا تَقْلَحُ
الْأُمَّةُ وَلَا تَقْلَحُ الْبَشَرِيَّةُ إِلَّا أَنْ يَسُودَ الْخَيْرُ وَالْأَنْ يَكُونَ الْمَعْرُوفُ مَعْرُوفًا وَالْمُنْكَرُ
مُنْكَرًا .. أَذَنْ لَا بَدَ مِنْ جَمَاعَةٍ تَتَلَقَّى عَلَى رَكِيزَتَيْنِ هُمَا : الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْأَخُوَّةُ
بِاللَّهِ لِتَقُومَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْعَسِيرِ الشَّاقِّ ، بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى ، ثُمَّ بِقُوَّةِ الْحُبِّ
وَالْإِلْفَةِ . وَكِلَاهُمَا ضَرُورَتَانِ مِنْ ضَرُورَاتِ هَذَا الدَّورِ الَّذِي نَاطَهُ اللَّهُ بِالْجَمَاعَةِ
الْمُسْلِمَةِ وَكَلَّفَهَا بِهِ هَذَا التَّكْلِيفَ ..

إِنَّ قِيَامَ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ الْمَنْهَجِ الْإِلَهِيِّ ذَاتِهِ . فَهَذِهِ
الْجَمَاعَةُ هِيَ الْوَسْطُ الَّذِي يَتَنَفَّسُ فِيهِ هَذَا الْمَنْهَجُ وَيَتَحَقَّقُ فِي صَوْرَتِهِ الْوَاقِعِيَّةِ . لَا
بَدَ مِنْ وَسْطٍ غَيْرِ الْوَسْطِ الْجَاهِلِيِّ وَمِنْ بَيْئَةٍ غَيْرِ الْبَيْئَةِ الْجَاهِلِيَّةِ .. هَذَا الْوَسْطُ يَتِمَثَّلُ
فِي الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى رَكِيزَتَيْ الْإِيمَانِ وَالْأَخُوَّةِ .. الْإِيمَانُ بِاللَّهِ كَيْ يَتَّوَحَّدَ
تَصَوُّرُهَا لِلْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ وَالْقِيَمِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَحْدَاثِ وَالْأَشْيَاءِ وَالْأَشْخَاصِ ، وَتَرْجِعَ

إلى ميزان واحد تقوم به كل ما يعرض لها في الحياة وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى على هاتين الركيزتين . على الإيمان بالله ، ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله سبحانه وتمثل صفاته في الصفات ، وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في النادرة من الأحوال . وعلى الحب . الحب الفياض الرائق . والود . الود العذب الجميل . والتكافل . التكافل الجاد العميق . وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغاً لولا أنه وقع لحد من أحلام الخاملين . وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان

لا بد من الإيمان بالله ليوضح الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر . . ولا بد من الإيمان ليملك الدعاة الأمور بالمعروف والناهون عن المنكر أن يعضوا في هذا الطريق الشاق ويحتملوا تكاليفه وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشذتها ، ويواجهون هبوط الأرواح وكلل العزائم . وثقله المطامع . وزادهم هو الإيمان وعدتهم هي الإيمان وسندهم هو الله . وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد ، وكل عدة سوى عدة الإيمان تفل ، وكل سند غير سند الله ينهار . والمسلمون إما يدعون إلى المعروف وينهون عن المنكر مع الإيمان بالله ، وإما أن لا يقوموا بشيء من هذا فهم غير مسلمين وغير متحققين بصفة الاسلام . وهذا بيان القرآن (كنتم خير أمة أخرجت للناس . .) وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم تقتطف بعضها ،

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)^(١)

(١) رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 (لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي تَهْتَهُمُ علماءهم فلم ينتهوا ، فجالسهم
 وآكلهم وشاربهم فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض وألغى لسان
 داود وسليمان وعيسى ابن مريم)^(١) . وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر
 أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم)^(٢) . وعن
 أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن
 من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)^(٣) . وعن جابر بن عبد الله رضي
 الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سيّد الشهداء حمزة ورجل
 قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله)^(٤) . فهذه ضرورة نحن غافلون عن قيمتها
 وحقيقتها .

١٤ - في ميزان الله :

إن الدعوة إلى الله وطلائع البعث الإسلامي الذين يواجهون الجاهلية الشاملة
 في الأرض كلها ، والذين يعانون الغربة في هذه الجاهلية والوحشة ، كما
 يعانون الأذى والمطاردة والتعذيب والتنكيل ، إن هذه الطلائع ينبغي أن تقف
 طويلاً أمام أمر خطير وأمام دلالته التي تستحق التدبر والتفكير . .

إن وجود البذرة المسلمة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله تعالى . وشيء
 يستحق منه سبحانه أن يدمر الجاهلية وعمرائها ومنشأتها ومدخراتها جميعاً ، كما
 يستحق منه سبحانه أن يكلأ هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتنجو وترث الأرض
 وتعمرها من جديد . . وأنه ليس على العصبة المسلمة إلا أن تثبت وتستمر في
 طريقها ، وإلا أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه . وإلا أن تصبر حتى يأتي
 الله بأمره ، وإلا أن تتق أن وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في
 السماء ، وأنه لن يترك أوليائه إلى أعدائه . إلا فترة الأعداد والابتلاء ، وأنها
 متى اجتازت هذه الفترة فإن الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض ما يشاء . .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي .

(٤) رواه الحاكم والبيهقي .

(١) أبو داود والترمذي .

(٢) أخرجه الترمذي .

انه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالاسلام ان يظن أن الله تاركه للجاهلية ، وهو يدعو الى افراد الله سبحانه بالربوبية كما أنه لا ينبغي له أن يقيس قوته الذاتية الى قوى الجاهلية ، فيظن أن الله تاركه لهذه القوى وهو عبده الذي يستنصر به حين يغلب فيدعوه (اني مغلوب فانتصر) .. ان القوى في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة .. ان الجاهلية تملك قواها ولكن الداعي الى الله يستند الى قوة الله . والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية حينما يشاء وكيفما يشاء . وبأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحسب .. وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريد به الله .. وقد لبث نوح في قومه ألف سنة الا خمسين عاماً قبل أن يأتي الأجل الذي قدره الله . ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة الا اثنا عشر مسلماً .. ولكن هذه الحفنة من البشر كانت في ميزان الله تساوي تسخير تلك القوى الهائلة والتدمير على البشرية البضالة جميعاً وتوريت الأرض لتلك الحفنة الطيبة نعيمها من جديد وتستخلف فيها .. ان عصر الخوارق لم يمض ، فالخوارق تتم في كل لحظة وفق مشيئة الله المطلقة ولكن الله يستبدل بنمط من الخوارق انماطاً أخرى تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها .

وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها . ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائماً ويلامسون آثارها المبدعة .. والدعاة الى الله ان الذين يسلكون السبل اليه ليس عليهم الا أن يؤدوا واجبه كاملاً بكل ما في طاقتهم من جهد ثم يتدعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون . عليهم أن يلجأوا الى الله الناصر المعين . وان يجأروا اليه كما جأر عبده الصالح نوح (فدعا ربه اني مغلوب فانتصر) . ثم ينتظروا فرج الله القريب . وانتظار الفرج من الله عبادة فهم على هذا الانتظار مأجورون .. ولكن نشير هنا الى ان هذا القرآن لا يكشف عن أسيره الا للذين يخوضون به المعركة ويجاهدون به جهاداً كبيراً .. ان هؤلاء وحدهم هم الذين يعيشون في مثل الجو الذي تنزل به القرآن ومن ثم يتلقونه ويدركونه لأنهم يجدون انفسهم مخاطبين خطاباً مباشراً به كما خاطبت به الجماعة المسلمة الأولى فتذوقته وأدركته وتحركت به .

ان اصحاب الدعوة الى ربوبية الله وحده وتطهير الأرض من الفساد الذي

يصيبها من الدينونة لغيره هم صمام الأمان للشعوب والأمم .. وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لاقرار ربوبية الله وحده : الواقفين للظلم والفساد بكل صوره .. انهم لا يؤدون واجبههم لربهم ودينهم فحسب وانما هم يحولون دون أمهم وغضب الله واستحقاق النكال والضياح : (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض الا قليلاً ممن أنجينا منهم وانبع الذين ظلموا ما أنفروا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) ..

١٥ - أخلاق الداعية :

يجب على الداعية أن تتوفر فيه الطبيعة الخيرة الرحيمة الهيئة اللينة ، المعدة لأن تتجمع عليها القلوب وتتألف حولها النفوس فيجب على الداعية أن يكون رحيماً بمن معه ، ليناً معهم ، ولو كان فظاً غليظ القلب ما تألف حوله القلوب ، ولا تتجمع حوله المشاعر . فالناس في حاجة الى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة ، وإلى بشاشة سمحة ، وإلى ود يسهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم .. في حاجة الى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم الى عطاء ، ويحمل همومهم ، ولا يعينهم بهمة .. ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والمطف ، والسماحة والود والرضاء .

وهكذا كان قلب الداعية العظيم محمد صلى الله عليه وسلم .. هكذا كانت حياته مع الناس ، ما غضب لنفسه قط ، ولا صاق صدره بضعفهم البشري ، ولا احتجز لنفسه شيئاً من اعراض ^{هذه الدنيا} الدنيا . بل أعطاهم كل ما ملكت يده في سماحة ندية ، ووسعهم حلمه ، وبره وعطفه وودّه الكريم . وهذا ما شهد له به القرآن الكريم وخطه الله في كتابه الكتاب لتكون هذه الأخلاق روح كل داعية وعدته مع الناس (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك) .

ويجب أن يكون اللين والتواضع والرفق الصورة الحسية المجسمة للداعية (واخفض جناحك للمؤمنين) صورة خفض الجناح كما يخفض الطائر جناحه حين يهبط بهم بالهبوط . وكذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين طوال حياته . فقد كان خلقه القرآن . وكان هو الترجمة الحية للقرآن الكريم الذي كان يربيه (اتخذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین وإما يترغّبك من الشيطان ترغ

فاستعد بالله إنه سميع عليم) خذ العفو اليسر الممكن من أخلاق الناس في المعاشرة والصحة ، ولا تطب اليهم الكمال . ولا تكلفهم الشاق من الاخلاق ، واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم .. كل أولئك في المعاملات الشخصية . لا في العقيدة الدينية ولا في الواجبات الشرعية . فليس في عقيدة الاسلام ولا شريعة الله يكون التفاضل والتسامح ولكن في الأخذ والعطاء والصحة والحوار . وبذلك تمضي الحياة سهلة لينة . فلا غصاء عن القضع البشري والعطف عليه والسماحة معه واجب الكبار الأقوياء تحاة الصغار انضعفاء . ورسول الله صلى الله عليه وسلم : راع وهاد ومعلم ومرب . فهو أولى الناس بالسماحة واليسر والاغضاء وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يغضب لنفسه قط فإذا كان في دين الله لم يقم لغضبه شيء . . وكل أصحاب الدعوة ، أمور ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالتعامل مع النفوس البشرية لمداينتها يقتضي سعة صدر ، وسماحة طبع ويسراً وتيسيراً في غير تهاون ولا تفريط في دين الله . .

وان للداعية الى الله صفات وروحاً ولفظاً وحديثاً وأدباً . ويتوجه بهذه الصورة وتلك الصفات الله تبارك وتعالى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى كل داعية من أمته . يقول للداعية : هذا هو منهجك . وأخلاقك مهما كانت الأمور (ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم . واما ينزعك من الشيطان فرغ فاستعد بالله انه السميع العليم) . ان النهوض بواجب الدعوة الى الله في مواجهة التواءات النفس البشرية وجهلها واعتزازها بما ألفت واستكبارها أن يقال : انها كانت على ضلالة . وحرصها على شهواتها وعلى مصالحها وعلى مركزها الذي قد تهدده الدعوة الى الله واحد كل البشر أمامه سواء . . ان النهوض بواجب الدعوة في مواجهة هذه الظروف أمر شاق ولكنه شأن عظيم (ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً) ان كلمة الدعوة حينئذ هي أحسن كلمة تقال في الأرض . وتصدق في مقدمة الكلم الطيب الى السماء . ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة ، ومع

الاستسلام الذي تتوارى معه الذات فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن الا التبليغ ولا على الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالاعراض . أو بسوء الأدب أو بالتبجح في الإنكار . فهو انما يتقدم بالحسنة ، فهو في المقام الرفيع وغيره يتقدم بالسيئة فهو في المكان الدون (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة) ، وليس له أن يرد بالسيئة فان الحسنة لا يستوي أثرها كما لا تستوي قيمتها مع السيئة . والصبر والتسامح والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر يرد النفوس الجاحشة الى الهدوء والثقة فتتغلب من الخصومة الى الولاء ومن الجحاح الى اللين (ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وتصدق هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من الحالات ، وينقلب الهياج الى وداعة والغضب الى سكينه والتبجح الى حياء . على كلمة طيبة وتيرة هادئة وبسمة حانية في وجه هائج غاضب متبجح مقلوب الزمام . ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجاً وغضباً وتبجحاً ومروداً . وخلع حياؤه نهائياً . وأفلت زمامه وأخذته العزة بالآثم . غير أن تلك السماحة تحتاج الى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الاساءة والرد . وهذه القدرة ضرورية لتؤدي السماحة أثرها . حتى لا يصور الاحسان في نفس المسيء ضعفاً . ولئن أحسن أنه ضعف لم يحترمه . ولم يكن للحسنة أثرها اطلاقاً . وهذه السماحة قاصرة على حالات الاساءة الشخصية . لا العلوان على العقيدة وفئة المؤمنين عنها . فأما في هذا فهو الدفع والمقاومة بكل صورة من صورها . أو الصبر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً . وهذه الدرجة ، درجة دفع السيئة بالحسنة ، والسماحة التي تستعلي على دفعات الغبط والغضب . والتوازن الذي يعرف متى تكون السماحة ومتى يكون الدفع بالحسنى . درجة عظيمة لا يلقاها كل انسان . فهي في حاجة الى الصبر . وهي كذلك حظ موهوب يتفضل الله به على عباده الذين يحاولون فيستحقون . انها درجة عالية الى حد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي لم يغضب لنفسه قط ، واذا غضب لله لم يقم لغضبه أحد ، قيل له ، وقيل لكل داعية في شخصه (واما ينزغلك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) فالغضب قد يترغ ويلقي في الروح قلة الصبر على الاساءة أو ضيق الصبر على السماحة . فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية

تدفع محاولاته لاستغلال الغضب والتفاد من ثغرتة . إن خالق هذا القلب البشري الذي يعرف مداخله ومساريه ، ويعرف طاقته واستعداده ، ويعرف من أين يدخل الشيطان إليه ، يحوط قلب الداعية إلى الله من نزغات الغضب أو نزغات الشيطان مما يلقاه في طريقه مما يثير غضب الحليم . .

و غلبة المؤمن يجب أن تكون لربه حين يستباح جلاله سبحانه ووقاره . .
اننا نتفخ ونتفخ ونغضب اذا أهين احدنا في أهله أو نفسه . ولكن المؤمن يجب أن يغار لربه ودينه . وهذا هو مفرق الطريق في الحقيقة بين التصور الاسلامي والتصور الجاهلي في كل أزمانه وبيئاته . . وان الجماعة المسلمة يجب أن تقوم على الاسس الاخلاقية الرفيعة ، والقرآن الكريم يعرض من هذه الاسس جمهرة صالحة . . فالعنصر الاخلاقي أصيل وعميق في كيان التصور الاسلامي . وفي كيان الجماعة الاسلامية بحيث لا يخلو منه جانب من جوانب الحياة ونشاطها كله . ان هذه الجماعة الاسلامية تقوم على العبودية لله وحده فهي اذن متحررة من كل عبودية للعبيد في أية صورة من صور العبودية . ومن هذه الحرية تنطلق الفضائل كلها . وتنطلق الاخلاقيات كلها . لأن مرجعها جميعاً إلى ابتغاء رضوان الله ، ومرتهاها تمتد إلى التحلي بأخلاق القرآن . وهذا هو الأصل الكبير في أخلاقية الاسلام . . فالتنهج الاسلامي يعطي الاخلاق اهتماماً كبيراً في القرآن . كما أنه يدل على عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الاسلامية ، وفي فكرة الاسلام عن الحياة الانسانية . .

٩٦ - جَدِّ . . وعمل :

ان لقلب المؤمن ما يشغله عن اللهو واللغو والهدر . . لغو القول . ولغو الفعل ولغو الاهتمام والشعور . له ما يشغله من ذكر الله وتصوير جلاله . . وتدبر آياته في الأنفس والآفاق ، وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق من القلب ويشغل الفكر ويحرك الوجدان . وله ما يشغله من تكاليف العقيدة : تكاليفها في تطهير القلب وتركيز النفس وتنقية الضمير . وتكاليفها في السلوك ، ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الايمان . وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وصيانة حيانه من الفساد والانحراف . وتكاليفها في الجهاد حمايتها ونصرها . وعزتها والسهر عليها من كيد الأعداء . . وهي

تكاليف لا تنتهي ولا يتخل عنها المؤمن ، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية . . وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري والعمر البشري والطاقة البشرية محدودة . وهي إما أن تُنفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها ، وإما أن تُنفق في الهدر واللغو واللغو . والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته الى انفاقها في البناء والتعمير والاصلاح . . ولا ينفي هذا ان يروح المؤمن عن نفسه بين الحين والحين . ولكن هذا شيء آخر غير الهدر واللغو والقرع (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون) . .

ان جو العقيدة هو وجوده وجزم كما أنه جو هول وروع . ان هذا الموقف موقف جدّه وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته (اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون) . . إنها صورة للنفس الفارغة التي لا تعرف الجدة . . فتلهو في أخطر المواقف ، وتهزل في مواطن الجدة ، وتستهن في مواطن القداسة . فالذكر الذي يأتيهم ، يأتيهم (من ربهم) فيستقبلونه لاهين . بلا وقار ولا تقديس . والنفس التي تفرغ من الجدة والاحتفال والقداسة تنتهي الى حالة من التفاهة والجلب والاحلال . فلا تصلح للتهوض بعبد ، ولا الاضطلاع بواجب ، ولا القيام بتكليف . وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة . ان روح الاستهتار التي تلهو بالقدسات روح مريضة . . والاستهتار غير الاحتمال . فالاحتمال قوة جادة شاعرة ، والاستهتار فقدان للشعور واسترخاء . . وان الله ليلهي القلب ويأكل الوقت ، ولا يثمر خيراً ، ولا يؤتي حصيلة تليق بوظيفة الانسان المستخلف في هذه الأرض لعمارتها بالخير والعدل والصلاح . هذه الوظيفة التي يقرر الاسلام طبيعتها وحدودها ووسائلها ويرسم لها الطريق (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين) والنص القرآني عام لتصوير نموذج من الناس ، واضح السمات قائم في كل حين . وقد كان قائماً على عهد الدعوة في الوسط المكّي الذي نزلت فيه هذه الآيات . . (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) يشتريه بماله ويشتره بوقته ويشتره بحياته يبذل تلك الأثمان الغالية في لهو رخيص يقضي فيها عمره المحدود الذي لا يعاد ولا يعود . .

الباب السادس

الزاد

لا بد من العون والزراد على تكاليف الدور العظيم والاستعداد لبذل التضحيات التي يتطلبها هذا الدور، من استشهاد الشهداء ونقص الأموال والأنفس والثمرات والخوف والجوع ومكابدة أهوال الجهاد لاقرار منحه الله في الأنفس واقرارها في الارض بين الناس . فلا بد من العون (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) وإن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شئ التواضع والدوافع . والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شئ الصراعات والعقبات . الذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب بحدة القوى . يقظة لمدخل والمخارج . . ولا بد من الصبر في هذا كله . . لا بد من الصبر على الطاعات والصبر على المعاصي والصبر على المشاق لله . والصبر على الكيد بشئ صنوفه . والصبر على بقاء النصر . والصبر على بعد الشقة . والصبر على انتعاش الباطل . والصبر على قلة الناصر . والصبر على طول الطريق الشائك . والصبر على التواء النفوس وبخلال القلوب وثقله العناد ومضاضة الإهراض .

وقد قيل لرسول الله (قُم) فقام وظل قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً ، لم يسترح ولم يسكن . ولم يعيش لنفسه ولا لأهله . . قام وظل قائماً

على دعوة الله يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ، ولا ينوء به عبء الامانة الكبرى في هذه الارض ، عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كله ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى ، حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية ، وتصوراتها ، المتقل بأنقال الأرض وجوذبها ، المكبل بأوهام الشهوات وأغلاها ، حتى اذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الارضية ، بدأ معركة أخرى في ميدان آخر . بل معارك متلاحقة . . مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها وعلى المؤمنين ، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها ، قبل أن تنمو وتمتد جذورها في التربة وفروعها في الفضاء . وتظلل مساحات أكبر . لم يكذب بفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت الروم تعد لهذه الامة الجديدة ، وتتهيا للبطش بها على تخومها الشمالية . وفي أثناء هذا كله ، لم تكن المعركة الاولى ، معركة الضمير قد انتهت . فهي معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ، وهو لا يني لحظة عن مزاولته نشاطه في أعماق الضمير الانساني . . ومحمد صلى الله عليه وسلم قائم على دعوة الله هناك . وعلى المعركة في ميادينها المتفرقة ، في شظف من العيش والدنيا مقبلة عليه ، وفي جهد وكدة والمؤمنون يستروحون من حوله طلال الامن والراحة ، وفي نصيب دهم لا ينقطع وفي صبر جميل على هذا كله ، وفي قيام بالليل ، وفي عبادة لربه وترتيل لقرآنه ، وتبتل اليه لتلقي المدد والزاد . .

وان الذي يعيش لنفسه ، قد يعيش مستريحاً ، ولكن يعيش صغيراً ويموت صغيراً ، فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير . فما له والنوم . وما له والراحة ، وما له والفراش الدافئ والعيش المهادى والمتاع المريح ، ولقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الأمر وقدره فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام (مضى عهد النوم يا خديجة) . . . أجل مضى عهد النوم وما عاد الا السهر والتعب والجهاد القوي الشاق . . لذلك لا بد من العبادة . لأن العبادة في الاسلام ، ليست في معزل عن السلوك الاجتماعي أو الاخلاقي في الحياة . . انما هي الطريق للارتفاع الى المستوى السامق ،

والزاد الذي يقطع به السالك الطريق . فلا بد من صلة بالله يأتي منها المدد والازاد ، ولا بد من صلة بالله تطهر القلب وتزكيه ، ولا بد من صلة بالله يرتفع بها الفرد على عرف الناس وتقاليد المجتمع وضغط البيئة ، ويشعر أنه أهدي وأعلى من الناس ومن المجتمع ومن البيئة . إنه حري أن يقود الآخرين الى النور الذي يراه ، لا أن يقوده الآخرون الى الظلمات والى الجاهلية التي تفرق فيها الحياة كلما انحرفت عن طريق الله . والاسلام وحدة تجمع الشعائر والآداب والاخلاق والتشريعات والنظم كلها في نطاق الدعوة ، ولكل منها دور تؤديه في تحقيق العقيدة وتتناسق كلها في اتجاه واحد ، ومن هذا التجمع والتناسق يقوم الكيان العام لهذا الدين وبدونهما لا يقوم هذا الكيان .

٩ - الصبر :

الصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة ، انه طريق طويل شاق حافل بالعقبات والاشواك مفروش بالدماء والاشلاء والايذاء والابتلاء . . الصبر على أشياء كثيرة . الصبر على شهوات النفس ورغباتها وأطماعها ومطامعها وضعفها ونقصها وعجلتها وملاها من قريب . . والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم وانحراف طباعهم وأثرهم وغرورهم ، والتواهم واستعجالهم للثمار . والصبر على تنفث الباطل ووقاحة الطغيان ، وانتفاش الشر ، وغلبة الشهوة وتصعير الغرور والخيلاء ، والصبر على قلة الناصر وضعف المعين ، وطول الطريق ووسواس الشيطان في ساعات الكرب والضيق . والصبر على مرارة الجهاد . . هذا كله وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة من الألم والغضب والحزن والضيق ، وضعف الثقة أحياناً في الخير ، وقلة الرجاء أحياناً في الفطرة البشرية . والملل واليأس أحياناً والقنوط . والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والغلبة والانتصار واستقبال الرخاء في تواضع وشكر ، وبدون خيلاء ، والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله واستسلام لقدره ورد الأمر اليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع ،

الصبر على هذا كله وعلى مشقة ما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل لا تصوره حقيقة الكلمات . الكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة .
انما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق وتذوقها ، انفعالات وتجارب ومرارات ، فيجب أن لا يتخذ صبر المؤمنين .

فإذا كان الباطل يصبر ويصبر ويمضي في الطريق ، فما أجد الحق أن يكون اشدّ اصراراً واعظم صبراً في المضي في الطريق ..

ان على الجماعة المسلمة أن لا تغفل عيونها ابداً ولا تستسلم للرقاد فإن أعداءها لا يهادنونها قط في أي زمان وفي أي مكان .. ان هذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعي ، منهج يتحكم في أموالهم كما يتحكم في نظام حياتهم ومعايشهم ، منهج خير عادل مستقيم ، ولكن الشر لا يستريح للنهج الخير العادل المستقيم . والباطل لا يحب الخير والعدل والاستقامة . والظغيان لا يسلم للعدل والمساواة والكرامة . ومن ثم ينهد هذه الدعوة أعداء من أصحاب الشر والباطل والظغيان . فينهد لحربها المستنفعون والمستغلون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الاستنفاع والاستغلال ، وينهد لحربها الطغاة المستكبرون الذين لا يريدون ان يتخلوا عن الطغيان والاستكبار ، وينهد لحربها المستهترون المتحلون لأنهم لا يريدون ان يتخلوا عن الانحلال والشهوات .. ولا بد من مجاهرتهم جميعاً ، ولا بد من الصبر والمصابرة ، ولا بد من اليقظة كي لا تؤخذ الجماعة المسلمة على غرة من أعدائها الطبيعيين الدائمين في كل أرض وفي كل جيل ..
هذه هي طبيعة الدعوة وهذا هو طريقها . ان الله سبحانه يؤيد الصابرين وهو معهم ، ويثبتهم ويقويهم ويؤنسهم (ان الله مع الصابرين) فلا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة وقوتهم الضعيفة ، انما يمددهم حين يتفقد زادهم ويحدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق .. والاحاديث في الصبر كثيرة فذكر منها بعض ما يمد الجماعة المسلمة لحمل عبثها والقيام بدورها :
عن خباب بن الارت رضي الله عنه قال : شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة . فقلنا ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا

فقال : (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحضر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دينه . . والله كُئِبْتُمْ الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)^(١) وعن ابن مسعود رضي الله عنه (كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْشِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ضَرْبُهُ قَوْمَهُ فَأَدْمُوهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)^(٢) وعن يحيى بن وثاب عن شيخ من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم)

والصبر تربية للنفوس واعداد كي لا تطير شعاعاً مع كل نازلة ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة ولا تنهار جزعاً أمام الشدة . انه التجميل والتماسك والثبات حتى تنقشع العاشية وترحل النازلة ويجعل الله بعد عسر يسراً . . انه الرجاء في الله والثقة في الله والاعتماد على الله ، ولا بد لامة تناط بها القوامة على البشرية والعدل في الأرض والصالح ان تهباً لمشايق الطريق ووعثائه بالصبر في البأساء والضراء وحين الشدة . . (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) .. الصبر في البؤس والفقر ، والصبر في المرض والضعف ، والصبر في القلة والنقص والصبر في الجهاد والحصار والصبر على كل حال كي تنهض بواجبها الضخم وتؤدي دورها المرسوم في ثبات وفي ثقة وفي طمأنينة وفي اعتدال . . والصبر ترفع على الألم واستعلاء على الشكوى وثبات على تكاليف الدعوة واداء لتكاليف الحق وتسليم لله واستسلام لما يريد بهم من الامور وقبول لحكمه ورضاه .

(١) البخاري وأبو داود والنسائي .

(٢) أخرجه الشيخان .

ان الصبر وسيلة للمؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يبدو احياناً
 بلا نهاية والثقة بوعده الله والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك . .
 الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين ومن تكذيبهم للحق
 وشكهم في وعد الله وسبيل المؤمنين الصبر مهما بطل هذا الطريق ومهما تحتجب
 نهايته وراء الضباب والغيوم . . والصبر ألوان . . وللصبر مقتضيات . . صبر
 على تكاليف الميثاق من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد . . الخ وصبر على النعماء
 والبأساء وقل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر ، وصبر على حماقات
 الناس وجهالاتهم وهي تضيق الصدور ، وصبر وصبر وصبر كله ابتغاء وجه
 الله (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) لا تخرجنا من أن يقول الناس جزعوا .
 ولا نجملنا ليقول الناس صبروا ولا رجاء فنع من وراء الصبر . ولا دفعاً يأتي
 به الجزع . ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله . والصبر على نعمته وبلواه
 صبر التسليم لقضائه والاستسلام لحشيته والرضا والافتناع . . . والابتلاء لامتحان
 الصبر والتماسك والمقاومة والعزم فليس الصبر هو احتمال الذل والعذاب
 وكفى ، ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تضعيع ولا هزيمة روحية واستمرار
 العزم والاستعداد للوقوف في وجه المظلم والطغيان . والصبر توجيه من الله
 سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي احتمل ما احتمل وعانى من قومه
 ما عانى (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) . . ألا إنه
 لطريق شاق طريق هذه الدعوة وطريق مرير حتى لحتاج نفس محمد صلى الله
 عليه وسلم في تجردها وانقطاعها للدعوة وفي ثباتها وصلابتها ، وصفائها
 وشفافيتها . تحتاج الى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم
 الدعوة المتعنتين . نعم وإن مشقة هذا الطريق لحتاج الى مواساة ، وإن صعوبته
 لحتاج الى صبر ، وإن مرارته لحتاج الى جرعة حلوة من رحيق العظمة الإلهي
 المختوم (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وهو زاد هذه الدعوة في
 طريقها الشاق الطويل . سواء في مسارب الضمير أو في طريقها في جهاد المناوئين
 وكلاهما شاق عسير (فاصبر على ما يقولون) . . والصبر هو الصفة التي لا

يستطيع المسلم حمل عقيدته والقيام بتكاليفها الا بها ، وهي تحتاج الى الصبر في كل خطوة من خطواتها ، الصبر على شهوات النفس ، والصبر على الاسلام الخالص . اسلام القلب والوجه ومقابله للهوى والشهوة والاستقامة على الدين وهو عسير على النفوس . وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف والصبر على مشاق الدعوة وعلى أذى الناس وعلى التواء نفوس وضعفها وانحرافها وتلويثها . وعلى الابتلاء والامتحان والفتنة ، وعلى السراء والضراء ، والصبر على كليهما شاق عسير . فهو الكلية الاساسية في المنهج الاسلامي . .

وهكذا فان موكب الدعوة الى الله الموهل في القدم الضارب في شباب الزمان ماض في الطريق اللاحب ، ماض في الخط الواصب مستقيم الخطى . ثابت الاقدام يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل يقاومه التابعون من الضالين والمتبوعين ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة وتسيل الدماء وتمزق الاشلاء والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد . . والعاقبة مهما طال الزمن للمؤمنين . .

ان نصر الله دائماً في نهاية الطريق (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) . وهكذا يرسم للدعاة الى الله من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقهم واضحاً ودورهم محدداً . كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق . .

ان هذا القرآن يرسم سنة الله في الدعوات . . دعوة تلتفها الكثرة بالكذب وتلقى أصحابها بالأذى . . وصبر من الدعاة على التكذيب . وصبر كذلك على الأذى . . وسنة تجري بالنصر في النهاية . . ولكنها تجري في موعدها لا يعجلها عن هذا الموعد ان الدعاة الابرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب . ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدررون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين . ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته

ومن شهواته ، انما يرغب في هداية قومه ، حياً في هدايتهم ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والآخرة .. لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله . فان الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه ، ولا مبدل لكلماته . سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم أم تعلقت بالأجل المرسوم . .

تسعى والدعوة الى الصبر والتوجيه اليه صاحبت كل دعوة وتكررت لكل رسول ولكل مؤمن يتبع الرسول ، وهي ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق ، ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية موصولة بالهدف البعيد منطلقاً كذلك الى الإيقاع البعيد . والصبر حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد (فاصبر لحكم ربك) . . ان مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله حتى يأتي موعده في الوقت الذي يريده بحكمته . وفي الطريق مشقات التكذيب والتعذيب ومشقات الالتواء والعناد ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه ، ومشقات افتتاح الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون ثم مشقات إمساك النفس عن هذا كله . راضية مستقرة مطمئنة الى وعد الله الحق لا ترتاب ولا تردد في قطع الطريق ، مهما تكن مشقات الطريق . . وهو جهد ضخم مرهق يحتاج الى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق (فاصبر صبراً جميلاً) والصبر الجميل هو الصبر المطمئن الذي لا يصاحب السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد . صبر الواثق من العاقبة ، الراضي بقدر الله ، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء . الموصول بالله المحتسب كل شيء عنده مما يقع به . . وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة . فهي دعوة الله ، وهي دعوة الى الله . ليس له منها شيء ، وليس له وراءها من غاية . فكل ما يلقاه فيها فهو في سبيل الله . وكل ما يقع في شأنها هو من أمر الله . فالصبر الجميل اذن ينبعث متناسقاً مع هذه الحقيقة ومع الشعور بها في اعماق الضمير . . والله صاحب الدعوة التي يتقف لها المكذبون وصاحب الوعد الذي يستعجلون به ويكذبون . يقدر الاحداث ويقدر مواقفها كما يشاء وفق حكمته وتديره لتكون كله . . ولكن البشر

لا يعرفون هذا التدبير وذلك التقدير فيستعجلون ، واذا طال عليهم الامل
يستريحون . وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم ، وتجول في خاطرهم
أمنية ورغبة في استعجال الوعد ووقوع الموعد . . عندئذ يأتي التثبيت من الله
(فاصبر صبراً جميلاً) تثبيتاً للقلب على ما يلقي من عنث المناوأة والتكذيب . .
(اصبر) . . انها الإشارة الى الطريق المطروق في حياة الرسل عليهم صلوات
الله . الطريق الذي يضمهم أجمعين . فكلهم ساروا في هذا الطريق . . كلهم
عاني . كلهم ابتلى . وكلهم صبر . وكان الصبر هو زادهم جميعاً . وطابعهم
جميعاً . كل حسب درجته في سلم الانبياء . . لقد كانت حياتهم كلها تجربة
مفعمة بالابتلاءات مفعمة بالآلام . لكأنما كانت تلك الحياة المختارة - بل
إنها كذلك - صفحات من الابتلاء والصبر معروضة للبشرية ، لتسجل كيف
يتنصر الروح الإنسانية على الآلام والنصبرات وكيف تستعلي على كل ما تعترض
(به في الأرض . وتتجرد من الشهوات والمغريات . وتخلص لله وتنجح في
امتحانه وتختاره على كل شيء سواه . ثم لتقول للبشرية في النهاية هذا هو
الطريق . . هذا هو الطريق الى الاستعلاء والى الارتفاع . هذا هو الطريق الى
الله . فالصبر هو طريق الرسالات وطريق الدعوات (انما يوفى الصابرون أجورهم
بغير حساب) . . الدعوة الى الصبر . . الصبر على التكذيب والصبر على الاذى .
والصبر على نقمة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان في فترة من الزمان . والصبر
على طبع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا وهناك . والصبر على النفس وميولها
وقلقها وتطلعها ورغبتها في الصبر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال .
والصبر على أشياء كثيرة في الطريق قد تنجيء من بجانب الاصدقاء قبل أن تنجيء
من جانب الأعداء . . (فاصبر ان وعد الله حق) . مهما يطل الأمد ومهما
تتعقد الامور ومهما تتقلب الاسباب . .

ولنقف أمام لفظة تستحق التدبير العميق . . ان الرسول صلى الله عليه وسلم
الذي يلاقي ما يلاقي من الاذى والتكذيب والكبر والكنود يقال له (فاصبر
ان وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون) :
سأ أدب واجبك وقف عنده . فأما النتائج فليست من أمرك . حتى شفاء صدره

بأن يشهد تحقق وعيد الله للمتكبرين والمكذبين ليس له أن يعلق به قلبه . .
إنه يعمل وكفى . يؤدي واجبه ويمضي . فالأمر ليس أمره . والقضية ليست
قضيته . ان الأمر كله لله والله يفعل به ما يريد . ومثل هذه اللقطة العميقة
ينبغي أن تتوجه قلوب الدعاة الى الله في كل حين . فهذا هو حزام النجاة في
خضم الرغائب التي تبدو بريئة في أول الأمر ثم يخوض فيها الشيطان بعنبر ذلك
ويعوم .

صبر مريد :

ان اصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا تكاليفها . وأن يصبروا على التكذيب
بها . والايذاء من أجلها . وتكذيب الصادق الواثق مريد على النفس حقاً .
ولكنه بعض تكاليف الرسالة . فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا .
ويحتملوا . ولا بد من أن يثابروا ويثبتوا . ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدئوا
فيها ويعيدوا . إنه لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب .
مهما واجهوا من انكار وتكذيب . ومن عتو وجهود . فإذا كانت المرة
المئة لم تصل الى القلوب . فقد تصل المرة الواحد بعد المئة . وقد تصل المرة
الواحد بعد الألف . ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم
أرصاد القلوب .

ان طريق الدعوات ليس هيناً ليناً . واستجابة النفوس للدعوات ليست
قريبة يسيرة فهناك ركاب من الباطل والفساد والتقاليد والعادات . والنظم
والاوضاع يحتم على القلوب . ولا بد من إزالة هذا الركاب ولا بد من استحياء
القلوب بكل وسيلة . ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة ومن محاولة العثور
على العصب الموصل . . واحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء .
ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشري تحويلاً تاماً في لحظة متى أصابت اللمسة
موضعها .

وان الانسان ليدهش أحياناً وهو يحاول ألف محاولة ، ثم اذا لمسة عابرة

تصيب موضعها في الجهاز البشري فيستفرض كله بأيسر مجهود . وقد أعيا من قبل كل مجهود .

وأقرب ما يحضرني للتشيل هذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة الإرسال . . انك لتحرك المشير مرات كثيرة ذهاباً وإياباً فتخطئ المحطة وأنت تدقق وتصوب . ثم اذا حركة عابرة من يدك فتتصل الموجة وتطلق الاصداء والانغام . ان القلب البشري هو أقرب ما يكون الى جهاز الاستقبال . واصحاب الدعوات لا بد أن يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق . ولمسة واحدة بعد ألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال . .

انه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس . . انه عمل مريح . قد يفتأ الغضب ويهدى الأعصاب . ولكن أين هي الدعوة ؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين . . ان الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية . فليضق صدره . ولكن ليكظم ويمض . وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون . ان الداعية أداة في يد القدرة والله أرعى لدعوته وأحفظ . فليؤد هو واجبه في كل ظرف وفي كل جو . والبقية على الله . والهدى هدى الله . .

(وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجينااه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) . . ان يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة فضايق صدره بالقوم وألقى عبء الدعوة وذهب مغاضباً . ضيق الصدر . حرج النفس . فأوقعه الله في الضيق الذي تهون الى جانبه مضايقات المكذبين . ولولا أن تاب الى ربه واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجهه . لما فرج الله عنه هذا الضيق . ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعاقبه . .

وان في قصة ذي النون لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه . وأن في رجعة ذي النون الى ربه واعترافه بظلمه لعمرة لأصحاب الدعوات

ينبغي أن يتدبروها ، وإن القرآن لا يقص قصة الاليوواجه بها حالة . ولا يقرر حقيقة الاليوغير بها باطلاً انه يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي . انه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد . . فلا يكفي أن يجاهد المؤمنون . . انما هو الصبر على تكاليف هذه الدعوة أيضاً . . التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان . فربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التي يطلب لها الصبر ويختبر بها الايمان . . انما هناك المعاناة اليومية التي لا تنتهي . معاناة الاستقامة على أفق الايمان والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك . والصبر في ذلك على الضعف الانساني في النفس وفي الغير من يتعامل معهم الداعية في حياته اليومية . . والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل ويتفش ويبدو كالمستصر . والصبر على طول الطريق ، وبُعد الشقة وكثرة العقبات . والصبر على سبوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال . والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان الا واحداً منها . في الطريق المحفوف بالمكاره . طريق الجنة التي لا تنال بالأمان وبكلمات اللسان . .

هذا هو طريق العقيدة المرسوم . توحيد لله وشعور برقابته وتطلع الى ما عنده ، وثقة في عدله وخشية من عقابه . ثم انتقال الى دعوة الناس واصلاح حالهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر بالزاد الاصيل . زاد العبادة لله والتوجه اليه بالصلاة ثم الصبر على ما يصيب الداعية الى الله من التواء النفوس وعنادها وانحراف القلوب واعراضها . ومن الأذى تمتد به اللسنة وتمتد به الأيدي ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء (ان ذلك من عزم الامور) وعزم الأمور قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتبصير .

والله وان الذين احتملوا في الطريق الى الله ما احتملوا فلم ينكصوا ولم يياسوا . الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس الذين حملوا أعباءهم وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب . . اولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن

يضع أعمالهم ولن ينسى جهادهم . انه سينظر اليهم من عليائه فيضاهم
وسينظر الى جهادهم اليه فيهديهم وينظر الى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم .
وسينظر الى صبرهم واحسانهم فيجازيهم بخير الجزاء (والذين جاهدوا فينا
لنهديهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) . . انه الله يأمرنا بالصبر على مشقة بناء
النفوس في أي جيل من الاجيال لتكوين الجماعة المسلمة التي تنهض بحمل
أمانة هذه العقيدة وتحاول تحقيقها في عالم الواقع كما حققت الجماعة الأولى التي
انتهت الى ما انتهت اليه حتى صارت ذلك النموذج القريب في تاريخ الاسلام
وفي تاريخ البشرية جميعاً .

التواصي بالصبر :

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الايمان والعمل الصالح ،
وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة . ولا بد من الصبر .
لا بد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير : والصبر على الأذى والمشقة ،
والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر . والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ،
وانطماس المعالم وبُعد النهاية . . والتواصي بالصبر يضاعف القدرة بما يبعثه
من احساس بوحدة الهدف ، ووحدة المتجه وتساند الجميع . وتزودهم بالحب
والعزم والاصرار : . الى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا يعيش حقيقة
الاسلام الا في جوها ، ولا تبرز الا من خلالها والا فهو الخسران والضايع
(والعصر إن الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا
بالحق وتواصوا بالصبر) . فالصبر هو العنصر الضروري للايمان بصفة عامة
والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته . درجة تماسك الجماعة المؤمنة
وتواصيها على معاني الصبر وتعاونها على تكاليف الايمان . فهي أعضاء متجاوبة
الحس . تشعر جميعاً شعوراً واحداً بمشقة الجهاد لتحقيق الايمان في الارض
وحمل تكاليفه . فيوصي بعضها بعضاً فلا تتخاذل ، ويقوي بعضها بعضاً
فلا تنهزم . وهذا أمر غير الصبر الفردي . . وان يكن قائماً على الصبر الفردي

(ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) وهو إيماء
بواجب المؤمنين في الجماعة المؤمنة . وهو ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر
تثبيت . ولا يكون داعية هزيمة بل داعية انتحام ، ولا يكون مثار جزع
بل مهبط طمأنينة .

٢ - الصلاة :

ان المتأمل في أسرار هذا القرآن وفي أسرار المنهج الرباني للتربية المتمثل
فيه ، يطلع على عجب من اللغات النفسية النافذة الى اعماق الروح البشرية .
ومنها اللغة في ساحة المعركة الى الصلاة (واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة
فالتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم . فاذا سجدوا فيكونوا من وراءكم
ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ؛
وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً
وَاحِدَةً وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا
أَسْلِحَتَكُمْ . وَخَلُّوا سَبِيلَ اللَّهِ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً) . وهذا طبيعي
بل بدوي في الاعتبار الإيماني . أن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة .
بل أنها السلاح . . ولقد كان أولئك الرجال الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج
الرباني يلقون عدوهم بهذا السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح . لقد
كانوا متفوقين في إيمانهم بالله واحد يعرفونه حتى المعرفة . ويشعرون أنه معهم
في المعركة . متفوقين كذلك في إيمانهم بهدف يقابلون من أجله ويشعرون
أنه أرفع الاهداف جميعاً . متفوقين أيضاً في تصورهم للكون والحياة ولغاية
وجودهم الانساني . . وكانت الصلاة رمزاً لهذا كله وتذكيراً بهذا كله . ومن
ثم كانت سلاحاً في المعركة بل كانت هي السلاح (واستعينوا بالصبر والصلاة
وانها لكبيرة الا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون) .

طوبى الأمد ويشق الجهد قد يضيع الصبر أو يمتد إذا لم يكن
دد . ومن ثم يقرن الله سبحانه الصلاة الى الصبر فهي المعين .

الذي لا ينضب والزاد الذي لا ينفد . . المعين الذي يحدد الطاقة والزاد الذي يزود القلب فيمتد حول الصبر ولا ينقطع ثم يضيف الى الصبر الرضى والبشاشة والطمأنينة والثقة واليقين . . انه لا بد للانسان القاني المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة . حين يواجه قوى الشر الباطنة والظاهرة . حينما يتقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات واغراء المطامع . وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة . حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود ثم ينظر فاذا هو لم يبلغ شيئاً وقد أوْثق المغيب . ولم يتل شيئاً وشمس العمر تميل للغروب . حينما يجد الشر نافعاً والخير ضاراً ولا شعاع في الأفق ولا معالم في الطريق . . . هنا تبدو قيمة الصلاة . . انها الصلة المباشرة بين الانسان القاني والقوة الباقية . . انها الموعد المختار لالتقاء الفطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يفيض . انها مفتاح الكثر الذي يغني ويقتي وبفيض . انها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير الى عجان الرفع الكوني الكبير . انها الروح والندى والظلال في المهاجرة . انها اللمة الحانية للقلب المتعب المكثود . . ومن هنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان في الشدة قال : (أرحنا بها يا بلال) . ويكثر من الصلاة اذا حز به أمر ليكثر من اللقاء بربه .

ان هذا المنهج الاسلامي منهج عبادة . . والعبادة فيه ذات أسرار . ومن أسرارها أنها زاد الطريق . وأنها مدد الروح وأنها جلاء القلب . وانه حينما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر . ان الله سبحانه حينما ابتدئ محمداً صلى الله عليه وسلم للدور الكبير انشاق قال له (يا أيها المرمل . قم الليل الا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً . انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) . فكان الاعداد للقول الثقي . والتكليف الانشاق والدور العظيم هو قيام الليل ورتل القرآن . . انها العبادة التي تنفع القلب وتوثق الصلة وتيسر الأمر وتشرق بالنور وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والطمأنينة . . وقيام الليل هو الاعداد للمهمة الكبرى بوسائل الاعداد .

الالهية المضمونة قيام الليل أكثره : أكثر من نصف الليل ، ودون ثلثه ، وأقله ثلث الليل . هكذا كان يقوم الداعية العظيم محمد صلى الله عليه وسلم للصلاة وترتيل القرآن (قم الليل اقليلاً نصفه او انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً) .

إن قيام الليل والناس نيام ، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وفسادها . والاتصال بالله وتلقي فيضه ونوره ، والانس بالوحدة معه والخلوة اليه ، وترتيل القرآن والكون ساكن ، وكأنما هو ينتزل من الملاء الاعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة ، واستقبال اشعاعاته وإيقاعاته وإيقاعاته في الليل الساجي .

ان هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل والعبء الباهظ وإلجهاك المرير الذي ينتظر الرسول و ينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل . وينير للقلب في الطريق الشاق الطويل ويعصمه من وسوسة الشيطان ومن التيه في الظلمات الخافة بهذا الطريق المنير . والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ويعلم ما يتسرب اليه وما يوقع عليه ، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتنبؤاً ، وأي الامسيات أعلق به وأشد تأثيراً فيه . فهو سبحانه يقول (ان ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قبلاً) فالآية تقول : ان ناشئة الليل هي أشد وطئاً أي أجهد للبدن . واقوم قبلاً : أي أثبت في الخير (كما قال مجاهد) فان مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش . بعد كد النهار . أشد وطئاً وأجهد للبدن ولكنها اعلان لسيطرة الروح واستجابة لدعوة الله . وإيثار للأنس به . ومن ثم فانها أقوم قبلاً . لأن للذكر فيها حلاوته وللصلاة فيها خشوعها . وللمناجاة فيها شفافيتها ، وانها لتسكب في القلب أنساً وراحة وشفافية ونوراً قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره . .

فلا بد من التعنية الروحية الى جوار التعنية النظامية . وهما معاً ضرورتان محلي للأفراد والجماعات . . وقاد يخذ المؤمنون أنفسهم ذلت يوم مطردير في المجتمع الجاهلي . وقد عميت الفتنة وتجر الطاغوت وأنتنت البيئة . وهنا لا بد من الزاد

للاستقامة على الطريق في مثل هذه الفترات لأنه أمر شاق عسير يحتاج إلى راد
معين (واقم الصلاة طرقي النهار وزلماً من الليل) (آمّن هو قانت آتاء الليل
ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . قل هل يستوي الذين يعلمون والذين
لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الالباب) . ان هذه الدعوة لطريقها طويل تتطلب
عبادة طويلة وتهجداً ودعاء الى الله وهذا ما يصف الله به عباده المؤمنين .
(تنجاني جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) أنها ترسم صورة المضاجع
في الليل تدعو الجنوب الى الرقاد والراحة والتنادد المنام . ولكن هذه الجنوب لا
تستجيب وأن كانت تبذل جهداً في مقاومة دعوة المضاجع المشتبهة . لأن لها
شغلاً عن المضاجع اللينة والرقاد اللذيذة . شغلاً بربها . شغلاً بالوقوف في
حضرته . وبالتوجه اليه في خشية وفي طمع تمارعها الخوف والرجاء . ضالة المدد
والزاد . (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من
الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) (ومن الليل فتهجد به نافلة لك
عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) وإذا كان الرسول يؤمر بالصلاة والتهجد ..
وهو المصطفى المختار . فما أحوج الآخرين الى هذه الوسائل لينالوا المقام المأذون
لهم به في درجاتهم .. فهذا هو الطريق .. وهذا هو زاد الطريق ..

٣ - الدعاء :

ويقف الداعية ليناجي ربه بعيداً عن عيون الناس . بعيداً عن اسماعهم .
في عزلة يخلص فيها لربه ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه
في قرب واتصال (يا رب ..) بلا واسطة . وان ربه ليسمع ويرى من غير
دعاء ولا نداء . ولكن المكروب يستريح الى البث . ويحتاج الى الشكوى .
والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر . فيستحب لهم أن يدعوه وأن
يشوه ما تضيق به صدورهم (وقال ربكم ادعوني استجب لكم) . ليرفعوا
أعصابهم من التعب المرهق . ولتطمئن قلوبهم الى أنهم قد عهدوا بأعبائهم الى
من هو أقوى وأقدر . وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يضام من يلجأ

اليه ولا يخيب من يتوكل عليه . . والدعاء يسكب في قلب المؤمن الندوة الحلوة ،
والودّ المؤنس . والرضى المطمئن ، والثقة واليقين . ويعيش المؤمن في جناب
رضي ، وقرى ندية ، وملاذ أمين وقرار مكين (واذا سألتك عبادي صني فاني
قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان) . أخرج ابو داود والترمذي وابن ماجه
من حديث ابن ميمون — بإسناده — عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ان الله تعالى ليستحي أن يسلط العبد اليه
يديه يسأله فيهما خيراً فغيردهما خائبتين) . وفي الصحيحين أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب
لي) .

٤ - الذكر والتسبيح :

(فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها
ومن آتاء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) . . ويحتاج الصبر على الكفر
والاستهزاء والحدود والأعراض الى تسبيح كثير حتى يرتفع ضيق الصدر . .
فاتجه الى ربك . سبح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . في هدأة الصبح
وهو يتنفس ويتفتح بالحياة وفي هدأة الغروب والشمس تودع والكون يغمض
اجفانه . وسبح بحمده فقرات من الليل والنهار . . كن موصولاً بالله على مدار
اليوم . . (لعلك ترضى) . . ان التسبيح بالله اتصال . والنفس التي تتصل تطمئن
وترضى وهي في ذلك الحوار الرضي . وتطمئن وهي في ذلك الحمى الآمن . فالرضا
ثمرة التسبيح والعبادة وهو وحده جزاء حاضر ينبت من داخل النفس ويترععرع
في حنايا القلب . . انه لا بد للداعية من الزاد ليقوى به على مشاق الطريق . .
وان العبادة والذكر عنصر أساسي في منهج هذا الدين . انه ليس منهج معرفة
نظرية وجدل لاهوتي . انه منهج حركة واقعية لتغيير الواقع البشري . وللواقع
البشري جذوره وركائزه في نفوس الناس وفي أوضاعهم سواء . . وتغيير هذا الواقع
الجاهلي الى الواقع الرباني الذي يريده الله للناس وفق منهجه مسألة شاقة عسيرة

تحتاج الى جهد طويل والى صبر عميق . وطاقة صاحب الدعوة محدودة ، ولا قبيل له بمواجهة هذه المشقة دون زاد يستمد من ربه . انه ليس العلم وحده وليست المعرفة وحدها ، انما هي العبادة لله والاستمداد منه ، هي الزاد وهي السند وهي العون في الطريق الشاق الطويل (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً) . انه زاد الطريق وعدة الموكب الكريم في هذا الطريق . اذكر اسم ربك في الصباح والمساء واسجد له في الليل وسبحه طويلاً .. انه الاتصال بالمصدر الذي نزل القرآن . انه الاتصال بصاحب الدعوة فهو ينبوع القوة ، ومصدر الزاد والمدد .. الاتصال به ذكراً وعبادة ودعاء وتسبيحاً .. ليلاً طويلاً .. فالطريق طويل والعبء ثقل ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير وهو هناك حيث يلتقي العبد بربه في خلوة وفي نجاء، وفي تطلع وفي أنس تفيض منه الراحة على التعب والضنى ، وتفيض منه القوة على الضعف والقلّة ، وحيث تنفّس الروح عنها صفائر المشاعر والشواغل ، وترى عظمة التكليف وضخامة الامانة فتستصغر ما لاقته وما تلاقي من أشواك الطريق .

٥ - الصوم :

ان الصوم يوقظ التقوى في القلوب . والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية ولو تلك التي تهجم في البال . والصوم يحكم سلوك المتعب ويورث ضميره .. ومن الطبيعي أن يفرض الصوم على الامة التي يفرض عليها الجهاد في سبيل الله لتحرير منهجه في الارض وللقوامة به على البشرية . وللشهادة على الناس . فالصوم هو مجال تقرير الارادة العازمة الجازمة . ومجال اتصال الانسان بربه اتصالات طاعة وتقيا . كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها واحتمال ضغطها وثقلها ايثاراً لما عند الله من الرضى والمتاع . وهذه كلها عناصر لازمة في اعداد النفوس لاحتمال مشقات الطريق المخروش بالعقبات والاشواك . والذي تتناثر على جوانبه الرغائب والشهوات والذي تهتف بسالكه آلاب المغريات . وان الغاية من الصوم هي الاعداد للنور العظيم الذي أخرجت هذه الامة لتؤديه اداء تحرسه التقوى ورقابة الله وحساسية الضمير .

وهكذا يحتاج الداعية الى هذا الزاد الكبير زاد العبادة (فاعبده واصطبر لعبادته) اعبدته واصطبر على تكاليف العبادة ، وهي تكاليف الارتقاء الى افق المثول بين يدي المعبود والثبات في هذا المرتقى العالي . اعبدته واحشد نفسك وعبيء طاقتك للقاء ، والتلقي في ذلك الافق العلوي . . . انها مشقة . . مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل شاغل ومن كل هاتف ومن كل التفات . . . وانها مع المشقة للذة لا يعرفها الا من ذاق . ولكنها لا تنال الا بتلك المشقة والا بالتجرد لها والاستغراق فيها ، والتحفز لها بكل جارحة وخابجة . فهي لا تفشي سرها ولا تمنح عطرها الا لمن يتجرد لها ، ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعاً (فاعبدته واصطبر لعبادته) . .

والعبادة في الاسلام ليست مجرد الشعائر . . انما هي كل نشاط : كل حركة ، كل خابجة ، كل نية ، كل اتجاه . . . وانها لمشقة ان يتجه الانسان في هذا كله الى الله وحده دون سواه . مشقة تحتاج الى الاصطبار ليتوجه القلب في كل نشاط الارض الى السماء . وهو يستشعر في كل صغيرة وكبيرة انه يتعبد الله فيرتفع في نشاطه كله الى أفق العبادة الطاهر الوضيء . . . وانه لمنهج يحتاج الى الصبر والجهد والمعاونة .

٦ - التقوى :

التقوى هي زاد القلوب والارواح منها تقنات . وبها تقوى وترقى وتشرق . وعليها تستند في الوصول والنجاة وأولو الالباب هم أول من يدرك التوجيه الى التقوى وخير من ينتفع بهذا الزاد (وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الالباب) . .

التقوى : حساسية في الضمير وشفافية في الشعور وخشية مستمرة وحذر دائم ونوق لأشواق الطريق . . طريق الحياة . . الذي تتجاذبه أشواق الرغائب والشهوات وأشواق المطامع والمطامح وأشواق المخاوف والهواجس ، وأشواق الرجاء الكاذب فيمن لا يملك اجابة رجاء . والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً وعشرات غيرها من الاشواق . . والتقوى هي التي تسمى لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقى وان يستجيب . . (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) . .

وقد ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال بلى . قال فما عملت . قال شمرت واجتهدت . قال فذلك التقوى . .

هي الحارص اليقظ في الضمير يحرسه أن يغفل ، ويحرسه أن يضعف ، ويحرسه أن يجحد عن الطريق من هنا ومن هناك ولا يدرك الحاجة الى هذا الحارس اليقظ الا من يعاني مشاق هذا الطريق ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكررة المتواكبة في شتى الحالات وفي شتى اللحظات . . والاستقامة على الطريق والاعتدال والمضي على النهج دون انحراف هو في حاجة الى التقوى : الى اليقظة الدائمة والتدبر الدائم . والتحرر الدائم بحدود الطريق وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الانحياز قليلاً أو كثيراً . .

التقوى هي التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل . . التقوى الدائمة اليقظة التي لا تغفل ولا تمر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون) . .

والمؤمن كلما اقترب بتقواه من الله تيقظ شوقه الى مقام أرفع مما بلغ وإلى مرتبة وراء ما ارتقى ، وتطلع الى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام . وهكذا الاستسلام . الامتسلا لـ الله . صاعه له واتباعاً لمنهجه واحتكاماً إلى كتابه . هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة الاسلامية لتحقيق وجودها وتؤدي دورها اذ انه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعا جاهليا ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة . انما تكون مناهج جاهلية . .

ولا تنهض القلوب بالاعباء الثقيل الا وهي على بينة من أمرها . وكثيراً ما يهتف الله سبحانه بالمؤمنين بالتقوى : (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) انه الهتاف بالتقوى . . نور يكشف الشبهات ويزيل الوسوس ويثبت الاقدام على الطريق الشائك الطويل . . هذا هو الزاد . . وهذه هي عدة الطريق . . زاد التقوى التي تحيي القلوب وتوقظ وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيلة والتوقي .

وعدة النور الهادي الذي يكشف منحنيات الطريق ودروبه على مدّة البصر . فلا تنبسه الشبهات التي تحجب الرؤية الكاملة الصحيحة . . ثم هو زاد المغفرة والخطايا الزاد المظمن الذي يسكب الهدوء والقرار . وزاد الأمل في فضل الله العظيم يوم تنفذ الأزواد ، وتقصر الاعمال . . إنها حقيقة . ان تقوى الله تجعل في القلب فرقاناً يكشف له منوجات الطريق ولكن هذه الحقيقة ككل حقائق العقيدة لا يعرفها الا من ذاقها فعلاً . ان الوصف لا ينقل مذاق هذه الحقيقة لمن لم يذوقها . ان الامور تظل متشابكة في الحس والعقل والطوق . وتظل متشابكة في النظر والفكر . والباطل يظل متناسلاً بالحق عند مفارق الطريق . وتظل الحجة تضخم ولكن لا تقنع . وتسكت ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل . ويظل الجدل عبثاً والمناقشة جهداً ضائعاً . . ذلك ما لم تكن هي التقوى . . فاذا كانت استنار العقل ووضح الحق وتكشف الطريق واطمأن القلب واستراح الضمير واستقرت القدم وثبتت على الطريق . ان الحق في ذاته لا يخفى على الفطرة . . ان هناك اصطلاحاً من الفطرة على الحق الذي فطرت عليه والذي خلقت به السماوات والارض . . ولكنه الهوى هو الذي يحول بين الحق والفطرة . . الهوى الذي ينشر الغيبس ويحجب الرؤية ويعمي المسالك ويخفي الدروب . والهوى لا تدفعه الحجة . انما تدفعه التقوى . تدفعه مخافة الله ومراقبته في السر والعلن . ومن ثم هذا الفرقان الذي ينير البصيرة ويرفع اللبس ويكشف الطريق .

٧ - الإرادة :

"لا بد من تربية الإرادة وتأكيده الشخصية والشحرر من رغائب النفس وشهواتها والقدر الذي يحفظ للروح الانسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد . فلا تستعبد لها الرغائب وتقهرها . لا بد من قوة كامنة تقف أمام القوة الظاهرة الغالبة . وهذه القوة الكامنة لا تكون الا في الإرادة . الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات وتصمد للحرمان والمشاق . وتستعلي على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة ، وتتحمل تكاليفها . وتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء . . وان الفارق الرئيسي بين الانسان والحيوان : ان للانسان ارادة وهدفاً وتصوراً خاصاً للحياة يقوم على اصولها الصحيحة المتلقاة من الله خالق الحياة . فاذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الانسان المميزة لجنسه وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله . . فلا بد من تحرير

الارادة لتعتاد الصمود والثبات . وان هذا لضروري لكل من يحملون دعوة الله .
ويؤهلون لأمانة الخلافة في الارض . وقد كان اختبار الارادة والاستسلام
على الاغراء . هو أول اختبار وجه من قبل الى آدم وحواء . فلم يصمدا له .
واستمعا الى اغراء الشيطان بشجرة الخلد وملاك لا يبلى (ويا آدم اسكن أنت
وزوجك الجنة فكلتا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .
فوسوس لهما الشيطان ليبيد فما ما ووري عنهما من سواتهما . وقال ما نها كما ربكما
عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما اني
لكما لمن الناصحين فذلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا
يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل
لكما ان الشيطان لكما عدو مبين) .

ثم صل هو الاختبار الذي لا بد أن يجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله له
بأمانة الاستخلاف في الارض . . . إنما يختلف شكل الابتلاء ولا تتغير فحواء .
وكثير من الناس من تبيع مطامعهم أمام الاغراء فتتهوى عزائمهم ويسون
عهدهم مع الله . فيحتلون الخيل . وما أكثر الخيل عنما يلتوى القلب وتقل
التقوى . ويصيح التعامل مع مجرد النصوص . ويراد التفلت من ظاهر النصوص
ويقولون سيفقر لنا . وان الدراسة لهذا الدين لا تجدي سماً لم تحالط القلوب . وكلم
من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيدة . . . إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا . ويحرفوا
الكلم عن مواضعه . ويجحدوا المخارج للفتاوى المفوضة التي تزيد لهم عرض الحياة
الدنيا . وهل آفة الدين الا الذين يدرسونه ولا يأخذونه عقيدة ولا يتقون الله ولا
يرهبونه . . ان هذه الشريعة جاءت ليحكم بها . لا لتعرف وتدرس وتتحول الى
تمتعة في الكتب والدفاتر . جاءت لتتبع في كل دقة ولا يترك شيء منها . ويستبدل
به حكم آخر في صغيرة من شؤون الحياة أو كبيرة . . فاما هذا واما فهي الحاهلية
والهوى . . . ومنى طاشت الارادة سيطر الهوى . . ونرى فريقاً من الناس لا يعرف
حكماً يرجع اليه الا هواه فهو اله الذي يتعبده ويطيع كل ما يراه . نرى هذا
الفريق من الناس مصوراً تصويراً فذاً في القرآن وهو يعجب من أمره ويشهد بغفلته
وعماه (أفأريت من اتخذ إلهه هواه وأضلله الله على علم وختم على سمعه وقلبه
وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟) . . .

الباب السابع

الابتناء

١ - توجيه قرآني :

قال الله سبحانه وتعالى (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) . . انها سنة العقائد والدعوات . لا بد من بلاء ، ولا بد من أذى في الأموال والأنفس . ولا بد من صبر ومقاومة واعتزام . . انه الطريق . . الطريق الى الجنة وقد حُفَّت الجنة بالمكاره ، بينما حُفَّت النار بالشهوات . ثم انه هو الطريق الذي لا طريق غيره لانتشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها . طريق التربية لهذه الجماعة واخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال . وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف المعروفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة . ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً . فهؤلاء هم الذين يصاحون لحملها اذاً والصبر عليها . فهم عليها يؤتمنون وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو ، بقدر ما يصيبهم في سبيلها من عنت وبلاء ، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال . فلا يفرطون فيها بعد ذلك مهما تكن الاحوال وذلك لكي يصلب عود الدعوة والدعاة .

فالمقاومة هي التي تستثير القوى الكامنة وتنميتها وتجمعها وتوجهها . والدعوة الجديدة في حاجة الى استثارة هذه القوى لتأصل جذورها وتعمق . وذلك لكي

يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم ، هم أنفسهم ، وهم يزاولون الحياة والجهاد
مزاوله عملية واقعية ، ويعرفون حقيقة النفس البشرية وخباياها وحقيقة الجماعات
والمجتمعات وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم
وفي أنفس الناس ، ويعرفون مداخل الشيطان الى هذه النفوس ، ومزلق الطريق
ومسارب الضلال . ثم لكي يشعر المعارضون لها في النهاية أنه لا بد فيها من خير
ولا بد فيها من سر ، يجعل أصحابها يلاقون في سبيلها ما يلاقون وهم صامدون .
فعندئذ قد ينقلب المعارضون لها اليها . . أفواجاً . . في نهاية المطاف . . انها سنة
الدعوات ، وما يصبر على ما فيها من مشقة ، ويحافظ في ثنانيا الصراع المرير
على تقوى الله ، فلا يشط ولا ييأس من رحمة الله ويقطع أمله في النصر ، وهو
يعاني الشدائد . ما يصبر على ذلك الا أولو العزم الاقوياء (وان تصبروا وتتقوا
فإن ذلك من عزم الامور) . وهكذا علمت الجماعة المسلمة الأولى ما ينتظرها
من تضحيات وآلام وما ينتظرها من أذى وبلاء في الانفس والأموال ، ولكنها
سارت في الطريق ولم تتخاذل ولم تراجع ولم تنكص على أعقابها . . لقد كانت
تستيقن أن كل نفس ذائقة الموت ، وأن توفية الاجور يوم القيامة ، وان هذه الحياة
الدنيا ما هي الا متاع الغرور . . على هذه الأرض الصلبة المكشوفة كانت تقف ،
وفي هذا الطريق القاصد الواصل كانت تخطو . . والأرض الصلبة المكشوفة باقية
لأصحاب هذه الدعوة في كل زمان ، والطريق القاصد الواصل مفتوح براه كل
انسان ، وأعداء هذه الدعوة هم أعداؤها تتوالى القرون والأجيال وهم ماضون
في الكيد لها من وراء القرون والأجيال . . والقرآن هو القرآن . .

وتختلف وسائل الابتلاء والفئة باختلاف الزمان ، وتختلف وسائل الدعاية ضد
الجماعة المسلمة ووسائل ايذائها في سمعتها ، وفي مقوماتها . وفي أعراضها وفي
أهدافها وأغراضها . ولكن القاعدة واحدة (لتبلون في أموالكم وانفسكم ولتسمعن
من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) . وهكذا
يكشف الله لنا تبارك وتعالى عن طبيعة الدعوة وطبيعة الاعداء الراصدين لها في
الطريق . ويبقى هذا التوجيه القرآني رصيذاً للجماعة المسلمة كلما همت أن
تتحرك بهذه العقيدة وأن تحاول تحقيق منهج الله في الأرض . فتتجمع عليها

وسائل الكيد والفتنة ، ووسائل الدعاية الحديثة لتشويه أهدافها وتمزق أوصالها .
يبقى هذا التوجيه القرآني حاضراً يجلو أبصارها بطبيعة هذه الدعوة وطبيعة طريقها
وطبيعة أعدائها الراصدين لها في الطريق . ويبث في قلبها الطمأنينة لكل ما تلقاه
من وعد الله ذلك . فتعرف حين تناوئها الذئاب بالأذى وحين تموى عليها
بالدعاية ، وحين يصيبها الابتلاء والفتنة .. أنها سائرة في الطريق .. وأنه هو
الطريق .. ومن ثم تستبشر بالابتلاء والفتنة والأذى والادعاء الباطل عليها ،
واسماعها ما يكره ويؤذي .. تستبشر بهذا كله لأنها تستيقن منه أنها ماضية
في الطريق التي وصفها الله لها ، وتستيقن أن الصبر والتقوى هما زاد الطريق ،
ويبطل عندها الكيد والبليلة ، ويصغر عندها الابتلاء والأذى ، وتمضي في
طريقها الموعود إلى الأمل المنشود في صبر وفي تقوى وفي عزم أكيد .

ولا بد من تربية النفوس بالبلاء ، ومن امتحان التصميم على معركة الحق
بالمخاوف والشدائد ، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات (ولنبلوكم بشيء
من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشئ الصابرين) .
لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة ، كي نعرّ على نفوسهم
بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف .. والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها
تكاليفها لا يعزّ عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى . فالتكاليف هنا هي
الثمن النفسي الذي تعزّ به العميدة في نفوس أهلها قبل أن تعزّ في نفوس الآخرين ،
وكلما تألموا في سبيلها وكلما بذلوا من أجلها .. كانت أعزّ عليهم وكانوا أضنّ
بها . كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها ، وصبرهم
على بلائها . أنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم : لو لم يكن ما عند هؤلاء من
العقيدة خيراً مما يبتلون به وأكبر ، ما قبلوا هذا البلاء ولا صبروا عليه .. وعندئذ
ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها . مقدرين لها ، مندفعين إليها .. وعندئذ
يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجا ..

ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى ، فالشدائد
تستجيش مكنون القوى ومدخور الطاقة وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان

ليعلمها المؤمن في نفسه الا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازن والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم الا في جو المحنة التي تريل الغيش عن العيون والرائ عن القلوب . وأهم من هذا كله ، أو القاعدة لهذا كله . . الالتجاء الى الله وحده حين تهتز الاسناد كلها وتتوارى الأوهام وهي شتى ، ويخلو القلب الى الله وحده لا يجد سندا الا سنده . وفي هذه اللحظة قد تنجلي الغشاوات وتفتح البصيرة وينجلي الأفق على مدّ البصر . . لا شيء الا الله . . لا قوة الا قوته ، لا حول الا حوله . . لا ارادة الا ارادته . . لا ملجأ الا اليه . . وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها التصور الصحيح (وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون) انا لله . . وكلنا . . كل ما فينا . . كل كيانتنا وذاتيتنا . . لله واليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير . التسليم . . التسليم المطلق ، وهؤلاء ينعم عليهم الجليل بصلوات منه يرفعهم الى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) ..

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الاعداد العجيب ، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من البشر أجمعين . . لذلك ان الله قد وضع الابتلاء لينكشف المجاهدون ويتميزوا وتصبح أخبارهم معروفة ، ولا يقع الالتباس في الصفوف ، ولا يبقى مجال تخفاء أمر المنافقين ، ولا أمر الضعاف الخزعين (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) ..

والله يعلم حقائق النفوس ومعادنها ويطلع على خفاياها ويعلم ما يكون من أمرها علمه ما هو كائن فعلاً . فما هذا الابتلاء؟ ولماذا يكون العلم من ورائه بما ينكشف عنه . ان الله جلّلت حكمته يأخذ البشر بما هو في طوقهم ، وما هو من طبيعتهم وأستعدادهم . وهم لا يعلمون عن الحقائق المستكنة ما يعلمه . فلا بدّ لهم من تكشف الحقائق ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها ثم ينتفعوا بها . والابتلاء بالسراء والضراء وبالنعماء والبأساء وبالسعة والضيقة وبالفرج والكرب.. كلها تكشف

عما هو مخبوء من معادن النفوس وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها ..
وان العبد المؤمن يرجو الا يتعرض لبلاء الله وامتحانه ، ويتطلع الى عافيته
ورحمته . فاذا أصابه بلاء بعد هذا صبر له ، وهو مدرك لما وراءه من حكمة ،
واسلم لمشية الله واثقا من حكمته متطلعا الى رحمته وعافيته بعد الابتلاء .

٢ - مسنة جارية :

ان الايمان ليس كلمة تقال باللسان ، انما هو حقيقة ذات تكاليف ، وأمانة
ذات أعباء وجهاد يحتاج الى صبر ، وجهد يحتاج الى احتمال . فلا يكفي أن
يقول الناس : آمنا . وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة فيشتوا عليها
ويخرجوا منها صافية عناصرهم ، خالصة قلوبهم ، كما تفن النار الذهب لتفصل
بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به . وكذلك تصنع الفتنة في القلوب (أحسب
الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) هذه الفتنة على الايمان أصل ثابت
وسنة جارية في ميزان الله سبحانه : (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين
صدقوا وليعلمن الكاذبين) والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء . ولكن الابتلاء
يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله ، مغيب عن علم البشر ، فيحاسب
الناس اذن على ما يقع من عملهم ، لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم ،
وهو فضل من الله من جانب ، وعدل من جانب ، وتربية للناس من جانب ،
فلا يأخذوا أحداً الا بما استعلن من أمره ، وبما حققه فعله ، فليسوا بأعلم من الله
بحقيقة قلبه ..

ان الايمان امانة الله في الأرض ، لا يحملها الا من هم لها أهل . وفيهم على
حملها قدرة وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص والا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة وعلى
الأمن والسلامة ، وعلى المتاع والأغراء . وانها لأمانة الخلافة في الارض وقيادة
الناس الى طريق الله ، وتحقيق كلمته في عالم الحياة ، فهي أمانة كريمة وهي
أمانة ثقيلة ، وهي من أمر الله يضطلع بها الناس ومن ثم تحتاج الى طراز خاص
يصبر على الابتلاء ..

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للآذى من الباطل وأهله ، ثم لا يجد النصيب الذي يسأله ويدفع عنه ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة . ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان . وهذه هي الصورة البارزة للفتنة المعهودة في الزمن حين تذكر الفتنة ولكنها ليست أعنف صور الفتنة فهناك فتن كثيرة في صورتي ربما كانت أخطر وأدهى .

هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الآذى بسببه . وهو لا يملك عنهم دفعا ، وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم ، وينادونه باسم الحب والقرابة ، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للآذى والهلاك .

وهناك فتنة اقبال الدنيا على المبطلين ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين . تهتف لهم الدنيا وتصفق لهم الجماهير ، وتتحطم في طريقهم العوائق ، وتُصاغ لهم الأعباد ، وتصفو لهم الحياة . وهو مهمل منكسر . لا يحس به أحد ، ولا يحامي عنه أحد ، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه الا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئا . وهناك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة ، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله ، وكل من حوله غارقا في تيار الضلالة وهو وحده موحش غريب طريد . .

وهناك فتنة من نوع آخر قد فراها بارزة في هذه الأيام فتنة أن يجد المؤمن أمرا ودولا غارقة في الرذيلة وهي مع ذلك راقية في مجتمعا ، منحصرة في حياتها ، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان ، ويجدها غنية قوية . وهي مشاقة الله . .

← وهناك الفتنة الكبرى أكبر من هذا كله وأعنف ، فتنة النفس والشهوة . وجاذبية الأرض ، وثقل اللحم والدم ، والرغبة في المتاع والسلطان . أو في الدعة والاطمئنان . وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتفاه . مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس ، وفي ملاسبات الحياة وفي منطق البيئة . وفي تصورات أهل الزمان . فإذا طال الأمد ، وأبطأ نصر الله ، كانت الفتنة أشد

وأقصى . وكان الابتلاء أشد وأعنف . ولم يثبت إلا من عصم الله . وهؤلاء هم
 الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان ، ويؤمنون على تلك الأمانة الكبرى
 أمانة السماء في الأرض . وأمانة الله في ضمير الإنسان . وما بالله - حاشا الله -
 أن يعذب المؤمنين بالابتلاء وأن يؤذيهم بالفتنة . ولكنه الأعداد الحقيقي
 لتحمل الأمانة . فهي في حاجة إلى أعداد خاص . لا يتم إلا بالمعاناة العملية
 للمشاقي . والا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات . والا بالصبر الحقيقي على
 الآلام . والا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه على الرغم من طول الفتنة
 وشدة الابتلاء . . والنفوس تصهرها الشدائد ، فتتفي عنها الحبث . وتستجيش
 كامن قواها المخدرة فتستيقظ وتتجمع وتطرقها بعنف وشدة ، فيشتد عودها ويصلب
 ويصقل . وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات فلا يبقى صامداً إلا أصلها عوداً
 وأقواها طبيعة واشدتها اتصالاً بالله وثقة فيما عنده من الحسنيين : النصر أو
 الاجر . وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية . مؤمنين عليها بعد الاستعداد
 والاختبار . وأنهم ليسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالي
 الثمن ، وبما بذلوا لها من الصبر على المحن ، وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام
 والتضحيات . والذي يبذل من دمه وأعصابه ومن راحته وأطمئنته ، ومن رغائبه
 ولداته ، ثم يصبر على الأذى والحرمان ، يشعر ولا شك بقيمة الأمانة التي بذل
 فيها ما بذل . فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام . فأما انتصار
 الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعد الله وما يشك مؤمن في وعد الله .
 فإن أبطأ فلحكمة مقدره ، فيها الخير للإيمان وأمله . وليس أحد بأغبر على الحق
 وأمله من الله . وحسب المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة ويقع عليهم البلاء أن يكونوا
 هم المختارين من الله ليكونوا أمناء على حق الله ، وأن يشهد الله لهم بأن في
 دينهم صلابة فهو يختارهم للابتلاء : جاء في الصحيح : (أشد الناس بلاء
 الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان
 في دينه صلابة زيد له في البلاء) . إن الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص
 الصفوف . وإن هناك نموذجاً من الناس يعلن كلمة الإيمان في الرخاء . يحسبها

خفيفة الحمل هيئة المؤونة ، لا تكلف نطقها باللسان ، فاذا أودى بسبب الكلمة التي قالها ، وهو آمن معافى استقبلها في جزع واختلت في نفسه القيم وأهترت في ضميره المقيدة (ومن الناس من يقول آمنا بالله . فاذا أودى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذي يلقاه حتى عذاب الله ، وقال في نفسه ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شيء ، فعلام أصبر على الإيمان ، وعذاب الله لا يزيد على ما أنا فيه من العذاب . . وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر ، وعذاب الله الذي لا يعرف أحد مداه (لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) .

ففي معترك الحياة ومصطرع الأحداث تنمو الشخصية المسلمة وتصاغ . ويوماً بعد يوم وحدثاً بعد حدث تنضج هذه الشخصية وتنمو ، وتتضح سماتها . . كانت الجماعة المسلمة الأولى التي تتكون من تلك الشخصيات تبرز الى الوجود بمفوماتها الخاصة وقيمها الخاصة ، وطابعها المميزين سائر الجماعات . . وكانت الأحداث تقسو على الجماعة الناشئة حتى تبلغ أحياناً درجة الفتنة ، وكانت فتنة كفتنة الذهب . تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف ، وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها . فلا تعود خليطاً مجهول القيم . . وكان القرآن الكريم ينزل في ابان الابتلاء أو بعد انقضائه ، يصور الأحداث ويلقي الأضواء على منحنياته وزواياه فتتكشف المواقف والمشاعر والنوايا والضمائر . ثم يخاطب القلوب وهي مكشوفة في النور ، عارية من كل رداء وستار . ويلمس فيها موضع التأثير والاستجابة ، ويربها يوماً بعد يوم وحدثاً بعد حدث ، ويرتب تأثيراتها واستجاباتها وفق منهجه الذي يريد . ولم يترك المسلمون لهذا القرآن ينزل بالأوامر والنواهي وبالتشريعات والتوجيهات جملة واحدة ، إنما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات والفتن والامتحانات فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية لا تصاغ صياغة سليمة ، ولا تنضج نضجاً صحيحاً ، ولا تصبح وتستقيم على منهج إلا بذلك النوع من التربية التجريبية الواقعية التي تخفر في القلوب وتنقش في الأعصاب وتأخذ من النفوس وتعطي في معترك الحياة ومصطرع الأحداث . أما القرآن فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة ما يقع

ودلالته ، وليوجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة ساخنة بجمرة الابتلاء .
قابلة للطرق . مطاوعة للصياغة .

ولقد كانت فترة عجيبة حقاً تلك التي قضاها المسلمون في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فترة اتصال السماء بالأرض اتصالاً مباشراً ظاهراً مبلوراً في أحداث وكلمات . ذلك حين كان يبيت كل مسلم وهو يشعر أن عين الله عليه ، وأن سمع الله اليه ، وأن كل كلمة منه وكل حركة . بل كل خاطر وكل نية ، قد يصبح مكشوفاً للناس ينتزل في شأنه قرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحين كان كل مسلم يحس الصلة مباشرة بينه وبين ربه ، فإذا حزبه أمر أو واجهته معضلة انظر أن تفتح أبواب السماء غداً أو بعد غد ليتنزل منها حل لمعضلته . وفتوى في أمره ، وقضاء في شأنه . وحين كان الله سبحانه بذاته العلية . يقول : أنت يا فلان بذاتك قلت كذا ، وعملت كذا ، وأضمرت كذا ، وأعلنت كذا وكن كذا ، ولا تكن كذا ، ويا له من أمر هائل عجيب . يا له من أمر هائل عجيب أن يوجه الله خطابه المعين إلى شخص معين . هو وكل من على هذه الأرض وكل ما في هذه الأرض ، وكل هذه الأرض ذرة صغيرة في ملكه الكبير .

لقد كانت فترة عجيبة حقاً يتملأها الإنسان اليوم ويتصور حوادثها ومواقفها وهو لا يكاد يدرك كيف كان ذلك الواقع . الأضحى من كل خيال ، ولكن الله لم يدع المسلمين هذه المشاعر وحدها تربيهم وتنضج شخصيتهم المسلمة . بل أخذهم بالتجارب الواقعية والابتلاءات التي تأخذ منهم وتعطي . وكل ذلك لحكمة يعلمها . وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير . .

وهذه الحكمة تستحق أن نقف أمامها طويلاً ندركها وتدبرها . ونلتقي أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الإدراك وهذا التدبير . وإن النصوص القرآنية تغفل أسماء الأشخاص . وأعيان الذوات ، لتصور نماذج البشر ، وأنماط الطباع . وتغفل تفاصيل الحوادث وجزئيات الوقائع ، لتصور القيم الثابتة والسنن الباقية . هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث ولا تنقطع بذهاب الأشخاص ولا

تنقضي بانقضاء الملابسات . ومن ثم تبقى قاعدة ومثلاً لكل جيل ولكل قبيل .
ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ،
ويظهر فيها يد الله القادرة وتديره اللطيف . ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه
والتعقيب والربط بالأصل الكبير .. ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها
وشهدوا أحداثها ، فإنه كان يزيدهم بها خبراً ، ويكشف لهم من جوانبها ما لم
يدركوه ، وهم أصحابها وأبطالها ، ويلقي الأضواء على سراديب النفوس ومنحنيات
القلوب ومحبات الضمائر . ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوارج المستكنة في
اعماق الصدور .. ان النص القرآني معدّ للعمل لا في وسط أولئك الذين عاصروا
الحادث وشاهدوه فحسب . ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي
كل تاريخ . معدّ للعمل في النفس البشرية اطلاقاً ، كلما واجهت مثل ذلك
الحادث او شبهه في الآماد الطويلة والبيئات المتنوعة ، بنفس القوة التي عمل بها
في الجماعة الأولى ، ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم الا من يواجه مثل
الظروف التي واجهتها أول مرة ، هنا تفتح النصوص عن رصيدها المذخور ، وتفتح
القلوب لادراك مضامينها الكاملة ، وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور
الى قوى وطاقات ، وتتفص الأحداث والوقائع المصورة فيها . تتفص خلقات حبة
موجية دافعة دافعة تعمل في واقع الحياة وتدفع بها الى حركة حقيقية في عالم الواقع
وعالم الضمير .

وهناك نموذج من الناس مكرور في كل جيل يزن العقيدة بميزان الربح
والخسارة . يظنهم صفقة في سوق التجارة : (ومن الناس من يتبع الله على حرف
فان اصابه خير اطمأن به . وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا
والآخرة ذلك هو الخسران المبين . يدعون من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك
هو الضلال البعيد . يدعون من ضره اقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) ..
ان العقيدة هي الركيزة الثابتة في حياة المؤمن . تضطرب الدنيا من حوله .
فيثبت هو على هذه الركيزة ، وتتجاذبه الأحداث والدوافع ، فيثبت هو بالصخرة
التي لا تتزعزع ، وتتهاوى من حوله الاسناد ، فيستند هو الى القاعدة التي لا تحول

ولا تزول . هذه هي قيمة العقيدة في حياة المؤمن . ومن ثم يجب أن يستوى عليها ،
 متمكناً منها ، واثقاً بها ، لا يتلجلج فيها ، ولا ينتظر عليها جزاء - فهي في ذاتها جزاء .
 ذلك أنها الحمى الذي يلجأ إليه ، والسند الذي يستند عليه . أجل هي في ذاتها
 جزاء على تفتح القلب للنور ، وطلبه للهدى ومن ثم يهبه الله العقيدة ليأوى إليها .
 وبطمئن بها . هي في ذاتها جزاء ، يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من
 حوله تتجاذبهم الرياح ، وتتقاذفهم الزواجع ، ويستبد بهم القلق ، بينما هو بعقيدته
 مطمئن القلب . ثابت القدم ، هادئ البال . موصول بالله مطمئن بهذا الاتصال . أما
 ذلك الصنف من الناس الذي يتحدث عنه السياق ، فيجعل العقيدة صفقة في سوق
 التجارة (فان أصابه خير اطمأن به) . وقال ان الايمان خير . فهذا هوذا يجلب
 النفع ، ويدر الضرع . وينمي الزرع . ويربح التجارة . ويكفل الرواج . (وان أصابه
 فتنه انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة) . خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه
 فلم يصبر عليه . ولم يتماسك له ، ولم يرجع الى الله فيه . وخسر الآخرة بانقلابه
 على وجهه ، وانكفائه عن عقيدته وانتكاسه عن الهدى الذي كان ميسراً له .
 والتعبير القرآني يصوره في عبادته لله (على حرف) غير متمكن من العقيدة ولا
 مشتب في العبادة . يصوره في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة
 الأولى . ومن ثم ينقلب على وجهه عند مس الفتنة . ووقفته المتأرجحة تمهد له من
 قبل لهذا الانقلاب . .

ان حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة ، ولكنه لا يصلح للعقيدة . فالعقيدة حق
 يعتق لذاته . بانفعال القلب المتلقي للنور والهدى الذي لا يملك الا أن يفعل بما
 يتلقى . والعقيدة تحمل جزاءها في ذاتها بما فيها من طمأنينة وراحة ورضى فهي
 لا تطلب جزاءها خارجاً عن ذاتها . والمؤمن يعبد ربه شكراً لله له على هدايته اليه ،
 وعلى اطمئنائه للقرب منه والاتس به . فان كان هناك جزاء فهو فضل من الله
 ومنّة . استحقاقاً على الايمان أو العبادة . والمؤمن لا يجرب إلهه فهو قابل ابتداء
 لكل ما يقدره له . مستسلم ابتداء لكل ما يجربه عليه ، راض ابتداء بكل ما يناله
 من السراء والضراء . وليست هي صفقة في السوق بين بائع وشار . انما هي اسلام

المخلوق للخالق . صاحب الأمر فيه ، ومصدر وجوده من الأساس . والذي ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التي لا شبهة فيها ولا ريب (ذلك هو الخسران المين) . . يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضا الى جوار خسارة المال أو الولد أو الصحة ، أو اعراض الحياة الأخرى التي يفتن الله بها عباده ، ويبتلي بها ثقتهم فيه ، وصبرهم على بلائه ، وإخلاصهم انفسهم له ، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره . . ويخسر الآخرة بما فيها من نعيم وقربى ورضوان . فيا له من خسران .

والى اين يتجه هذا الذي يعبد الله على حرف ؟ الى اين يتجه بعيداً عن الله ؟ انه (يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه) : يدعو صتما أو وثناً على طريقة الجاهلية الأولى ، ويدعو شخصاً أو جهة أو مصلحة على طريقة الجاهلية المتأثرة في كل زمان ومكان ، كلما انحرف الناس عن الاتجاه الى الله وحده ، والسير على صراطه ومنهجه . . فما هذا كله ؟ انه الضلال عن المتجه الوحيد الذي يجدى فيه الدعاء (ذلك هو الضلال البعيد) المفرق في البعد عن الهدى والاهتداء . . (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) . من وثن أو شيطان ، أو سند من بني الإنسان . . وهذا كله لا يملك ضراً ولا نفعاً ، وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضرر ، وضره أقرب من نفعه . ضره في عالم الضمير بتوزيع القلب ، واثقاله بالوهم واثقاله بالذل . وضره في عالم الواقع وكفى بما يعقبه في الآخرة من ضلال وخسران .

فمن مسّه الضر في فتنة من الفتن وفي ابتلاء من الابتلاءات ، فليثبت ولا يترعزع ، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه ، وقدرته على كشف الفراء ، وعلى العوض والجزاء . فأما من يفقد ثقته في نصر الله في الدنيا والآخرة ، ويقنط من عون الله له في المحنة حين تشتد المحنة . فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء ، وليذهب بنفسه كل مذهب . فما شيء من ذلك بمبدل ما به من البلاء (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ، ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) والذي ييأس في الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضببة ، وكل نسمة رحية ، وكل رجاء في القرج ، ويستبد به الضيق ، ويثقل على

صدره الكرب ، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء . الا أنه لا سبيل الى احتمال البلاء الا بالرجاء في نصر الله . ولا سبيل الى الفرج الا بالتوجه الى الله . ولا سبيل الى الاستعلاء على الضر والكفاح للخلاص الا بالاستعانة بالله . وكل حركة يائسة لا ثمرة لها ، ولا نتيجة الا زيادة الكرب ، ومضاعفة الشعور به ، والعجز عن دفعه بغير عون الله . . فليستبق المكروب تلك النافذة المضئمة التي تنسم عليه من روح الله .

٣ - حقيقة الابتلاء :

هناك حقيقة يجب أن يقف أمامها الدعاة بتملونها كثيراً . . وهي قدر الله أن يكون لكل نبي عدو ، هم شياطين الأنس والجن ، وقدره أن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول ليخدعوه به ، ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى . وقدر الله أن تصفى الى هذا الزخرف افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة . ويرضوه ويقترفوا ما يقترفونه من العداوة للرسل والحق ، ومن الضلال والفساد في الأرض . . كلى ذلك انما يجري بقدر الله ، وفق مشيئته . فليس شيء من هذا كله بالمصادفة ، وليس شيء من هذا كله بسلطان من البشر كذلك أو قدرة (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه - فذرهم وما يفترون . ولتصفي اليه افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون) .

فاذا تقرران هذا الذي يجري في الأرض من المعركة الناشئة التي لا تهدأ بين الرسل والحق الذي معهم ، وبين شياطين الأنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم . اذا تقرران هذا الذي يجري في الأرض انما يجري بمشيئة الله . ويتحقق بقدر الله ، فان المسلم ينبغي أن يتجه اذا الى تدبر حكمة الله من وراء ما يجري في الأرض بعد أن يدرك طبيعة هذا الذي يجري ، والقدرة التي وراه . . هكذا يوضح الله تبارك وتعالى : بارادتنا وتقديرنا جعلنا لكل نبي عدواً . . هذا العدو هو شياطين الأنس والجن : والشيطنة وهي التمرد والغواية والتمحض للشر ، صفة تلحق بالأنس كما

تلتحق بالجن : ذلك أن هذه الحقيقة اذا عرفها القلب يجب أن تقر :

١ — ان الذين يقفون بالعداوة لكل نبي ويقفون بالأذى لاتباع الانبياء هم شياطين . . شياطين من الأنس ومن الجن . . وأنهم يؤدون جميعاً وظيفة واحدة وأن بعضهم يخدع بعضاً ، ويفضله كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله .

٢ — ان هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله ، ولا يقدرّون على شيء من عداة الانبياء ، وايداء اتباعهم بقدرّة ذاتية فيهم . . انما هم في قبضة الله ، وهو يتلي بهم أوليائه لأمر يريد من تمحيص هؤلاء الأولياء ، وتطهير قلوبهم ، وامتحان صبرهم على الحق الذي هم عليه أمناء . فاذا اجتازوا الامتحان بقوة ، كفّ الله عنهم الابتلاء . وكفّ عنهم هؤلاء الاعداء ، وعجز هؤلاء الاعداء أن يمدوا أيديهم بالأذى وراء ما قدر الله . وآب اعداء الله بالضعف والخذلان وبأوزارهم كاملة يحملونها على ظهورهم .

٣ — ان حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت ان يترك لشياطين الانس والجن أن يتشيطنوا ، فهو — انما يتليهم في القدر الذي تركه لهم من الاختيار والقدرّة — وأن يدعمهم يؤدون أوليائه فترة من الزمن — فهو انما يتلي أوليائه كذلك لينظروا : يصبرون ؟ أم يثبتون على ما معهم من الحق بينما الباطل ينتفش عليهم ويستطيل ؟ يخلصون من حظ أنفسهم في أنفسهم ويبيعونها ببيعة واحدة لله على السراء والضراء سواء . . وفي المنشط والمكره سواء ؟ وإلا فقد كان الله قادراً على ألا يكون شيء من هذا الذي كان .

٤ — ان هوان الشياطين من الأنس والجن ، وهوان كيدهم وأذاهم . فما يستطيعون بقوة ذاتية لهم ، وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم . . والمؤمن الذي يعلم أن ربه هو الذي يقدر ، وهو الذي يأذن ، خليف أن يستهين بأعدائه من الشياطين مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدعى .

ان هذا المشهد الذي يرسمه القرآن الكريم للمعركة ، ومشية الله المهيمنة ،

وقدره النافذ جدير بأن تقف أمامه : أنها معركة تتجمع فيها قوى الشر في هذا الكون . . شياطين الأنس والجن . . تتجمع في تعاون وتناسق لامضاء خطة مقرر . . هي عدااء الحق الممثل في رسالات الانبياء وحربه . . خطة مقرر في وسائلها (يوسحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً) . . يمد بعضهم بعضاً بوسائل الخداع والغواية . وفي الوقت ذاته يغوي بعضهم بعضاً وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله . .

ان الشياطين يتعاونون فيما بينهم ، ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً . انهم لا يهدون بعضهم البعض الى الحق أبداً ، ولكن يزين بعضهم لبعض عدااء الحق وحربه والمضي في المعركة معه طويلاً . . ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً . . انه محاط بمشيئة الله وقدره . . لا يقدر الشياطين على شيء منه إلا بالقدر الذي يشاؤه الله وينفذه بقدره . ومن هنا يبدو هذا الكيد — على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه — مقيداً مغلولاً . انه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط . ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع كما يحب الطغاة أن يلقوا في روع من يعبدونهم من البشر ليعلقوا قلوبهم بمشيتهم وارادتهم . . كلا إن ارادتهم مقيدة بمشيئة الله ، وقدرتهم محدودة بقدر الله ، وما يضررون أولياء الله بشيء إلا بما اراده الله — في حدود الابتلاء — ومرد الأمر كله الى الله . ومشهد التجمع على خطة مقرر من الشياطين جدير بأن يسرعني وعي أصحاب الحق ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها . . ومشهد احاطة مشيئة الله وقدره بخطة الشياطين وتدبيرها جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ وبالسلطان الحق الاصيل في هذا الوجود . وان يحضروا في طريقهم بينون الحق في واقع الخلق بعد بنائه في قلوبهم ، هم — وفي حياتهم ، أما عداوة الشياطين وكيد الشياطين ، فليدعوها للمشيمة المحيطة والقدر النافذ (ولو شاء ربك ما فعلوه . فذرهم وما يفترون) .

انها سنة جارية أن ينتدب الله في كل قرية — وهي المدينة الكبيرة أو العاصمة — نفرًا من أكابر المجرمين فيها ، يقفون موقف العدااء من دين الله . ذلك أن دين الله

يبدأ من نقطة تجريد هؤلاء الأكاير من السلطان الذي يستطيعون به على الناس ،
ومن الربوبية التي يتعبدون بها الناس ، ومن الحاكمية التي يستدلون بها الرقاب ،
ويرد هذا كله الى الله وحده .. رب الناس .. ملك الناس .. إله الناس ..
انها سنة من أصل الفطرة .. ان يرسل الله رسله بالحق .. بهذا الحق الذي يجرّد
مدعي الألوهية من الألوهية والربوبية والحاكمية . فيجهر هؤلاء بالعداوة لدين
الله ورسول الله . ثم يمحرون مكرهم في القرى ، ويوحى بعضهم الى بعض زخرف
القول غروراً . ويتعاونون مع شياطين الجن في المعركة مع الحق والهدى ، وفي نشر
الباطل والضلال ، واستخفاف الناس بهذا الكيد الظاهر والخافي .. (وكذلك جعلنا
في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمحرون الا بأنفسهم وما يشعرون) .
انها سنة جارية ، ومعركة محتومة ، لأنها تقوم على أساس التناقض الكامل بين
القاعدة الأولى في دين الله - وهي رد الحاكمية كلها لله - وبين أطماع المجرمين
في القرى . بل بين وجودهم أصلاً .. معركة لا مفر للنبي أن يخوضها ، فهولا
يملك أن يقيمها ، ولا مفر للمؤمنين بالنبي أن يخوضوها وأن يخوضوا الى النهاية فيها ..
والله سبحانه يطمئن أوليائه .. إن كيد أكابر المجرمين - مهما ضخّم واستطال -
لا يحق الا بهم في نهاية المطاف . ان المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم فاقه
وليهم فيها ، وهو حسبهم ، وهو يرد على الكائدين كيدهم (وما يمحرون الا
بأنفسهم وما يشعرون) . فليطمئن المؤمنون .

٤ - طبيعة الابتلاء :

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً) .
ولله الحكمة البالغة : فان بروز المجرمين لحرب الانبياء والدعوات ، يقوى عودها ،
ويطبعها بطابع الجلد الذي يناسب طبيعتها وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين
الذين يتصدون لها - مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق - هو الذي
يميز الدعوات الحققة من الدعاوى الزائفة ، وهو الذي يمحص القائميين عليها ،
ويطردهم الزائفين منهم . فلا يبقى بجوارها الا العناصر القوية المؤمنة المتجردة التي

لا تبغى مغنم قريبة ، ولا تريد الا الدعوة خالصة تبغى بها وجه الله تعالى .
 لو كانت الدعوات سهلة ميسورة تسلك طرقاً ممهدة مفروشة بالازهار ، ولا يبرز
 لها في الطريق خصوم ومعارضون ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون ، لسهل على
 كل انسان ان يكون صاحب دعوة ، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل
 ووقعت البلبلة والفتنة . ولكن بروز الخصم والاعداء للدعوات هو الذي يجعل الكفاح
 لانتصارها حتماً مقضياً ويجعل الآلام والتضحيات لها وقوداً ، فلا يكافح ويناضل
 ويحمل الآلام والتضحيات الا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون ، الذين
 يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع واعراض الحياة الدنيا ، بل على الحياة
 نفسها . حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها ، ولا يثبت على الكفاح
 المرير الا أصلبهم عوداً وأشدهم إيماناً وأكثرهم تطلعاً الى ما عند الله واستهانة
 بما عند الناس . عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل ، وعندئذ تمحصر
 الصفوف فيتميز الاقوياء من الضعفاء . وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها
 برجالها الذين ثبتوا عليها واجتازوا امتحانها وبلاءها ، أولئك هم الامناء عليها الذين
 يحتملون تكاليف النصر وتبعاته . .

وان التجارب والابتلاءات تعلم الدعاة كيف يسرون بدعوتهم بين الأشواك
 والصخور . والذي يقع غالباً أن كثرة الناس تقف متفرجة على الصراع بين المجرمين
 وأصحاب الدعوات . حتى إذا تضخم رصيد التضحيات والآلام في صف أصحاب
 الدعوات ، وهم ثابتون على دعوتهم ماضون في طريقهم . قالت الكثرة المتفرجة .
 أو شعرت . أنه لا يمسك أصحاب الدعوة على دعوتهم على الرغم من التضحيات
 والآلام ، الا أن في هذه الدعوة ما هو أغلى مما يضحون به وأثمن .. وعندئذ تنقدم
 الكثرة المتفرجة لترى ما هو هذا العنصر الغالي الثمين الذي يرجح كل أعراض الحياة ،
 ويرجح على الحياة ذاتها عند أصحاب الدعوة . وعندئذ يدخل المتفرجون أفواجا في
 هذه العقيدة بعد طول التفرج بالصراع .. من أجل هذا كله جعل الله لكل نبي
 عدواً من المجرمين يقفون في وجه دعوة الحق ، وحملة الدعوة يكافحون المجرمين ،
 فيصيبهم ما يصيبهم وهم ماضون في الطريق ، والنهاية مقدرة من قبل ومعروفة

لا يخطئها الواثقون بالله .. انها الهداية الى الحق والانتهاى الى النصر (وكفى ببربك هادياً ونصيراً) ..

وبروز المجرمين في الطريق أمر طبيعي . فدعوة الحق انما تنجي في أوانها لعلاج فساد واقع في الجماعة أو البشرية . فساد في القلوب . فساد في النظم . فساد في الأوضاع . ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون الذين ينشئون الفساد من ناحية ، ويستغلونه من ناحية . والذين تتفق مشاريعهم مع هذا الفساد ، وتنفس شهواتهم في جوه الوبى . والذين يجدون فيه سنداً للقيم الزائفة ، التي يستندون هم في وجودهم اليها .. فطبيعي اذن ان يبرزوا للانبياء والدعوات دفاعاً عن وجودهم ، واستبقاء للجو الذي يملكون أن يتنفسوا فيه . وبعض الحشرات يخنق برائحة الأزهار العبقة ولا يستطيع الحياة الا في المقاذر . وبعض الديدان يموت في الماء الطاهر الجاري ولا يستطيع الحياة الا في المستنقع الآسن . وكذلك المجرمون . فطبيعي اذن أن يكونوا اعداء لدعوة الحق ، يستميتون في كفاحها ، وطبيعي أن تنتصر دعوة الحق في النهاية لانها تسير مع خط الحياة ، وتتجه الى الأفق الكريم الوضيء الذي تتصل فيه بالله والذي تبلغ عنده الكمال المقدر لها كما اراده الله . فليصبر من يتق بالله وحكمته ونصره ، ولتمضي الدعوة تغالب وتغلب بوسائل البشر وطرائق البشر ، وليثبت من يثبت على هذا الابتلاء (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) .

٥ - ابتلاء شديد :

والابتلاء ألوان . ابتلاء للصبر ، وابتلاء للشكر ، وابتلاء للأجر ، وابتلاء للتوجيه ، وابتلاء للتأديب ، وابتلاء للتمحيص ، وابتلاء للتقويم (ان في ذلك لآيات وان كنا لمبتلين) . (ويلوكم بالشر والخير فتنة) .. والابتلاء بالشر مفهوم أمره ، ليتكشف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته بربه ، ورجائه في رحمته .. فأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة الى بيان ..

ان الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وان خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر .. ان كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر . ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء

بالخير . كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة .. ويكبحون جماح القوة الهائلة في كيانهم . الجامعة في أوصالهم . كثيرون يصبرون على الفقر والحرمات فلا تنهوى نفوسهم ولا تذلل .

ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان وما يغريان به من متاع ، وما يثيرانه من شهوات واطماع . كثيرون يصبرون على التعذيب والايذاء فلا يجفهم . ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهيبهم . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الاعزاء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء . كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والرحمة . ثم لا يعابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال . وبالاسترخاء الذي يقعد الهمم ويذل الأرواح . ان الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة . ويجند الأعصاب . فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها . أما الرخاء فيرخي الأعصاب ، وينمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة .. لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح حتى اذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء . وذلك شأن البشر الا من عصم الله ، فكانوا ممن قال : فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (عجباً لأمر المؤمن ، ان أمره كله خير . وليس ذاك لأحد الا للمؤمن . ان أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) (رواه مسلم) . . وهم قليل . فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر . والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان .

ان الشدة بعد الرخاء ، والرخاء بعد الشدة هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس وطباع القلوب ، ودرجة الغيش فيها والصفاء ، ودرجة الملح فيها والصبر ، ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط ، ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجحوم ، عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن مؤمنين ومناققين . ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم . وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم ، ويزول عن الصف ذلك الدخيل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التماسق بين أعضائه وأفراده وهم

مختلطون مبهمون . . وتعاقب الشدة والرخاء محك لا يخطئ ، وميزان لا يظلم . والرخاء في هذا كالشدة . . وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ولكنها تراخي بالرخاء وتسل . والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ، ولا تستخفها السراء وتتجه الى الله في الحالين . وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله . وان الله تعالى يربي النفوس بالابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء .

ثم ان القرآن يخاطب الكيونة البشرية . بما يعلم خالقها من تركيبها الخفي . وبما يطلع منها على الظاهر والباطن . وعلى المنحنيات والدروب والمسالك . وهو سبحانه يعلم مواطن الضعف في هذه الكيونة . ويعلم أن الحرص على الأموال وعلى الأولاد من أعرق مواطن الضعف فيها . ومن هنا ينشأ الى حقيقة الابتلاء (واعلموا أننا أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم) انه سبحانه هو الذي وهب الأموال والأولاد . . وعنده وراءهما أجر عظيم لمن يستعلي على فتنة الأموال والأولاد . فلا يقعد أحد اذن عن تكاليف الامانة وتضحيات الجهاد . . كذلك فتنة القوة . . فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يفتنون بالقوة العارضة . التي تحول لهم في الارض ، لأنهم يخشون من هو أقوى . فينفقون قوتهم في طاعته واعلاء كلمته . وهم لا يفتنون بالاموال والأولاد ، ولا يقعدهم ذلك عن الجهاد ، فيوجهون أموالهم وأولادهم في طاعة الله . أما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام (أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة) .

وهناك التفاتة الى الفتنة المستكنة في المتاع المتاح في هذه الارض للكفار والعصاة والمعادين لمنهج الله . وبلغنا الله عز وجل التفاتة لاعطاء هذا المتاع وزنه الصحيح وقيمته الصحيحة ، حتى لا يكون فتنة لأصحابه ، ثم كي لا يكون فتنة للمؤمنين الذين يعانون ما يعانون من أذى (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) وتقلب الذين كفروا في البلاد مظهر من مظاهر النعمة والوجدان . ومن مظاهر المكانة والسلطان . وهو مظهر يحبك في القلوب منه شيء لا محالة . ويحبك منه شيء في قلوب المؤمنين وهم

يُعانون الشظف والحرمان، ويُعانون الازدى والجهد، ويُعانون المطاردة أو الجهاد.. وكلها مشقات وأهوال ، بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون . ويتحيك منه شيء في قلوب الجماهير الغافلة ، وهي ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء ، والباطل وأهله في منجاة بل في مسلاة . ويتحيك منه شيء في قلوب الفضالين المبطلين أنفسهم، فيزيدهم ضللاً وبطراً ولجاجاً في الشر والفساد .

❦ — قيمة الكلمة :

(يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون . كَبُرَ مَقْتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) ان الجهاد هو عملية تمحيص تتم في داخل النفس وفي مكنون الضمير . إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية ، وتسليط الضوء على هذه المكنونات تمهيداً لإخراج الدخول والدغل والأوشاب . وتركها نقيّة واضحة مستقرة على الحق بلا غبش ولا ضباب (ولیمحص الله الذين آمنوا) وكثيراً ما يجهل الانسان نفسه ومخابئها ودروبها ومتحنياتها . وكثيراً ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها . وحقيقة ما استكن فيها من رواسب ، لا تظهر إلا بمثير . وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله سبحانه بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء . يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير . محك الاحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية ..

ولقد يتظن الانسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشخ والحرص .. ثم اذا هو يكشف على ضوء التجربة العملية ، وفي مواجهة الاحداث الواقعية أن في نفسه عَقَابِيل لم تمحص ، وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط .

ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ليعاود المحاولة في سبيلها من جديد على مستوى الضغوط التي تقتضيها طبيعة هذه الدعوة ، وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيلة .. فلا يكفي للانسان أن يقول : أسلمت وأنا على استعداد للموت ، فيبلغ بهذه الكلمة رضوان الله والجنة .. إنما هي التجربة الواقعية والامتحان

العملي ، وإنما هو الجهاد وملاقاة البلاء ، ثم الصبر على تكاليف الجهاد وعلى معاناة البلاء . والله يريد من المؤمنين أن يوازنوا في حسابهم بين وزن الكلمة التي يقولها اللسان ووزن الحقيقة يواجهها في البيان .. فيعلمهم بهذا أن يحسبوا حساباً لكل كلمة يقولها اللسان ووزن الحقيقة يواجهها في العيان . فيعلمهم بهذا أن يحسبوا حساباً لكل كلمة تطلقها ألسنتهم ، ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعي في نفوسهم (أم حسبت أن تدخلوا الجنة ولا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) وبذلك يقدر المؤمنون قيمة الكلمة وقيمة الأمانة وقيمة الوعد في ضوء الواقع الثقيل . ويعلم الله عز وجل أن طريق الجنة ليست الكلمات الطائفة والاماني المرفقة . إنما هو تحقيق الكلمة وتحسين الأمانة والجهاد الحقيقي والصبر على المعاناة .

والله يريد أن يربي الجماعة المسلمة لتتسلم قيادة البشرية .. البشرية بكل ضعفها ونقصها وشهواتها ونزواتها ، وبكل جاهليتها وانحرافها . لذلك يتطلب من الدعاة الثبات على الحق ، وصبر على المعاناة ، ومعرفة بمواطن الضعف ومواطن القوة في النفس البشرية . وخبرة بمواطن الزلل ودواعي الانحراف ووسائل العلاج . ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة وصبر على الشدة بعد الرخاء وطعمها يومئذ لا ذع مريب .. هذا هو الطريق . هذه هي التربية التي يأخذ الله بها حملة دعوته ليعدها للدور العظيم الهائل الشاق .

إن معركة العقيدة ليست ككل معركة . إنها معركة في الميدان ومعركة في الضمير . ولا انتصار في معركة الميدان دون انتصار في معركة الضمير .. إنها معركة لله ، فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له . وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون إليها ، فإن الله لا يمنحهم النصر إلا إذا محصهم ومحضهم للراية التي رفعوها ، كي لا يكون هناك غش ولا دخل ولا تمويه بالراية . ولقد يغلب المبطلون الذين يرفعون راية الباطل صريحة في بعض المعارك لحكمة يعلمها الله .

أما الذين يرفعون راية العقيدة ولا يخلصون لها ، اخلاص التجرد فلا يمنحهم

الله النصر أبداً حتى يتلبههم فيتمحصوا ويتمحصوا .. وهذا ما يريد القرآن أن يحلوه
 صح للجماعة المسلمة في كل زمان وفي كل مكان حين يتلقوا الغزوة المريعة والقرح الاليم
 وح وذلك لمواقفهم المضطربة المتأرجحة . وان هذه العقيدة تعلم أصحابها فيما تعلم ،
 أن ليس لهم في أنفسهم شيء . فهم كلهم لله . وأنهم حين يخرجون للجهاد في
 سبيله يخرجون له ويتحركون له ويقبلون له بلا هدف آخر لذواتهم في هذا الجهاد ،
 وأنهم يسلمون أنفسهم لقدره ، فيتلقون ما يأتيهم به هذا القدر في رضى وفي تسليم
 كائناً هذا القدر ما يكون .. فأما الذين تههم أنفسهم ، وتصبح محور تفكيرهم ،
 وتقديرهم ومحور اهتمامهم وانشغالهم فهؤلاء لم تكتمل في نفوسهم حقيقة الايمان (وطائفة
 قد أهمتهم أنفسهم) . فهناك هاجس يحيش في النفوس التي لم تخلط للعقيدة
 حين تصطدم وتعاني الآلام ، حين ترى الثمن أفدح مما تظن . وان هذه الثمرة
 أشد مرارة مما كانت تتوقع .. لذلك لا بُد من الابتلاء ولا بُد من التمحيص
 (وليستلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم) فليس كالمحنة وللبلاء محك
 يكشف ما في الصدور ، ويصهر ما في القلوب ، فينفي عنها الزيف والرياء ويكشفها
 على حقيقتها بلا طلاء . فهو الابتلاء والاختبار ، وهو التطهير والتصفية للقلوب ..
 وأخيراً .. ان الله يربي النفوس ويصحح تصوراتهم ويعدهم ، فالطريق أمامهم
 طويل . والتجارب أمامهم شاقة والتكاليف عليهم باهظة .. والابتلاء أمر مطرد
 في كل دعوة تنخرط في كتبة الايمان حتى يصبروا على مقتضيات الايمان من
 البلاء والكرب ، والشدة والجراح . فلا تضعف نفوسهم ولا تضعضع قواهم ولا تكلن
 عزائمهم ولا يستكينون ولا يستسلمون .

٧ - من خلال التجربة في القرآن :

ان الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها ، فيجب أن يضعوها
 على محك التجربة ، قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة .. لأن هذه الحماسة البالغة
 ما تلبث أن تنطفئ شعلتها وتهاوى على مراحل الطريق .. والفرق في منتصف
 الطريق ظاهرة بشرية في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الايمانية مبلغاً عالياً من

التدريب .. وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل ، فيحسن الانتفاع فيها بهذه التجربة القرآنية (ألم تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذِ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ ائْتِ بِآيَةٍ لِنُؤْتِيكَ بِهَا مِثْلَ مَا تُؤْتِي الْمَلَائِكَةَ إِنَّا نَنْتَظِرُ) ألم تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذِ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ ائْتِ بِآيَةٍ لِنُؤْتِيكَ بِهَا مِثْلَ مَا تُؤْتِي الْمَلَائِكَةَ إِنَّا نَنْتَظِرُ كُنْزٍ عَلَيْنَا أَوْ يَكُونُ لَهُ مِثْلُ مَا تُؤْتِي الْمَلَائِكَةَ إِنَّا نَنْتَظِرُ أَمْ لَا تُفْقَهُوا قَوْلَ اللَّهِ وَاتَّخَذُوا آلِهَتَهُمُ الْبَشَرِ أَمْ لَمْ يُنْزِلْ اللَّهُ الْفُتُوحَ وَالْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِنَّمَا تُؤْتِيهِمْ الْفُتُوحَ وَالْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِنَّمَا تُؤْتِيهِمْ الْفُتُوحَ وَالْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِنَّمَا تُؤْتِيهِمْ الْفُتُوحَ وَالْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِهِمْ

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول ... فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم . ولم تبق الا قلة متمسكة بعهدا مع نبيها ، وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الجدال حول جدارته بالملك والقيادة ووقع علامة الله باختياره لهم .. ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى ، وضعفوا أمام الامتحان الأول الذي أقامه لهم قائدهم (قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم) فلما جاوزوه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزمهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) ..

منه الا قليلاً منهم) وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية ، فأمام الهول الحي ، أمام كثرة الأعداء وقوتهم تهاوت العزائم وزلزلت القلوب (فلما جاوزه هو والذين آمنوا مئة قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة .. اعتصمت بالله وثقت . وقالت (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وفي ثانيا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة .. تبرز منها خبرة القائد بالنفوس ، وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة وفصله للذين ضعفوا ، وتركهم وراءه .. ثم .. وهذا هو الأهم عدم تخاذله وقد تضاعف جنوده ، تجربة بعد تجربة ، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة ، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الايمان الخالص ووعده الله الصادق للمؤمنين ..

والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير هذه التجربة .. إن القلب الذي ينصل بالله تتغير موازينه وتصوراته لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل . وإلى أصل الأمور كونها وراء الواقع الصغير المحدود . فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر ، كانت ترى من قوتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف ، إنما حكمت حكماً آخر ، فقالت (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) ثم اتجهت لربها تدعوه (ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) .. وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين ، إنما هو في يد الله وحده . فطلبت منه النصر ، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه .. وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقاً وعندما يتحقق في القلب الايمان الصحيح . وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون .. إنها ذخيرة التجربة تطوف بالجماعة المسلمة في شتى المجالات وشتى الاتجاهات وهو يرببها ويعدها للدور العظيم .

الباب الثامن

في الطريق

١ - الضعف :

ان الضعف ليس عذرا بل هو الجريمة. فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفا، وهو يدعو الناس إلى حماه يعتزون به ، والعزة لله ، (فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) والضعفاء هم الضعفاء الذين تنازلوا عن أنخص خصائص الانسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه . وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة ، ودانوا لغير الله من عبده واختاروها على الدينونة لله ، وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعا عن نصيبه في الحرية التي هي ميزته ومناط تكريمه . أو ينزل كارها .

والقوة المادية كائنة ما كانت لا تملك أن تستعبد انسانا يريد الحرية ، ويتمسك بكرامته الآدمية فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد وتؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبس . أما الضمير . أما الروح . أما العقل .. فلا يملك أحد حبسها ولا استدلالها ، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال .

وإن الله يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه ، لأنه عرف الإيمان وذاقه ثم ارتد عنه ايثارا للحياة الدنيا على الآخرة ، فيرميه الله بغضبه وعذابه

العظيم (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون). ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة ، وحساب للربح والخسارة ،

ومتى آمن القلب بالله فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر من مؤثرات هذه الأرض . فلا أرض حساب والعقيدة حساب . ولا يتداخلان . وليست العقيدة هزلاً ، وليست صفقة قابلة للأخذ والرد ، فهي أعلى من هذا وأعز .. ومن ثم كل هذا التغليب في العقوبة والتفطير للجريمة . وقد أبى بعض المسلمين أن يظهر الكفر بلسانهم ، مؤثرين الموت على لفظه باللسان ، كذلك صنت مسية أم ياسر وهي تُطعن بالحربة في موضع العفة حتى تموت ، وكذلك صنع أبوه ياسر .

وقد كان يلال رضوان الله عليه يفعل المشركون به الأفاعيل حتى ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول .. أحد .. أحد .. ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغبط لكم منها لقلتها .. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أنشهد أن محمداً رسول الله فيقول نعم . فيقول أنشهد أني رسول الله فيقول لا أسمع . فلم ينزل يقطعه إرباً إرباً ، وهو ثابت على ذلك . وذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة عبدالله بن حذيفة السهمي - أحد الصحابة رضوان الله عليهم - أنه أسرته الروم . فجاؤوا به الى ملكهم . فقال له تنصّر ، وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي . فقال له لو أعطيتني جميع ما تملك ، وجميع ما تملكه العرب أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما فعلت . فقال اذن أقتلك . فقال أنت وذاك . قال ، فأمر به ، فصلب . وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأنزل . ثم أمر بقدر ، وفي رواية بقرعة من نحاس فأحميت . وجاء بأسير من المسلمين فالتقاء ، وهو ينظر ، فإذا هي عظام

تلوح ، وعرض عليه فأبى . فأمر به أن يلقي فيها . فترفع في البكرة ليلقى فيها ، فبكى . فطمع فيه ودعاه . فقال : انما بكيت لأن نفسي انما هي واحدة تلقى في هذا القدر الساعة ، في الله ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تُعذب هذا العذاب في الله ، وفي رواية : أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً . ثم أرسل اليه بخمر ولحم فحزير فلم يقربه . ثم استدعاه . فقال : ما منعك أن تأكل . فقال : أما أنه قد حُلَّ لي ، ولكن لم أكن لأشمتك في . فقال له الملك : فقبّل رأسي وأنا أطلقك . فقال : تطلق معي جميع أسارى المسلمين . فقال نعم ، فقبّل رأسه . فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حق على كل مسلم أن يقبّل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ . فقام فقبّل رأسه رضي الله عنهما .. ذلك أن العقيدة أمر عظيم لا هوادة فيها ولا ترخص ، ونحن الاحتفاظ بها فادح . ولكنها ترجحه في نفس المؤمن . وعند الله ، وهي أمانة لا يؤتمن عليها إلا من يقبلها بحياته وهانت الحياة . وهناك كل ما فيها من نعيم . أما الضعاف المشوهي الايمان فيغيروهم البريق الخادع القريب من عيونها . من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة وفي التفكير وفي السلوك . من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله ، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه . لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة . فهم ضعفاء . لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ، ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً .. كلا .. ان هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء . انما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم ، وفي قلوبهم ، وفي نخوتهم ..

ان المستضعفين كثرة . والطواغيت قلة . فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة وما الذي يخضعها . انما يخضعها ضعف الروح وسقوط الهمة وقلة النخوة . والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الانسان .

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير . إلا برغبة هذه الجماهير ، فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت . فالارادة هي التي تنقص هذه القطعان .

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة .. وإن الطاغية يتخدع الجماهير الغافلة ، فما يتخدع الطغاة شيء ما يتخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها .. وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطانا . إنما هي الجماهير الغافلة الذلول ، تمطي له ظهرها فيركب ، وتسلم له أعناقها فيجبر ، وتحنى له رؤوسها فيستعلي . وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغي ، والجماهير تفعل هذا متخلوعة من جهة ، وخائفة من جهة أخرى .

وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم . فالطاغية وهو فرد لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين . لو أنها شعرت بإنسانيتها وحريتها ، وكل فرد فيها هو كفاء للطاغية من ناحية القوة . ولكن الطاغية يتخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئا .. وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها وتؤمن به ، وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها حسرا ولا رجسا .. فالضعف جريمة في الإسلام نصيبه النار (فيقول الضعفاء للذين استكبروا : انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) .. ان الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا . لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيو لا وامعات . ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنما تساق . لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار .

لقد منحهم الله الكرامة ، كرامة الإنسانية ، وكرامة التبعة الفردية وكرامة الاختيار والحريية ولكنهم هم تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والملأ والحاشية . لم يقولوا لهم : لا . بل لم يفكروا أن يقولوها بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم ، وما يقودونهم اليه من ضلال .. (انا كنا لكم تبعا) .. وما كان تنازلهم عمناء وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون لهم شفعا عند الله ، فهم في النار ، ساقهم اليها قادتهم . كما كانوا يسوقونهم في الحياة سوق الشاة ، ثم ها هم أولاء يسألون كبراءهم (فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) كما كانوا يؤهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد ، وأنهم يحمونهم من الفساد ، وأنهم بمنعونهم من الشر

والضرر وكيد الأعداء . وعلى العصبية المسلمة التي ترتقي في الأفق السامق أن تستعلي وتعتز بعقيديتها وربها ، فالعزة هي صنو الايمان في القلب المؤمن ، العزة المستمدة من عزته تعالى ، العزة التي لا تهون ولا تنهن ، ولا تنحني ولا تلتين ، ولا ترايل القلب المؤمن في أخرج اللحظات الا أن يتضعضع فيه الايمان ، فاذا استقر الايمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة (والله العزة والرسولة وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) ..

ان العزة كلها لله ، وليس شيء منها عند أحد سواه . وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر في القلوب أن تُبدل المعايير كلها ، وتُبدل الوسائل والخطط أيضا (من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعا) . فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره ، ليطلبها من عند الله . فهو واجدها هناك ، وليس بواجدها عند أحد ولا في أي كنف ، ولا بأي سبب (فان العزة لله جميعا) . انها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية ، وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازن وتبديل الحكم والتقدير . وتعديل النهج والسلوك وتعديل الوسائل والأسباب . ويمكنني أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب لتقف به أمام الدنيا كلها ، عزيزا كريما . ثابتا في وقفته غير مزعزع . عارفا طريقه إلى العزة ، طريقه الذي ليس له هنالك سواه .. انه لن ينحني رأسه لمخلوق متجبر ، ولا لعاصفة طاغية ، ولا لحادث جلل . ولا لوضع ولا لحكم ، ولا لدولة ولا لمصلحة ، ولا لقوة من قوى الأرض جميعا . وعَلام ؟ والعزة لله جميعا .

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس ، حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها عن كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله . حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي . يستعلي بها على شهواته المذلة ورجائيه القاهرة . ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس . متى استعلي على هذه ، فلن يملك أحد وسيلة لاذلاله وإخضاعه ، فانما تذلل الناس شهواتهم ورجائيتهم ومخاوفهم ومطامعهم . ومن استعلي عليها فقد استعلي على كل وضع وعلى كل شيء وعلى كل إنسان . وهذه هي العزة الحقيقية . ذات القوة والاستعلاء والسلطان ، انها

الاستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله . ثم هي خضوع لله وخشوع ، وخشية وتقوى . ومن هذا الخضوع ترتفع الحياة . ومن هذه الخشية لله تصمد لكل ما يسأباه .

٢ - الخوف :

إن العقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها ، ليس لهم من إرب في الدنيا غيرها ، وليس لهم من غاية في حياتهم من سواها . عقيدة يعيشون لها وحدها فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها . ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية لأنفسهم لا يبدلون لها ، ولا يقدمونها فداها .. أنها صورة رائعة هائلة لهذه العقيدة التي تعلن ميلاد القوة الحقيقية الكبيرة في النفوس ، المعلقة بالله . فهي لا تخشى إلا الله ، لأنه رب كل شيء ، ولا تخشى الناس لأن الله رب الناس : (الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .. والشيطان هو الذي يضحك من شأن أوليائه ، ويلبسهم لباس القوة والقدرة . ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول .. وأنهم يملكون النفع والضر ، ليحقق بهم الشر في الأرض والفساد ، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب . فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإفكار ، ولا يفكر أحد في الانتفاض عليهم ودفعهم عن الشر والفساد .. انه الشيطان (انما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وتخافون ان كنتم مؤمنين) .

والشيطان صاحب مصلحة في أن يتنفش الباطل وأن يتضخم الشر ، وأن يتبدى قويا قادرا قاهرا بطاشا جبارا ، لا تقف في وجهه معارضة ولا يصمد له مدافع ولا يقلبه من المعارضين غالب . الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا . فتحت ستار الخوف والرعبة ، وفي ظل الارهاب والبطش يفعل أوليائه في الأرض ما يقر عينه . يقلبون المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، وينشرون الفساد والباطل والضلال . ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير .. دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم ومطاردتهم وطردهم

من مقام القيادة .. بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له ، وجلاء الحق الذي يطمسونه .. والشيطان ماكر خادع غادر يختفي وراء أوليائه . وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته .. ومن هنا يكشفه الله ويوقفه عارياً ، لا يستره ثوب من كبدته ومكره . ويعرف المؤمنين الحقيقة : حقيقة مكره ووسوسته ليكونوا منها على حذر . فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم . فهم وهو . أضعف من أن يخافهم مؤمن بركن إلى ربه ويستند إلى قوته ..

إن القوة الوحيدة التي تخشى وتُخاف : هي القوة التي تملك النفع والضرر . هي قوة الله وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله . وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء . فلا تقف لهم قوة في الأرض . لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان (فلا تخافوهم وتخافون ان كنتم مؤمنين) (فلا تخشوهم واخشون) .. وان القرآن نزل ليضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم .. لقد قرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود هي قوة الله . وان هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الايمان .. فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ، ولو كان مجرداً من كل مظاهر القوة . ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة . ولو ساندته جميع القوى . ومن كانت له قيمة الايمان فله الخير كله . ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً .

﴿ وان الجهاد في سبيل الله لا قرار منهج الله في الأرض وإعلان سلطانه على البشر وتحكيم شريعته في الحياة لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس ، هو صفة العصبية المؤمنة التي يختارها الله ليصنع بها في الأرض ما يريد . وان الحكم بما أنزل الله سيواجه في كل زمان وفي كل أمة معارضة من بعض الناس ، ولن تقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والامتثال . معارضة الكبراء والطفساء ، وأصحاب السلطان الموروث ، ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه . ويرد الألوهية لله خالصة ، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع ، والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله . وستواجه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت . ذلك أن شريعة الله العادلة لن تقي على مصالحهم الظالمة .. وستواجه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال ..

ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها.. وستواجه معارضة جهات شتى ، غير هذه وتملك وتلك ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض.. علم الله سبحانه أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجهات وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة وأن يصمدوا لها ، وأن يحمّلوا تكاليفها في النفس والمال فهو يناديهم (فلا تخشوا الناس واخشون) .. هذا هو الطريق .. يجب أن لا تقف خشية الناس دون تنفيذ لشريعة الله . سواء من الناس أولئك الطغاة الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله ، ويرفضون الإقرار من ثم بتفرد الله سبحانه بالآلوهية ، أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مردوا عليه . أو تلك الجموع المضللة أو المنحرفة أو المنحلة التي تستغل أحكام شريعة الله . وتشغب عليها . يجب أن لا تقف الخشية هؤلاء جميعا ولغيرهم من الناس دون المضي في تحكيم شريعة الله في الحياة . فالله وحده هو الذي يستحق الخشية . والخشية لا تكون إلا لله .. وهناك من تراودهم أطماع الحياة الدنيا ممن يدعون لأنفسهم اسم المسلمين ، وهم يجدون أصحاب السلطان وأصحاب المال وأصحاب الشهوات لا يريدون حكم الله ، فيملقون شهرات هؤلاء جميعا طمعا في عرض الحياة الدنيا ، كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وفي كل مكان .

وهؤلاء بهذا يشتررون بآيات الله ومنهجه ودستوره عرضا حقيرا (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) . وذلك ممن يسكتون على الباطل خوفا منه ، أو يحرفون ما أنزل الله أو يلقون الفتوى المدخولة وذلك مقابل رواتب ووظائف وألقابا ومصالح صغيرة ، يباع بها الدين ، وتشترى بها جهنم عن يقين : . انه ليس أشنع من خيانة المستأمن . وليس أشنع من تفريط المستحفظ . والذين يحملون عنوان (رجال الدين) يخونون ويفرطون ويلبسون . فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، لموافاة أهواء ذوي السلطان على حساب كتاب الله .. فلا بد للدعاة إلى الله أن لا يحسبوا للخلق حسابا فيما يكلفهم الله به من أمور الرسالة ولا يخشون أحدا إلا الله الذي أرسلهم للتبليغ والعمل والتنفيذ (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) ..

فلا بد للدعاة من الجهاد لإقرار منهج الله في الأرض (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) .. فهم يجاهدون في سبيل الله ، لا في سبيل أنفسهم ، ولا في سبيل قومهم ، ولا في سبيل وطنهم ولا في سبيل جنسهم . في سبيل الله لتحقيق منهج الله وتقرير سلطانه وتنفيذ شريعته ، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق وليس لهم في هذا الأمر شيء . وليس لأنفسهم من هذا حظ ، إنما هو لله وفي سبيل الله بلا شريك . وهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . وفيهم الخوف ؟ وفيهم الوقوف عند مألوف الناس ، وعرف الجليل ومتعارف الجاهلية ، وهم يتبعون سنة الله ويعرضون منهج الله في الحياة ؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس . ومن يستمد مدده وعونه من عند الناس . أما من يرجع إلى موازين الله ومقاييسه وقيمه ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمتهم ، وأما من يستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته ، فما يبالي ما يقول الناس ، وما يفعلون . كائنا هؤلاء الناس ما كانوا . وكائنا واقع هؤلاء الناس ما كان . وكائنا حضارة هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون .. اننا نحسب حساباً لما يقول الناس ، ولما يفعل الناس ، ولما يملك الناس ولما يصطلح عليه الناس ، ولما يتخذ الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين .. لأننا نفضل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع اليه في الوزن والقياس والتقويم .. انه منهج الله وشريعته وحكمه ، فهو وحده الحق وكل ما خالفه فهو باطل . ولو كان عرف ملايين الملايين ، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون .. انه ليست قيمة أي وضع أو أي عرف أو أي تقليد أية قيمة .. انه موجود وأنه واقع وأن ملايين البشر يعتقدونه ويعيشون به ، ويتخذونه قاعدة حياتهم . فهذا ميزان لا يعترف به التصور الاسلامي ، إنما قيمة أي وضع وأي عرف وأي تقليد وأي قيمة أن يكون لها أصل في منهج الله الذي منه وحده تستمد القيم والموازين .. ومن هنا تجاهد العصابة المؤمنة في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم . فهذه سمة المؤمنين المختارين الذين لا يخافون أي شيء . فالخوف من الله الاحد ..

وان قلب المؤمنين ينبغي أن يكون راسخاً ثابتاً لا تهزمه في الأرض قوة ، وهو

متوصل بقوة الله الغالب على امره القاهر فوق عباده . وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة وهو يواجه الخطر — فإن هذه الهزة لا يجوز أن تكون هزيمة وفرارا، والآجال بيد الله، فما يجوز أن يولي المؤمن خوفا على الحياة وليس في هذا تكليف للنفس فوق طاقتها . فالمؤمن انسان يواجه عدوه انسانا ، فهما من هذه الناحية يقفان على أرض واحدة ، ثم يمتاز المؤمن بأنه متوصل بالقوة الكبرى التي لا غالب لها ، ثم انه إلى الله إن كان حيا ، وإلى الله إن كسبت له الشهادة . فهو في كل حالة أقوى من خصمه (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) . إن المؤمن رغم كل هذا لا يخشى أحدا من العبيد ، فالمؤمن لا يخشى إلا الله (أتخشونهم ؟ فإله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) . وإن مشاعر المؤمنين لتثور وهي تستجاش بهذه الآيات القرآنية مع وقائعها الرهيبة وآثارها . فأنتم يا دعاة الإسلام ، أنتم ستار قدرته سبحانه وأداة مشيئته (أم حسبتم أن تتركوا ولا يعلم الله الذين جاهلوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون) . ويوجد دائما في الصف الإسلامي فئة تجيد المداورة وتنقل من الأسوار وتتفنن استخدام الأعذار ، وتدور من خلف الجماعة ، وانه لمن مصلحة العصابة المسلمة أن تهتك الأستار فيمتاز المكافحون المخلصون ، ويكشف المداورون .. وهناك الخوف على الأهل .. وهي حقيقة عميقة في الحياة البشرية . فالله يمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملبسات الحياة سواء (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) . وكثيرا ما يكون الأهل دافعا للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم ولو قام المؤمن بواجبه فلقى ما يلقاه المجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير وتضحية الكثير . كما يتعرض هو وأهله للعت . قد يتحمل العنت في نفسه ، ولا يحتمله في زوجه وولده ، فيبخل ويحزن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ، فيكونون عدوا له لأنهم صدوه عن الخير وعوقوه عن تحقيق غاية وجودة الإنساني العليا ، كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعون من النهوض بواجبه اتقاء لما يصيبهم من جرائه أو لأنهم قد يكونون في طريق غير

طريقه ، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله . لذلك اقتضت التحذير من الله لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا والحذر من تسلسل هذه المشاعر وضغط هذه المؤثرات .

٣ - الأسوة :

إن أصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله .. وأنه لهنفي لهم أنو تمليء قلوبهم بالثقة حتى تفيض ، وإن لهم أن ينوكلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أيا كان .. (واتل عليهم نبأ نوح : إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون) .. إن الطاغوت لا يتحمل بقاء الداعية في نظامه ، لأن الداعية ماض في طريقه وهو يقول لهم : نفلدوا ما اعترتم بشأني وما دبرتم (ولا تنظرون) لا تمهلوني . فكل استعادي هو اعتمادي على الله وحده دون سواه .. انه التحدي الصريح الذي لا يقوله القائل الا وهو مالىء يديه من قوته ، واثق كل الوثوق من عدته . فما كانت العدة والقوة ؟ كان معه الإيمان بالله وحده ، ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه . فليس هذا التحدي غرورا . وليس كذلك نهورا وليس انتحارا . انما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوة الهزيلة الفانية التي تتصاعل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

وأصحاب الدعوة إلى الله جديرون أن يقفوا هذه الوقفة دائما . ولن يضرمهم الطاغوت إلا أذى . ابتلاء من الله ، لا عجزا منه سبحانه عن نصرته أوليائه ، ولا تركا لهم ليسلمهم إلى أعدائه . ولكنه الابتلاء الذي يمحص القلوب والصفوف ، ثم تعود الكرة للمؤمنين .. هذه هي سنة الله في الأرض .. فإذا طال طريق على للعصبة المؤمنة مرة . فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق ، وأن تستيقن أن العقابة . والاستخلاف للمؤمنين . وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء وهي ماضية في الطريق . (فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) . وما شك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه ولا امرئ . وهو على بينة من ربه .

ولكن هذا التوجيه الرباني عقب حشد الكفرة والمعاندين في وجه الدعوة، وما كان يخالج نفس الداعية الأعظم من ضيق وتعب ووحشة من جراء تجمد الدعوة وكثرة المعاندين. تحتاج كلها الى التسرية عنه بهذا التوجيه والتشيت.. وما أحوج الدعاة وهم يواجهون مثل تلك الحال في كل مكان، ويتأزر عليهم الصد والاعراض والسخرية والاستهزاء والتعذيب والايذاء والمطاردة بكل صورها المادية والمعنوية. وتتضافر عليهم كل قوى الجاهلية في الأرض من محلية وعالمية. وتسلب عليهم أبشع ألوان الحُرْب وأنكدّها. ثم تدق الطبول وتنصب الرايات لمن يحاربونها..

وما أحوج الدعاة إلى تدبر هذا التوجيه الرباني بهذه الآية الكريمة بكل فقرة فيها. وبكل إشارة وبكل لمحة فيها وكل ايماءة. ما أحوج الداعية الى اليقين: (فلا تلك في مرية منه أنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون). ستجد في نفسك ظلالاً كما وجده الرسل الكرام صلوات الله عليهم وسلامه.

إن الدعاة تقف اليوم بوجههم الجاهلية التي تعترف بوجود الله سبحانه — أو لا تعترف — ولكنها تقيم للناس أرباباً في الأرض يحكمونهم بغير ما أنزل الله، ويشرعون لهم من القيم والتقاليد والأوضاع ما يجعل دينونتهم هذه الأرباب لا لله.. ثم هي الدعوة الإسلامية للناس كافة: أن ينحوا هذه الأرباب الأرضية عن حياتهم وأوضاعهم ومجتمعاتهم وقيمهم وشرائعهم وأن يعودوا الى الله وحده يتخذونه رباً، لا أرباب معه، ويدينون له وحده، فلا يتبعون الا شرعه ونهجه ولا يطيعون إلا أمره ونهيه.. ثم هي بعد هذه وتلك المعركة القاسية بين الشرك والتوحيد وبين الجاهلية والإسلام وبين طلائع البعث الإسلامي وهذه الطواغيت في أرجاء الأرض والأصنام. وإن الدعاة لا بد أن تجد نفسها وموقفها كله في هذا القرآن في مثل هذا الأوان.

يجب على الدعاة أن يتأسوا برسول الله (قال إني أشهد الله وأشهدوا إني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون. إني توكلت على الله ربي وربكم). تقف أمام تلك المواجهة من هود لقومه، وأمام هذا الحسم الكامل وفي تحد سافر، وثقة من ربه..

ان أصحاب الدعوة الى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة أن يقفوا طويلاً أمام هذا المشهد الباهر . رجل واحد ، لم يؤمن معه الا قليل يواجه أعنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم ، وأشد أهل الأرض بطشاً كما قال عنهم الله (واذا بطشتم بطشتم جبارين) فهؤلاء العتاة الجبارون يبطشون بلا رحمة . والذين أبطرتهم النعمة .. هؤلاء هم الذين واجههم هرد عليه السلام هذه المواجهة في شجاعة المؤمن ، واستعلائه وثقته واطمئنائه . وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة وتحداً هم أن يفعلوا ما في وسعهم . ولقد وقف هرد عليه السلام هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه ، فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتستعين المتبطرين ، أعما هم من الدواب ، وهو مستيقن أنه ما من دابة الا ورثه أخذ بناصيتها (ما من دابة الا هو أخذ بناصيتها) .. فقيم يحفل اذن بهؤلاء الدواب ؟ وأن ربه هو الذي استخلفهم في الأرض واعطاهم ما اعطاهم من نعمة ومال وقوة ودين ، وقدرة على التصنيع والتعدين للابتلاء ، لا لمطلق العطاء . وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم ، اذا شاء ولا يضره شيئاً ، ولا يردون له قضاء . فقيم اذن بهوله شيء مما هم فيه ، ورثه هو الذي يعطي ويسلب حين يشاء ، وكيف شاء ..

✱ ان أصحاب الدعوة الى الله لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو ، حتى يملكون أن يقفوا بايمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم . . أمام القوة المادية وقوة الصناعة وقوة المال وقوة العلم البشري وقوة الأنظمة ، والاجهزة والتجارب ، والخبرات . وهم مستيقنون ان ربهم أخذ بناصية كل دابة . وأن الناس كل الناس ، ان هم الا دواب من الدواب ..

لصح هذا هو الطريق وذات يوم لا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة ، فاذا القوم الواحد أمتان مختلفتان . . أمة تدين الله وعده وترفض الدينونة لسواء وأمة تتخذ من دون الله ارباباً وتحاد الله . ويوم تم هذه المفاصلة ، يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه والتدمير على كل أعدائه في صورة من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال .. ففي تاريخ الدعوة الى الله على مدار التاريخ

لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه الا بعد أن فاصل أوليائه أعداءه على أساس العقيدة ، فاختاروا الله وحده . . وكانوا هم حزب الله الذين لا يعتمدون على غيره ، والذين لا يجدون لهم ناصراً سواه .

٤ - النفاق :

ان النفس اذا لم تنجرد لله ، لم تتحرر ابداً من ضغط القيم والأوضاع والضرورات والمصالح والحرص والشح ، ولم ترتفع أبداً على المصالح والمغانم والمطامع والمطامح ، ولم تستشعر أبداً تلك الطلاقة والكرامة والاستعلاء التي يحسها القلب المملوء بالله أمام القيم والأوضاع وأمام الأشخاص والأحداث وأمام القوى الأرضية ، والسلطان وأصحاب السلطان . .

ومن هنا تبذر بذرة النفاق . وما النفاق في حقيقته الا الضعف عن الاصرار على الحق في مواجهة الباطل وهذا الضعف هو ثمرة الخوف والطمع وتعليةهما بغير الله . وثمره التقيد بملايسات الأرض ، ومواضعات الناس في عزلة عن منهج الله للحياة . وان طبيعة المنافقين الأولى حين تلبسهم حسب التوجيه القرآني هي ولاية الكافرين دون المؤمنين (بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ، الذين يتخللون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبغون عندهم العزة . فان العزة لله جميعاً . وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستنهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم اذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) فيكشف الله عز وجل عن سوء التصور لحقيقة القوى . انه إما عبودية لله كلها ، استعلاء وعزة وانطلاق . وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة واغلال . ولن شاء ان يختار . .

وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن . . وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله . وما أحوج ناساً ممن يدعون الاسلام ويتسمون بأسماء المسلمين وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض . أن يتدبروا القرآن . . ان كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين . . والا فان الله غني عن العالمين . وأولى

سبع مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلساً يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهنأ بها ، فيسكت ويتغاضى يسمى ذلك تسامحاً أو يسميه دهاء ، أو يسميه سعة صدر وأفق وإيماناً بحرية الرأي . . وهي ، هي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله وهويومه على نفسه في أول الطريق حياء منه أن يأخذه نفسه متلبساً بالضعف والهوان . . ان الحمية لله ولدين الله وآيات الله ، هي آية الايمان . وما تفر هذه الحمية الا وينهار بعدها كل سد ويتزاح بعدها كل حاجز وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار . وان الحمية لتكبت في أول الأمر عمداً ثم تهمد ، ثم تحمد ثم تموت . فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس ، فلما أن يدفع . واما أن يقاطع المجلس وأهله . فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة ، وهو المعبر بين الكفر والايمان على قنطرة النفاق وان موقف المنافق هو موقف الذبذبة والارححة والاهتزاز وعدم الاستقرار والثبات في أحد الصفتين : الصف المؤمن أو الصف الكافر . . موقف لا يثير الا الاحتقار في نفوس المؤمنين لذلك يرسم الله صورة النفاق (مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً) ان هذا الموقف يوحى بضعف هذه النفوس المرتدة الى حمأة النفاق . . هذا الضعف الذي يجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم ولا على المصارحة برأي وعقيدة وموقف . . انها صورة المنافقين في كل آن . خوف ومداراة . وقلب منحرف . وضمير مدخول . ومظاهر خالية من الروح . وتظاهر بغير ما يكنه الضمير . الضعف عن المواجهة والحين عن المصارحة . سقوط الهمة وضعف العزيمة . . انها أجسام تعجب . لا أناسي تتجاوب . أنهم خشب لا حركة فيها ، ملطوعة بجانب الجدار . فهم الذين يمثلون الخمود الراكد البارد (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) .

. . ولخطورة أمر النفاق كان عمر رضي الله عنه يأتي حذيفة بن اليمان (وهو الصحابي الذي عرفه رسول الله بأسماء المنافقين) . لقد كان عمر يأتي حذيفة ليطمئن منه على نفسه : ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسمه من المنافقين .

وكان حذيفة يقول له : يا عمر لست منهم . ولا يزيد .

(في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) . في قلوبهم آفة . في قلوبهم علة . والمرض ينشيء المرض والانحراف يبدأ يسيراً ثم تنفجر الزاوية في كل خطوة وتزداد .. ان المنافقين والذين في قلوبهم مرض يقفون ليستخرجوا ، والعصبة المسلمة تصارع جحافل الطاغوت وعدتها الاساسية : هذا الدين . وهذه العقيدة الدافعة : وهي الغيرة على ألوهية الله وعلى حرمان الله ، وهي التوكل على الله والثقة بنصره . ان المنافقين في نفوسهم سخرية من هذه العصبة التي تتصدى للخطر ، وتستخف بالخطر ، وفي نفوسهم عجب كذلك ودهشة من اقتحام العصبة المسلمة للمكاره الظاهرة والاضطرار الواضحة . انهم لا يعرفون مبرراً لهذا التهور كما يسمونه ، وللإلقاء بالنفس الى التهلكة . . انهم يحبون الحياة كلها بما فيها الدين والعقيدة صفقة في سوق التجارة . ان كانت ظاهرة الربح اقدموا عليها . فأما اذا كان الخطر فالسلامة أولى . انهم لا يدركون الامور ببصيرة المؤمن ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الايمان . انما في حصى المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائماً . فهي مؤدية الى إحدى الحسنيين : النصر والغلب . أو الشهادة والجنة . ثم إن حساب القوى في نفسه يختلف فهناك الله . . وهذا ما لا يدخل في حساب المنافقين والذين في قلوبهم مرض .

والعصبة المؤمنة والدعاة .. في كل زمان وفي كل مكان مدعون الى ان يزنوا بميزان الايمان والعقيدة وان يتركوا ببصيرة الايمان وان يروا بنور الله وهده . وألا يتعاضوا قوى الطاغوت الظاهرة ، وألا يستهينوا بقوتهم ووزنهم فان الله معهم .

ان العقيدة وطريقها لشاقة بعيدة . تنقصر دونها الحمم الساقطة والعزائم الضعيفة . ان تكاليف العقيدة هو جهد خطر ، تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب الخاوية . ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة (لو كان عرضاً قريباً وسراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة) . . انه لمشهد مكرور في البشرية ترسمه هذه الكلمات الخالدة فكثيرون هم أولئك الذين

يتهاون في الطريق الصاعد الى الآفاق الكريمة . كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ، ويميلون الى عرض تافه أو مطلب رخيص . كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان . فما هي قلة عارضة . انما هي النموذج المكرور : وانهم ليعيشون على حاشية الحياة . وان تحيل اليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب واجتنبوا اداء الثمن الغالي .

فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص . (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم ونفسهم والله عليهم بالمتقين . انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وأرتابت قلوبهم وهم في ريبهم يترددون) ..

﴿ هذه قاعدة الله . فالذين يؤمنون بالله ويعتقدون بيوم الجزاء لا ينتظرون ان يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد ، ولا يتلکأون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح بل يسارعون اليها خدافاً وثباتاً . كما أمرهم الله . طاعة بأمره وقيماً بسمائه وثقة بجزائه وابتغاء لرضاه وانهم ليتطوعون تطوعاً ، فلا يحتاجون الى من يستحثهم فضلاً عن الأذن لهم . انما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلکأون ويتلمسون المعاذير . لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها . يا دعاة الاسلام . ان الطريق الى الله واضحة مستقيمة . فما يتردد ويتلکأ الا الذي لا يعرف الطريق أو الذي يعرفها ويتكبتها اتقاء لمتاعب الطريق . وان اصحاب هذه القلوب الخائرة هم الخطر على مسيرة الدعوة فهم يشيرون الخور والضعف في الصفوف بهمهم الساقطة وقلوبهم المرتابة ، وان هذا الصنف الخطير يخاف من الناس ويحاول ارضاء الناس بسخط الله (والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين) فماذا يكون الناس . وماذا تبلغ قوتهم ؟ ولكن الذي لا يؤمن بالله عادة . ولا يعنوله . ويعنوا لانسان مثله ويخشاه . ان المؤمن لا يخضع الا لله ولا يخشى الا الله . . انه النموذج المكرور الذي يدعي الاسلام ويفرح بالسلامة والراحة . ويحسبون ان السلامة غاية يحرص عليها الرجال (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم ونفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون) .

هؤلاء نموذج لضعف الهمة وطراوة الارادة ، وكثيرون هم الذين يشفقون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الدلية على الخطر العزيز ، وهم يتساقطون اعياء خلف الصفوف الجادة الزاحقة العارفة بتكاليف الدعوات .. ان الكفاح والجهد فطرة في المؤمن ، وانه ألد واجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال . ان الدعوات في حاجة الى طبائع صلبة مستقيمة ثابته مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق ، والصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون ، لا يصمد لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة فيعيثون فيه الخذلان والضعف والاضطراب . هذا هو الطريق الذي رسمه الله تعالى ، وانه لطريق هذه الدعوة ورجاها أبداً . وليعرف الدعوة في كل زمان وفي كل مكان ذلك الطريق . ان للدل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة وان ضريبة الدل لأفدح في كثير من الاحيان . وان بعض النفوس الضعيفة ليخيل اليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا نطاق ، فتختار الدل والمهانة هرباً من هذه التكاليف الثقالة ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة ، مفزعة قلقه ، تخاف من ظلها وتفرق من صداها يحسبون كل صبيحة عليهم ، ولتجدتهم أحرص الناس على حياة . هؤلاء الأذلاء يؤدون أفدح من تكاليف الكرامة ، انهم يؤدون ضريبة الدل كاملة . يؤدونها من نفوسهم ويؤدونها من أقدارهم ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم وكثيراً ما يؤدونها من دماهم وأولادهم وهم لا يشعرون . .

ان المنافقين نموذج من الناس الذين يعجزون عن احتمال تبعه الرأي وتكاليف العقيدة فيقعدون متخلفين عن الكفاح . فلقد أغلق الله فيهم منافذ الشعور والعلم وعطل فيهم أجهزة الاستقبال والادراك بما ارتضوه هم لأنفسهم من الحمول والبلادة والوهم والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركي المتفتح المنطلق الوثاب (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) .

وما يؤثر الانسان السلامة الدلية والراحة البليدة الا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة . وفوق ما فرغت من دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير في واقع الحياة وان بلادة الراحة لتغلق المنافذ والمشاعر وتطبع على

القلوب والعقول ، والحركة دليل الحياة والمحركة في الوقت ذاته للحياة . ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العقل ، وتشد العضل وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التي تنتفض عند الحاجة ، وتدريب الطاقات البشرية على العمل ، وتشحذها للتلبية والاستجابة . . وكل أولئك ألوان من العلم والمعرفة والتفتح يحرمها طلاب الراحة والسلامة الدليلة . . هذا هو الطريق . . (أنهم رجس) . . والقاعدون في الجماعة المكافحة - وهم قادرون على الحركة - الذين يقعدهم ايثار السلامة عن الجهاد . . رجس ودنس ، ما في ذلك من شك ولا ريب ، رجس خبيث يلوث الارواح ودنس قذر يؤدي المشاعر . فالحثة المشتنة في وسط الأحياء تؤدي وتعدي وهم الخاسرون (ومأواهم جهنم بما كانوا يكسبون) . . أنها الخسارة المطبقة بكل ألوانها وأشكالها ومن أصدق من الله حديثاً . . فهؤلاء المبطلون . . وهم معدودون من المسلمين يزاولون عملية التبطلتة كاملة ، ويصررون عليها اصراراً ويجتهدون فيها اجتهداً (وإن منكم من لم يبطلن) . . ها هم أولاء كما يكونون في كل زمان وفي كل مكان . . ها هم أولاء ضعفاء منافقين ، ملتوين ، صفار الاهتمامات أيضاً . لا يعرفون غاية أعلى من صالحهم الشخصي المباشر ، ولا أفقاً أعلى من ذواتهم المحدودة الصغيرة ، فهم يديرون الدنيا كلها على محور واحد . انهم يبطلون ويتلكأون ، ولا يصارحون ، ليمسكوا العصا من وسطها كما يقال . يتخلفون عن المعركة ؛ فان اصاب المجاهدين محنة وابتلوا الابتلاء الذي يصيب المجاهدين في بعض الاحايين يفرح القاعدون ويحسبون ان فرارهم من الجهاد ونجاتهم من الابتلاء نعمة (فان اصابكم مصيبة قال : قد انعم الله علي اذ لم أكن معهم شهيداً) وهكذا يعد المنافق التخلف عن الجهاد نعمة . . أنها نعمة ولكنها عند الذين لا يتعاملون مع الله . عند من لا يدركون لماذا خلقهم الله . ولا يعبدون الله بالطاعة والجهاد لتحقيق منهجه في الحياة .

نعمة عند من لا يتطلعون الى آفاق أعلى من مواطنهم الاقدام في هذه الارض . كالنمال . . نعمة عند من لا يحسون ان البلاء في سبيل الله وفي الجهاد لتحقيق منهج الله واعلاء كلمة الله . هو فضل واختيار من الله يختص به من يشاء من عباده

ليرفعهم في الحياة الدنيا على ضعفهم البشري ، ويطلقهم من إصار الأرض يستشرفون حياة رفيعة يملكونها ولا تملكهم . وإن المؤمن لا يتمنى البلاء ، بل يسأل الله العافية . ولكن إذا نذب للجهاد خرج غير متثاقل خرج يسأل الله إحدى الحسينين . النصر أو الشهادة . وكلاهما فضل من الله وكلاهما فوز عظيم . فيقسم الله له الشهادة فإذا هوراض بما قسم الله وفرح بمقام الشهادة عند الله . ويقسم له الغنيمة والاياب فيشكر الله على فضله ويفرح بنصر الله لا لمجرد النجاة .

إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك ، والاسلام عقيدة متحركة لا تطبق السلبية . فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقيق مدلولها في الخارج ، ولترجم نفسها الى حركة وعمل في عالم الواقع .

ومنهج الاسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها الى حركة سلوكية واقعية وتحويل هذه الحركة الى عادة ثابتة أو قانون ، مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة لتبقى حية متصلة بالنبوع الاصيل . وبعض الناس يخبر الله عن حالهم (ويقولون : آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا . أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) . .

وهؤلاء يقولون بأفواههم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا . . يقولونها بأفواههم . ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم فيقولون ناكصين يكذبون بالاعمال ما قالوه باللسان (وما أولئك بالمؤمنين) . فالمؤمنين تصدق أفعالهم أقوالهم . . والإيمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ثم يدعها ويمضي . انما هو تكيف في النفس . وانطباع في القلب ، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير . . إن هذا الفريق الذي كان يدعي الإيمان ثم يسلك هذا السلوك الملتوي انما هو نموذج للمنافقين في كل زمان ومكان . المنافقين الذين يتظاهرون بالاسلام . ولكنهم لا يرضون أن تقضى بينهم شريعة الله ، ولا أن يحكم فيهم قانونه . فاذا دعوا الى حكم الله

ورسوله أبوا واعرضوا وانتحلوا المعاذير (وما أولئك بالمؤمنين) فما يستقيم الايمان
واباء حكم الله ورسوله . الا أن تكون لهم مصلحة في أن يتحاكموا الى شريعة الله
وقانونه . .

٢٤٧ ان الرضى بحكم الله ورسوله هو دليل الايمان الحق . وهو المظهر الذي ينبأ
عن استقرار حقيقة الايمان في القلب . وما يرفض حكم الله ورسوله الا سيء الادب ،
معتم ، لم يتأدب بأدب الاسلام ولم يشرق قلبه بنور الايمان . وان حكم الله هو
الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف ، لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً ،
وكل خلقه أمامه سواء . .

٢٤٨ ان الفرد حين يشرع ويحكم لا بد أن يلاحظ في التشريع حماية نفسه وحماية
مصلحه . وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة ، وحين تشرع دولة لدولة أو كتلة
من الدول لكتلة . فأما حين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة . انما هي العدالة
المطلقة التي لا يطبقها تشريع غير تشريع الله . ولا يحققها حكم غير حكمه . .
والمؤمن يسمع ويطيع بلا تردد ولا جدال ولا انحراف . السمع والطاعة المستمدتان
من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عده الهوى . النابعان من التسليم
المطلق لله واهب الحياة المتصرف فيها كيف يشاء . ومن الاطمئنان الى ان ما
يشاؤه الله للناس خير مما يشاؤونه لأنفسهم ، فانه الذي خلق أعلم بمن خلق . .

والنفاق هو صورة للجبن والانزواء والفرع والهلح في ساعة الشدة . والانتفاش
وسلاطة اللسان عند الرخاء ، والشح على الخير والضعف ببذل أي جهد . والجزع
والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد . . هؤلاء هم الذين يتعدون عن الجهاد
ويدعون غيرهم الى القعود : (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم
الينا . ولا يأتون البأس الا قليلاً . أشح عليكم . فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون
اليك تدور اعينهم كالذي يغشى عليه من الموت . فاذا ذهب الخوف سلقوكم
بالسنة حداد . أشح على الخير . أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم) . .

هذه هي صورتهم الشاخصة دائماً صورة شاخصة ، واضحة الملامح ، متحركة

الجوارح ، وهي تثير السخرية من هذا الصنف الحيوان ، الذي تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف باللبين المرتعش الخوار .. (فإذا ذهب الخوف .. سلقوكم بالسنة حداد) فخرجوا من الجحور ، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش ، وانتفخت أوداجهم بالعظمة . وادعوا بغير حياء ما شاء لهم الادعاء من البلاء في القتال ، والفضل في الأعمال والشجاعة والاستبسال . وهذا النموذج من الناس لا يتقطع في جبل ولا في قبيل . فهو موجود دائماً . وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك امن ورخاء . وهو جبان صامت مترو ، حيثما كانت هناك شدة وخوف ، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير ، لا يناهض منهم الا سلاطة اللسان .

ان النفاق هو صورة تمثل التقلب بين اتجاهين . وان الانسان لا يملك أن يتجه الى أكثر من أفق واحد ، ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد . والا نفاق واضطربت خطاه (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) . وما دام لا يملك الا قلباً واحداً . فلا بد أن يتجه الى إله واحد ، وان يتبع منهجاً واحداً . وان يدع ما عداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات . قلب واحد . فلا بد له من منهج واحد يسير عليه . ولا بد له من تصور كلي واحد للحياة والوجود يستمد منه . ولا بد له من ميزان واحد يزن به القيم ، ويقوم به الأحداث والأشياء . والا تمزق وتفرق ، ونفاق والتوى ، ولم يستقم على اتجاه . ولا يمكن للانسان ان يستمد أخلاقه وآدابه من معين ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر . ويستمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين ثالث . ويستمد فنونه وتصوراته من معين رابع . فهذا الخليط لا يكون انساناً له قلب . انما يكون مزقاً وإشلاء ليس لها قوام . وصاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقاً ، ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها ، صغيراً كان هذا أم كبيراً . لا يملك أن يقول كلمة أو يتحرك حركة أو ينوي نية أو يتصور تصوراً ، غير محكوم في هذا كله بعقيدته . ان كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه . لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد ، يخضع لنا موسى واحد ، ويستمد من تصور واحد ، ويزن بميزان واحد . لا يملك صاحب العقيدة أن يقول عن فعل فعله : فعلت كذا

بصفتي الشخصية ، وفعلت كذا بصفتي الاسلامية . انه شخص واحد له قلب واحد ، تغمره عقيدة واحدة . وله تصور واحد للحياة وميزان واحد للقيم . وتصوره المستمد من عقيدته متلبس بكل ما يصدر عنه في كل حالة من حالاته على السواء . وبهذا القلب الواحد يعيش فرداً ، ويعيش في الأسرة ويعيش في الجماعة ويعيش في الدولة ويعيش في العالم . ويعيش سرّاً وعلانية ، ويعيش عاملاً وصاحب عمل ، ويعيش حاكماً ومحكوماً . ويعيش في السراء والضراء . فلا تتبدل موازينه ولا تتبدل قيمه . وما تتبدل تصوراته (ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه) ومن ثم فهو منهج واحد . وطريق واحد . ووحى واحد . واتجاه واحد . وهو استسلام لله وحده . فالقلب الواحد لا يعبد الهين ، ولا يخدم سيدين . ولا ينهج نهجين . ولا يتجه اتجاهين . وما يفعل شيئاً من هذا الا أن يتمزق ويتمزق ويتحول الى اشلاء وركام .

٥ - حقيقة القوى :

ان حقيقة القوى في هذا الوجود كثيراً ما يغفل الناس عنها أحياناً ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل في أيديهم جميع الموازين . ولا يعرفون الى أين يتوجهون . ماذا يأخذون وماذا يدعون؟ وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان بحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض فيتوجهون اليها بمخاوفهم ورغائبهم ، ويخشونها ويفزعون منها ، ويرضونها ليكفوا عن أنفسهم إذاها ، أو يضمّنوا لأنفسهم حماها وتخدعهم قوة المال ويحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة ، ويتقدمون اليها في رغب ورهب ، ويسعون للحصول عليها ليستطيروا بها . ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون وتخدعهم قوة العلم بحسبونها أصل القوة وأصل المال وأصل سائر القوى التي يصول بها من يملكها ويحول ، ويتقدمون اليها خاشعين كأنهم عباد في المحاريب ، وتخدعهم هذه القوى الظاهرة تخدعهم في أيدي الأفراد وفي أيدي الجماعات ، وفي أيدي الدول فيلورون حولها ويتهاوتون عليها كما يدور الفراش على المصباح ، وكما يتهافت الفراش على النار . وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة وتملكها ، وتمنحها وتوجهها

وتسخرها كما تريد حيثما تريد ، وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي الأفراد أو الجماعات أو الدول كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت ، حشرة ضعيفة رخوة واهنة ، لا حماية لها من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن . وليس هناك إلا حماية الله والا حماه ، والا وكنه القوى الركين : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبست العنكبوت لو كانوا يعلمون) . .

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عني القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة ، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها ، وداسست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض . ودكت بها المعازل والحصون . لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس ، وعمرت كل قلب ، واختلطت بالدم وجرت معه في العروق ، ولم تعد كلمة تقال باللسان ، ولا قضية تحتاج إلى جدل ، بل بدئية مستقرة في النفس لا يحول غيرها في حس ولا خيال . .

قوة الله وحدها هي القوة .. ولولاية الله وحدها هي الولاية ، وما عداها فهو واه ضئيل هزيل مهما علا واستطال ، ومهما تجبر وطمع ومهما ملك من وسائل البطش والظغيان والتنكيل . أنها العنكبوت .. وما تملك من قوى ، ليست سوى خيوط العنكبوت (وإن أوهن البيوت لبست العنكبوت لو كانوا يعلمون) . . وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى وللأغراء والإغواء بلخديرون أن يققوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة ، وهم يواجهون القوى المختلفة ، هذه تضربهم وتحاول أن تسحقهم ، وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم .. وكلها خيوط العنكبوت في حساب الله وفي حساب العقيدة حين تصبح العقيدة وحين تعرف حقيقة القوى ، وتحس حقيقة القوى ، وتحسن التقييم والتقدير ..

فمن كان الله معه فلا شيء أذن ضده ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود في الحقيقة له ولا أثر (وقال الله إني معكم) ومن كان الله معه فلا يضل طريقه ، فان معية الله سبحانه تهديه كما أنها تكفيه ، ومن كان الله معه فلا يقلق ولن يشقى ، فان قربه من الله يطمئنه ويسعده . ولكن معية الله لم يجعلها

الله سبحانه جزافاً ولا محاباة ، ولا كرامة شخصية ، منقطعة عن أسبابها وشروطها .
ان معية الله لمن يعبدونه حق العباداة ويحملون منهجه ونظامه ويحملون دعوته . .

كذلك يجب على الدعاة أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الكبيرة ، تلك الحقيقة التي يؤكدها القرآن دائماً ويقررها . وهي حقيقة الصلة بين الله وبين المؤمنين . انها الصلة بين الانسان وبين القوة الكبرى . انه سبحانه يجعل صفه صفهم ، وأمرهم أمره . وشأنهم شأنه . يضمهم سبحانه اليه ويأخذهم في كنفه ويجعل عدوهم عدوه . وما يوجه اليهم من مكر موجهاً اليه سبحانه (يجادلون الله والذين آمنوا) وهذا هو التفضل العلوي الكبير ، التفضل الذي يرفع مقام المؤمنين وحقيقتهم الى هذا المستوى السامق ، والذي يوحى بأن حقيقة الايمان في هذا الوجود هي أكبر وأكرم الحقائق . والذي يسكب في قلب المؤمن طمأنينة لا حد لها ، وهو يرى الله جل شأنه يجعل قضيتهم هي قضيته ، ومعركتهم هي معركته ، وعدوهم هو عدوه . ويأخذهم في صفه ويرفعهم الى جواره الكريم .

فماذا يكون العبيد ، وكيدهم وخداعهم وأذاهم الصغير ، ولقد كانت العصبية المسلمة الأولى تجدد الله ، فتجدد القوة الكبرى ، كانوا يجدون صفاته في نفوسهم ، كانوا يجدونها رطبة بالحياة الحقيقية ، كانوا يحسون ان الله يسمع لهم وهو قريب منهم ، وانه معني بأمرهم عناية مباشرة ، وأن شكواهم ونجواهم تصل اليه بلا وساطة ، ولا يهملها ولا يكلها الى سواه . ومن ثم كانوا يعيشون في أنس وبرهم ، في كنفه ، في جواره ، في عطفه ، في رعايته ، ويجدون هذا كله في نفوسهم حياً واقعاً ، وليس معنى ولا فكرة ولا مجرد تمثيل وتقريب (انه سميع قريب) وهكذا يصور القرآن الحقيقة الواقعة . حقيقة المعركة بين الايمان والكفر . وبين الحق والباطل ، وبين الدعاة الى الله الواحد ، والطغاة الذين يستكبرون ، في الأرض بغير الحق .

فالمعركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية وميادنها أوسع من الأرض كلها ،
أن الوجود كله يقف مؤمناً بربه مسلماً مستسلماً ، ويشد منه الذين كفروا يجادلون

في آيات الله وحدهم دون سائر هذا الكون الكبير . ونعلم كذلك نهاية المعركة غير المتكافئة بين صف الحق الطويل الضخم ، وشرذمة الباطل القليلة الضئيلة الهزيلة مهما يكن ثقلها في البلاد ، ومهما يكن مظهرها من القوة والسيطرة والمتاع . هذه الحقيقة يرسمها الله لتستقر في القلوب ، وليعرفها على وجه خاص أولئك الذين يحملون دعوة الحق والايمان في كل زمان ومكان . فلا تتعاضد قوى الباطل الظاهرة في فترة محدودة من الزمان ، ورقعة محدودة من المكان فهذه ليسب الحقيقة . إنما الحقيقة التي يصورها كتاب الله : وتنطق بها كلمة الله وهو أصدق القائلين وهو العزيز العليم .

٢٤ - التوكل على الله :

ان التوكل على الله حقيقة دائمة يطلقها الرسل عليهم الصلاة والسلام (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، لا يلتفت قلبه الى سواه ، ولا يرجع عوناً الا منه ، ولا يرتكن الا الى حماه . ويواجه المؤمنون الطغيان بالايمان ، او يواجهون الأذى بالثبات (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سُبُلنا) أنها كلمة المؤمن المطمئن الى موقفه وطريقه ، المائيء يديه من وليه وناصره . المؤمن أن الله الذي يهدي السبيل لا بد أن يبصر ويعين .

والقلب الذي يحس أن يد الله سبحانه تقرد خطاه وتهديه السبيل هو قلب موصول بالله ، لا يخطيء الشعور بوجوده سبحانه وألوهيته القاهرة المسيطرة . وهو شعور لا مجال معه للتردد في المضي في الطريق ، أياً كانت العقبات في الطريق ، وأياً كانت قوى الطاغوت التي تتربص في هذا الطريق . وهذه الحقيقة - حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله وبين بديهية التوكل عليه - لا تستشعرها الا القلوب التي تزاوُل الحركة فعلاً في مواجهة طاغوت الجاهلية ، والتي تستشعر في أعماقها يد الله سبحانه وهي تفتح لها كوى النور ، فتبصر الآفاق المشرقة وتستروح انسام الايمان والمعرفة . وتحس الأنس والقربى .

وحينئذ لا تحفل بما يتوعدّها به طواغيت الارض ، ولا تملك أن تستجيب

للاغراء ولا للتهديد . وهي تحتقرطواغيت الأرض وما في أيديهم من وسائل البطش والتشكيل . وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد . فلنصبر ولا نترحزح ، ولا نضعف ولا نراجع ، ولا نهن ولا نزعزع ، ولا نشك ولا نفرط ولا نحيد (ولنصبرن على ما أذيتمونا) .

﴿ وان منطق الايمان الصحيح في بساطته وقوته كما هو في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما ينبغي أن يكون في قلب كل مؤمن برسالة ، وكل قائم بدعوة . . هو هذا البيان (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالدين من دونه) فهذا البيان هو الدستور الذي يغني ويكفي . ويكشف الطريق الواصل الثابت المستقيم . فمن ذا يخيف وماذا يخيف اذا كان الله معه . واذا كان هو قد اتخذ مقام العبودية . وقام بحق هذا المقام ؟ ومن ذا الذي يشك في كفاية الله لعبده وهو القوي القاهر فوق عباده . . انها قضية الخوف ، بسيطة واضحة لا تحتاج الى جدل ولا كد ذهن . . انه الله ومن هم دون الله . وحين يكون هذا هو الموقف لا يبقى هنالك شك ولا يكون هناك اشتباه . فاذا تقرر هذا . فما الذي يخشاه داعية الى الله ؟ ما الذي يخشاه وما الذي يرجوه ؟ وما الذي يقلقه أو يخيفه أو يصدده عن طريقه . انه متى استقرت هذه الحقيقة في قلب مؤمن فقد انتهى الامر بالنسبة اليه . وقد انقطع الجدل ، وانقطع الأمل . الا في جناب الله سبحانه فهو كاف عبده ، وعليه يتوكل وحده (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) ..

وان الذين يجدون في قلوبهم الانكال على أحد غير الله أو على سبب . يجب أن يبحثوا ابتداء في قلوبهم عن الايمان بالله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون) . عليه وحده كما يفيد بناء العبارة . لا يشركون معه أحداً يستعينون به ويتوكلون عليه أو كما عقب عليها الإمام ابن كثير في التفسير : (أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون الا اياه . ولا يلوذون الا بجنابه ، ولا يطلبون الخوائج الا منه ، ولا يرغبون الا اليه . ويعلمون انه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . . وانه المتصرف في الملك . لا شريك له ، ولا

معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، ولهذا قال سعيد بن جبير ؛ التوكل على الله جماع الايمان) .

وهذا هو اخلاص الاعتقاد بوحداية الله ، واخلاص العبادة له دون سواه ، فما يمكن أن يجتمع في قلب واحد ، توحيد الله ، والتوكل على أحد معه سبحانه . وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الاسباب فالمؤمن يتخذ الاسباب من باب الايمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها . ولكنه لا يجعل الاسباب هي التي تنشيء النتائج فيتكل عليها . ان الذي ينشيء النتائج - كما ينشيء الاسباب - هو قدر الله ، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن . . اتخاذ السبب عبادة بالطاعة ، وتحقيق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه الا الله وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للاسباب والتعلق بها ، وفي الوقت ذاته يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها .

وعلى الداعية أن يعلن عقيدته الناصعة في تولي الله وحده (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعون . وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) . إنها كلمة صاحب الدعوة في وجه الجاهلية . ولقد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أمره ربه ونحى بها المشركين في زمانه وآلهمهم المدعاة (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) .

لقد قذف في وجوههم ووجوه آلهم المدعاة بهذا التحدي وقال لهم الا يألوا جهداً في جمع كيدهم وكيد آلهم بلا امهال ولا انظار . قالها في لهجة الواثق المطمئن الى السند الذي يرتكن اليه ويحتني به من كيدهم جميعاً (ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) . . فاعلن بها عمن اليه يرتكن . انه يرتكن الى الله الذي نزل الكتاب . فدل بتتريه على ارادته سبحانه في أن يواجه رسوله الناس بالحق الذي فيه . كما قدر أن يعلي هذا الحق على باطل المبطلين . وان يحمي عباده الصالحين الذين يبلغونه ويحملونه ويشقون فيه . وانها لكلمة صاحب الدعوة الى الله

بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل مكان وفي كل زمان (قل ادعوا شركاءكم
ثم كيدون فلا تنظرون) (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) .
انه لا بد لصاحب الدعوة الى الله ان يتجرد من أستاذ الأرض ، وان يستهين
كذلك بأستاذ الأرض . انها في ذاتها واهية ، واهنة ، مهما بدت قوة قادرة
(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا
ذبياباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب
والمطلوب) (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذ بيتاً وان
أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون) . .

وصاحب الدعوة الى الله يرتكن الى الله . فما هذه الأولياء والأستاذ الأخرى
اذن ؟ وما تساوي في حسنه ؟ حتى لو قدرت على أذاه ؟ انما تقدر على أذاه بأذن
ربه الذي يتولاه . لا عجزاً من ربه عن حمايته من أذاها — سبحانه وتعالى —
ولا تخلياً منه سبحانه عن نصره أوليائه . ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية
والنحيمص والتدريب . واستدراجاً لعباده الطالحين للاعذار والامهال والكيد
المتين . لقد كان ابو بكر رضي الله عنه يردد والمشركون يتناولونه بالأذى ويضربون
وجهه الكريم بالنعال المخصوصة يحرفونها إلى عينيه ووجهه حتى تركوه وما يعرف
له فم من عين ، كان يردد طوال هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلت
الأرض بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (رب ما أحلمك .. رب ما أحلمك ..
رب ما أحلمك) كان يعرف في قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه .
لقد كان واثقاً أن ربه لا يعجز عن التدمير على اعدائه ، كما كان واثقاً أن ربه
لا يتخلى عن أوليائه . .

لقد كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول وقد تناوله المشركون بالأذى
لأنه أسمعهم القرآن في ناديتهم الى جوار الكعبة حتى تركوه وهو يرتج لا يصلب قامته .
كان يقول بعد هذا الأذى المنكر الفاجر الذي ناله (والله ما كانوا أهون علي منهم
حينذاك) . كان يعرف أنهم يجادون الله سبحانه ، وكان يستيقن أن الذي يحاد
الله مغلوب حين على الله . فينبغي أن يكون مهيناً عند أولياء الله . ولقد كان عبدالله

بن مضعون رضي الله عنه يقول وقد خرج من جوار عتبة بن ربيعة المشرك لأنه لم يستسغ لنفسه أن يحتج بجوار مشرك فيكف عنه الأذى . واخوان له في الله يؤذون في سبيل الله — وقد تجمع عليه المشركون بعد خروجه من جوار عتبة — فأذوه حتى خسروا عينه . كان يقول لعتبة وهو يراه في هذه الحال ، قيدوه أن يعود الى جواره لأننا في جوار من هو أعز منك) . وكان يرد على عتبة اذ قال له (يا ابن أخي لقد كانت عينك في غنى عما أصابها . . يقول (لا والله . وللأخرى أحق لما يصلحها في سبيل الله) . . كان يعلم أن جوار ربه أعز من جوار العبيد ، وكان يستيقن أن ربه لا يتخلى عنه ، ولو تركه يؤذى في سبيله هذا الأذى لترفع نفسه الى هذا الإفق العجيب (لا والله . وللأخرى أحق لما يصلحها في سبيل الله) . .

هذه نماذج من ذلك الجليل السامق الذي تربى بالقرآن في حجر محمد صلى الله عليه وسلم ، في ظلال ذلك التوجيه الرباني الكريم (قل ادعوا شركاءكم ثم كيّدون فلا تنظرون . ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) . ثم ماذا كان بعد هذا الأذى الذي احتملوه من كيد المشركين وهذا الاعتصام بالله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ؟ كان ما يعرفه التاريخ . كانت الغلبة والعزة والتمكين . لأولياء الله . وكانت الهزيمة والهوان والدثور للطواغيت الذين قتلهم الصالحون . وكانت التبعية ممن بقي منهم ممن شرح الله صدره للإسلام لهؤلاء السابقين . الذين احتملوا الأذى بثقة في الله لا ترزعزع ، وبعزيمة في الله لا تلين .

ان صاحب الدعوة الى الله في كل زمان وفي كل مكان لن يبلغ شيئاً الا بمثل هذه الثقة . والا بمثل هذه العزيمة ، والا بمثل ذلك اليقين (ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) ومهما أسفر الباطل عن غشمه وأطلق على الدعاة تهديده وبتى في وجه كلمة الحق الهادئة ، وعربد في التعبير والتفكير . . ينبغي على الدعاة أن يمحضوا في الطريق وان يحملوا الواجب المنقضى على عاتقهم .

٧ — الاستسلام لقدر الله —

ان حقيقة الموت لقاسية رهيبة ، فهي التي تواجه كل حي فلا يملك لها رداً .

ولا يملك لها أحد ممن حوله دفعا. وهي تتكرر في كل لحظة ويواجهها الكبار والصغار والاعنياء والفقراء . والأقوياء والضعاف . ويقف الجميع منها موقفاً واحداً. لا حيلة ولا وسيلة . ولا قوة ولا شفاعة . ولا دفع ولا تأجيل (فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . . مما يوحي بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئاً . ولا مفر من الاستسلام لها . والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا . انه مشهد الموت الذي ينتهي اليه كل حي . يمضي في طريقه لا يتوقف ولا يتلثث ولا يستجيب لصرخة ملهوف . ولا لرغبة راغب . ولا لخوف خائف . الموت الذي يصرع الجبابرة بنفس السهولة التي يصرع بها الأقزام . ويقهر بها المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء . . .

والمنهج الإلهي يريد أن يصحح التصور عن الموت والحياة وأسبابهما الظاهرة وحقيقتيهما المضمرة . ورد الأمر فيهما إلى القدرة المدبرة . والاطمئنان إلى قدرة الله فيهما والمضي في حمل التكليف والواجبات دون هلع ولا جزع . فالمقدر كائن . والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف . ان الحذر من الموت لا يجدي (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) ان الحذر لا يجدي ، وان الفرع والطلع لا يزيدان حياة ، ولا يمدان أجلاً . ولا يردان قضاء . وان الله هو أهاب الحياة وهو آخذ الحياة . والموت حتم لا مهرب منه : وهذه ثمرة من اللغات القرآنية تقرر في الاخلاص حقيقة ينساها الناس وهي تلاحقهم أينما كانوا فهذه الحياة إلى انتهاء (قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم تم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) . .

لانه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس : حقيقة أن الحياة في هذه الأرض محدودة بأجل ثم تأتي نهايتها حتماً . يموت الصالحون ويموت الظالمون . يموت المجاهدون ويموت القاعدون .

يموت المستعلون بالمعقيدة ويموت المستدلون للعبيد . يموت الشجعان الذين يأبون الضيم ويموت الخبيثاء الحريصون على الحياة بأي ثمن . يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والاهداف العالية ، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص .

الكل يموت (كل نفس ذائقة الموت) كل نفس تذوق هذه الجرعة ، وتفارق هذه الحياة ، لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة من الكأس الدائرة على الجميع . انما الفارق في شيء آخر . الفارق في قيمة أخرى ، الفارق في المصير الاخير (انما توفون أجوركم يوم القيامة) (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) . والموت حتم في موعده المقرر . ولا علاقة له بالحرب والسلام . ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد ، أو قلة حصانته (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) . ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال في سبيل الله اذن . ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن موعده .

فلا معنى اذن لحضية الناس في القتال أو غير القتال انه ليس معنى هذا ألا يأخذ الانسان حذره وحيطته وكل ما في طوقه من استعداد واهبة ووقاية والله يقول (خذوا حذركم) ولكن هذا كله وتعليق الموت والأجل به شيء آخر . ان أخذ الحذر واستكمال العدة أمر يجب أن يطاع وله حكمته الظاهرة والخفية ووراءه تدبير الله . .

وان التصور الصحيح للعلاقة بين الموت والأجل المضروب رغم كل استعداد واحتياط امر آخر يجب أن يطاع وله حكمته الظاهرة والخفية ووراءه تدبير الله ، توازن واعتدال . وتناسق بين جميع الأطراف . هذا هو الاسلام وهذا هو منهج التربية الاسلامي .. فقدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر ، يدفعها في الطريق المرسوم وينتهي بها الى النهاية المحتومة ، والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه في موعده لا يستقدم لحظة ولا يستأخر (قل لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل) ولن ينفع الفرار في دفع القدر المحتوم عن قار . فان فروا فانهم ملاقوا حتفهم المكتوب في موعده القريب . وكل موعده في الدنيا قريب وكل متاع فيها قليل . ولا عاصم من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته ، سواء أراد بهم سوءاً أو أراد بهم رحمة . ولا مولى لهم ولا نصير من دون الله يحميهم ويمنعهم من قدر

الله . فالاستسلام الاستسلام والطاعة والطاعة والوفاء الوفاء بالعهد مع الله في السراء والضراء ويرجع الأمر إليه والتوكل الكامل عليه ثم يفعل الله ما يشاء ..

وان البشرية الى فناء والعقيدة الى بقاء .. والدعوة هي أكبر من الداعية وأبقى من الداعية . فدعاتها يحيئون ويذهبون وتبقى هي على مرّ الأجيال والقرون . ويبقى أتباعها موصولون بمصدرها الأول . فيجب على كل الدعاة أن يستمروا في جهادهم حتى يلاقوا الله عز وجل في أجلهم الذي رسمه الله لهم (وما كان لنفس أن تموت الا بأذن الله كتاباً مؤجلاً)

وان لكل نفس كتاباً مؤجلاً الى اجل مرسوم . ولئن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل .. فالخوف والحرص والحرف لا تطيل أجلاً ، والشجاعة والثبات والاقدام والوفاء لا تقصر عمراً .. فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء . والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد .. هذا هو الطريق .. بهذا الوضوح .. لتستقر حقيقة الأمل في النفس فتترك الاشتغال به ولا تجعله في الحساب وهي تفكر في الاداء والوفاء . بالالتزامات والتكاليف الإيمانية ، وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع . وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته في صبر وطمأنينة وتوكل على الله الذي يملك الآجال وحده . (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) .

ان هناك أجلاً مكتوباً لا يستقدم ولا يستأخروا هناك مضجعاً مقسوماً لا بد أن يجيء اليه صاحبه فيضطجع فيه .. والله عز وجل يريد أن يكشف الفارق الأسامي في تصور صاحب العقيدة وتصور المحروم منها للسنن التي تسير عليها الحياة كلها وأحداثها : سرائرها وضراؤها . ان صاحب العقيدة مدرك لسنن الله ، متعرف الى مشيئة الله مطمئن الى قدر الله . انه يعلم أنه لن يصيبه الا ما كتب الله له ، وان ما أصابه لم يكن ليخطئه وان ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، ومن ثم لا يتلقى الضراء بالخرع ولا يتلقى السراء بالزهو ولا تطير نفسه لهذه او تلك . ولا يتحسر على أنه لم يصنع كذا ليتقي كذا أو ليستجلب كذا بعد وقوع الأمر

وانتهائه . وانما صاحب العقيدة كل ما يقع له يتلقاه بالرضى والطمأنينة والتسليم
موقناً أنه وقع وفقاً لقدرة الله وتديره وحكمته . وانه لم يكن بد أن يقع كما وقع .
ولو أنه هو قدّم أسبابه بفعله . توازن بين العمل والتسليم والايجابية والتوكل . يستقيم
عليه الخطو ويستريح عليه الضمير فأما الذي يفرغ قلبه من العقيدة في الله على هذه
النسبة المستقيمة فهو أبداً مستطار ، أبداً في قلق . في (لو) و(لولا) و(بالتيت) و(أسفاه) .
والله يحذر المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان في تربية لهم أن لا يكونوا كالمؤمنين كفروا
أولئك الذين تصيبهم الخسرات كلما مات لهم قريب في ثياب المعركة ر يا أيها
الذين آمنوا لا تكونوا كالمؤمنين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الأرض أو
كانوا غزى . لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا . يقول الانسان لفساد تصوره
لحقيقة ما يجري في الكون ولحقيقة القوة الفاعلة في كل ما يجري . فهو لا يرى
الا الأسباب الظاهرة والملابسات السطحية بسبب انقطاعه عن الله ، والله بيده
اعطاء الحياة وبيده استرداد ما أعطى في المرعد المضروب والأجل المرسوم سواء
كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم أو في ميادين الكفاح التي تتطلب العقيدة (والله
يحيي ويميت) لذلك يجب أن تستقر في القلوب حقيقة الموت والحياة وحقيقة قدر الله ،
وبذلك تطمئن القلوب الى ما كان من ابتلاء جرى به القدر . والى ما وراء القدر
من حكمة ، وما وراء الابتلاء من جزاء ..

ان الموت يصيب المجاهد والقاعد والشجاع والجهان . ولا يردده حرص ولا
حذر ، ولا يؤجله جبن ولا قعود . والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء . وهذا
الواقع هو الذي يبين القرآن فيفضح النفوس المريضة بالتناق حين يقول المنافقون
للمؤمنين : (لو أطاعونا ما قتلوا . قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين)
وبذلك تستريح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتة . فيجب أن نكون
مستسلمين لله . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم . . وتنفيذ . الاستسلام الواعي
المتقن . القاصد المريد . العارف بما يفعل . المطمئن بما يكون . راضياً هادئاً
مستبشراً . لا تتلجلج النفس في تحقيق ارادة الله عند أول اشارة واول توجيه .
ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئاً . ثم لتعرف ان ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ،

ولا أن يؤذيها بالبلاء . انما يريد أن تأتيه طائفة ملبية . وافية مؤدية . مستسلمة لا تقدم بين يديه ولا تتألى عليه . .

✽ ويجب على المسلم أن يستسلم لله . . استسلاماً مطلقاً مع احسان العمل والسلوك . الاستسلام بكامل معناه . والطمأنينة لقدر الله ، والانصياع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة والاسترواح للرعاية والرضى الوجداني . رضى السكون والارتياح (ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) العروة التي لا تنقطع . ولا تهين ولا تحون ممسكاً بها في سراء أو ضراء . ولا يضل من يشد عليها في الطريق الوعر واللبلة المظلمة بين العواصف والأنواء . وهذه العروة الوثقى هي الصلة الوثيقة الثابتة المطمئنة في قلب المؤمن المستسلم لربه . هي الطمأنينة الى كل ما يأتي به قدر الله في رضى وفي ثقة وفي قبول . طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينة ورابطة جأشها في مواجهة الاحداث من هنا ومن هناك .

ان الرحلة طويلة وشاقة وحافلة بالأخطار . وخطر المتاع فيها والوجدان ليس أصغر ولا أقل من خطر الحرمان فيها والشقاء . والعروة الوثقى هي عروة الاسلام لله . والاستسلام والاحسان (والى الله عاقبة الأمور) واليه المرجع والمصير . فخير أن يستسلم الانسان اليه منذ البداية وأن يسلك الطريق على ثقة وهدى ونور . . وان القلوب الخائرة لتبث الضعف والخور في الصفوف . والنفوس الخائنة خطر ، ذلك بأنهم يأخذون بظواهر الأمور ويحسبون البلاء شراً في كل حال .

والمسلم الصادق يبذل جهده ويقدم ولا يخشى ، اعتقاداً بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله ، وان الله ناصر له ومعين (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) .

٨ - توازن في الطريق :

هناك مقوم من مقومات العقيدة قد استقر في قلوب تلك الجماعة الأولى من المسلمين استقراراً حقيقياً . واستيقنته انفسهم وتكيفت به مشاعرهم (وما كان

لؤمن ولا لمؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن
يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) . .

هذا المقوم يتلخص في أنه ليس لهم في أنفسهم شيء وليس لهم من أمرهم شيء .
انما هم وما ملكت ايديهم الله . يصرفهم كيف يشاء ويختار لهم ما يريد . . وان هم
الا بعض هذا الوجود الذي يسير وفق التاموس العام . وخالق هذا الوجود ومدبره
يحركهم مع حركة الوجود العام ، ويقسم لهم دورهم في رواية الوجود الكبيرة . ويقرر
حركاتهم على مسرح الوجود العظيم . وليس لهم أن يختاروا الدور الذي يقومون
به . لأنهم لا يعرفون الرواية كاملة ، وليس لهم أن يختاروا الحركة التي يحبونها لأن
ما يحبونه قد لا يستقيم مع الدور الذي نخصص لهم . وهم ليسوا اصحاب الرواية
ولا المسرح . وان هم الا اجراء ، لهم أجرهم على العمل ، وليس لهم ولا عليهم
في النتيجة . عندئذ اسلموا انفسهم حقيقة لله . اسلموها بكل ما فيها ، فلم يعد لهم
منها شيء . وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله ، واستقامت حركاتهم
مع دورته العامة ، وساروا في فلکهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم في أفلاكها .
لا تحاول أن تخرج عنها ، ولا أن تسرع أو تبطئ في دورتها المتناسقة مع حركة
الوجود كله . وعندئذ رضى نفوسهم بكل ما يأتي به قدر الله لشعورهم الباطن
الواصل بأن قدر الله هو الذي يصرف كل شيء ، وكل أحد ، وكل حادث ، وكل
حالة . واستقبلوا قدر الله فيهم بالمعرفة المدركة المريحة الواثقة المطمئنة . . وشيئاً
فشيئاً لم يعودوا يحسون بالمفاجأة لقدرة الله حين يصيبهم ولا بالخزع الذي يعالج
بالتجمل ، أو بالألم الذي يعالج بالصبر . انما عادوا يستقبلون قدر الله استقبال
العارف المنتظر ، المرتقب لأمر مألوف في حسه ، معروف في ضميره : ولا يثير
مفاجأة ولا رجفة ولا غرابة . ومن ثم لم يعودوا يستعجلون دورة الفلك ليقتضوا أمراً
هم يريدون قضائه . ولم يعودوا يستبطنون الاحداث لأن لهم أرباً يستعجلون تحقيقه ،
ولو كان هذا الأرب هو نصر دعوتهم وتمكينها . انما ساروا في طريقهم مع قدر الله
ينتهي بهم الى حيث ينتهي وهم راضون مبستروحوون ، يبذلون ما يملكون من أرواح
وجهود وأموال في غير عجلة ولا ضيق ، وفي غير منّ ولا غرور ، وفي غير حسرة
ولا أسف . انه الاستسلام المطلق ليد الله نقود خطاهم ، وتصرف حركاتهم ،

وهم مطمئنون للبد التي تقودهم ، شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين . سائرون معها في بساطة ويسر ولين . وهم مع هذا يعملون ما يقدرون عليه . ويبذلون ما يملكون كله ولا يضيعون وقتاً ولا جهداً ، ولا يركون حيلة ولا وسيلة . ثم لا يتكفون ما لا يطبقون ، ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص ، ومن ضعف وقوة ، ولا يدعون ما لا يجدونه في أنفسهم من مشاعر وطاقات ، ولا يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ولا أن يقولوا غير ما يفعلون .

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله والعمل الجاهد بكل ما في الطاقة ، والوقوف المطمئن عندما يستطيعون . هذا التوازن هو السمة التي طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها ، وهي التي أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التي تنوء بالجبال . واستقرار ذلك المقوم الأول في أعماق الضمائر هو الذي كفّل لتلك الجماعة الأولى تحقيق تلك الخوارق التي حققتها في حياتها الخاصة وفي حياة المجتمع الإنساني اذ ذاك . وهو الذي جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الافلاك وخطوات الزمان ، ولا تحكّ بها أو تصطدم ، فتتوق أو تبطل نتيجة الاحتكاك والاصطدام . وهو الذي بارك تلك الجهود ، فاذا هي ثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم في فترة قصيرة من الزمان . ولقد كان ذلك التحول في نفوسهم بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود وفق قدر الله المصروف لهذا الوجود .

ولن يؤتى الجهد كامل ثماره الا حين يستقيم القلب على هدى الله بمعناه ، وتستقيم حركة الفرد مع دورة الوجود . ويطمئن الضمير الى قدر الله الشامل ، الذي لا يكون في الوجود أمر الا وفق مقتضاه وهكذا يقرر الله تبارك وتعالى في قوله (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة الا اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) يقرر الكلية الاساسية في منهج الاسلام .

٩ - حقيقة الايمان :

للايمان حقيقة لا بد أن يجدها الانسان في نفسه ، وانه ليس الايمان دعوى ، ولا كلمات لسان وهو ليس بالتسني ، فلا بد للايمان من صورة عملية واقعية

يتجلى فيها ليثبت وجوده ، ويترجم عن حقيقته وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل^(١)) . ان حقيقة الايمان يجب أن ينظر اليها بالجد الواجب . فلا تتميع حتى تصبح كلمة بقولها اللسان ، ومن ورأها واقع يشهد شهادة ظاهرة بعكس ما يقوله اللسان . (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

ان المنهج الاسلامي منهج عقيدة ، وعمل يصدق العقيدة . فمحك الصدق هو العمل يراه الله ورسوله والمؤمنون . . ان الاسلام منهج حياة واقعية لا تكفي فيه المشاعر والنوايا ما لم تتحول الى حركة واقعية . ولنية الطيبة دلالتها من الايمان فلها مكانها . ولكنها هي بذاتها ليست مناط الحكم والخزاء . انما النية تحسب مع العمل فتحدد قيمة العمل . وهذا معنى الحديث (انما الاعمال بالنيات) . . الأعمال لا مجرد النيات . .

ان طبيعة هذه العقيدة تقتضي ألا يظل الايمان في القلب حقيقة مجردة راكدة معطلة مكنونة ، انما هو حقيقة حية ، فاعلة متحركة ما تكاد تستقر في القلب ويتم تمامها حتى تتحرك لتحقيق ذاتها في العمل والحركة والسلوك ولترجم عن طبيعتها بالآثار البارزة في عالم الواقع المثبتة عما هو كائن في عالم الضمير والايمان تصديق القلب بالله وبرسوله . التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب . . التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يترعزع ولا يضطرب ، ولا تهيجس فيه الهواجس ، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) . الايمان الذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله . فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الايمان واطمأن اليه وثبت عليه . لا بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب . في واقع الحياة . في دنيا الناس . يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الايمان وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة .

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس .

ولا يطبق الصبر على المفارقة بين الصورة الايمانية في حسه ، والصورة الواقعية من حوله ، لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة . ومن هنا هذا الانطلاق الى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن . يريد به أن يحقق الصورة الوضعية التي في قلبه ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس . والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الايماني ، وواقعه العملي ، وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الايماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف . . فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله حتى تثني هذه الجاهلية الى التصور الايماني والحياة الايمانية (أولئك هم الصادقون) . . الصادقون في عقيدتهم حين يقولون إنهم مؤمنون . فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب ، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة ، فالإيمان لا يتحقق ، والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون . إن طبيعة هذه العقيدة تقتضي ألا يظل الإيمان في القلب حقيقة مجردة راكدة معطلة مكنونة . .

وان النفس المؤمنة لتضطرم في الحياة بشدائد تزلزل ، وتوازل ترزعزع . فهي تثبت فلا تضطرب ، وثق فلا ترتاب وتظل مستقيمة موصولة . . لذلك كثيراً ما ينبه الله القلوب المؤمنة الى مزالق الطريق . واخطار الرحلة لتعزم امرها وتحسب وتستقيم ولا ترتاب عندما يدهم الأفق ويظلم الجو وتناوحها العواصف والرياح . . فالإيمان قوة دافعة وطاقة مجمعة . فما تكاد تكون حقيقة تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل ولتحقق ذاتها في الواقع ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة ، كما أنها تتسولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها وتدفعها في الطريق . ذلك سر قوة العقيدة في النفس ، وسر قوة النفس في العقيدة . سر تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض ، وما تزال كل يوم تصنعها . الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم الى يوم وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة الى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفنى ، وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان ، وقوى المال ، وقوى الحديد والنار . فإذا هي كلها تنهزم أمام

العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن . وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً . ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح ، والينبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف .

١٠ - أعلام في طريق الايمان :

حين يبلغ الايمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلق ، يصدع بالحق في وجه الباطل بقوة وصرامة وفي استقامة لا عرج فيها ، ولا التواء ، ولا لبس فيها ولا غموض مهما كان الباطل منتفشا (إنا آمنة بربنا) ..

وهنا يعلن الطاغوت ذلك التوعد الوحشي الفظيع (فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين) .. إنه التعذيب والتشويه والتشكيل .. وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق ، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان .. وعدة الباطل في وجه الحق الصريح .. ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الايمان ، تستعلي على قوة الأرض ، وتستهيئ بيأس الطغاة وتنصر فيها العقيدة على الحياة ، وتحترق الفناء الزائل الى جوار الخلود المقيم . إنها لا تقف لتسأل . ماذا ستأخذ وماذا ستدفع ؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع ؟ وماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقي في الطريق من صعاب بأشراك وتضحيات ؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك ، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق .. (قالوا إننا الى ربنا منقلبون . وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) .. انه الايمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع ، كما أنه لا يخضع أو يخنع . الايمان الذي يطمئن الى النهاية فيرضاها ويستيقن من الرجعة الى ربه فيطمئن الى جواره .. والذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت .. وأنها معركة العقيدة في الصميم . لا يدهن ولا يناور .. ولا يرجو الصفح والعفو من عدو ، لن يقبل منه الا ترك العقيدة . لأنه انما يحاربه ويطارده على العقيدة (وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) ..

والذي يعرف أين يتجه في المعركة ، وإلى من يتجه ، لا يطلب من خصمه السلامة والعافية . إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاء على الإسلام ..
سبح ويقف الطغيان عاجزا أمام الايمان : وأمام الوعي وأمام الاطمئنان .. يقف الطغيان عاجزا أمام القلوب التي خيل اليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب . ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام . فإذا هي مستعصية عليه ، لأنها من أمر الله . وماذا يملك الطغيان اذا رغبت القلوب في جوار الله ؟ وماذا يملك الجيوش اذا اعتصمت القلوب بالله ؟ وماذا يملك السلطان اذا رغبت القلوب عما يملك السلطان .. انه موقف حاسم في تاريخ البشرية بانتصار العقيدة على الحياة ، وانتصار العزيمة على الألم . وانتصار الانسان على الشيطان . انه موقف حاسم في تاريخ البشرية ، باعلان ميلاد الحرية الحقيقية . فما الحرية الا الاستعلاء بالعقيدة على جيوش المتجبرين وضغيان الطغاة . والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استدلال القلوب والأرواح . متى عجزت القوة المادية عن استدلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب .

وان الحق اذا مس القلوب يحولها تحويلا ، فاذا هزة عنيفة ترج رجاء وتحض خضا حتى تصل الى أعماق النفوس وقرارة القلوب فتزيل عنها ركام الضلال وتجعلها صافية حية خاشعة للحق عامرة بالايمان في لحظات قصار . والحماقة التي يرتكبها كل طاغية حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة فلا تخرج من قلب أو ضمير . وانها لكلمة فرعون الطاغية المتجبر (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصليكنم أجمعين) ..

فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور ..

انها كلمة القلب الذي وجد الله . فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان . القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل بالطغيان . القلب الذي يرجو لآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير .. (قالوا لا ضمير لنا إلى ربنا منقلبون) لا ضمير في تقطيع الأيدي والأرجل ، لا ضمير في التصلب والعذاب ، لا ضمير في الموت والاستشهاد .. لا ضمير لنا إلى ربنا منقلبون ، وليكن في هذه الأرض

ما يكون .. يا الله .. يا لروعة الايمان إذ يشرق في الضمائر ، واذ يفيض على الارواح ،
واذ يسكب الطمأنينة في النفوس ، واذ يرتفع بسلالة الطين الى أعلى عليين . واذ يملأ
القلوب بالغنى والدخىر والوفى فاذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد .

وانه لموقف حاسم في تاريخ البشرية باعلان إفلاس المادية فهذه القلة التي
كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز ، وتمنى بالقرب من السلطان .. هي ذاتها
التي تستعلي على فرعون .. وتستهن بالتهديد والوعيد ، وتقبل صابرة محتسبة على التنكيل
والنصلب . وما تغير في حياتها شيء .. وما تغير من حولها شيء .. في عالم المادة —
اتما وقعت اللمسة الخفية التي تسلك الكوكب المفرد في الدورة الكبرى . وتجمع الذرة
التامة الى المحور الثابت . وتصل الفرد الفاني بقوة الأزل والأبد وقعت اللمسة التي
تحول الابرة فيلتقط القلب ايقاعات القدرة ، ويتسمع الضمير أصدااء الهداية
وتتلقى البصيرة اشراقات النور .. وقعت اللمسة التي لا تنتظر أي تغير في الواقع
المادي ، ولكنها هي تُغير الواقع المادي ، وترفع الانسان في عالم الواقع إلى الآفاق
التي لم يكن يطمح اليها الخيال .

ان لمسة الايمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنولفرعون ، وتعد القريبى منه
مغنا يتسابق اليه المتسابقون . فاذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة ، وترخص ملكه
وزخرفه وجاهه وسلطانه (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات والذي فطرنا) فهي
علينا أعز وهو جل شأنه أكبر وأعلى (فاقض ما أنت قاض) ودونك ما تملكه لنا في
الأرض (انما تقضي هذه الحياة الدنيا) فسلطانك مقيد بها ، وما لك من سلطان
علينا في غيرها . وما أقصر الحياة الدنيا ، وما أهون الحياة الدنيا ، وما تملكه لنا من
عذاب أبسر أن يخشاه قلب يتصل بالله ، ويأمل في الحياة الخالدة أبدا (إنا آتينا
بربنا ..) وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهته بكلمة الايمان
القوية . وباستعلاء الايمان الواثق . وبتحذير الايمان الناصح ، وبرجاء الايمان العميق ..
ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية اعلانا لحرية القلب البشري باستعلائه على
قيود الأرض ، وسلطان الأرض ، وعلى الطمع في الثوبة والخوف من السلطان . وما
يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الاعلان الا في ظلال الايمان . انه مشهد انتصار
الحق والايمان في واقع الحياة المشهود بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة .

الباب التاسع

الحياة

١ - حرية الاعتقاد :

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الانسان التي يثبت له بها وصف انسان . فالذي يسلب انسانا حرية الاعتقاد ، انما يسلبه انسانيته ابتداء .. ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة ، والأمن من الأذى والفتنة . والا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة .. لذلك ان الله تبارك وتعالى يوضح طريق المؤمنين وهم يحملون هذا التصور . ويقومون بهذه الدعوة وينهضون بواجب القيادة للبشرية الضالة الضائعة : « لا اكراه في الدين . قد تبين الرشد من الغي » .

ان قضية العقيدة كما جاء بها هذا الدين قضية اقتناع بعد البيان والادراك . وليست قضية إكراه وخصب وإجبار .. ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته . يخاطب العقل المفكر ولبداهة الناطقة ، ويخاطب الوجدان المنفعل ، كما يخاطب الفطرة المسكنة . يخاطب الكيان البشري كله والإدراك البشري بكل جوانبه ، وفي غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجىء مشاهدتها إلحاء إلى الإذعان . ولكن وعيه لا يتدبرها ، وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي والإدراك .. وإذا كان هذا الدين لا يواجه الحس البشري بالخارقة المادية القاهرة ، فهو من باب أولى لا يواجه بالقوة والاكراه ليعتق هذا الدين تحت تأثير

التهديد أو مزاوله الضغط القاهر ، والإكراه بلا بيان ولا إقناع ولا اقتناع .. وهكذا أعلن الاسلام هذا المبدأ العظيم الكبير ، وفي هذا المبدأ بتجلى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره. وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد ، وتحمله تبعه عمله وحساب نفسه . وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني . التحرر الذي تنكره على الإنسان في القرن العشرين مذاهب معتسفة ونظم مذلة لا تسمح لهذا الكائن الذي كرمه الله باختياره لعقيدته – أن ينطوي ضميره على تصور للحياة ونظمها غير ما تملبه عليه الدولة بشئ أجهزتها التوجيهية ، وما تملبه عليه بعد ذلك بقوانينها وأوضاعها . فاما أن يعتنق مذهب الدولة – وهو يحرمه من الايمان بالله للكون يصرف هذا الكون – واما أن يتعرض للموت بشئ الوسائل والأسباب ... والاسلام هو أرقى تصور للوجود والحياة وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مرء ، هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين ، وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين .. فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المعتسفة وهي تفرض فرضا بسلطان الدولة ، ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة .. ويجب أن نضع هذه القاعدة الكبرى التي يقرها الإسلام (لا إكراه في الدين) نضع هذه القاعدة إلى جوار فرضية الجهاد في الإسلام ، والمواقع التي خاضها الإسلام . وقوله تبارك وتعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) ..

إن بعض المفرضين من أعداء الإسلام يرمونه بالتناقض فيزعمون أنه فرض بالسيف في الوقت الذي قرر فيه : أن لا إكراه في الدين .. أما بعضهم الآخر فيتظاهر بأنه يدفع عن الإسلام هذه التهمة ، وهو يحاول في خبث أن يخمد في حس المسلم روح الجهاد ، ويهون من شأن هذه الأداة في تاريخ الإسلام وفي قيامه وانتشاره . ويوحى إلى المسلمين بطريق ملتوية ناعمة مأكرة أن لا ضرورة اليوم أو غدا للاستعانة بهذه الأداة .

وذلك كله في صورة من يدفع التهمة الجارحة عن الاسلام . وهؤلاء وهؤلاء كلاهما من المستشرقين الذين يعملون في حقل واحد في حرب الاسلام وتخريف منهجه ،

وقتل إيماءاته الموحية في حسن المسلمين ، كي يأمنوا انبعاث هذه الروح الذي لم يقفوا له مرة في ميدان . والذين أمتوا واطمأنوا منذ أن خدروهم وكبلوه بشئ الوسائل ، وكالوا له الضربات الوحشية الساحقة في كل مكان . وألقوا في خلد المسلمين أن الحرب بين الاستعمار وبين وطنهم ليست حرب عقيدة أبدا تقتضي الجهاد . إنما هي فقط حرب أسواق وخامات ومراكز وقواعد . ومن ثم فلا داعي للجهاد .

لقد انتفضي الاسلام السيف وناضل وجاهد في تاريخه الطويل لا ليكره أحدا على الإسلام ، ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد . جاهد الاسلام أولا : ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم وقرر ذلك المبدأ العظيم (والفتنة أشد من القتل) فاعتبر الاعتداء على العقيدة والأيذاء بسببها وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها . فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم . وإذا كان المؤمن مأذونا في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله ، فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه . . وقد كان المسلمون يسامون الفتنة عن عقيدتهم ويؤذون ، ولم يكن لهم بُد أن يدفعوا هذه الفتنة عن أعز ما يملكون . يسامون الفتنة عن عقيدتهم . ويؤذون فيها في مواطن من الأرض شئ .

وقد شهدت الأندلس من بشاعة التعذيب الوحشي والتقتيل الجماعي لفتنة المسلمين عن دينهم ما ترك أسبانيا اليوم ولا ظل فيها للإسلام . كما شهد بيت المقدس وما حوله بشاعة الهجمات الصليبية التي لم تكن موجهة إلا للعقيدة والإجهاز عليها والتي خاضها المسلمون في هذه المنطقة تحت لواء العقيدة وحدها فانتصروا فيها وحرموا هذه البقعة من مصير الأندلس الأليم . . وما يزال المسلمون اليوم يسامون الفتنة في أرجاء المناطق الشيوعية والوثنية والصهيونية والمسيحية في أنحاء من الأرض شئ . وما يزال الجهاد مفروضا عليهم لرد الفتنة ان كانوا حقا مسلمين .

وجاهد الاسلام ثانيا : لتقرير حرية الدعوة — بعد تقرير حرية العقيدة — فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة ، وبأرقى نظام لتطوير الحياة . جاء

بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها ويبلغه إلى أسماعها وقلوبها . فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر . ولا إكراه في الدين .

ولكن ينبغي قبل أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة ، كما جاء من عند الله للناس كافة . وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا ويقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا . ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضا . فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظاما عادلا يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعوة . . وما يزال هذا الهدف قائما وما يزال الجهاد مفروضا على المسلمين ليلغوه ان كانوا مسلمين .

وجاهد الإسلام ثالثا : ليقم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال ، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها . فليس هناك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس ، وتستلهم عن طريق التشريع . إنما هناك رب واحد للناس جميعا هو الذي يشرع لهم على السواء . وإلى وحده يتجهون بالطاعة والخضوع كما يتجهون إليه وحده بالآيمان والعبادة سواء . فلا طاعة في هذا النظام لبشر إلا أن يكون منفذا لشريعة الله ، موكلا في حياة البشر . فلا يجوز أن يزاوله إنسان فيدعي لنفسه مقام الألوهية وهو واحد من العبيد . وهذه هي قاعدة النظام لرباني الذي جاء به الإسلام ، على هذه القاعدة يقوم نظام أخلاقي نظيف تكفل فيه الحرية لكل إنسان حتى لمن لا يعتنق عقيدة الإسلام ، وتضمن فيه حرمان كل أحد حتى الذين لا يعتنقون الإسلام . وتحفظ فيه حقوق كل مواطن في الوطن الإسلامي أيا كانت عقيدته . ولا يكره فيه أحد على اعتناق عقيدة الإسلام ولا إكراه فيه على الدين إنما هو البلاغ . جاهد الإسلام ليقم هذا النظام الرفيع في الأرض ويقرره ويحميه ، وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الباغية التي تقوم على عبودية البشر للبشر ، والتي يدعي فيها العبيد مقام الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية بغير حق . ولم يكن بد أن تقاومه تلك النظم الباغية في الأرض وكلها وتناصبه

العداء .. ولم يكن بُد أن يمسحها الإسلام سحفاً ليعلن نظامه الرفيع في الأرض . ثم يدع الناس في ظله أحراراً في عقائدهم الخاصة . لا يلزمهم الا بالطاعة لشرائعه الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والدولية . أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار وأما أحوالهم الشخصية فهم فيها أحرار يزاولونها وفق عقائدهم ، والإسلام يقوم عليهم بحميتهم ويحمي حريتهم في العقيدة ويكفل لهم حقوقهم ويصون لهم حرمتهم في حدود ذلك النظام .

وما يزال هذا الجهاد لإقامة هذا النظام الرفيع مفروضاً على المسلمين (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) فلا تكون هناك ألوهية للعبيد في الأرض ولا دينونة لغير الله .. لم يحمل الإسلام السيف إذن ليكره الناس على اعتناقه عقيدة . ولم ينتشر بالسيف على هذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه . إنما جاهد ليقيم نظاماً آمناً يأمن في ظله أصحاب العقائد جميعاً في إطاره خاضعين له وإن لم يعتنقوا عقيدته .. وكانت قوة الإسلام ضرورية لوجوده وانتشاره وأطمئنان أهله على عقيدتهم ، وأطمئنان من يريدون اعتناقه على أنفسهم .. وإقامة هذا النظام الصالح وحمانيته . ولم يكن الجهاد أداة قليلة الأهمية ، ولا معدومة الضرورة في حاضره ومستقبله كما يريد أخبث أعدائه أن يوحيوا للمسلمين .

لا بد للإسلام من نظام ولا بد للإسلام من قوة ، ولا بد للإسلام من جهاد فهذه طبيعته التي لا يقوم بدونها إسلام يعيش ويقود (لا إكراه في الدين) نعم ولكن (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) .. وهذا هو قوام الأمر في نظر الإسلام . وهكذا ينبغي أن يعرف المسلمون حقيقة دينهم وحقيقة تاريخهم ، فلا يقفوا بدينهم موقف المتهم الذي يحاول الدفاع إنما يقفون به دائماً موقف المظلم الوائق المستعلي على تصورات الأرض جميعاً وعلى نظم الأرض جميعاً وعلى مذاهب الأرض جميعاً ولا يشخروا بمن يتظاهر بالدفاع عن دينهم بتجريد في حسهم من حقه في الجهاد لتأمين أهله ، والجهاد لكسر شوكة الباطل المعتدي ، والجهاد لتمنيع البشرية كلها بالخير الذي جاء به ، والذي لا ينبغي أحد على البشرية جنابة من

أبحرهما منه ، ويحول بينهما وبينه . فهذا هو أعدى عدااء البشرية الذي ينبغي للبشرية أن تطارده لو رشدت وعقلت . وإلى أن ترشد البشرية وتعقل يجب أن يطارده المؤمنون الذين اختارهم الله وحباهم بنعمة الايمان ، فذلك واجبهم لأنفسهم ولل البشرية كلها وهم مطالبون بهذا الواجب أمام الله .

٢ - فريضة شاقة :

إن القتال في سبيل الله فريضة شاقة ولكنها فريضة واجبة الاداء .. واجبة الاداء لأن فيها خيرا كثيرا للفرد المسلم وللجماعة المسلمة ولل البشرية كلها وللحق والخير والصلاح . والإسلام يحسب حساب الفطرة فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ولا يهون أمرها ولا ينكر على النفس البشرية احساسها الفطري بكرهيتها وثقلها .

فالإسلام لا يماري الفطرة ولا يصادمها ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التي ليس إلى إنكارها من سبيل .. ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر ويسلط عليه نورا جليدا .. انه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كرهه المذاق ، ولكن وراءه حكمة تهون مشقته وتسبغ مرارته ، وتحقق به خيرا مخبوءا قد لا يراه النظر الإنساني القصير .. عند يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمور ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التي تراه منها . نافذة تهب منها ريح رحيمة عندما تحيط الكروب بالنفس وتشتق عليها الأمور .. انه من يلزمي فعل وراء المكروه خيرا ووراء المحبوب شرا . ان العلم بالغايات البعيدة المطلع على العواقب المستورة هو الذي يعلم وحده حيث لا يعلم الناس شيئا من الحقيقة . وعندما تنسم تلك النسمة الرحيمة على النفس البشرية تهون المشقة وتتفتح منافذ الرجاء ويستروح القلب في الهجرة ويبتح إلى الطاعة في يقين وفي رضا . هكذا يواجه الإسلام الفطرة ، لا منكرا عليها ما يطوف من المشاعر الطبيعية ، ولا مريدا لها على الأمر الصعب بمجرد التكليف . ولكن مربيا لها على الطاعة ومفسحا لها بالرجاء لتبذل الذي هو أدنى في سبيل الذي هو خير . وترتفع على ذاتها منطوعة لا بحجرة : ولتحس بالعطف الالهي الذي يعرف مواضع ضعفها ، ويعرف بمشقة ما كتب عليها ، ويحذو لها بالتسامي والتطلع والرجاء ..

وهكذا يربي الإسلام الفطرة فلا تمل التكليف ولا تجزع عند الصدمة الأولى ،
ولا تخور عند المشقة البادية ، ولا تخجل وتهاوى عند انكشاف ضعفها أمام
الشدة ، ولكن تثبت وهي تعلم أن الله يعذرها ويمدها بعونه ويقويها وتصمم على
المضي في وجه المحنة . فقد يكمن فيها الخير بعد الضر واليسر بعد العسر ، والراحة
الكبرى بعد الضيق والعناء . ولا تنهالك على ما تحب وتلذذ ، فقد تكون الحسرة
كامنة وراء المتعة ، وقد يكون المكروه مخبئاً خلف المحبوب ، وقد يكون الهلاك
متربصاً وراء المطمع البراق .. هكذا وبهذا التوجيه التربوي العظيم فرض الله
الجهاد (كُتِبَ عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير
لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ..

انه منهج في التربية عجيب . منهج عميق بسيط . منهج يعرف طريقه إلى
مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة بالحق والصدق لا بالايحاء الكاذب
والتمويه الخادع .. فهو حق أن تكره النفس البشرية القاصرة الضعيفة أمراً ويكون فيه
الخير كل الخير . وهو حق كذلك أن تحب النفس أمراً وتنهالك عليه وفيه الشر كل
الشر . وهو الحق كل الحق أن الله يعلم والناس لا يعلمون ..

إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشري لتفتح أمامه عالماً آخر غير العالم
المحدود الذي تبصره عيناه . وتبرز أمامه عوامل أخرى تحمل في صميم الكون وتقلب
الأمر وتترتب العواقب على غير ما كان يظنه ويتمناه .. وأنها لتتركه حين يستجيب
لها طيعاً في يد القدر ويعمل ويطمع ويرجو ويخاف . ولكن يرد الأمر كله لليد
الحكيمة والعلم الشامل . وهو راض قرير .. انه الدخول في السلم من بابه الواسع ،
فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله . وأن
الخير في طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها وإن تطلب منه البرهان .. إن الأذعان
الواثق والرجاء الهادئ والسعي المطمئن .. هي أبواب السلم الذي يدعو الله عباده
الذين آمنوا ليدخلوا فيه كافة . وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط في
يسر وفي هراة وفي رضا يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة
القتال . فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال ..

وهكذا نرى أن كل إنسان في تجاربه الخاصة يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم ، ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم . وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حمرات على فوته ثم يتبين له بعد فترة أنه كان انقاذا من الله أن فوت عليه هذا المطلوب في حينه . وكم من محنة تجرعها الانسان لاهنا يكاد يتقطع لفظاعتها ثم ينظر بعد فترة ، فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم يتشئه الرخاء الطويل . ان الانسان لا يعلم والله وحده يعلم ، فماذا على الإنسان لو يستسلم .. ان هذا هو المنهج الربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية لتؤمن وتسلم وتستسلم في أمر الغيب المخبوء بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف .

والإسلام لا يشتهي القتال ، ولا يريد حبا فيه . ولكنه يفرضه لأن الواقع يحتمه ، ولأن الهدف الذي وراءه كبير . فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الالهي في صورته الأخيرة المستقرة . وهذا المنهج ولو أنه يلي الفطرة المستقيمة إلا أنه يكلف النفوس جهدا لتسمو إلى مستواه ، ولتستقر على هذا المستوى الرفيع . وهناك قوى كثيرة في هذه الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر لأنه يسلبها كثيرا من الامتيازات التي تستند إلى قيم باطلة زائفة يحاربها هذا المنهج ويقضي عليها حين يستقر في حياة البشر .

وهذه القوى تستغل ضعف النفوس عن البقاء في هذا المستوى الایمانی وتكاليفه ، كما تستغل جهل العقول وموروثات الأجيال لتعارض هذا المنهج وتقف في طريقه . والشر عارم والباطل متبجح والشیطان لئيم . ومن ثم يتعين على حملة الايمان وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان . أقوياء في أخلاقهم وأقوياء في قتال خصومهم على السواء . ويتعين عليهم أن يقاتلوا عندما يصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد وحرية العمل وفق نظامه المرسوم . وهم يقاتلون في سبيل الله .. لا في سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أي لون .. في سبيل الله وكلمة الله هي التعبير عن إرادته . ولم يكن بد أن يقاومه أفراد وأن تقاومه طبقات وأن تقاومه دول ولم يكن بد كذلك أن يحضي

الإسلام في وجه هذه المقاومة ، ولم يكن بد أن يكتب الجهاد على المسلمين لنصرة هذا المنهج وتحقيق كلمة الله في الأرض . لهذا أحب الله سبحانه الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) .. انه القتال .. انه الجهاد للعقيدة لحماية من الحصار وحمايتها من الفتنة وحماية منهجها وشريعته في الحياة وقرار رايته في الأرض بحيث يرهبها من يهجم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء . وبحيث يلجأ اليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تفتنه أو تمنعه (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) .. وغاية القتال في الإسلام هي ضمانه ألا يفتن الناس عن دين الله وألا يصرفوا عنه بالقوة أو ما يشبهها كقوة الوضع الذي يعيشون فيه بوجه عام وتسلط عليهم فيه المغريات والمضلات والمفسدات . وذلك بأن يعز دين الله ويقوى جانبه ويهابه أعداؤه ؛ فلا يجرؤ على التعرض للناس بالأذى والفتنة .. والجماعة المسلمة مكلفة اذن أن تظل تقاتل حتى تقضي على هذه القوى المعتدية الظالمة ، وحتى تصبح الغلبة والمنعة لدين الله .

والجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال . ولقد كان المجاهد المسلم يجهز نفسه بعدة القتال ومركب القتال وزاد القتال ، لم تكن هناك رواتب يتناولها القادة والجند ، انما كان هناك تطوع بالنفس وتطوع بالمال وهذا ما تصنعه العقيدة حين تقوم عليها النظم . انما لا تحتاج حيثئذ أن تنفق لتحمي نفسها من أهلها أو من أعدائها ، انما يتقدم الجند ويتقدم القادة متطوعين ينفقون هم عليها . ولكن كثيراً من فقراء المسلمين الراغبين في الجهاد والدود عن منهج الله وراية العقيدة لا يجدون ما يتجهزون به ، وهذا ما حدث لفقراء المسلمين الذين جاءوا للرسول يطلبون منه أن يحملهم إلى ميدان المعركة البعيد الذي لا يبلغ عليه الاقدام فإذا لم يجد ما يحملهم عليه (تولوا) وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) من أجل هذا كثرت التوجيهات القرآنية والنبوية إلى الاتفاق في سبيل الله . وصاحبت الدعوة إلى الجهاد ، دعوة إلى الاتفاق في معظم المواضع (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) . والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تهلكة للنفس بالشح وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف .

إن أشد الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً قد يكونون هم أشد الناس جترأً وانهياراً وهزيمة عندما يجد الجدد وتقع الواقعة، بل إن هذه قد تكون القاعدة . ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالباً ما تكون منبعثة من عدم التقدير لحقيقة التكاليف ، لا عن شجاعة واحتمال وإصرار ، كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال . قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة ، فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأي شكل دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار حتى إذا وجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا ، وأشق مما تصوروا ، فكانوا أول الصف نجراً ونكولاً وانهياراً ، على حين يثبت أولئك الذين كانوا بمسكون أنفسهم ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ويعدون للأمر عدته ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته . والتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافاً ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور . وفي المعركة يتبين أي الفريقين أكثر احتمالاً وأي الفريقين أبعد نظراً كذلك . وهذا ما يصوره لنا الله تبارك وتعالى : (فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) ..

إن الإيمان الذي لم ينضج بعد ، والتصور الذي لم تنضج معالمه ولم يتبين صاحبه وظيفة هذا الدين في الأرض ، وأنها أكبر من حماية الأشخاص وحماية الأقوام وحماية الأوطان . إذ أنها في صميمها اقرار منهج الله في الأرض وإقامة نظامه العادل في ربوع العالم ، وإنشاء قوة عليا في هذه الأرض ذات سلطان يمنع أن تغلق الحدود دون دعوة الله ويمنع أن يحال بين الأفراد والاستماع للدعوة في أي مكان على سطح الأرض ، ويمنع أن يفتن أحد من الأفراد عن دينه بأي لون من ألوان الفتنة ..

الإيمان الذي لم ينضج بعد ليبلغ بالنفس إلى إخراج ذاتها من الأمر ، والاستماع فقط إلى أمر الله واعتباره هو العلة والمعلول والسبب والمسبب والكلمة الأخيرة ،

والتصور الذي لم تتضح معالنه بعد ليعرف المؤمن مهمة هذا الدين في الأرض ومهمته هو - المؤمن - بوصفه قدرا من قدر الله يتخذ به الله ما يشاؤه في هذه الحياة ، لا جرم ينشأ عنه مثل هذا الموقف فيلدغه الأذى فلا يطيقه ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة .. ووجود هذه الطائفة في الصف المسلم ينشأ فيه حالة من الخلخلة ، وينشأ فيه حالة من عدم التماسق بين هذه الطائفة الخزوع الخلوع وبين الرجال المؤمنين ذوي القلوب الثابتة المطمئنة المستقبل لتكاليف الجهاد على كل ما فيها من مشقة بالطمأنينة والثقة والعزم والحماسة أيضا ، ولكن في موضعها المناسب . فالحماسة في تنفيذ الأمر حين يصدر هي الحماسة الحقيقية . أما الحماسة قبل الأمر فقد تكون مجرد اندفاع وتهور يتبحر عند مواجهة الخطر .

وهناك صورة تتشكل في الجماعة الإسلامية يحذر الله تعالى منها (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا) .. انها صورة لم تألف نفوسهم النظام ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة الصفوف وفي النتائج التي تترتب عليها وقد تكون قاصمة ، لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ولم يدركوا جدية الموقف ، وان كلمة عابرة وظنة لسان قد تجر من العواقب على الشخص ذاته وعلى الجماعة كلها ، ما لا يحظر له ببال وما لا يتدرك بعد وقوعه بحال .

واذاعة الكلمة ينقلها لسان عن لسان ، سواء كانت اشاعة أمن أو اشاعة خوف ، فكلتاها قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة . فان اشاعة أمر الأمن مثلا في جماعة متأهبة مستيقظة متوقفة الحركة من العدو .. اشاعة أمر الأمن في مثل هذا تحدث نوعا من التراخي مهما تكن الأوامر باليقظة . لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر ، وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية .. كذلك اشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة ، قد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباك وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف ، وقد تكون كذلك القاضية .. وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته أو هما معا . والقرآن

يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح (ولو ردّوه إلى الله والرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم).

إن مهمة الجندي المسلم في الجيش المسلم الذي يقوده أمير مؤمن حين يبلغ إلى أذنيه خبر أن يسرع فيخبر أميره ، لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه ، لأن قيادته المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة كما تملك تقدير المصلحة في إذاعة الخبر حتى بعد ثبوته أو عدم إذاعته .. وهكذا كان القرآن يربي فيغرس الايمان والولاء للقيادة المؤمنة .

٤ - هذا هو الطريق :

(ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وعدا عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .. هذا هو الطريق .. يرسمه الله عز وجل .. انه نص رهيب ، انه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله، وعن حقيقة البيعة التي أعطوها باسلامهم طوال الحياة. فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف المؤمن وتمثل فيه حقيقة الايمان ، والا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق . وحقيقة هذه البيعة أن الله سبحانه قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم . فلم يعد لهم منها شيء ، لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله . لم يعد لهم الخيار في أن يبذلوا أو يمسكوا كلا .. انها صفقة مشتراة . لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض وفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم لا يتلفت ولا يتخير ولا يناقش ولا يجادل ، ولا يقول الا الطاعة والاستسلام .. والتمن هو الجنة .. والطريق هو الجهاد والقتل والقتال والنهاية هي النصر أو الاستشهاد (ان الله اشترى من المؤمنين) .. من بايع على هذا . من أمضى عقد الصفقة .. من ارتضى الثمن ووفى .. فهو المؤمن .. هذا هو الطريق .. فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا ، ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً .

والا فهو واهب النفس والاموال وهو مالك النفس والاموال، ولكنه كرم هذا الانسان فجعله مريداً . وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها حتى مع الله، وكرمه فقيده بعقود وعهود ، وجعل وفاءه بها مقياس انسانيته الكريمة ، ونقضه لهما مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة ، شر البهيمة (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) .. كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقص أو الوفاء . وأنها لبيعة رهيبة بلا شك ، ولكنها في عتق كل مؤمن لا تسقط عنه الا بسقوط إيمانه . ومن هنا يجب أن نستشعر الرهبة بحقيقة الإيمان //

٥٩ عَنْكَ اللَّهُمَّ فان العقد رهيب . وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم مسلمين في مشارق الارض ومغاربها قاعدون . لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الارض وطرده الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد . ولا يقتلون ولا يُقتلون . ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال .

ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الاولين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ، ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم أو يحسونها مجردة في مشاعرهم . كانوا يتلقونها للعمل المباشر لتحويلها إلى حركة منظورة لا إلى صورة متأللة . هكذا أدركها عبدالله بن رواحة رضي الله عنه في بيعة العقبة الثانية . قال محمد بن كعب القرظي وغيره . قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم (يعني ليلة العقبة) اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . واشترط لنفسي أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم) قالوا : فمالنا اذا نحن فعلنا ذلك ؟ قال الجنة . قالوا : ربح البيع لا نَقِيل ولا نَسْتَقِيل) ..

ان الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة يعق كل مؤمن .. كل مؤمن على الاطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله .. انها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه

الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) ..

ان الحق لا بد أن ينطلق في طريقه . ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق . بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق . ان دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده . ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق .. بل لا بد له أن يقطع عليه الطريق ، ولا بد لدين الله أن ينطلق في الأرض كلها لتحرير الانسان كله . ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ، ولا يثنى عنه ليدع للباطل طريقه . وما دام في الأرض كفر . وما دام في الأرض باطل . وما دامت في الأرض عبودية لغير الله تذل كرامة الانسان . فالجهاد في سبيل الله ماضٍ والبيعة في حلق كل مؤمن تطالبه بالوفاء والا فليس بالايمن .

﴿ وإن المجاهد في سبيل الله أقوى من قيود الأرض لانه أرفع من ثقل الأرض ، والايمن ينتصر على الألم ، والعقيدة تنتصر على الحياة .. ان الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن .. ولكن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاع للقتل ، انما هو قمة تقوم على قاعدة من الايمان المتمثلة في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال .. (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) .. هذه هي قاعدة القمة السامية ، صفاتها ومميزاتها . توبة ترد العبد إلى الله وتكف عن الذنب وتدفعه إلى العمل الصالح ، وعبادته تصله بالله ، وتجعل الله معبوده وغايته وجهته ، وحمد الله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله ، والثقة المطلقة برحمته وعدله ، وسياحة في ملكوت الله مع آيات الله الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم الخلق . وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى اصلاح العباد والحياة ، وحفظ لحدود الله يرد عنها العادين والمضيعين ويصونها من النهجم والانتهاك .. (وجاهدوا في الله حق جهاده) ..

انه تعبير شامل جامع دقيق بصور تكليفاً ضخماً يحتاج إلى تمبئة وذخيرة

٤ . وإعداد . فالجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الاعداء وجهاد النفس وجهاد الشر
مع وانفساد كلها سواء .. هذا هو الطريق .. ليست الحياة طراً ولعباً ، وليست الحياة
أكلاً كما تأكل الانعام ومتاعاً . وليست الحياة سلامة ذليلة وراحة بليدة ورضى
بالسلم الرخيص .. انما الحياة هي هذه .. كفاح في سبيل الحق وجهاد في سبيل
الخير وانتصار لاعلاء كلمة الله أو استشهاد في سبيل الله ثم الجنة والرضوان ..

﴿ هذه هي الحياة التي يدعوننا اليها الله (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله ولرَسُوله إذا
دعاكم لما يحبيكم) والحياة التي يدعوننا اليها الله هي الجهاد في سبيله وعدم
التثقل عن النفرة في سبيل الله (يا أيها الذين آمنوا مآلكم اذا قيل لكم افرّوا
في سبيل الله اثاقم إلى الارض) .. انما ثقله الارض ومطامع الارض وتصورات
الارض ، ثقله الخوف على الحياة ، والخوف على المال ، والخوف على الثناؤ
والمصالح والمنافع . ثقله الدعة والراحة والاستقرار . ثقله الذات الغاية والاجل
المحدود والمهدف القريب . ثقله اللحم والدم والتراب . ان هذا التعبير القرآني
(اثاقم) تمثل الجسم المسترخي الثقيل يرفعه الراضعون في جهده فيسقط منهم في
ثقل .

﴿ ان النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الارض وارتفاع على ثقله
اللحم والدم وتحقيق للمعنى العلوي في الانسان ، وتطلع إلى الخلود الممتد وخلاص
من الفناء المحدود (أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في
الآخرة الا قليل) . وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله الا وفي
هذه العقيدة دخل ، وفي ايمان صاحبها بها ومن . لذلك يقول الرسول صلى الله عليه
وسلم (من مات ولم يغز ، ولم يُحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب
النفاق) . فالنفاق وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال — هو الذي
يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة ، عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر .
والآجال بيد الله والرزق من عند الله وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل .

وينوجه الله عز وجل بالتهديد (الا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً

غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير) .. انه خطاب عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده . فهو كذلك عذاب الدنيا ، عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح والغلبة عليهم للاعداء ، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والاموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد ، ويقدمون على مذبح الذل أضعاف منها ما تتطلب منهم الكرامة لو قدموا على القداء . وما من أمة تركت الجهاد الا ضرب الله عليها الدال ..

وان الاستعلاء على ثقلة الارض وعلى ضعف النفس اثبات للوجود الانساني الكريم ، فهي حياة بالمعنى العلوي للحياة . وان التناقل إلى الارض والاستسلام للخوف اعدام للوجود الانساني الكريم فهو فناء في ميزان الله وفي حساب الروح المميزة للانسان ..

لذلك يحث الله عز وجل المؤمنين على هذه الحياة الكريمة المتمثلة في الجهاد في سبيله والاستشهاد في سبيله (انفروا خفافا وثقالا سحاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) ..

لقد أدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير فنفروا والعواقب في طريقهم والاعداء حاضرة لو أرادوا التمسك بالاعداء ففتح الله عليهم القلوب والارضين ، وأعز بهم كلمة الله وأعزهم بكلمة الله وحقق على أيديهم ما يعد خارقة في تاريخ الفتح . قرأ أبو طلحة رضي الله عنه سورة براءة فأثني على هذه الآية فقال : أرى ربنا استغفرنا شيوخاً وشباباً ، جهزوني يا بني . فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ومع أبي بكر حتى مات ومع عمر حتى مات ، فنحن نفرو عنك . فأثني ، فركب البحر فمات . فلم يجدوا له جزيرة يدفنون فيها الا بعد تسعة أيام ، فلم يتغير قدفونه بها .

وروى ابن جرير بإسناده عن أبي راشد الجرائي قال : وافيت المقداد بن الاسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً على تابوت من ثوابيت الصيارفة ،

وقد فضل عنها من عظمه يريد الغزو . فقلت له قد أعذر الله اليك . فقال أتت علينا سورة البعوث (انفروا خفافا وثقالاً) . وروى كذلك بإسناده عن حيان بن زينة الشرعي : قال نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص قبل الافسوس إلى الحراجمة ، فرأيت شيخاً كبيراً هما قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار . فأقبلت اليه فقلت يا عم لقد أعذر الله اليك . قال فرفع حاجبيه . فقال يا ابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالا . ألا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده فيقبه ، وانما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد الا الله عز وجل) .. وبمثل هذا الجدل في أخذ كلمات الله انطلق الاسلام في الأرض يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وبمثل هذا الجدل يجب أن يأخذ الدعاة هذه الكلمات بجد وصرامة فيفتح عليهم القرآن بما فتح على أهل القرآن .

هذا هو الطريق .. الجهاد في سبيل الله . والقتال في سبيل الله (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) ..

(ح) ان الاسلام لا يعرف قتالاً الا في هذا السبيل ، لا يعرف القتال لغنيمة ، ولا يعرف القتال للسيطرة ، ولا يعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي انه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ولا للاستيلاء على السكان . لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات والاسواق للمنتجات أو لرؤوس الاموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات .. انه لا يقاتل لمجد شخص . ولا لمجد بيت . ولا لمجد طبقة . ولا لمجد دولة . ولا لمجد أمة . ولا لمجد جنس .. انه يقاتل في سبيل الله لاعلاء كلمة الله في الأرض . ولتمكين منهجه في تصريف الحياة ، ولتمتع البشرية بخيرات هذا المنهج وعدله المطلق بين الناس .

وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله بقصد اعلاء كلمة الله وتمكين منهجه في الحياة ثم يقتل يكون شهيداً . وينال مقام الشهداء عند الله . وحين يخرج لأي هدف غير هذا الهدف لا يسمى شهيداً ولا ينتظر أجره عند الله بل عند صاحب

الهدف الآخر الذي خرج له . والذين يصفونه حيثئذ بأنه شهيد يفترون على الله الكذب ، ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكي به الله الناس افتراء على الله . فليقاتل في سبيل الله .. بهذا التحديد .. من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الآخرة . لذلك ان الله سبحانه يقف الناس على مفرد الطريق . وفي لحظة ترتسم الاهداف وتتضح الخطوط (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) ..

ان الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله لتحقيق منهجه واقرار شريعته أما الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت لتحقيق مناهج شتى غير منهج الله ، واقرار شرائع شتى غير شريعة الله واقامة قيم شتى غير التي أذن بها الله .. ويقف الذين آمنوا مستشفعين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته .. ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم وشتى مناهجهم وشتى شرائعهم وشتى قيمهم وموازينهم .. فكلهم أولياء الشيطان (ان كيد الشيطان كان ضعيفاً) . وان المسلمين يقفون على أرض صلبة مستندين ظهورهم إلى ركن شديد ، يخوضون المعركة ويواجهون قوماً أهل باطل . ومن هذا التصور الحقيقي انبثقت تلك الحوارات الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل الله والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة .

ان الجهاد في سبيل الله هو طريق الدعوة إلى الله ، والجهاد ليس ملازمة طارئة من ملازمات فترة الدعوة الاولى انما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة ، ولو كان الجهاد ملازمة طارئة في حياة الامة المسلمة ما استغرق كل القصول الواسعة من صلب كتاب الله ، ولما استغرق فصلاً طويلاً من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ان الله تعالى يعلم أن هذا المنهج الإلهي تكرهه الطواغيت ، ويعلم أنه لا بد لاصحاب السلطان أن يقاوموه لأنه طريق غير طريقهم ومنهج غير منهجهم . ليس بالامس فقط ولكن اليوم وغدا ، وفي كل أرض وفي كل جيل . وان الله

صيحانه يعلم أن الشر متبجح ولا يمكن أن يكون منصفاً ، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو مهما يسلك هذا الخير من طرق سليمة موادة . فان مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر . ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل ، ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان ، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولته قتل الحق وخنقه بالقوة .. هذه فطرة وليست حالة طارئة .. ومن ثم لا بد من الجهاد .. لا بد منه في كل صورة ، ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والجهود ، ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح . ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة . والا كان الامر هزلاً لا يليق بالمؤمنين .. ولا بد من بذل الأموال والانفس كما طلب الله من المؤمنين .. هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة وفي منهجها الواقعي وفي خط سيرها المرسوم . وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية التي لا علاقة لها بتغير الظروف .. وهذه النقط لا يجوز أن تنميع في حس المسلم تحت أي ظرف من الظروف .. ومن هذه النقط .. الجهاد .. الجهاد في سبيل الله وحده وتحت رايته وحدها . وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه شهداء ويتلقاهم الملائة الاعلى بالتكريم ..

• - طبيعة الجهاد في الاسلام :

لقد لخص الامام ابن القيم سياق الجهاد في الاسلام في (زاد المعاد) في الفصل الذي عقده باسم (فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل : أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذي خلق وذلك أول نبوته . فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره اذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه : (يا أيها المدثر قم فأأنذر) فنبأه بقوله (اقرأ) وأرسله : (يا أيها المدثر) . ثم أمره أن ينذر عشيرته الاقربين . ثم أنذر قومه . ثم أنذر من حوله من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام بضعة عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم

أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صالح وهدنة. وأهل حرب. وأهل ذمة .. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة فبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده .. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها : فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان . وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار وفبذ عهودهم إليهم . وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام : قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينتقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فإذا انسلخت قاتلهم .. فقتل الناقض لعهد وأجل من لا عهد له ، أو له عهد مطلق : أربعة أشهر . وأمره أن يتم للمؤقي بعهد عهده إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيمرا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية .. فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد . وأهل ذمة .. ثم آلت حال آل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به . ومسلم له آمن . وخائف محارب .. وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكفل سرايرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلف عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه ان استغفر لهم قلن يغفر الله لهم .. فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين) .. ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين ، جديرة بالوقوف أمامها طويلاً :

السمة الأولى : هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين .. فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً .. وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي .. أنها تواجه جاهلية اعتمادية تصورية ، تقوم عليها أنظمة واقعية عملية : تسند لها سلطات ذات قوة مادية .. ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه .. تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات وتواجهه بالقوة والجهد لازالة الانظمة والسلطات القائمة عليها ، تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ، وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدتهم لغير ربهم الخليل .. انها حركة لا تكفي بالبيان في وجه السلطان المادي . كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضماير الافراد .. وهذه كذلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لاجراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما سيجيء...

والسمة الثانية في منهج هذا الدين : هي الواقعية الحركية فهو حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة بمقتضياتها وحاجاتها الواقعية ، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها . فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة . والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد ، ولا يراعون هذه السمة فيه ولا يدركون طبيعة المراحل التي مرَّ بها هذا المنهج وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها .. الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً ويلبسون منهج هذا الدين لباساً مضللاً ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية ، ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً ، يمثل القواعد النهائية في هذا الدين ، ويقولون وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع البائس للذرائع المسلمين الذين لم يبق لهم من الاسلام الا العنوان - : ان الاسلام لا يجاهد الا للدفاع . ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جيلاً بتخليه عن منهجه وهو ازالة الطواغيت كلها من الارض جميعاً وتعبيد الناس لله وحده واجراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد . لا بقهرهم على اعتناق عقيدته ولكن بالتخلى بينهم وبين هذه العقيدة بعد تحطيم الانظمة السياسية الحاكمة أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن

استسلامها ، والتخلى بين جماهيرها وهذه العقيدة تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل
حريتها ..

والسمة الثالثة : هي أن هذه الحركة الدائبة والوسائل المتجددة لا تخرج
هذا الدين عن قواعده المحددة ولا عن أهدافه المرسومة . فهو منذ اليوم الاول
سواء وهو يخاطب العشيرة الاقربين أو يخاطب قريشاً أو يخاطب العرب أجمعين
أو يخاطب العالمين ، إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف
واحد ، هو اخلاص العبودية لله ، والخروج من العبودية للعباد ، لا مساومة في
هذه القاعدة ولا لين . ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد في خطة مرسومة ذات
مراحل محددة ، لكل مرحلة وسائلها المتجددة على نحو ما أسلفنا في الفقرة السابقة.

والسمة الرابعة : هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم
وسائر المجتمعات الاخرى على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد الذي نقلناه
عن زاد المعاد ، وقيام ذلك الضبط على أساس أن الاسلام لله هو الاصل العالمي
الذي على البشرية كلها أن تفيء اليه أو أن تسأله بحملتها فلا تقف لدعوته بأي
حائل من نظام سياسي أو قوة مادية وأن تخلي بينه وبين كل فرد . يختاره أو لا
يختاره بمطلق ارادته ، ولكن لا يقاومه ولا يجاربه . فان فعل ذلك أحد ، كان
على الاسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه ..

اعلان عام لتحرير الانسان : والمهزومون روحياً وعقلياً ممن يكتبون عن
الجهاد في الاسلام ليدفعوا عن الاسلام هذا الاتهام .. يخلطون بين منهج هذا
الدين في النص على استنكار الاكراه على العقيدة وبين منهجه في تحطيم القوى
السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه والتي تعبد الناس للناس ، وتمنعهم
من العبودية لله ، وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما . ومن
أجل هذا التخليط وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة يحاولون أن يحدوا الجهاد
في الاسلام فيما يسمونه اليوم : (الحرب الدفاعية) .. والجهاد في الاسلام أمر
آخر لا علاقة له بجروب الناس اليوم . ولا بواعثها : ولا تكييفها كذلك . ان

بواعث الجهاد في الاسلام ينبغي تلمسها في طبيعة الاسلام ذاته ودوره في هذه الارض وأهدافه العليا التي قررها الله ، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات :

ان هذا الدين اعلان عام لتحرير الانسان في الارض من العبودية للعباد ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد — وذلك بإعلان ألوهية الله وحده — سبحانه — وربوبيته للعالمين .. ان اعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها : الثورة الشاملة على حاكمة البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الارض الحكم فيه للبشر في صورة من الصور . أو بتعبير آخر مرادف : الالوهية فيه للبشر في صورة من الصور ذلك أن الحكم الذي مرد الامر فيه إلى البشر ومصدر السلطات فيه هم البشر هو تأليه للبشر يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله . ان هذا الاعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب وردّه إلى الله وطرد المغتصبين له الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الارباب ويقوم الناس منهم مقام العبيد . ان معناه تعطيم مملكة البشر لاقامة مملكة الله في الارض .. أو بالتعبير القرآني الكريم . (وهو الذي في السماء إله وفي الارض إله) ..

(ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه .. ذلك الدين القيم)

(قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأننا مسلمون) ..

ومملكة الله في الارض لا تقوم بأن يتولى الحاكمة في الارض رجال بأعيانهم — هم رجال الدين كما كان الامر في سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم الالهة . كما كان الحال في ما يعرف باسم (الثيوقراطية) أو الحكم الالهي المقدس — ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة ، وأن يكون مرد الامر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة ..

وقيام مملكة الله في الارض ، وازالة مملكة البشر . وانتزاع السلطان من أيدي مقتصبية من العباد ورده إلى الله وحده ، وسيادة الشريعة الالهية وحدها والغاء القوانين البشرية .. كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان . لان المتسلطين على رقاب العباد ، المقتصبين لسلطان الله في الارض ، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان . وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في اقرار دين الله في الارض . وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل — صلوات الله وسلامه عليهم — وتاريخ هذا الدين على مر الاجيال .

ان هذا الاعلان العام لتحرير الانسان في الارض من كل سلطان غير سلطان الله ، باعلان الوهية . الله وحده وربوبيته للعالمين ، لم يكن اعلاناً نظرياً فلسفياً سلبياً .. انما كان اعلاناً حركياً واقعياً ايجابياً .. اعلاناً يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك .. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل (الحركة) إلى جانب شكل (البيان) .. ذلك ليواجه (الواقع) البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه ..

والواقع الانساني ، أمس واليوم وغداً ، يواجه هذا الدين — بوصفه اعلاناً عاماً لتحرير الانسان في الارض من كل الارض من كل سلطان غير سلطان الله — بعقبات اعتقادية تصورية . وعقبات مادية واقعية .. عقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية ، إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة .. وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد ..

واذا كان (البيان) يواجه العقائد والتصورات ، فان (الحركة) تواجه العقبات المادية الاخرى — وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية ، والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة .. وهما معاً — البيان والحركة — يواجهان (الواقع البشري) بحملته ، بوسائل مكافئة لكل مكوناته .. وهما معاً لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للانسان في الارض ..

(الانسان) كله في (الارض) كلها .. وهذه نقطة هامة لا بُد من تقريرها مرة أخرى .

ان هذا الدين ليس اعلاناً لتحرير الانسان العربي . وليس رسالة خاصة بالعرب .. ان موضوعه هو (الانسان) .. نوع (الانسان) .. وبجمله هو (الارض) .. كل الارض . ان الله سبحانه ليس رباً للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتقدون العقيدة الاسلامية وحدهم .. ان الله هو (رب العالمين) وهذا الدين يريد أن يرد العالمين إلى ربهم . وأن ينتزعهم من العبودية لغيره . والعبودية الكبرى ... في نظر الاسلام — هي خضوع البشر لاحكام يشرعها لهم ناس من البشر . وهذه هي العبادة التي يقرر أنها لا تكون الا لله . وان من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين . ولقد نص رسول الله صلى عليه وسلم على أن (الاتباع) في الشريعة والحكم هو (العبادة) التي صار بها اليهود والنصارى (مشركين) مخالفين لما أمروا به من (عبادة) الله وحده .

أخرج الترمذي بإسناده عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ إلى الشام . وكان قد تنصر في الجاهلية . فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم متن رسول الله صلى الله عليه وسلم على أخته وأعطاهما . فرجعت إلى أخيها فرغبت بالاسلام ، وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحدث الناس بقدومه : فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقه (أي عدي) صليب من فضة وهو (أي النبي صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .. قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : (بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم) ..

وتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول الله سبحانه ، نص قاطع على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين ، وأنها هي اتخاذ بعض الناس أرباباً لبعض .. الأمر الذي جاء هذا الدين ليُلغيه ، ويعلم تحرير

الإنسان في الأرض من العبودية لغير الله . ومن ثم لم يكن بُد للإسلام أن ينطلق في الأرض لازالة الواقع المخالف لذلك الاعلان العام .. بالبيان والحركة مجتمعين .. وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله أي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه — والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى (البيان) واعتناق (العقيدة) بحرية لا يتعرض لها السلطان . ثم لكي يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي — بعد ازالة القوة المسيطرة — سواء كانت سياسية بحتة ، أو متلبسة بالعنصرية أو الطبقة داخل العنصر الواحد .

انه لم يكن من قصد الاسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته . ولكن الاسلام ليس مجرد (عقيدة) .. ان الاسلام كما قلنا اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد . فهو يهدف ابتداء إلى ازالة الانظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الانسان للانسان .. ثم يطلق الافراد بعد ذلك أحراراً — بالفعل — في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم — بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم — ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم ، أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيداً للعباد وأن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. ان النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده ، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده . ثم ليعتنق كل فرد — في ظل هذا النظام العام — ما يعتنقه من عقيدة . وبهذا يكون (الدين) كله لله . أي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله . ان مدلول (الدين) أشمل من مدلول العقيدة .. ان الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الاسلام يعتمد على العقيدة ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة .. وفي الاسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهج العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الاسلام .

والذي يدرك طبيعة هذا الدين — على النحو المتقدم — يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف — إلى جانب الجهاد بالبيان — ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية — بالمعنى الضيق الذي يفهم

اليوم من اصطلاح الحرب الدفاعية — كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الاسلام — انما كان حركة دفاع وانطلاق لتحرير الانسان في الارض .. بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري ؛ وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة . واذا لم يكن بُد من أن تُسمي حركة الاسلام الجهادية حركة دفاعية فلا بُد أن نغير مفهوم كلمة دفاع . ونعتبره (مُدفاعاً عن الانسان ذاته) ضد جميع العوامل التي تقيد حريته وتغوق تحرره .. هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات ؛ كما تتمثل في الانظمة السياسية ، القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية ، التي كانت سائدة في الارض كلها يوم جاء الاسلام ، والتي ما تزال أشكالها منها سائدة في البجاهلية الحاضرة في هذا الزمان .

وبهذا التوسع في مفهوم كلمة (الدفاع) نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الاسلامي في (الارض) بالجهاد، ونواجه طبيعة الاسلام ذاتها، وهي أنه اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد وتقرير ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، ونحطيم مملكة الهوى البشري في الارض واقامة مملكة الشريعة الالهية في عالم الانسان .. أما محاولة ايجاد مبررات دفاعية للجهاد الاسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية ، ومحاولة البحث عن أسانيد لاثبات أن وقائع الجهاد الاسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على (الوطن الاسلامي) وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب . فهي محاولة تنم عن قلة ادراك لطبيعة هذا الدين ، ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الارض . كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر ، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الاسلامي . ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان — رضي الله عنهم — قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون اذن عن دفع المد الاسلامي إلى أطراف الارض ؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد ، وأمام الدعوة تلك القبات المادية من أنظمة الدولة السياسية وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية والتي تحمبها القوة المادية للدولة كذلك ؟

إنها سذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير (الإنسان) .. نوع الإنسان .. في الأرض .. كل الأرض .. ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان . إنها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلي بينها وبين الافراد تخاطبهم بحرية وهم مطلقوا السراح من جميع تلك المؤثرات .. فهنا (لا اكراه في الدين) .. أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية ، فلا بد من ازالتها أولاً بالقوة للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله وهو طليق من هذه الأغلال .

إن الجهاد ضرورة للدعوة . إذا كانت أهدافها اعلان تحرير الإنسان اعلاناً جاداً يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه ، ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري السلمي . سواء كان الوطن الاسلامي وبالتعبير الاسلامي الصحيح : دار الاسلام آمناً أم مهدداً من جيرانه . فالاسلام حين يسعى إلى السلم لا يقصد تلك السلم الرخيصة ، وهي مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التي يعتنق أهلها العقيدة الاسلامية ؛ إنما هو يريد السلم التي يكون الدين فيها كله لله أي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله . والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ؛ والعبرة بنهاية المراحل التي وصت إليها الحركة الجهادية في الاسلام بأمر من الله — لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها .. ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الامام ابن القيم : (فاستقر أمر الكفار معه — بعد نزول براءة — على ثلاثة أقسام محاريين له ، وأهل عهد وأهل ذمة ، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الاسلام .. فصاروا معه قسمين : محاريين وأهل ذمة ، والمحاريين له خائفون منه . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسلم له آمن ، (وهم أهل الذمة كما يفهم من الحملة السابقة) وخائف محارب) .. وهذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر .

ولقد كَفَّ الله المسلمين عن القتال في مكة وفي أول العهد بالهجرة إلى المدينة . وقيل للمسلمين : (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) .. ثم أذن لهم فيه وقيل لهم : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم

لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الامور) . . ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقبل لهم : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) . . ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقبل لهم : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) . . وقيل لهم : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . . فكان القتال - كما يقول الامام ابن القيم - (محرماً ثم مأذوناً به ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ثم مأموراً به لجميع المشركين) . .

ان جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد وجدية الاحاديث النبوية التي تحض عليه وجدية الوقائع الجهادية في صدر الاسلام وعلى مدى طويل من تاريخه . . ان هذه الجدية الواضحة تمنع أن يحول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد لاسلامي .

ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي ثم يظنه شأناً عارضاً مقيداً بملايسات تذهب ونجىء ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود ؟ .

لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الاصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض لدفع الفساد عن الارض : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله

كثيراً) . واذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة . الشأن الدائم أن لا يتعاش الخلق والباطل في هذه الأرض وأنه متى قام الاسلام باعلانه العام لاقامة ربوبية الله للعالمين وتحرير الانسان من العبودية للعباد ، رماهم مغتصبون لسلطان الله في الأرض ولم يسألهم قط ، وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن (الانسان) في (الأرض) ذلك السلطان الغاصب .. حال دائمة لا يكف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله لله .

ان الكف عن القتال في مكة لم يكن الا مجرد مرحلة في خطة طويلة . كذلك كان الامر أول العهد بالهجرة والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين للمدينة .. هذا هدف أولي لا بد منه . ولكنه ليس الهدف الاخير .. انه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ويؤمن قاعدة الانطلاق. الانطلاق لتحرير (الانسان) ولإزالة العقبات التي تمنع (الانسان) ذاته من الانطلاق .

وكف أبدي المسلمين في مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم لانه كان مكفولاً للدعوة في مكة حرية البلاغ . كان صاحبها صلى الله عليه وسلم يملك بحماية سيوف بني هاشم أن يصدع بالدعوة ويخاطب بها الاذان والعقول والقلوب ويواجه بها الأفراد . لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من ابلاغ الدعوة أو تمنع الأفراد من سماعها فلا ضرورة في هذه المرحلة لاستخدام القوة وذلك إلى أسباب أخرى لعلها كانت قائمة في هذه المرحلة .

ربما كان ذلك لان الفترة المكية كانت فترة تربية واعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والاعداد في مثل هذه البيئات . تربية نفس الفرد العربي على ما لا يصبر عليه عادة من انضيم على شخصه أو على من يلوذون به ، ليخلص من شخصه ، ويتجرد من ذاته ، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته . وتربيته كذلك على ضبط أعصابه ، فلا يتدفع لأول مؤثر — كما هي طبيعته — ولا يهتاج لأول مهيج .

لنسيم الاعتدال في طبيعته وحركته . وتربيته على أن يتبع مجتمعا منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته ، ولا يتصرف الا وفق ما تأمره به — مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعاداته — وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي ، لانشاء (المجتمع المسلم) الخاضع لقيادة موجهة ، المتري المتخضر ، غير الحمجي أو القبلي .

وربما كان ذلك أيضاً ، لان الدعوة السلمية كانت أشد أثراً وأنفذ ، في مثل بيئة قريش ، ذات العنجهية والشرف ، والتي قد يدفعها القتال معها — في مثل هذه المرحلة — إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة . كثارات العرب المعروفة التي أثارها حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس أعواماً طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها . وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذاكراتهم بالاسلام . فلا تبدأ بعد ذلك أبداً . ويتحول الاسلام من دعوة إلى ثارات تنسى معها وجهته الاساسية ، وهو في مبدئه ، فلا تذكر أبداً .

وربما كان ذلك أيضاً ، اجتناباً لانشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم . انما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد ، يعذبونه ويفتنونه (ويؤذبنونه) بمعنى الاذن بالقتال — في مثل هذه البيئة — أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت .. ثم يقال — هذا هو الاسلام . ولقد قيلت حتى والاسلام يأمر بالكف عن القتال . فقد كانت دعاية قريش في الموسم ، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة : ان محمداً يفرق بين الوالد وولده ، فوق تفريقه لقومه وعشيرته . فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولي .. في كل بيت وفي كل محلة ؟

وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ويؤذبنهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الاسلام المخلص بل من قادته .. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ؟ وربما كان ذلك أيضاً ، لأن النخوة العربية ، في بيئة قبلية ، من عاداتها أن تتورب .

للمظلوم الذي يحتمل الأذى ولا يتراجع وبخاصة اذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم . . . وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - في هذه البيئة - فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجرو ويخرج من مكة ، ورأى ذلك عاراً على العرب . وعرض عليه جواره وحمايته . . . وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب ، بعدما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة . . . بينما في بيئة أخرى من بيئات الحضارة القديمة التي مردت على الدل ، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة ، وتعظيم المؤذى الظالم المعتدى .

وربما كان ذلك لقلة عدد المسلمين حينذاك ، وانحصارهم في مكة ، حيث لم تبلغ الدعوة الى بقية الجزيرة ، أو بلغت أخبارها متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف . ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة الى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى الشرك ، وتمسك الجماعة المسلمة ، ولم يقم في الأرض للإسلام نظام ولا وجد له كيان واقعي . وهو دين جاء ليكون منهاج حياة وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة . .

فأما في المدينة في أول العهد بالهجرة - فقد كانت المعاهدة التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها ، ملائمة تفضيها طبيعة المرحلة كذلك . . . أولاً : لأن هناك مجالاً للتبليغ والبيان ، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه ، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة ، وبقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تصريف شؤونها السياسية . فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحاً ولا يثير حرباً ، ولا ينشئ علاقة خارجية الا باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان واضحاً أن السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة . فالمجال امام الدعوة مفتوح ، والتخيلية بين الناس وحرية الاعتقاد قائمة .

ثانياً : ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد التفريغ - في هذه المرحلة -

لقريش ، التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى
الواقفة في حالة انتظار لما ينتهي اليه الامر بين قريش وبعض بنيها . لذلك بادى
رسول الله صلى الله عليه وسلم بإرسال السرايا . وكان أول لواء عقده لحمزة بن
عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة . ثم توالى هذه السرايا ،
على رأس تسعة أشهر ، ثم على رأس ثلاثة عشر شهراً ثم على رأس ستة عشر شهراً .
ثم كانت سرية عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً . وهي
أول غزاة وقع فيها قتل وقتال . وكان ذلك في الشهر الحرام . والتي نزلت فيها آيات
البقرة : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل
الله وكفر به والمسجد الحرام وأخرج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل .
ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا) . .

ثم كانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هذه السنة . ورؤية الموقف من خلال
ملاحظات الواقع ، لا تدع مجالاً للقول بأن (الدفاع) بمفهومه الضيق كان هو قاعدة
الحركة الاسلامية . كما يقول المهزومون أمام الواقع الحاضر ، وامسأم الهجوم
الاستشراقي الماكر .

ان الذين يلجأون الى تلمس أسباب دفاعية بحجة لحركة المد الاسلامي انما
يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية في وقت لم تعد للمسلمين شوكة ، بل لم يعد
للمسلمين اسلام الا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق اعلان الاسلام العام
بتحرير (الانسان) في (الأرض) من كل سلطان الاسلطان الله ، ليكون الدين
كله لله - فيبحثون عن مبررات أدبية للجهاد في الاسلام .

والمد الاسلامي ليس في حاجة الى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التي
حملتها النصوص القرآنية :

(فليقاتل في سبيل الله الذين يشرّون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله
فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين
من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها

واجعل لنا من لذلك ولياً واجعل لنا من لذلك نصيراً الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان ، أن كيد الشيطان كان ضعيفاً . . (النساء ٧٤ - ٧٦)

(قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف : وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير وان تولوا فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) (الأنفال ٣٨-٤٠) ، (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله : ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله انى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما امروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون . يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون (التوبة ٢٩-٣٢)

انها مبررات تقرير الوهية الله في الأرض وتحقيق منهجه في حياة الناس . ومطابقة الشياطين ومناهج الشياطين وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس ، والناس عبدة الله وحده ، لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه . وهذا يكفي . . مع تقرير مبدأ (لا اكراه في الدين) . . أي لا اكراه على اعتناق العقيدة ، بعد الخروج من سلطان العبيد ، والاقرار بمبدأ أن السلطان كله لله أو ان الدين كله لله بهذا الاعتبار .

انها مبررات التحرير العام للانسان في الأرض . باخراج الناس من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك . . وهذه وحدها تكفي . . ولقد كانت هذه المبررات ماثلة في نفوس الغزاة من المسلمين فلم يسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول خرجنا : ندافع عن وطننا المهدد . أو خرجنا تصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين . أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة .

لقد كانوا يقولون كما قال ربي بن عامر . وحذيفة بن محصن ، والمغيرة ابن شعبة جميعاً لرسم قائد جيش الفرس في القادسية ، وهو يسألهم واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية قبل المعركة : ما الذي جاء بكم ؟ فيكون الجواب : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا الى سعتها . ومن جور الأديان الى عدل الاسلام .. فأرسل رسوله بدينه الى خلقه ، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه . ومن أبى قاتلناه حتى نفضي الى الجنة أو الظفر) . .

ان هناك مبرراً ذاتياً في طبيعة هذا الدين ذاته . وفي اعلانه العام وفي منهجه الواقعي لمقابلة الواقع البشري بوسائل متكافئة لكل جوانبه ، في مراحل محددة ، بوسائل متجددة . . وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداءً - ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الاسلامية وعلى المسلمين فيها - انه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته ، وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية . . لا من مجرد ملائسات دفاعية محدودة وموقوتة .

وانه ليكفي أن يخرج المسلم مجاهداً بنفسه وماله .. (في سبيل الله) . . في سبيل هذه القيم التي لا يناله هو من ورثها مغنم ذاتي ، ولا يخرجها لها مغنم ذاتي .. بل ان المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان . . مع هواه وشهوته . . مع مطامعه ورغباته . . مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه . . مع كل شارة غير شارة الاسلام ومع كل دافع الا عبودية لله ، وتحقيق سلطانه في الأرض وطرد سلطان الطواغيت المقتصبين لسلطان الله . .

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الاسلامي في حماية (الوطن الاسلامي) يفضون من شأن (المنهج) ويعتبرونه أقل من (الموطن) . وهذه ليست نظرة الاسلام الى هذه الاعتبارات . . انها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الاسلامي فالحقيقة والمنهج الذي تتمثل فيه ، والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبارات

الوحيدة في الحس الاسلامي . أما (الأرض) بذاتها فلا اعتبار لها ولا وزن . وكل قيمة للأرض في التصور الاسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها . وبهذا تكون محض العقيدة وحقل المنهج و (دار الاسلام) ونقطة الانطلاق لتحرير (الانسان) . وحقيقة أن حماية (دار الاسلام) حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج . ولكنها هي ليست الهدف النهائي . وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الاسلامي . إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها . ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها ، وإلى النوع الانساني بجملة . فالتنوع الانساني هو موضوع هذا الدين ، والأرض هي مجاله الكبير .

وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمنهج الإلهي تقوم في وجهه عقبات فادية من سلطة الدولة ونظام المجتمع واطماع البيئة . . وهذه كلها هي التي ينطلق الاسلام ليحطمها بالقوة . كي يخلو وجه الأفراد من الناس ، يخاطب ضمائرهم وأفكارهم ، بعد أن يحررها من الاغلال المادية ، ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار . .

يجب ألا نخدعنا أو تفزعنا حملات المستشرقين على مبدأ (الجهاد) وألا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالمية . فنروح نبحت للجهاد الاسلامي عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين . في ملابسات دفاعية وقتية : كان الجهاد سينطلق في طريقة سواء وجدت هذه الملابسات أم لم توجد .

ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي ألا نغفل عن الاعتبارات الذاتية في طبيعة هذا الدين واعلانه العام ومنهجه الواقعي . والا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية . .

حقاً انه لم يكن بد أن يدافع المهاجمين له . لأن مجرد وجوده في صورة اعلان عام لربوبية الله رب العالمين ، وتحرير الانسان من العبودية لغير الله ، وتمثل هذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية ، وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمة ، لأن الحاكمة فيه لله وحده . . ان مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من

حوله القائمة على قاعدة العبودية للعباد ، أن تحاول سحقه ، دفاعاً عن وجودها ذاته . ولا بد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه . .

هذه ملائمة لا بد منها . تولد مع ميلاد الاسلام ذاته . وهذه معركة مفروضة على الاسلام فرضاً ، ولا خيار له في خوضها . وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلاً . .

هذا كله حق . . ووفق هذه النظرية يكون لا بد للاسلام أن يدافع عن وجوده . ولا بد أن يخوض معركة دفاعية مفروضة عليه فرضاً .

ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة . . ان من طبيعة الوجود الاسلامي ذاته أن يتحرك الى الامام ابتداء لانقاذ (الانسان) في (الأرض) من العبودية لغير الله . ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ، ولا أن يتزوي داخل حدود عنصرية تاركاً (الانسان) نوع الانسان في (الأرض) كل الأرض للشر والفساد والعبودية لغير الله . .

✽ ان المعسكرات المعادية للاسلام قد يجيء عليها زمن تؤثر فيه ألا تهاجم الاسلام اذا تركها الاسلام تزاوّل عبودية البشر للبشر داخل حدودها الاقليمية ورضي أن يدعها وشأنها ولم يمد اليها دعوته واعلانه التحريري العام . ولكن الاسلام لا يهادنها الا أن تعلن استسلامها لسلطانها في صورة اداء الجزية ضماناً لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها .

هذه طبيعة هذا الدين وهذه وظيفته بحكم أنه اعلان عام لربوبية الله للعالمين ونحرير الانسان من كل عبودية لغير الله في الناس أجمعين .

وفرق بين تصور الاسلام على هذه الطبيعة ، وتصوره قابلاً داخل حدود اقليمية أو عنصرية لا يحركه الا خوف الاعتداء . انه في هذه الصورة الاخيرة يفقد مبرراته الذاتية في الانطلاق .

ان مبررات الانطلاق الاسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين

هو منهج الله للحياة البشرية وليس منهج الانسان ولا مذهب شيعة من الناس .
ولا نظام جنس من الأجناس ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية الا حين
تفتر في حسنا هذه الحقيقة الهائلة حين ننسى أن القضية هي قضية ألوهية الله
وعبودية العباد . انه لا يمكن أن يستحضر انسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث
عن مبرر آخر للجهاد الاسلامي .

والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق بين تصور ان الاسلام كان
مضطراً لخوض معركة لا اختيار له فيها بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات
الجاهلية الأخرى التي لا بد أن تهاجمه وتصور انه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداء
فيدخل في هذه المعركة .

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة فهو في كلتا الحالتين سيدخل
المعركة حتماً ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة تغير المشاعر والمفاهيمات
الاسلامية تغييراً كبيراً خطيراً . .

ان هناك مسافة هائلة بين اعتبار الاسلام منهجاً إلهياً جاء ليقرر ألوهية الله
في الأرض وعبودية البشر جميعاً لإله واحد ويصب هذا التقرير في قالب واقعي
هو المجتمع الانساني الذي يتحرر فيه الانسان من العبودية للعباد، بالعبودية لرب
العباد . فلا تحكمهم الا شريعة الله التي يتمثل فيها سلطان الله او بتعبير آخر
تتمثل فيها ألوهيته . فمن حقه اذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه ليخاطب
وجدان الأفراد وعقولهم دون حواجز ولا موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسي
أو أوضاع الناس الاجتماعية إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الاسلام على هذا
النحو واعتباره نظاماً محلياً في وطن بعينه . فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه
في داخل حدوده الإقليمية .

هذا تصور وذاك تصور . ولو أن الاسلام في كلتا الحالتين سيجاهد ولكن
التصور الكلي لبواعث هذا الجهاد واهدافه ونتائجه يختلف اختلافاً بعيداً يدخل في
صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه .

ان من حق الاسلام ان يتحرك ابتداء . فالاسلام ليس نحلة قوم ولا نظام وطن ، ولكنه منهج اله ونظام عالم . ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز والانظمة والأوضاع التي تغل من حرية (الانسان) في الاختيار . وحسبه أن لا يهاجم الافراد ليكرهم على اعتناق عقيدته . انما يهاجم الانظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة المفسدة للفطرة ، المقيدة لحرية الاختيار .

من حق الاسلام ان يخرج (الناس) من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ليحقق اعلانه العام بربوبية الله للعالمين وتحرير الناس أجمعين وعبادة الله وحده لا تتحقق في التصور الاسلامي وفي الواقع العملي الا في ظل النظام الاسلامي . فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم حاكمهم ومحكومهم أسودهم وابيضهم . قاصيهم ودانيهم . فقيرهم وغنيهم . تشريعاً واحداً يخضع له الجميع على السواء . . أما في سائر الأنظمة فيعبد الناس العباد لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد . وهو من خصائص الألوهية . فأما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه فقد ادعى الألوهية اختصاصاً وعملاً سواء أدهاها قولاً أم لم يعلن هذا الادعاء . وأما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية . سواء سماها باسمها أم لم يسمها .

والاسلام ليس مجرد عقيدة . حتى يقنع بأبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان . انما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس . والتجمعات الأخرى لا تمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو . ومن ثم يتحتم على الاسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرر العام . وهذا — كما قلنا من قبل — معنى أن يكون الدين كله لله . فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته ، كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد .

ان الباحثين الاسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر ، وتحت الهجوم الاستشراقي الماكر يتخرجون من تقدير تلك الحقيقة . لأن المستشرقين صورو الاسلام حركة قهر بالسيف للاكراه على العقيدة . والمستشرقون الخبيثاء

يعرفون جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة . ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الاسلامي بهذه الطريقة.. ومن ثم يقوم المناهضون - المهزومون - عن سمعة الاسلام . بنفي هذا الاتهام . فيلجأون الى تلمس المبررات الدفاعية . ويغفلون عن طبيعة الاسلام ووظيفته ، وحقه في (تحرير الانسان) ابتداء .

وقد غشى على افكار الباحثين العصريين - المهزومين - ذلك التصور الغربي لطبيعة (الدين) .. وأنه مجرد (عقيدة) في الضمير ، لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة . . ومن ثم يكون الجهاد للدين ، جهاداً لفرض العقيدة على الضمير .

ولكن الأمر ليس كذلك في الاسلام . فالاسلام منهج الله للحياة البشرية . وهو منهج يقوم على افراد الله وحده بالالوهية - متمثلة في الحاكية - وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية . فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج واقامة النظام . أما العقيدة فأمرها موكول الى حرية الاقتناع ، في ظل النظام العام . بعد رفع جميع المؤثرات . . ومن ثم يختلف الأمر من أساسه ، وتصبح له صورة جديدة كاملة .

وحيثما وجد التجمع الاسلامي ، الذي يتمثل فيه المنهج الالهي ، فان الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام . مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان .. فاذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد ، فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ . مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة . وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة ، في المراحل التاريخية المتجددة . ولا نخلط بين دلالاتها المرحلية والدلالة العامة لخطة الحركة الاسلامية الثابت الطويل .

* * *

وبعد فان هناك بقية في بيان طبيعة (الجهاد في الاسلام) و(طبيعة هذا الدين) يمدنا بها المبحث المجمل القيم الذي أمدنا به المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الاسلامية في باكستان ، بعنوان (الجهاد في سبيل الله) . وسنحتاج أن نقبض منه فقرات طويلة ، لا غنى عنها لقارىء يريد رؤية واضحة دقيقة لهذا الموضوع الخطير العميق في بناء الحركة الاسلامية :

(لقد جرت عادة الافرنج أن يعبروا عن كلمة (الجهاد) (بالحرب المقدسة) (Holy War) اذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم . وقد فسروها تفسيراً منكراً ، وفتنوا فيها ، وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعاني الموهمة الملفقة . وقد بلغ الأمر في ذلك أن أصبحت كلمة الجهاد عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء . . وقد كان من لباقتهم وسحريائهم ، وتشوييهم لوجوه الحقائق الناصعة ، أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة . . الجهاد . . تمثلت أمام أعينهم صورة من المواقب الممجج المحتشدة ، مصلنة سيوفها ، متقدة صدرها بنار التعصب والغضب ، متطايراً من عيونها شرار الفتك والذهب ، عالية هتافها بأصوات (الله أكبر) ، زاحفة الى الامام ، ما ان رأت كافراً حتى أمسكت بخناقته ، وجعلته بين أمرين : اما أن يقول كلمة : (لا اله الا الله) فينجو بنفسه ، واما أن يضرب عنقه ، فتشخب أوداجه دماً .

ولقد رسم الدهاء هذه الصورة بلباقة فائقة ، وتغننوا فيها بريشة المتفنن المبدع ، وكان من دهائهم ولباقتهم في هذا الفن أن صبغوها بصبغ من النجيع الأحمر ، وكتبوا تحتها : (هذه الصورة مرآة لما كان يسلف هذه الأمة من شره الى سفك الدماء ، وجشع الى الفتك بالأبرياء) . .

والمعجب كل العجب أن الذين عملوا على هذه الصورة وقاموا بما كان لهم من حظ موفوري ابرازها وعرضها على الأنظار ، هم هم الدين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم ارضاء لشهواتهم الدنيئة واطفاء لأوار مطاعمهم الأشعبية ، وتلك هي حريهم الملعونة غير المقدسة (Unholy War) التي أثاروها على الأمم المستضعفة في مشارق الأرض ومغاربها ، وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم وأراضٍ لمستعمراتهم التي يريدون أن يستعمروها ، ويستبدوا بمنابع ثروتها دون اصحابها الشرعيين ، ويفتشون عن المناجم والمعادن ، وعمّا تغله أرض الله الواسعة من الحاصلات التي يمكن أن تكون غذاء لبطون مصانعهم ومعاملهم . يبحثون عن كل ذلك وقلوبهم كلها جشع وشره الى المال والجاه . وبين أيديهم الدبابات المدججة ، وفوق رؤوسهم الطائرات المحلقة في جو السماء ، ووراء

ظهروهم مثاب الألو ف من العساكر المدربة يقطعون على البلاد سبل رزقها، وعلى أهاليها الوادين طريقهم الى الحياة الكريمة، ويريدون بذلك أن يهبثوا وقوداً لئيران مطاعمهم الفاحشة التي لا تزيدنا الا اتيام الا التهاباً واضطراباً . فلم تكن حروبهم في (سبيل الله) ، وانما كانت في سبل شهواتهم الدنيئة وأهوائهم اللعيمة .

هذه هي حال الذين يصموننا بالغزو والقتال ، الذي سبق لنا من أعمال الفتوح والحروب وقد مضت عليه أحقاب طويلة أما أعمالهم المخزية هذه فلا يزالون يقرّفونها ليل نهار بمراى ومسمع من العالم (المتحضر المتمدن) . وأي بلاد الله يا ترى قد سلمت من عدوانهم وما تخضبت أراضيها بدماء أبنائها الزكية ؟ وأية هذه القارات العظيمة من آسية وافريقية وأمريكا ما ذاقّت وبال حروبهم الملعونة ؟ . لكن هؤلاء الدهاة رسموا صورتنا بلباقة منكّرة ، وأبدأوا وأعادوا في عرضها بشكل هائل بشع ، وقد سحب ذيل النسيان على صورتهم الدميمة ، حتى لا يكاد يذكرها أحد يجنب الصورة المنكّرة التي صوروا بها تاريخنا ومآثر اسلافنا . فما أعظم دهاءهم . وما أبرعهم في التزوير والتمويه ..

أما سذاجتنا وبله رجالنا ، فحدث عن البحر ولا خرج . وأي بله أعظم من اغترارنا بالصورة المنكّرة التي صوروا بها مآثرنا حتى كدنا نؤمن بصحتها ومطابقتها للحقيقة ؟ وما دار بخلدنا أن ننظر الى الأيدي الاثيمة التي عملت عملها في رسم هذه الصورة المزورة ، وأن نبحت عن الاقلام الخفية التي تفتنت في تمويهها وزخرفتها . وقد بلغ من اغترارنا بتزويرهم ، واتخذاعنا بتلك الصورة المموهة أن اعترانا الخجل والندامة ، وعدنا نعتذر الى القوم ، نبدل كلام الله ونحرف الكلم عن مواضعه ، ونقول لهم : « ما لنا وللقتال ، أيها السادة . انما نحن دعاة مبشرون ، ندعو الى دين الله ، دين الأمن والسلام والدعة بالحكمة والموعظة الحسنة ، نبلغ كلام الله تبليغ الرهبان والدرأويش والصوفية ، ونجادل من يعارضنا بالتي هي أحسن ، بالخطب والوسائل والمقالات حتى يؤمن من يؤمن بدعوتنا عن بينة . هذه هي دعوتنا لا تزيد ولا تنقص . أما السيف والقتال به فمعاذ الله أن نمت اليه بصلة . اللهم الا أن يقال : اننا ربما دافعنا عن أنفسنا حينما اعتدى علينا أحد . ذلك أيضاً

قد مضت عليه سنون وأعوام طويلة . أما اليوم فقد أظهرنا براءتنا من ذلك أيضاً .
ومن أجل ذلك نسختنا الجهاد رسمياً ذلك الجهاد الممقوت الذي يعمل فيه السيف
عمله . حتى لا يقلق بالكم ولا يقض عليكم المضجع . فما الجهاد اليوم الا
مواصلة الجهود باللسان والقلم ، وليس لنا الا أن نلعب بمهرقات الألسنة وأسته
الأقلام . أما المدافع والدبابات والرشاشات وغيرها من آلات الحرب واستخدامها ،
فأنتم أحق بها وأهلها .

هذه مكايدهم السياسية التي كشفنا لك القناع عن بعضها فيما تقدم . لكننا
إذا معنا النظر في المسألة من الوجهة العلمية ، ودققنا النظر في الأسباب التي أشكل
لأجلها استجلاء حقيقة (الجهاد في سبيل الله) ، واستكناه سرها على المسلمين
أنفسهم فضلاً عن غير المسلمين ، لآح لنا أن مرجع هذا الخطأ الى امرين مهمين
لم يسبروا غورهما ، ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة .

(فالأول : أنهم ظنوا الاسلام نَحْلَة (Religion) بالمعنى الذي تطلق عليه كلمة
النَحْلَة (Religion) عامة . .

والثاني أنهم حسبوا المسلمين أمة (Nation) بالمعنى الذي تستعمل فيه هذه الكلمة
في عامة الأحوال .

فالحقيقة أن خطأ القوم في فهم هذين الأمرين المهمين ، وعدم استجلائهم
لوجه الحق في هاتين المسألتين الأساسيتين هو الذي شوه وجه الحقيقة الناصعة في
هذا الشأن ، وعاقبهم عن ادراك مغزى الجهاد الاسلامي . بل الحق - والحق أحق
أن يتبع - أن هذا الخطأ الأساسي في فهم هاتين المسألتين قد أرخى سدوله على
حقيقة الدين الاسلامي بأسره ، وقلب الأمر ظهراً لبطن ، وجعل موقف المسلمين
من العالم ومسائله المتجددة ومشاكله المتشعبة حرجاً ضيقاً ، لا يرضاه الاسلام وتعاليمه
الخالدة :-

فالنَحْلَة (Religion) على حسب الاصطلاح الشائع عندهم ، لا يراد بها الا
مجموعة من العقائد والعبارات والشعائر . ولا جرم ان (النَحْلَة) بهذا المعنى لا تعدو

أن تكون مسألة شخصية . فأنت حر فيما تختاره من العقيدة ، ولك الخيار في أن تعبد بأي طريق شئت من رضىت به رباً لنفسك . وإن أبت نفسك إلا التحمس لهذه النحلة والانتصار لعقيدها فلك أن تحترق الأرض ، وتجوب بلاد الله الشاسعة داعياً الى عقيدتها ، مدافعاً عن كيانها بالحجج والبراهين ، مجادلاً من يخالفونك فيها بمرهفات الألسنة واسعة الأقلام ، أما السيف وآلات الحرب والقتال ، فما لك وما لك في هذا الشأن ؟ أتريد أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك ؟ وإن كان الاسلام نيحة (Religion) كتنحّل العالم ، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم كما يزعمون ، فالظاهر أنه لا شأن فيها للسيف وأدوات الحرب ، كما قالوا . ولو كان موقف الاسلام في نفس الأمر كما زعموا ووصفوا لما كان فيه مسأغ للجهاد ، ولم يكن من الاسلام في ورد ولا صدر ، لكن الأمر على خلاف ذلك كما نعرفه فيما يأتي من البيان ، وكذلك كلمة الأمة (Nation) فما هي الا عبارة عن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها (Homogeneous Group of Men) اجتمعت وتألفت وامتازت من بين طوائف أخرى لاشتراكها في بعض الأمور الجوهرية . فالطائفة التي تكون (أمة) بهذا المعنى لا يبعثها على استخدام السيف إلا أمران : أما أن يعتدى عليها أحد ، ويريد أن يسلبها حقوقها المعروفة وأما أن تحمل هي بنفسها على طائفة أخرى لتنتزع من يدها حقوقها المعروفة . ففي الصورة الأولى منهما لها سعة في الامر وهي لا تخلو من وازع خلقي يلجئها الى استخدام السيف والبطش بمن اعتدى عليها . وإن كان بعض المشدقين بالأمن والسلام لا يبيح ذلك أيضاً . — أما الصورة الثانية — أي الاعتداء على حقوق غيرها والاغارة على الشعوب والأمم من غير ما سبب — فلا يبيحها غير الجبابرة المسيطرين — (Dictators) حتى إن ساسة الدول الكبرى كبريطانيا وأميركا أيضاً لا يقدرّون أن يجترؤا على القول بجوازها .

فإن كان الاسلام (نحلة) كالنحل الأخرى ، والمسلمون (أمة) كغيرهم من أمم العالم ، فلا جرم ان (الجهاد) الاسلامي يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التي جعلته رأس العبادات ودرّة تاجها .. لكن الحقيقة ان الاسلام ليس بنحلة

كالتحل الرائجة وأن المسلمين ليسوا بأمة كأمم العالم .. بل الأمر أن الاسلام فكرة
انقلابية (Revolutionary) ومنهاج انقلابي يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي
بأسره وبأقي بنيانه من القواعد ، ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه
العملي.. ومن هناك تعرف أن لفظ (المسلم) وصف للحزب الانقلابي العالمي
(International Revolutionary Party) الذي يكونه الاسلام ، وينظم صفوفه
ليكون اداة في احداث ذلك البرنامج الانقلابي الذي يرمي اليه الاسلام ، ويطمح
اليه ببصره. والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابي (Revolutionary Struggle) عن
تلك الحركة الدائمة المستمرة التي يقام بها للوصول الى هذه الغاية. وادراك هذا المبتغى.
والاسلام يتجنب الكلمات الشائعة في دعوته وبيان منهاجه العلمي - شأن
غيره من الدعوات الفكرية والمناهج الانقلابية - بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات
(Terminology) خاصة ، لتلايق الالتباس بين دعوته وما اليها من الافكار
والتصورات ، وبين الافكار والتصورات الشائعة الرائجة ..

(فالجهد) ايضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الاسلام لاداء مهمته وتبيين
تفاصيل دعوته . فانت ترى ان الاسلام قد تجنب لفظة (الحرب) وغيرها من
الكلمات التي تؤدي معنى القتال (War) في اللغة العربية . واستبدل بها كلمة
(Struggle) في اللغة الانكليزية . غير أن لفظة (الجهاد) ابلغ منها تأثيراً وأكثر منها
احاطة بالمعنى المقصود . فما الذي أفضى بالاسلام الى أن يختار هذه الكلمة
الجديدة صارفاً بوجهه عن الكلمات القديمة الرائجة ؟ الذي أراه واجزم به أنه ليس
لذلك الا سبب واحد : وهو أن لفظة الحرب (War) كانت ولا تزال تطلق على
القتال الذي ينشب لميبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية
وأغراض ذاتية . والغايات التي ترمي اليها امثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون
مجرد اغراض شخصية أو اجتماعية ، لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ.
وبما أن القتال المشروع في الاسلام ليس من قبيل هذه الحروب ، لم يكن له بد
من ترك هذه اللفظة (الحرب) البتة . فان الاسلام لا ينظر الى مصلحة أمة دون
أمة ، ولا يقصد الى النهوض بشعب دون شعب وكذلك لا يهتم في قليل ولا كثير

أن تملك الأرض وتستولي عليها هذه المملكة أو تلك ، وإنما تهمه سعادة البشر وفلاحهم . وله فكرة خاصة ومنهاج عملي مختار لسعادة المجتمع البشري والصعوبة به إلى معارج الفلاح . فكل حكومة مؤسسة على فكرة غير هذه الفكرة ، ومنهاج غير هذا المنهاج ، يقاومها الاسلام ، ويريد أن يقضي عليها قضاءً مبرماً ، ولا يعنيه في شيء بهذا الصدد أمر البلاد التي قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية أو الأمة التي ينتمي اليها القائمون بأمرها . فإن غايته استعلاء فكرته وتعميم منهاجه ، وإقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على أساس هذه الفكرة وهذا المنهاج ، بصرف النظر عن يحمل لواء الحق والعدل بيده ومن تنتكس راية عدوانه وفساده . والاسلام يتطلب (الأرض) ولا يقنع بقطعة أو جزء منها وإنما يتطلب ويستدعي المعمورة كلها . ولا يتطلبها لتستولي عليها وتستبد بمنابع ثروتها أمة بعينها ، بعدما تنتزع من أمة أو من أمم شتى ، بل يتطلبها الاسلام ويستدعيها ليستمتع الجنس البشري بأجمعه بفكرة السعادة البشرية ومنهاجها العملي اللذين أكرمهم الله بهما ، وفضله بهما على سائر الأديان والشرائع . وتحقيقاً لهذه الغاية السامية يريد الاسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن استخدامها لاجداث انقلاب عالمي شامل ، ويبدل الجهد المستطاع للوصول إلى هذه الغاية العظمى ، ويسمى هذا الكفاح المستمر ، واستنفاد القوى البالغ واستخدام شتى الوسائل المستطاعة (بالجهاد) . فالجهاد كلمة جامعة شاملة تشمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد . وإذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت : أن تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم وتزعاجهم واجداث انقلاب عقلي وفكري بواسطة مرهقات الاقلام نوع من أنواع الجهاد ، كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد السيوف ، وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنصفة أيضاً من أصناف الجهاد . وكذلك بذل الاموال ، وتحفيز المشاق ، ومكابدة الشدائد أيضاً فصول وأبواب مهمة من كتاب (الجهاد) العظيم . .

ولكن الجهاد الاسلامي ليس بجهاد لا غاية له ، وإنما هو الجهاد في سبيل الله ، وقد لزمه هذا الشرط لا ينفك عنه أبداً . وذلك أيضاً من الكلمات التي اصطلح

عليها الاسلام لتبين فكرته وايضاح تعاليمه كما اشرت اليه آنفاً . وقد اتخذ كثير من الناس بمذلوله اللغوي الظاهر ، وحسبوا ان اخضاع الناس لعقيدة الاسلام واكراههم على قبولها هو (الجهاد في سبيل الله) . وذلك أن ضيق صدرهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم يعوقهم أن يسموا بأنفسهم فوق ذلك ويخلفوا في سماء أوسع من سماتهم . لكن الحق أن (سبيل الله) في المصطلح الاسلامي أرحب وأوسع بكثير مما يتصورون ، وأسمى غاية وأبعد مراماً مما يظنون ويزعمون ..

سبح فالدلي يتطلبه الاسلام انه اذا قام رجل ، أو جماعة من المسلمين ، تبدل جهودها ، وتستنفد مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة ، وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الاسلامية ، فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض ، مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية ، لا تقصد من ورائها جهودها ، وما تبدل في سبيل غايتها من النفوس والنفائس الا تأسيس نظام عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس ، ولا تبتغي بها بدلاً في هذه الحياة القانية ، ولا يكون من هم الانسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لاعلاء كلمة الله أن ينال جاهاً وشرفاً أو سمعة وحسن أحدىته . ولا يخطر بباله أثناء هذه الجهود البالغة والمسااعي الغالية أن يسمو بنفسه وعشيرته ، ويستبد بزمam الأمر ، ويتبوأ منصب الطواغيت الفجرة . بعدما يعزل غيره من الجبابرة المستكبرين عن مناصبهم . وما هوذا القرآن الكريم يتادي بملء صوته :

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ..)
(النساء : ٧٦) .

وقد تضمنت الآية الكريمة (يا أيها الناس اعبدوا ويحكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) (البقرة : ٢١) ...

لباب هذه الدعوة ، دعوة الاسلام الانقلابية وجوهرها . فانه لا يخاطب سكان هذه الكرة باسم الممال . أو الفلاحين ، أو الملاكين ، أو المتمولين من أصحاب المعامل والمصانع ، ولا يسميهم بأسماء أحزابهم وطبقاتهم . وإنما يخاطب الاسلام

بني آدم كافة . ولا يناديهم كذلك الا بصفة كونهم أفراد الجنس البشري فهو يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ، ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره . وكذلك يدعوهم ألا يعتوا عن أمر ربهم ، ولا يستنكفوا عن عبادته ، ولا يتكبروا في أرض الله بغير الحق ، فإن الحكم والامر لله وحده ، وبيده مقاليد السماوات والأرض ، فلا يجوز لأحد من خلقه ، كائناً من كان ، أن يعلو في الأرض ويتكبر ، ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويدعوا لأمره وينقادوا لجبروته . ودعوته لهم جميعاً أن يخلصوا دينهم لله وحده فيكونوا سواء في هذه العبودية الشاملة ، كما ورد في التتزيل :

٦ (تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) (آل عمران : ٦٤) .

فهذه دعوة الى انقلاب عالمي شامل : لا غموض فيها ولا ابهام . فانه قد نادى بملء صوته :

✽ (ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه . ذلك الدين القيم) .. (يوسف : ٤٠) فلبس لأحد من بني آدم أن ينصب نفسه ملكاً على الناس ومسيطر عليهم ، يأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد . ولا جرم ان استقلال فرد من أفراد البشر بالأمر والتهي من غير أن يكون له سلطان من الملك الأعلى ، هو تكبر في الأرض على الله بغير الحق ، وعتو عن أمره وطموح الى مقام الالهية ^(١) . والذين يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت لهم ملوكاً وامراء انما يشركون بالله ، وذلك مبعث الفساد في الأرض ، ومنه تنفجر بناييع الشر والطغيان .

انقلاب اجتماعي :

✽ ان دعوة الاسلام الى التوحيد وعبادة الله الواحد ، لم تكن قضية كلامية .

(١) ولا يختلف الحال لو كانت هيئة ، أو كان (الشعب) هو الذي ينشئ شراسته من غير سلطان من الملك الاعلى .. فالهجرة هي بهذا القيد .. سواء كان المشرع فرداً أم جماعة أم شعباً .

أو عقيدة لاهوتية فحسب . شأن غيره من النحل والملل ، بل الأمر أنها كانت دعوة الى انقلاب اجتماعي (Social Revolution) أرادت في أول الأمر ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الالهوية ، واستعبدوا الناس بحيلهم ومكائدهم المختلفة فمنهم من تبوأ مناصب السدنة والكهان ، ومنهم من استأثر بالملك والإمرة . وتحكم في رقاب الناس ، ومنهم من استبد بمنابع الثروة وخيرات الأرض ، وجعل الناس عالة عليهم يتكففون ولا يجدون ما يتبلغون به . . فأرادت دعوة الاسلام ان تقطع دابرهم جميعاً وتستأصل شأفتهم استئصالاً . . وهؤلاء تارة تسنموا قمة الالهوية جهراً وعلانية ، وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يدعوا لأمرهم ، وينقادوا لخبيرتهم ، مستندين الى حقوقهم التي ورثوها عن آبائهم ، أو استأثرت بها الطبقة التي ينتمون اليها ، فقالوا : (ما علمت لكم من إله غيري) . . (وأنا ربكم الأعلى) . . (وأنا أحبي واميت) . . (ومن أشد منا قوة ٢) . . الى غيرها من كلمات الاستكبار ودعوى الالهوية التي تفوها بها ونجاسوا عليها بغيّاً وعدواناً . وطوراً استغلوا جهل الدهماء وسفههم ، فاتخذوا من الاصنام والتمائيل والهيكل آلهة ، يدعون الناس ويريدونهم على اداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيل والهيكل متوارين بأنفسهم من ورأها ، يلعبون بعقول الناس ، ويستعبدونهم لأغراضهم وشهواتهم وهم لا يشعرون . فيتين من ذلك أن دعوة الاسلام الى التوحيد ، وإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، وتنديده بالكفر والشرك بالله واجتناب الأوثان والطواغيت . كل ذلك يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين في أموره . والذين يجدون فيها سنداً لهم ، وعوناً على قضاء حاجاتهم وأغراضهم . . ومن ثم ترى أنه كلما قام نبي من الانبياء يهاجر الناس بالدعوة ، وتحط بهم قائللاً (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . . قامت في وجهه الحكومات المتمكنة في عصره ، وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها ظلماً وعدواناً . . خرجت تقاومه وتضع في سبيل الدعوة العقبات . وذلك أن هذه الدعوة لم تكن مجرد بيان لعقيدة كلامية . أو شرح لمسألة من مسائل الإلهيات (Metaphysical Proposition) وإنما كانت نداء لانقلاب اجتماعي عالمي ، ما كانت بوادره لتخفى على المستأثرين

بمناصب العز والجاه ، المستبدين بمنايع الثراء ، ممن يشمون رائحة الاضطراب السياسي قبل حدوثه بأعوام .

نظام شامل :

ان الاسلام ليس بمجرد مجموعة من العقيدة الكلامية ، وجملة من المناسك والشعائر ، كما يفهم من معنى الدين في هذه الأيام . بل الحق أنه نظام شامل يريد أن يقضي على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم ويقطع دابرها ، ويستبدل بها نظاماً صالحاً ، ومنهاجاً معتدلاً يرى انه خير للانسانية من النظم الأخرى ، وأن فيه نجاة للجنس البشري من أدواء الشر والظفیان ، وسعادة له وفلاحاً في العاجلة والآجلة معاً . .

ودعوته في هذه السبيل ، سبيل الإصلاح والتجديد والهدم والبناء ، عامة للجنس البشري كافة ، لا تختص بأمة دون أمة ، أو طائفة دون طائفة . فهو يدعو بني آدم جميعاً الى كلمته ، حتى أنه يهيب بالطبقات الجائرة نفسها من اعتدوا حدود الله في أرضه ، واستأثروا بخيرات الأرض دون سائر الناس . يهيب بالملوك والأمراء أنفسهم ويناديهم قائلاً : لا تطغوا في الأرض وادخلوا في كنف حدود الله التي حددها لكم . وكفوا ايديكم عما نهاكم الله عنه وحذركم اياه . فان اسلمتم لأمر الله ، ودتم لنظام الحق والعدل الذي أقامه للناس خيراً وبركة فلكم الأمن والدعة والسلامة فان الحق لا يعادي أحداً وانما يعادي الحق الجور ، والفساد والفحشاء ، وأن يتعدى الرجل حدوده القطرية . ويتغنى ما وراء ذلك ، مما لاحظ له فيه حسب سنن الكون ، وفطرة الله التي فطر الناس عليها .

فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلها بقبول حسن ، يصير عضواً في (الجماعة الاسلامية) أو (الحزب الاسلامي) لا فرق في ذلك بين الأحمر منهم والأسود ، أو بين الغني منهم والفقير . كلهم سواسية كأسنان المشط : لا فضل لأمة على أمة . أو لطبقة على أخرى . وبذلك يتكون الحزب العالمي أو الأممي ، الذي سمي (حزب الله) بلسان الوحي .

وما ان يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهاد في سبيل الغاية التي أنشئ لأجلها فمن طبيعته ، وما يستدعيه وجوده . أن لا يألو جهداً في انقضاء على نظم الحكم التي أسس بنيتها على غير قواعد الاسلام ، واستئصال شأفتها ، وان يستنفذ مجهوده في أن يستبدل بها نظاماً للعمران والاجتماع معتدلاً ، مؤسماً على قواعد ذلك القانون الوسط العدل الذي يسميه القرآن الكريم : (كلمة الله) . فان لم يبذل هذا الحزب الجهد المستطاع ، ولم يسمع سعيه . ازاء تغيير نظم الحكم واقامة نظام الحق . . نظام الحكم المؤسس على قواعد الاسلام ولم يجاهد حق جهاده في هذه السبيل ، فاتته غايته . وقصر عن تحقيق البغية التي أنشئ لأجلها فانه ما أنشئ الا لادراك هذه الغاية ، وتحقيق هذه البغية . . بغية اقامة نظام الحق والعدل . . ولا غاية له ولا عمل الا الجهاد في هذه السبيل . وهذه الغاية الوحيدة التي يبينها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . . (آل عمران : ١١٠) .

ولا يظن أحد أن هذا الحزب . . (حزب الله) . . بلسان الوحي . . مجرد جماعة من الوعاظ المبشرين ، يعظون الناس في المساجد ، ويدعونهم الى مذاهبهم ومسالكتهم بالخطب والمقالات ليس الا . . ليس الأمر كذلك . وانما هو حزب أنشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل بيده . ويكون شهيداً على الناس . ومن مهمته التي القيت على كاهله من أول يوم أن يقضي على منابع الشر والعدوان . ويقطع دابر الجور والفساد في الأرض والاستغلال الممقوت ، وأن يكبح جماح الآلهة الكاذبة . الذين تكبروا في أرض الله بغير الحق . وجعلوا انفسهم أرباباً من دون الله ، ويستأصل شأفة ألوهيتهم . ويقيم نظاماً للحكم والعمران صالحاً يتفياً ظلالة القاصي والداني والغني والفقير . . والى هذا المعنى اشار الله تعالى في غير واحدة من آي الذكر الحكيم :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) . . (الانفال : ٣٨)

(إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد كبير) .. (الانفال : ٧٣) ..

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .. (التوبة : ٣٣) ..

فتبين من كل ذلك أن هذا الحزب لا بد له من امتلاك ناصية الأمر ، ولا مندوحة له من القبض على زمام الحكم ، لأن نظام العمران الفاسد لا يقوم الا على أساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد في الأرض ، وكذلك ليس من الممكن أن يقوم نظام للحكم صالح ، ويؤتي أكله ، الا بعدما يتزعزع زمام الأمر من أيدي الطغاة المفسدين . وبأخذه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

وأضف الى ذلك أن هذا الحزب ، بصرف النظر عما يرمي اليه من اصلاح العالم ، وبث الخير والفضيلة في انحاء الأرض كافة ، لا يقدر ان يبقى ثابتاً على خطته ، متمسكاً بمنهاجه ، عاملاً وفق مقتضياته ما دام نظام الحكم قائماً على أساس آخر ، سائراً على منهاج غير منهاجه . وذلك أن حزباً مؤمناً بمبدأ ونظام للحياة والحكم خاص ، لا يمكن أن يعيش متمسكاً بمبدئه عاملاً حسب مقتضاه في ظل نظام للحكم مؤسس على مبادئ وغايات غير المبادئ والغايات التي يؤمن بها . ويريد السير على منهاجها . فان رجلاً يؤمن بمبادئ الشيوعية ، ان أراد أن يعيش في بريطانيا أو ألمانيا ، متمسكاً بمبدئه ، سائراً في حياته على البرنامج الذي تقرره الشيوعية فلن يتمكن من ذلك أبداً ، لأن النظم التي تقررها الرأسمالية أو الناتسية تكون مهيمنة عليه . قاهرة بما أوتيت من سلطان فلا يمكنه أن يتخلص من برائتها أصلاً . . . وكذلك إن أراد المسلم أن يقضي حياته مستظلاً بنظام للحكم مناقض لمبادئ الاسلام الخالده وبوده أن يبقى متمسكاً بمبادئ الاسلام . سائراً وفق مقتضاه في أعماله اليومية ، فلن ينسئ له ذلك . ولا يمكنه أن ينجح في بغيته هذه أبداً . لأن القوانين التي يراها ياطلة ، والضرائب التي يعتقدونها غراماً ونهباً لأموال الناس ، والقضايا التي يحسبها جائرة عن الحق واقتنائاً على العدل ،

والنظم التي يعرف أنها مبعث الفساد في الأرض ومناهج التعليم التي يحزم بوخامة عاقبتها وسوء نتائجها ، ويرى فيها هلاكاً للأمة . . يجد كل هذه مهمة عليه ، ومسيطرة على بيئته وأهله وأولاده ، بحيث لا يمكنه أن يتخلص من قيودها ويتجوز بنفسه وأهله من أثرها ونفوذها . فالذي يؤمن بعقيدة ونظام - فرداً كان أو جماعة . مضطرب بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى سعيه في القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته . ويبذل الجهد المستطاع في إقامة نظام للحكم مستند إلى الفكرة التي يؤمن بها ويعتقد أن فيها سعادة للبشر . لأنه لا يتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير على منهاجه إلا بهذه الطريق . وإذا رأيت رجلاً لا يسعى وراء غايته ، أو يغفل عن هذا الواجب ، فاعلم أنه كاذب في دعواه . ولما يدخل الإيمان في قلبه وبهذا المعنى ورد في التنزيل :

(عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين . لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . والله عليم بالمتقين . . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . وأرتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) . . (التوبة : ٤٣-٤٥) ..

وأي شهادة أصدق ، وأي حجة أنصح من شهادة القرآن وحجته ؟ ففي هذه الآيات من سورة براءة قد نص القرآن الكريم على أن الذي لا يلي نداء الجهاد . ولا يجاهد بماله ونفسه في سبيل إعلاء كلمة الله ، وإقامة الدين الذي ارتضاه لنفسه . وتوطيد نظام الحكم المبني على قواعده ، فهو في عداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأرتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ..

انقلاب عالمي :

لعلك تبين فيما أسلفنا آنفاً أن غاية (Objective) الجهاد في الاسلام ، هي هدم بنیان النظم المناقضة لمبادئه ، وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الاسلام في مكانها واستبدالها بها . وهذه المهمة .. مهمة احداث انقلاب اسلامي عام . غير منحصرة في قطر دون قطر . بل مما يريده الاسلام ، ويضعه نصب عينيه أن يحدث

هذا الانقلاب الشامل في جميع أنحاء المعمورة .. هذه هي غايتها العليا ، ومقصده
الأسمى الذي يطمح اليه ببصره . الا أنه لا مندوحة للمسلمين ، أو أعضاء
(الحزب الاسلامي) عن الشروع في مهمتهم بإحداث الانقلاب المنشود ،
والسعي وراء تغيير نظم الحكم في بلادهم التي يسكنونها . أما غايتهم العليا وهدفهم
الأسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل (World Revolution) المحيط بجميع
أنحاء الأرض ، وذلك أن فكرة انقلابية لا تؤمن بالقومية ، بل تدعو الناس جميعاً
الى سعادة البشر وفلاح الناس أجمعين . لا يمكنها أصلاً أن تضيق دائرة عملها
في نطاق محدود من أمة أو قطر . بل الحق أنها مضطرة بسجيها وحيثياتها أن تجعل
الانقلاب العالمي غايتها التي تضعها نصب عينيها ، ولا تغفل عنها طرفة عين .
فإن الحق يأبى الحدود الجغرافية ، ولا يرضى أن ينحصر في حدود ضيقة اختراعها
علماء الجغرافية واصطلحوا عليها . فالحق يتحدى العقول البشرية التزنية ، ويقول
لها مطالباً بحقه : ما بالكم تقولون : ان القضية الفلانية (حق) في هذا الجانب
من ذاك الجبل أو النهر مثلاً ، ثم تعود القضية نفسها (باطلاً) — بزعمكم —
اذا جاوزنا ذلك الجبل أو النهر بأذرع ؟ الحق حق في كل حال وفي كل مكان .
وأي تأثير للجبال والأنهار في تغيير حقيقته المعنوية ؟ الحق ظلل وارفع ، وخيره عام
شامل ، لا يختص ببيئة دون بيئة ، ولا قطر دون قطر فأينما وجد (الانسان)
مقهوراً فالحق من واجبه أن يدركه ويأخذ بحقه ويتنصر له . ومهما أصيبت
(الانسانية) في ابنائها المستضعفين ، فعلى العدل ومبادئه والحاملين للوائه أن
يلبوا نداءها . ويأخذوا بناصرهم حتى ينتصروا لهم من أعدائهم الجائرين . ويستردوا
لهم حقوقهم المغصوبة التي استبد بها الطغاة بغياً وعدواناً . وبهذا المعنى نطق لسان
الوحي حيث ورد في التنزيل :

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان
الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) . (النساء : ٧٥) .
وزد على ذلك أن الأواصر البشرية والعلاقات الانسانية — على ما أثرت فيها
القوارق القومية والوطنية ، وأحدثت فيها من نزعات الثنات والاختلاف — قد
تشتمل على تلاؤم شامل ، وتجانس عام بين أجزائها ، ربما يتعذر معه أن تسير
مملكة في قطر بعينه بحسب مبادئها وخططها المرسومة المستبينة ، ما دامت الاقطار
المجاورة لها لا توافقها على مبادئها وخططها ، ولا ترضى بالسير وفق منهاجها

وبرنامجها^(١) . من أجل ذلك وجب على الحزب المسلم ، حفظاً لكيانه ، وإبتغاء
للاصلاح المنشود ، ألا يقنع بأقامة نظام الحكم الاسلامي في قطر واحد بعينه
بل من واجبه الذي لا مناص له منه بحال من الأحوال ، الا يدخر جهداً في
توسيع نطاق هذا النظام وبسط نفوذه في مختلف أرجاء الأرض . ذلك بأن يسعى
الحزب الاسلامي ، في جانب ، وراء نشر الفكرة الاسلامية ، وتعميم نظرياتها
الكاملة ، ونشرها في اقصى الأرض وأدناها ويدعو سكان المعمورة— على اختلاف
بلادهم وأجناسهم وطبقاتهم أن يتلقوا هذه الدعوة بالقبول ، ويدينوا بهذا المنهج
الذي يضمن لهم السعادتين ، سعادتي الدنيا والآخرة . . . وبجانب آخر ، يشمر عن
ساق الجحد ، ويقاوم النظم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل بالقوة ، اذا استطاع
ذلك وأعد له عدته ، ويقيم مكانها نظام العدل والنصفة . المؤسس على قواعد الاسلام
ومبادئه الخالدة التي لا تبلى ، ولن تبلى جذتها على مرور الأيام والليالي .

هذه هي الخطة التي سلكها . وهذا هو المنهج الذي انتهجه النبي صلى الله
عليه وسلم ومن جاء بعده ، وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين ، فانهم بدأوا ببلاد
العرب . ثم أشرقت شمس الاسلام من آفاقها . واخضعوها أولاً لحكم الاسلام ،
وأدخلوها في كنف المملكة الاسلامية الجديدة . ثم دعا النبي صلى الله عليه وسلم
الملوك والامراء والرؤساء في مختلف بقاع الأرض الى دين الحق والاذعان لأمر الله .
فالذين آمنوا بهذه الدعوة انضموا الى هذه المملكة الاسلامية وأصبحوا من أهلها ،
والذين لم يلبوا دعوتها ولم يتقبلوها بقبول حسن شرع في قتالهم وجهادهم . . . ولا
استخلف أبو بكر رضي الله عنه ، بعد وفاته صلى الله عليه وسلم والتمحاقه بالرفيق
الأعلى ، حمل على المملكتين المجاورتين للمملكة الاسلامية . مملكتي الروم والفرس .
اللتين بلغ من عتوهما وتماديهما في الغي والاستكبار في الأرض ما طبقت شهرته الآفاق .
وبلغت هذه الحملات التي بدأ بها الصديق — رضي الله عنه — غايتها في عصر
القاروق الذي يرجع اليه الفضل العظيم في توطيد دعائم المملكة الاسلامية الأولى ،
حتى شمل ظلها الوارف تلك الأقطار جميعاً . . .

(١) وبخاصة اذا كانت هذه المبادئ والمخط هي مبادئ الاسلام وعظمته التي تنتزع للسلطان من كل مشاغل
وترده الى الله وحده . ومن ثم تتجمع في وجهها جميع الانظمة ، وجميع الحكومات ، وجميع المعسكرات
التي تقوم على أساس عبودية البشر للبشر . . القاعدة التي تشترك فيها جميع أنظمة البشر .

الباب العاشر

الشهداء

١ - معنى الشهادة :

ان هذا الدين لا يقوم بغير حراسة ، ولا يتحقق في الأرض بغير جهاد لتأمين العقيدة وتأمين الدعوة وحماية أهله من الفتنة وشريعته من الفساد . وكثيرا من الغش يغطي على الشهادة في سبيل الله عندما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال ، وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص وتنحرف عن معناها الوحيد القويم . انه لا جهاد ، ولا شهادة ولا جنة الا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده ، والموت في سبيله وحده والنصرة له وحده في ذات النفس في منهج الحياة . لا جهاد ولا شهادة ولا جنة الا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا وأن تبين شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء . عن أبي موسى رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء . أي ذلك في سبيل الله . قال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (رواية الشيخان وأبو داود والترمذي) وليس هناك من راية أخرى أو هدف آخر يجاهد في سبيله من يجاهد ويستشهد دونه من يستشهد فيحق له وعد الله بالجنة . الا تلك الرية والا هذا الهدف من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة من غير هذا التصور ومن

رايات وأسماء وغايات . ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفظة البديهة وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطلق البيئية وتصور الأجيال المنحرفة ، ألا يلبسوا برايتهم راية ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على طبيعة العقيدة . لا جهاد الا لتكون كلمة الله هي العليا . العليا في النفس والضمير . والعليا في الخلق والسلوك . والعليا في الأوضاع والنظم . والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة .. وما عدا هذا فليس لله . ولكن للشيطان . وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد . وفيما عدا هذا ليس هناك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام . وإنما هو الغش وسوء التصرف والانحراف . فلا أقل من أن يخلص الدعوة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطلق البيئية الذي لا يتفق مع البديهة الأولى في شرط الله .

والشهداء مختارون يختارهم الله من بين المجاهدين ويتخذهم لنفسه سبحانه (ويتخذ منكم شهداء) .. فما هي اذن خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد . إنما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص . ان هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة ليستخلصهم لنفسه سبحانه ويخصهم بقربه . ثم هم شهداء يتخذهم الله ويستشهدهم على هذا الحق الذي بحث به الناس . يستشهدهم فيؤدون الشهادة ، يؤدونها أداء لا شبهة فيه ولا مطعن عليه ولا جدال حوله . يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل احقاق هذا الحق وتقريره في دنيا الناس يطلب الله سبحانه منهم أداء هذه الشهادة على أن ما جاءهم من عنده الحق ، وعلى أنهم آمنوا به وتجردوا له وأعزوه حتى أخصوا كل شيء دونه ، وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم الا بهذا الحق ، وعلى أنهم هم استبقوا هذا فلم يألوا جهدا في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس واقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس .. يستشهدهم الله على هذا فيشهدون . وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت . وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال . وكل من ينطق بالشهادتين : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله لا يقال له أنه شهد ، الا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها . ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلهاً . ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله .

فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد ، وأخص خصائص العبودية التلقي من الله .
ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد بما أنه رسول الله . ولا يعتمد مصدرا
آخر للتلقي إلا هذا المصدر ، ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد اذن لتصبح الألوهية
لله وحده في الأرض كما بلغها محمد صلى الله عليه وسلم . فيصبح المنهج الذي أراده
الله للناس والذي بلغه عنه محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج السائد والغالب
والمطاع . وهو النظام الذي يصرف حياة الناس كلها بلا استثناء .. فإذا اقتضى هذا
الأمر أن يموت في سبيله هو اذن شهيد أي شاهد .. طلب الله إليه أداء هذه الشهادة
فأداها واتخذ الله شهيدا .. ورزقه هذا المقام (والشهداء عند ربهم لهم أجرهم
ونورهم) .

٢ - حياة الشهداء :

ليس هناك شهداء إلا الذين يقتلون في سبيل الله خالصة قلوبهم لهذا المعنى
مجردة من كل ملابسة أخرى . وهؤلاء الشهداء أحياء .. لهم كل خصائص الأحياء
فهم يرزقون عند الله وهم يفرحون بما آتاهم الله من فضله . وهم يستبشرون بمصائر
من ورائهم من المؤمنين . فهذه خصائص الأحياء : من متاع واستبشار واهتمام
وتأثر وتأثير . فما الحسرة على فراقهم وهم أحياء فوق ما نالهم من فضل الله وفوق ما
لقوا عنده من الرزق والمكانة ..

وان جلاء هذه الحقيقة الكبيرة أمام دعاة هذا الدين وأمام المؤمنين ذو قيمة
ضخمة في تصور الأمور . أنها تعدل بل تنشئ إنشاء تصور المسلم للحركة الكونية
التي تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها وهي موصولة لا تنقطع . فليس الموت خاتمة
المطاف . أنها نظرة جديدة ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين واستقبالهم للحياة
والموت وتصورهم لما هنا وما هناك (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء
عند ربهم يرزقون) والآية القرآنية نص في النهي عن حساب أن الذين قتلوا في سبيل
الله وفارقوا هذه الحياة وبعدوا عن أعين الناس .. أموات .. ونص كذلك في إثبات
أنهم أحياء عند ربهم . ومع أننا نحن في هذه القافية لا نعرف نوع الحياة التي يجيها
الشهداء إلا ما يبلغنا من وصفها في الأحاديث الصحاح .. إلا ان النص الصادق من
العلم الخبير كفيل وحده بأن يغير مفاهيمنا للموت والحياة وما بينهما من انفصال

والشأن. وكفيل وحده بأن يعلمنا أن الأمور في حقيقتها ليست كما هي في ظواهرها التي ندركها . فهؤلاء ناس منا يقتلون وتفارقهم الحياة التي نعرف ظواهرها ولكن لأنهم (قتلوا في سبيل الله) وتجردوا له من كل الأغراض والأغراض الجزئية الصغيرة واتصلت أرواحهم بالله فجادوا بأرواحهم في سبيله .. لأنهم قتلوا كذلك فإن الله سبحانه يخبرنا في الخبر الصادق أنهم ليسوا أمواتا وبينها أن نحسبهم كذلك ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده وأنهم يرزقون فيتلقون رزقه لهم استقبال الأحياء ويخبرنا كذلك بما لهم من خصائص الحياة الأخرى (فرحين بما آتاهم الله من فضله) ..

انهم أحياء .. فما الذي يجعل هذه النقلة موضع حسرة وفقدان ووحشة . وهي أولى أن تكون موضع غبطة ورضى وأنس عن هذه الرحلة إلى جوار الله .. هذا هو الطريق .. تعديل كامل لمفهوم الموت متى كان في سبيل الله وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم . وافساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة وحيث تستقر في مجال فسيح عريض لا تعرضه الحواجز التي تقيمه هذه الآفة الكريمة ونظائرها من القرآن في قلوب المسلمين مارت خطي المجاهدين في سبيل الله . وتستمر خطي المجاهدين في سبيل الله في كل زمان وفي كل مكان .

فهنالك قتل سيخرون شهداء في معركة الحق .. شهداء في سبيل الله . قتل أعزاء وأحباء . قتل كراما أذكىاء . فالذين يخرجون في سبيل الله والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس .. هؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتا .. انهم أحياء فلا يجوز أن يقال عنهم أموات .. لا يجوز أن يعتبروا أمواتا في الحس والشعور . ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان . انهم أحياء يشهادة الله سبحانه . فهم لا بد أحياء .. انهم قتلوا في ظاهر الأمر وحسبما ترى العين . ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة .. ان سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد . وسمة الموت الأولى هي السلبية والحمود والانتقطاع .. وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله فاعليتهم في نصره الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة . والفكرة التي من أجلها

قتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد . وتأثر الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد فهم ما يزالون عنصرا فعالا دافعا مؤثرا في تكييف الحياة وتوجيهها . وهذه هي صفة الحياة الأولى فهم أحياء أولا بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس ثم هم أحياء عند ربهم باعتبار آخر لا ندري نحن كنهه ، وحسبنا اخبار الله تعالى به (أحياء ولكن لا تشعرين) .. لأن كنه هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود .. ولكنهم أحياء .. أحياء .. ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها . فالغسل تطهير للجسد الميت . وهم أطهار بما فيهم من حياة ، وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر لأنهم بعد أحياء .. أحياء فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء . أحياء يشاركون في حياة الأهل والأحباء والأصدقاء .. أحياء فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم ولا يتعاطفها الأمر ولا يهولنها عظم الفداء .. ثم هم من بعد كونهم أحياء مكرمون عند الله ... مأجورون أكرم الأجر وأوفاه ..

في صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قتاديل معلقة تحت العرش . فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد اليهم بمثل هذا . فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا : قالوا نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى تقتل فيك مرة أخرى — لما يرون من ثواب الشهادة — فيقول الرب جل جلاله : إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون) ..

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة (أخرجه مالك والشيخان) . ويقول الله تبارك وتعالى (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) وقد ورد حديث عن تعريف الله الجنة للشهداء رواه الامام أحمد في مسنده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه : تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الخور العين ، ويؤمن من الفرع الأكبر ومن عذاب القبر ويحلى حلة الإيمان) ..

النصرة

١ - حقيقة كبيرة

ان الله تبارك وتعالى يحرض المؤمنين على التجرد له والاتجاه إلى نصرته نهجه في الحياة ويعدهم على هذا النصر والتثبيت (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) .. وكيف ينصر المؤمنون الله ، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ؟ ان الله في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئا ، شركا ظاهرا أو خفيا ، وألا تستبقي فيها معه أحد ولا شيئا ، وأن يكون الله أحب اليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتبوى ، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها وسرما وعلائيتها ونشاطها كله وخلجاتها. فهذا نصر الله في ذوات النفوس . وان الله شريعة ومنهاجا للحياة تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة . ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء فهذا نصر الله في واقع الحياة ..

وانه متى استقرت حقيقة الايمان في نفوس المؤمنين وتمثلت في واقع حياتهم منهاجا للحياة ونظاما للحكم وتجردا لله في كل خاطرة وحركة وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .. وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الاسلامي كله واقعة واحدة تحالفها .. ونحن نقرر في ثقة بوعده الله لا

يجالها شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان — أما في الشعور وإما في العمل — ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله ، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة — وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ثم يعود النصر للمؤمنين — حين يوجدون ..

ففي أحد مثالا كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي الطمع في الغنيمة . وفي حين كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والاعجاب بها ونسيان السند الأصيل .. ولو ذهبنا نتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا .. نعرفه أو لا نعرفه .. أما وعد الله فهو حق في كل حين .. نعم أن المحنة قد تكون للابتلاء .. ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة هي استكمال حقيقة الإيمان ومقتضياته من الأعمال . فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين .. ويجب أن نفهم أن الهزيمة هي هزيمة الروح وكلال العزيمة .. فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس همودا وكلالا وقنوطا ، فأما إذا بعثت الهمة وأذكت الشعلة وبصرت بالمزلق وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق .. فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد والله الذي يقول : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) وإنما يشير سبحانه إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر والفكرة المؤمنة هي التي تسود . وإنما يدعو سبحانه الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصورا وشعورا ، وفي حياتها واقعا وعملا .. وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها . فالنصر ليس للعناوين وإنما هو للحقيقة التي وراءها .. وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك .. ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة . ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء وألا نطلب العزة إلا من الله .. ووعد الله هذا الأكيد يتفق تماما مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر .. في هذا الكون إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى التي لا تضعف ولا تفنى .. وإن الكفر انقطاع عن تلك

القوة ويعرّض عنها .. ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون . غير أنه يجب أن تفرق دائماً بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان ..

ان حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النوااميس الكونية ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل . وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيفة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها . ولكن حين يتحول الإيمان الى مظهر فإن حقيقة الكفر تغلبه إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها .. لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهر أي شيء .. ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان .. ان قاعدة المعركة لقهر الباطل هي انشاء الحق وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون (بل تغلف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) .

والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول . فما يتحقق النصر في عالم الواقع الا بعد غمائه في عالم الضمير ، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر الا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن .. ان للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية . فاذا ظل الإيمان مظهر لم يتجسم في القلب ، والحق شعاعاً لا ينبع من الضمير . فان الطغيان والباطل قد يغلبان ، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان .. يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب ، فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ، ويصول بها الطغيان .

٢ - إعداد العدة :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون) (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) .

ان الإسلام يتخذ للنصر عدته الواقعية التي تدخل في طرق العصبية المسلمة
فلا استعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد (وأعدوا لهم ما استطعتم
من قوة) . انه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الانسان ، وأول
ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة : أن تؤمن الذين يختارون العقيدة على حريتهم
في اختيارها فلا يصدوا عنها ، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها . والأمر الثاني أن
تذهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على دار الاسلام التي تحميها تلك
القوة . والأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في
وجه المد الإسلامي وهو ينطلق لتحرير الانسان كله في الأرض كلها . والأمر الرابع
أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية فتحكم الناس
بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده . ومن ثم فالحاكمة لله وحده
سبحانه .

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب
وتنظيما للشعائر ثم تنتهي مهمته . ان الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه مناهج
أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية ، فلا مفر للإسلام لإقرار
منهجه الرباني من تحطيم تلك القوى المادية وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج
الأخرى وتقاوم المنهج الرباني . وينبغي للدعاية ألا يتمم وهو يعلن هذه الحقيقة
الكبيرة ، ينبغي أن يستشعر بالعزة . ينبغي أن يذكر الدعاة دوما أن الإسلام حين
ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الانسان بتقرير ألوهية الله وحده
وتحطيم ألوهية العبيد . انه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ولا تقرير سلطان زعيم
أو دولة أو طبقة أو جنس . انه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف
كالرومان ، ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية ، ولا لفرض
مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية ،
إنما ينطلق الدعاة بمنهج من صنع الله العليم الخبير الحكيم البصير . ولتقرير ألوهية الله
وحده وسلطانه لتحرير الانسان في الأرض من العبودية للعبيد . هذه هي الحقيقة
الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع وهم

يتمتمون ويجمعون للاعتذار عن المد الإسلامي والجهاد الإسلامي .. إذن يجب إعداد العدة .. وهي في حدود الطاقة إلى أقصاها ، بحيث لا تقعد العصابة المسلمة عن سبب من أسباب القوة تدخل في طاقتها . والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين ولتكون كلمة الله هي العليا وليكون الدين كله لله .. انه لا بد من الأخذ بالأسباب والوسائل وبذل آخر ما في الطوق ليستحق المسلم المدد من ربه . فالمد لا يأتي للقاعدين المستريحين المسترخين الذين ينتظرون . ولا يزيدون شيئا عن الانتظار .

والانفاق في سبيل الله هو صنو الجهاد الذي فرضه الله على الأمة المسلمة وهو يكلفها النهوض بأمانة الدعوة اليه وحماية المؤمنين به . ودفع الشر والفساد والظلمين وتجريده من القوة التي يسطو بها على المؤمنين ويفسد بها في الأرض ، ويصد بها عن سبيل الله . ويحرم البشرية ذلك الخير العظيم الذي يحمله اليها نظام الإسلام : والذي يعد حرمانها منه جريمة فوق كل جريمة . واعتداء أشد من الاعتداء على الأرواح والأموال . ولقد تكررت الدعوة إلى الانفاق في سبيل الله في القرآن كثيرا (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) . فلا بد للدعوة من انفاق ، لا بد منه تطهيرا للقلب من الشح واستعلاء على حب الملك وثقة بما عند الله ، وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الايمان . ثم انها ضرورية كذلك لحياة الجماعة . فالدعوة كفاح ، ولا بد من التكافل في هذا الكفاح وجرائره وآثاره . وأحيانا يكون هذا التكافل كاملا بحيث لا يبقى لأحد مال متميز ، كما حدث في أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة ونزولهم على اخوانهم في المدينة .

والمنهج الاسلامي يأخذ النفس من أقطارها وينظم حياة الجماعة المسلمة جملة لا تفريق . وأعظم المعارك التي يخوضها الإسلام في ميدان النفس فتغلب أول ما تغلب على الشح ، فهي تبذل وتتفق في سبيل الله وهي صفة من صفات القوة في المعركة (الذين يتفقون في السراء والضراء) هؤلاء ثابتون على البذل ، ماضون على النهج لا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء ، السراء لا تبطريهم فتلهيهم ، والضراء لا

تضعجرهم فتتسبهم . انما هو الشعور بالواجب في كل حال ، والتحرر من الشح والحرص ومراقبة الله وتقواه . وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها المحبة للمال بفطرته .. ما يدفع النفس إلى الاتفاق في كل حال إلا دافع أقوى من شهوة المال وربقة الحرص وثقله الشح .. دافع التقوى ، ذلك الشعور اللطيف العميق الذي تشف به الروح وتخلص وتنطلق من القيود والأغلال .. لتتفق في سبيل الله (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) إن هذا هو شأن المؤمن لا سواه ، انه لا يتفق إلا ابتغاء وجه الله ، لا يتفق عن هوى ولا عن غرض . لا يتفق وهو يتلفت للناس يرى ماذا يقولون . لا يتفق ليركب الناس بإتفاقه ويتعالى عليهم ويشمخ . لا يتفق ليرضى عنه ذو سلطان أو ليكافئه بنيسان .. لا يتفق الا ابتغاء وجه الله . خالصا متجردا لله ومن ثم يطمئن لقبول الله ، ولبركة الله على ماله ، ويطمئن لثواب الله وعطائه . ويرتفع ويتطهر ويزكو بما أعطى وهو بعد في هذه الأرض وعطاء الآخرة بعد ذلك كله فضل .

٣ — عوامل النصر :

انها سنة الله القديمة في تمحيص المؤمنين واعدادهم ليدخلوا الجنة وليكونوا لها أهلا : أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم وأن يلقوا في سبيلها العنت والألم والشدة والضر ، وأن يترأخوا بين النصر والهزيمة حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم لم تزعزعهم شدة ولم ترهبهم قوة . ولم يهنوا تحت مطارق المحنة والفتنة . استحقوا نصر الله لأنهم يومئذ آمناء على دين الله . مأمونون على ما ائتمنوا عليه : صالحون لصيافته والذود عنه . واستحقوا الجنة لأن أرواحهم قد تحررت من الخوف وتحررت من الذل وتحررت من الحرص على الحياة أو على الدعة والرخاء فهي عندئذ أقرب ما تكون إلى عالم الجنة وأرفع ما تكون عن عالم الطين : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا ان نصر الله قريب) .. هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى ، وهكذا وجهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها وإلى سنته سبحانه في تربية عباده المختارين الذين يكل إليهم رايته وينوط بهم أمانته

ومنهجه وشريعته . وهو خطاب مطرد لكل من يختار هذا الدور العظيم .. وأنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة .. ان هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه .. من الرسول الموصول بالله والمؤمنون الذين آمنوا بالله . ' ان سؤالهم (متى نصر الله ؟) ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة . ولن تكون إلا محنة فوق الوصف تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب فتبعث منها ذلك السؤال المكروب (متى نصر الله) . وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة .. عندئذ تتم كلمة الله ويحيى النصر من الله (ألا ان نصر الله قريب) ..

ان نصر الله مدخر لمن يستحقونه . ولن يستحقه الا الذين يثبتون حتى النهاية : الذين يثبتون على البأساء والضراء . الذين يصمدون للزلزلة . الذين لا يحزنون رؤوسهم للعاصفة الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله ، وعندما يشاء الله .. وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها ، فهم يتطلعون فحسب إلى نصر الله لا إلى أي حل آخر ، ولا إلى أي نصر لا يحيى من عند الله . ولا نصر إلا من عند الله . بهذا يدخل المؤمنون الجنة . مستحقين لها جديرين بها بعد الجهاد والامتحان والصبر والثبات والتجرد لله وخلده والشعور به وحده واغفال كل ما سواه . وكل ما سواه .. ان الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة ويرفعها على ذواتها ويصهرها في بوتقة الألم فيصفو عنصرها ويضيء . ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية . فتتألق حتى في أعين أعدائهم وخصومها وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجا كما وقع . وكما يقع في كل قضية حق . يلقي أصحابها ما يلقون في أول الطريق حتى اذا ثبتوا للمحنة انحاز اليهم كان يحاربهم : وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين .. على أنه حتى إذا لم يقع هذا - يقع ما هو أعظم منه في حقيقته - يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشروورها وفتنتها : وأن تنطلق من أسار الحرص على الدعة والراحة والحرص على الحياة نفسها في النهاية ..

وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها ، وكسب للأرواح التي تصل اليه عن طريق الاستعلاء . كسب يرجع جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانها المؤمنون المؤمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته .. وهذا الانطلاق هو المؤهل

الحياة البخنة في نهاية المطاف .. وهذا هو الطريق .. هذا هو الطريق كما بينه الله سبحانه لكل جماعة مسلمة في كل جيل .. هذا هو الطريق .. إيمان وجهاد .. ومحنة وابتلاء .. وصبر وثبات ، وتوجه الى الله وحده ثم ينجي النصر . ثم ينجي النعم .. أن التدبير تدبير الله والنصر من عند الله . والكثرة العددية ليست هي التي تكفل النصر . والعدة المادية ليست هي التي تقرر مصير المعركة فليثبت الذين آمنوا حين يلقون الذين كفروا . وليتزدوا بالعدة الحقيقية للمعركة وليأخذوا بالأسباب الموصولة بصاحب التقدير والتدبير وصاحب العون والممدد ، وليحترزوا من خداع لشيطان (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) .. هذه هي عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو . والاتصال بالله بالذكر والطاعة لله والرسول وتجنب النزاع والشقاق والصبر على تكاليف المعركة ..

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر . فأثبت الفريقين أغلبهما ، وأما ذكر الله كثيرا عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن ، كما أنه التعليم المطرد الذي يستقر في قلوب انعصبة المؤمنة (وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اعمر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) .. إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدي بوظائف شتى : إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب ، والثقة بالله الذي ينصر أوليائه . وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها . فهي معركة لله لتقرير ألوهيته في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة هذه الألوهية واذن هي معركة لتكون كلمة الله هي العليا . لا للسيطرة ولا للمغرم ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي كما أنه توكيد لهذا الواجب — واجب ذكر الله — في أخرج الساعات وأشد المواقف . وكلها إحياء ذات قيمة قيمة في المعركة يحققها هذا التعليم الرباني ..

وأما طاعة الله ورسوله : فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب

ريحكم). فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه ، والا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار . فاذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر ، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها وإنما هو وضع الذات في كفة والحق في كفة وترجيح الذات على الحق ابتداء .. ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة .. انه من عمليات الضبط التي لا بد منها في المعركة .. انها طاعة القيادة العليا فيها التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها . وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله ولا يقوم ولاءها للقيادة على ولاءها لله أصلا والمسافة كبيرة كبيرة .

وأما الصبر فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة .. أية معركة . في ميدان النفس أم في ميدان القتال (واصبروا ان الله مع الصابرين) وهذه المعية من الله هي الضمان للصابرين بالفوز والسجاح .. ان لعصبة المؤمنين انما تخرج للقتال في سبيل الله . تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر . وتقرير عبودية العباد لله وحده . وتخرج لتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق الله في تعبيد العباد له وحده ، والتي تزاول الألوهية في الأرض بمزاولتها للحاكمية وتخرج لتحرير الانسان من كل عبودية لغير الله . تستذل انسانية الانسان وكرامته .. وتخرج لحماية حرمان الناس وكراماتهم وحررياتهم . لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبسط بنعمة القوة .. وتخرج متجردة من حظ نفسها في المعركة جملة ، فلا يكون لها من النصر والغب الا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد وفي اقامة منهجه في الحياة وفي اعلاء كلمته في الأرض ، وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه .

٤ - سنة ثابتة ووعد قاطع :

ان وعد الله واقع وكلمة الله قائمة (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم هم المنصورون . وان جنادنا هم الغالبون) .. هذه هي الحقيقة في كل دعوة لله ،

يخلص فيها الجند ويتجرد لها الدعاء . أنها غالبية منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق وقامت في طريقها العقابيل ، مهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار ، وقوى الدعاية والافتراء وقوى الحرب والمقاومة . وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله والذي لا يخلف : ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه . الوعد بالنصر والغلبة والتمكين . هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية . سنة ماضية كما تحضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة . وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان . وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء .. ولكنها مرهونة بتقدير الله بحققها حين يشاء .

ولقد تبطيء آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة . ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف ، وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة ، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين . ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله . ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى . فيكون ما يريد الله . ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون .. ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم غير قريش وأراد الله أن تفوتهم القافلة الراجحة الهينة . وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة . وكان ما أراد الله هو الخير لهم وللإسلام .

وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام . ولقد هزم جنود الله في معركة من المعارك وتدور عليهم الدائرة ويقسو عليهم الابتلاء . لأن الله يعدُّهم للنصر في معركة أكبر . ولأن الله يهيء الظروف من حولهم ليؤتي النصر ثماره في مجال أوسع ، وفي خط أطول وفي أثر أدوم . هذه كلمة الله سابقة فقد مضت إرادته بوعده وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد (أنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) ..

والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة . فهذا الواقع هو الباطل الزائل

الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة . لعلها استجاشة الايمان واهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم . وحين ينظر الانسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الايمان على أهل الايمان في صورها المتنوعة من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية . ثم بقي الايمان في قلوب المؤمنين يحميهم من الانهيار ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها ، ومن خضوعها للطغيان الغاشم الا ريثما تنقض عليه وتحطمه .. حين ينظر الانسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاويل يجد مصداق قول الله تعالى ، يجده في هذا الواقع بدون حاجة الى الانتظار الطويل (ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز) . وعلى أية حال فلا يخالف المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود .

ان وعد الله قاطع جازم (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا) بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطرودا . وإن المؤمنين فيهم من يسام العذاب . وفيهم من يلقي في الأخدود وفيهم من يستشهد ، ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد .. فأين وعد الله ثم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ويفعل بها الأفاعيل .. ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور . ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير ..

ان الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان وهي مقاييس بشرية صغيرة . فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان . ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والايمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك . وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها . فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها . وأول ما يطلبه منهم الايمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم وبيرونها ..

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم . قريبة الرؤية لأعينهم .. ولكن صور النصر شتى .. وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة . إبراهيم عليه السلام وهو يلقي في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها .. أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة ؟ ما من شك في منطق العقيدة أنه كان في قمة النصر وهو يلقي في النار ، كما أنه انتصر مرة أخرى وهو يتجوز من النار . هذه صورة وتلك صورة وهما في الظاهر بعيد من بعيد . فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب ، وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده . وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة . بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه ، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد وربما كانت حافزاً محركاً لحطى التاريخ كله مدى أجيال .. ما النصر ؟ وما الهزيمة ؟ أنا في حاجة أن تراجع ما استقر في تقديرنا من الصور ومن القيم . قبل أن نسأل : أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا . على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة . ذلك حين تتصل هذه الصور الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة . لقد انتصر محمد صلى الله عليه وسلم في حياته لأن هذا النصر مرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بتحقيقتها الكاملة في الأرض . فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعاً من القلب المفرقة إلى الدولة الحاكمة . فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة ، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة . ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة ، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية وفق تقدير الله وتهيئته .

وهناك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك . ان وعد الله قائم لرسله وللمؤمنين آمنوا . ولا بد أن توجد حقيقة الايمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها وحقيقة الايمان كثيرة ما يتجاوز الناس فيها . وهي لا توجد الا حين يخلو القلب من الشرك في كل صورة واشكاله . وان هنالك لاشكالاً من الشرك خفية لا يخلص منها القلب الا

حين يتجه لله وحده ويتوكل عليه وحده ، ويطمئن الى قضاء الله فيه . وقدره عليه .
ويحس أن الله وحده هو الذي يصرفه ، فلا خيرة له ، الا ما اختار الله . ويتلقى
هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول . حين يصل الى هذه الدرجة فلن يقدم بين
يدي الله . ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير . فسيكل هذا
كله لله . ويلتزم . ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير . . وذلك معنى من معاني
النصر . . النصر على الذات والشهوات . . وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر
خارجي بدونه بحال من الأحوال .

٥ - تأخير النصر :

ان الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحمايتها من (التناقلة) الكسالى ،
الذين يجلسون في استرخاء . ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء . لمجرد
أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ، ويتوجهون الى الله بالدعاء كلما مسهم الأذى
ووقع عليهم الإعتداء ..

نعم انه يجب أن يقيموا الصلاة وأن يترتلوا القرآن . وان يتوجهوا الى الله بالدعاء
في المراء والضراء . ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها ،
انما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة . والنخيرة التي يدخرونها للموقعة ، والسلاح
الذي يطمشون اليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه . ويزيدون عنه سلاح التقوى
والايمان والاتصال بالله . ولقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا عن
طريقهم هم أنفسهم ، كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة . فالبنية الانسانية
لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر ، وهي
تدفع وتدافع . وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة . . عندئذ تتحفز
كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها ، ولتساند مع الخلايا
الأخرى في العمليات المشتركة ، ولتؤتي أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر ما تنطوي
عليه ، وتصل الى ما هو مقدورها . وما هي مهياة له من الكمال . والأمة التي
تقوم على دعوة الله في حاجة الى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ،

وتوفز كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها كي يتم نموها ويكمل نضجها وتنتهي
بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء . والذي ينتزل هيناً ليناً على القاعدين
المستريحين يعطل تلك الطاقات عن الظهور لانه لا يحفزها ولا يدعوها. وذلك فوق
أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه . أولاً : لأنه رخيص الثمن لم
تبدل فيه تضحيات عزيزة . وثانياً لأن الذين ناوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به
ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه فهي لا تحفز ولا تحشد للدفاع عنه . وهناك
التربية الوجدانية والدرية العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة ، والكفر والفر ،
والقوة والضعف ، والتقدم والتقهقر . ومن المشاعر المصاحبة لها . من الأمل والألم ،
ومن الفرح والغم ، ومن الاطمئنان والقلق ، ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة .
ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنایا المعركة
وقبلها وبعدها ، وكشف نقاط الضعف ونقط القوة . وتدير الأمور في جميع الحالات
وكلها ضرورة للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس . من أجل هذا كله ،
ومن أجل غيرهما يعلمه الله . . جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم
هم أنفسهم ، ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء .

والنصر قد يبطل . لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها . ولم يتم بعد
تمامها . ولم تحشد بعد طاقاتها . ولم تحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المدخور
فيها من قوى واستعدادات . فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على
حمايته طويلاً . .

وقد يبطل النصر حتى تبدل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما
تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزاً ولا غالباً ، ولا تبدله هيناً رخيصاً في سبيل الله . .
وقد يبطل النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها . فتدرك أن هذه القوى
وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . . انما ينتزل النصر من عند الله عندما
تبدل آخر ما في طوقها ثم تكل الامر بعدها الى الله . .

وقد يبطل النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله . وهي تعاني وتناغم وتبدل ، ولا تجد لها سنداً الا الله ولا متوجهاً الا اليه وحده في الضراء .. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله .. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به ..

وقد يبطل النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبلدتها ونضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لغتم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها . والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الاخرى التي تلابسه . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة . والرجل يقاتل ليرى . فأبى في سبيل الله ؟ فقال (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) (رواه الشيخان) ..

كما قد يبطل النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكاً ، لا تلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار .. وقد يبطل النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم تنكشف زيفه للناس تماماً . فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له انصار من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ، فنظل له جذور في نفوس الابرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة . فإشياء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذى بقية .

وقد يبطل النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار . فيظل الصراع قائماً حتى تنهيا النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر . ولاستبقائه . من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطل النصر . فتتضاعف التضحيات وتتضاعف الآلام . مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية . وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفائه أسبابه . وإداء ثمنه ، وتهيه الجو حوله لاستقباله واستبقائه .

(ولينصرون الله من ينصره ان الله لقوي عزيز . الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور) . .
 انه النصر القائم على أسبابه ومقتضياته . المشروط بتكاليفه وإعباته . والأمربعد ذلك لله ؛ يصرفه كيف يشاء فيبدل الهزيمة نصراً ، والنصر هزيمة عندما تختل القوائم .
 أو تهمل التكاليف (والله عاقبة الأمور) . انه النصر الذي يؤدي الى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة . من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة الى الخير والصلاح .
 المنظور فيه الى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الاشخاص والذوات ، والمطامع والشهوات . . وهو نصر له سببه . وله ثمته . وله تكاليفه . وله شروطه . فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة . ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه . . ولقد كان القرآن ينشيء قلوباً بعدما حمل الأمانة . وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض . ولا تنتظر إلا الآخرة ، ولا ترجوا الا رضوان الله . قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال . بلا جزاء في هذه الأرض قريب . ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الاسلام وظهور المسلمين . . حتى اذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء الا أن تعطي بلا مقابل . وان تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء . . وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل . وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت ، أتاها النصر في الأرض واثمنها عليه . لا لنفسها ، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة ، منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تمقاضاه ، ولم تتطلع الى شيء من المغنم في الأرض تعطاه ، وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء الا رضاه (فالنصر ليس بالعدد وليس بالعدة . وليس بالمال والزاد . انما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد)

الباب الثاني عشر

الحياة في التصور الإسلامي

١ - الدار الآخرة :

ان قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية التي جاء بها الاسلام ، والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية . والتي لا يقوم هذا الدين - عقيدة وتصوراً وخلقاً وسلوكاً ، وشرعية ونظاماً - الا عليها . . . وبها . . .

ان هذا الدين الذي أكمله الله ، وأتم به نعمته على المؤمنين به ، ورضيه لهم ديناً - كما قال لهم في كتابه الكريم - هو منهج للحياة كامل في حقيقته ، متكامل متناسق في تكوينه .. (يتكامل) ويتناسق في تصوره الاعتقادي مع قيمه الخلقية مع شرائعه التنظيمية . . . وتقوم كلها على قاعدة واحدة من حقيقة الألوهية فيه وحقيقة الحياة الآخرة .

فالحياة في التصور الاسلامي ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد ، وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس ، كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا . ان الحياة في التصور الاسلامي تمتد طويلاً في الزمان ، وتمتد عرضاً في الآفاق ، وتمتد

عمقاً في العوالم ، وتمتد تنوعاً في الحقيقة . عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها . ان الحياة في التصور الاسلامي تمتد في الزمان ، فتشمل هذه الفترة المشهوددة - فترة الحياة الدنيا - وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها الا الله ، والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس اليها ساعة من نهار .

وتمتد في المكان ، فتضيف الى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر ، دار أخرى : جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ، وناراً تسع الكثرة من جميع الاجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين .

وتمتد في العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود الى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها الا الله ، ولا نعلم نحن عنه الا ما أخبرنا به الله . وجود يبدأ من لحظة الموت . وينتهي في الدار الآخرة . وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الانساني في صور لا يعلمها الا الله . . وتمتد الحياة في حقيقتها . فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا ، الى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى . . في الجنة وفي النار سواء . وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات . ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا . . ولا تساوي الدنيا - بالقياس اليها - جناح بعوضة .

والشخصية الانسانية في التصور الاسلامي يمتد وجودها في هذه الأبعاد من الزمان ، وفي هذه الآفاق من المكان ، وفي هذه الأعماق والمستويات من العوالم والحيوات . . ويتسع تصورهما للوجود كله ، وتصورها للوجود الانساني ، ويتعمق تذوقها للحياة ، وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها ، بقدر ذلك الامتداد في الأبعاد والآفاق والأعماق والمستويات . . بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يتضاءل تصورهم للوجود الكوني ، وتصورهم للوجود الانساني ، وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراعهم في ذلك الجحر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا . . ومن هنا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم ، ويبدأ

الاختلاف في النظم.. ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة متكامل متناسق،
وتبين قيمة الحياة الآخرة في بنائه : تصورا واعتقاداً ، وخلقاً وسلوكاً وشريعة
ونظاماً . . إن انساناً يعيش في هذا المدى المتناول من الزمان والمكان والعوالم
والمداقات ، غير انسان يعيش في ذلك الجحرا الضيق ، ويصارع الآخرين عليه ،
بلا انتظار لعوض عما يقوته ، ولا حزاء عما يقعله وما يفعل به . . الا في هذه
الأرض ومن هؤلاء الناس .

ان اتساع التصور وعمقه وتنوعه ينشئ سعة في النفس وكبرا في الاهتمامات
ورفعة في المشاعر . ينشأ عنها هي بذاتها خلق وسلوك ، غير خلق الذين يعيشون
في الجحور وسلوكهم . فاذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه ، طبيعة هذا
التصور ، والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة ، وفي ضخامة العوض عما
يقوته ونفاسته ، استعدت النفس للبدل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي
تعلم أنه من أمر الله ، وأنه مناط العوض والجزاء ، وصلاح خلق الفرد واستقام
سلوكه — متى استيقن من الآخرة كما هي في التصور الإسلامي — وصلحت
الأوضاع والأنظمة ، التي لا يتركها الأفراد تسوء وتنحرف وهم يعلمون أن سكوتهم
على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها ، ولكنه يحرمهم كذلك
العوض في الآخرة . فيخسرون الدنيا والآخرة .

والذين يفترن على عقيدة الحياة الآخرة فيقولون : انها تدعو الناس إلى السلبية
في الحياة الدنيا ، وإلى إهمال هذه الحياة ، وتركها بلا جهد لتحسينها واصلاحها ،
وتركها للطغاة والمفسدين تطلعا إلى نعيم الآخرة .. الذين يفترن هذا الافتراء
على عقيدة الآخرة بضيفون إلى الافتراء الجهالة . فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة —
كما هي في التصورات الكنسية المنحرفة — وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله
القويم .. فالدنيا في التصور الاسلامي هي مزرعة الآخرة . والجهاد في الحياة
الدنيا لاصلاح هذه الحياة ، ودفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان
الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعا .. كل أولئك هو

زاد الآخرة ، وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعرضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى ..

فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن ، أو تفسد وتختل ، أو يشيع فيها الظلم والطغيان ، أو تتخلف في الصلاح وال عمران .. وهم يرجون الآخرة ، وينتظرون فيها الجزاء من الله ؟ ان الناس اذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبين ، ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان ولتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا — مع ادعائهم الاسلام — فانما هم يصنعون ذلك لأن تصورهم للاسلام قد فسد وانحرف ، ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف . لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين ، ويستيقنون بقاء الله في الآخرة فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة ، وهو يعني حقيقة هذا الدين ، ثم يعيش في هذه الحياة سلبيا ، أو متخلفا أو راضيا بالشر والفساد والطغيان .

اتما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى . ويستمتع بطيباتها أو يزهو فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة . ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وقواها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها . ويكافح الشر والفساد والظلم محتملا الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو انما يقدم نفسه في الآخرة .. انه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن ليس هناك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا ، وأن الدنيا صغيرة زهيدة ، ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى ..

وان قيمة الدنيا بالنسبة لقيمة الآخرة في ميزان الله الصحيح : (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟) .. هذه هي القيمة المطلقة الأخيرة في ميزان الله للحياة الدنيا وللدار الآخرة . وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار على هذا الكوكب الصغير ، الا على هذا النحو ، حين توازن بذلك الأبد الأبد في ذلك الملك العريض . وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة في هذه العبادة الا لعبا ولهوا حين تقاس إلى الجحْد الرزين في ذلك العالم الآخر العظيم .. هذا تقييم مطلق .. ولكنه في التصور الإسلامي — كما قلنا — لا ينشأ ..

اهمالاً للحياة الدنيا ولا سلبية فيها ولا انعزالاً عنها وليس ما وقع من هذا الاهمال والسلبية والانعزال وبخاصة في بعض حركات (التصوف) (والزهد) بنابع من التصور الإسلامي أصلاً . انما هو عدوى من التصورات الكنسية والرهبانية . ومن التصورات الفارسية . ومن بعض التصورات الاشرافية الاغريقية المعروفة بعد انتقالها للمجتمع الاسلامي .

والنماذج الكبيرة التي تمثل التصور الإسلامي في أكل صورة . لم تكن سلبية ولا انعزالية .. فهذا جيل الصحابة كله الذين قهروا الشيطان في نفوسهم . كما قهروه في الأنظمة الجاهلية السائدة من حوض في الأرض : حيث كانت الحاكمية للعباد في الامبراطوريات .. هذا الجيل الذي كان يدرك قيمة الحياة الدنيا كما هي في ميزان الله ، هو الذي عمل للآخرة بتلك الآثار الايجابية الضخمة في واقع الحياة ، وهو الذي زاول الحياة بحبوية ضخمة ، وطاقة فائضة ، في كل جانب من جوانبها الحياتية الكثيرة .. انما أفادهم هذا التقييم الرباني للحياة الدنيا وللدار الآخرة . أنهم لم يصبحوا عبيداً للدنيا . لقد ركبوها ولم تركبوهم . وعبدوها فذللوها لله ولسلطانه ولم تستعبدتهم . ولقد قاموا بالخلافة عن الله فيها بكل ما تقتضيه الخلافة من تعمير وإصلاح ، ولكنهم كانوا يبتغون في هذه الخلافة وجه الله ويرجون الدار الآخرة . فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا . ثم سبقوهم كذلك في الآخرة .

وان كل جزئية في النظام الاسلامي منظور فيها الى حقيقة الحياة الآخرة . وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة ومن تشدد في الحق ونخرج وتقوى . وما تنشئه في النشاط الإنساني من تسديد وثقة وتصميم . من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين في الآخرة . ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة ..

وكان العرب في جاهليتهم — وبسبب من هذه الجاهلية — لا تتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد في حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا . ولا

عالم آخر غير هذا العالم الحاضر ، ولا في امتداد الذات الإنسانية إلى آمام
وآفاق وأعماق غير هذه الآماد المحسوسة .. مشاعر وتصورات أشبه شيء بمشاعر
الحيوان وتصوراته .. شأنهم في هذا شأن الجاهلية الحاضرة .. (العلمية) كما يصر
أهلها على تسميتها . (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) .. وكان الله
سبحانه يعلم أن الاعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ في ظله حياة إنسانية
رفيعة كريمة .. هذه الآفاق الضيقة في الشعور والتصور ، التي تلصق
الإنسان بالأرض ، وتلصق تصوره بالمحسوس منها كالبهيمة .. وهذه الرقعة الضيقة
من الزمان والمكان ، التي تطلق السعار في النفس ، والتكالب على المتاع المحدود ،
والعبودية لهذا المتاع الصغير ، كما تطلق الشهوات من عقائها تعربد وحدها بلا
كابح ، ولا هدنة ولا أمل في عوض ، ان لم تقض هذه الشهوات المأبوضة
الصغيرة ، التي لا تكاد تبلغ نزوات البهيمة ..

وهذه الأنظمة والأوضاع ، التي تنشأ في الأرض منظورا فيها إلى هذه الرقعة
الضيقة من الزمان والمكان ، بلا عدل ولا رحمة ، ولا قسط ولا ميزان .. الا أن
يصارع الأفراد بعضهم بعضا ، وتصارع الطبقات بعضها بعضا ، وتصارع
الأجناس بعضها بعضا .. وينطلق الكل في الغابة انطلاقا لا يرتفع كثيرا على
انطلاق الوحوش والغيلان . كما نشهد اليوم في عالم الحضارة .. في كل مكان ..
كان الله سبحانه يعلم هذا كله ، ويعلم أن الأمة التي قدر أن يعطيها مهمة
الإشراف على الحياة البشرية وقيادتها إلى القمة السامقة التي يريد أن تتجلى فيها
كرامة الإنسانية في صورة واقعية .. أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدي واجبها هذا
إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمتها من ذلك البحر الضيق إلى تلك الآفاق والآماد
الواسعة .. من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .. ولهذا كان ذلك التوكيد على حقيقة
الآخرة .. أولا لأنها حقيقة . والله يقص الحق . وثانياً أن اليقين بها ضرورة
لاستكمال إنسانية الإنسان : تصورا واعتقادا ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة ونظاما ،
نعم . أنها الدار الآخرة . إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجع
الكفة ، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا ..

نعم انها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها . ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها .. والا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض ؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي ؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع ؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بقوات الحياة الدنيا ؟ وما الذي يشبثها في المعركة بين الحق والباطل . وبين الخير والشر . وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتناهى ؟ والشر يتبجح والباطل يطنى ؟

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى ، إلا اليقين في الآخرة ، وأنها خير للذين يتقون . ويعفون ، ويرفعون . ويشبثون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن ويمضون في الطريق لا يتلفتون .. مطمئنين واثقين ، ملء قلوبهم اليقين .. وهذه الدار الآخرة غيب من انغيب الذي يريد دعاة (الاشتراكية العلمية) أن يلغوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا . ويحلوا محله تصورا كافرا جاهلا مضموسا يسمونه (العلمية) .. ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد المحاولة ، وتفسد النفوس ، وينطلق السعار المجنون الذي لا يكبحه إلا ذلك اليقين . ينطق سعار الرشوة والفساد والطمع والطفیان . ويتشرداء الاحمال وقلة المبالاة والخيانة في كل مجال ..

ان العلمية التي تناقض الغيبة جهالة من جهالات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر . جهالة يرجع عنها (العلم البشري) ذاته ، ولا يبقى يرددها في القرن العشرين الا الجهال . جهالة تناقض فطرة الانسان ومن ثم تفسد الحياة ذلك الإفساد الذي يهدد البشرية بالدمار . ولكنه المخطط الصهيوني الرهيب الذي يريد أن يسلب البشرية كنزها قوام حياتها وصلاحتها . ليسهل تطويعها لملك صهيوني في نهاية المطاف .. والذي تردده الببغاوات هنا وهناك . بينما الأوضاغ التي أقامتها الصهيونية وكفلتها في أنحاء الأرض عن علم في تنفيذ المخطط الرهيب هنا وهناك .. ولقد علم الله أن أمة من الأمم لا تملك أن تقود البشرية وتشهد عليها — كما

هي وظيفة الأمة المسلمة - إلا أن تكون عقيدة الآخرة واضحة لها راصحة في ضميرها .. فتصور الحياة على أنها هذه الفترة المحدودة بحدود هذه الحياة الدنيا ، وحدود هذه الأرض الصغيرة ، لا يمكن أن ينشأ أمة هذه صفتها وهذه وظيفتها !

ان العقيدة في الآخرة فسحة في التصور ، وسعة في النفس ، وامتداد في الحياة ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها ، لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة .. كذلك هي ضرورة لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة ، ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيشبها النتائج القريية ولا تقعدهما التضحيات الأليمة .. وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة .. والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصوير في نفس (الإنسان) وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في ادراك (الحيوان) وما يصلح ادراك الحيوان لقيادة البشرية ، والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة .

لذلك كله كان التوكيد شديدا على عقيدة الآخرة في دين الله كله .. ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح .. حتى بات عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعظم من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلا وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية تلك القيادة الراشدة التي وعها التاريخ الإنساني .

٢ - القاعدة الإيمانية الكبيرة :

ويجب على الدعاة أن يقفوا أمام القاعدة الإيمانية الكبيرة ويدعو الناس إليها - قاعدة ان إقامة دين الله في الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح في حياة المؤمنين في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء . لا افتراق بين دين ودنيا ، ولا افتراق بين دنيا وآخرة . فهو منهج واحد للدنيا والآخرة للدنيا وللدين .. تنجي هذه القاعدة الإيمانية الكبيرة من هذا القرآن الكريم الذي يقررهما ربنا عز وجل :

(ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ، ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا

من فوقهم ومن تحت أرجلهم . منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون .
ان هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامي ، ومن ثم
فيهما تملكان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك
الأصل ، وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم ، والعقل البشري
والموازين البشرية ، والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب
التصورات وضلال المناهج ، بازاء هذا الأمر الخطير .. ان الله سبحانه يقول لأهل
الكتاب . ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب - إنهم لو كانوا آمنوا
واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم - وهذا جزاء الآخرة . وأنهم لو
كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والانجيل وما أنزله الله
اليهم من التعاليم - كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل - لصلحت حياتهم
الدنيا ونمت وفاضت عليهم الأرزاق ، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من
فيض الرزق ، ووفرة التناج وحسن التوزيع ، وصلاح أمر الحياة .. ولكنهم لا
يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله - الا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة
غير مسرفة على نفسها (وكثير منهم ساء ما يعملون) .

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الايمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع
الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده - وان
كان هو المقدم وهو الأدهم - ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا ، وتحقيق
لأصحابه جزاء العاجلة .. ووفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية .. يرسمها في صورة
حسنة تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله : (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ..
وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة ، وطريق آخر
مستقل لصلاح الحياة في الدنيا . انما هو طريق واحد ، تصلح به الدنيا والآخرة .
فاذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة .. هذا الطريق الواحد هو
الايمان والتقوى وتحقيق المنهج الالهي في الحياة الدنيا .. وهذا المنهج ليس منهج
اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب ، ولكنه كذلك - وتبعاً لذلك - منهج
حياة إنسانية واقعية ، يقام ، ويقام عليه الحياة .. وإقامته مع الايمان والتقوى -

هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية ، وفيض الرزق . ووفرة التاج . وحسن التوزيع . حتى يأكل الناس جميعا - في ظل هذا المنهج - من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

لأن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا ، ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا من سعادة الدنيا . ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا .. وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمايرهم وأوضاعهم الواقعية . لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضمايرهم وواقعهم ، بحيث أصبح الفرد العادي - وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة - لا يرى أن هنالك سبيلا للالتقاء بين الطريقتين . ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه ، وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه ، ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع .. لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توجي بهذا ..

حقيقة : أن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله . وعن منهجه للحياة ، اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ، وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع ، والكسب في مضمار المنافع الدنيوية ، أن يتخلوا عن طريق الآخرة وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية ، والتنصوات الرفيعة والسلوك النظيف ، الذي يحض عليه الدين . كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة . والوسائل التي يصب بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع ، والكسب في مضمار المنافع ، لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق ، ولا مرضية لله سبحانه .. ولكن .. تراها ضربة لازب . ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس ، ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ؟

كلا .. أنها ليست ضربة لازب . فالعداء بين الدنيا والآخرة ، والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ، ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل .. بل

أنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلاً . إنما هي عارض فاشيء من انحراف طارئ . ان الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة ، وأن يكون الطريق الى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا . وأن يكون الانتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرشاء هذه الحياة الدنيا ، وأن يكون الايمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الآخروي .. هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية .. ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله الذي رضيهِ للناس .. فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة ، وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة الله فريضة .. والخلافة عمل وانتاج ، ووفرة ونماء ، وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كما يقول الله في كتابه الكريم .

ان التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن الله ، باذن الله ، وفق شرط الله .. ومن ثم يجعل العمل المنتج المثمر ، وتوفير الرشاء باستخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها — بل الخامات والموارد الكونية كذلك — هو انفاء بوظيفة الخلافة . ويعتبر قيام الانسان بهذه الوظيفة — وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف — طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة ، بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التي سخرها الله له ، ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجله ، كما يصور التعبير القرآني الجميل .

ووفق التصور الإسلامي يعتبر الانسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض ، ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له ، عاصياً لله ، ناكلاً عن القيام بالوظيفة التي خلقه الله لها ، وهو يقول للملائكة (اني جاعل في الأرض خليفة) . وهو يقول كذلك للناس : (وسَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) ، ومعطلاً لرزق الله الموهوب للعباد .. وهكذا يحسر الآخرة لأنه خسِر الدنيا . والمنهج الاسلامي بهذا — يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في توافق وتناسق . فلا يقوت على

الإنسان دنياه لينال آخرته ، ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه . فهما ليسا تقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي . هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة . وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التي تقوم في الأرض على منهج الله .. فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف .. إذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة – في المنهج الإسلامي – لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان .. فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والانتاج ، وأن يتبني في العمل والانتاج وجه الله . فلا يظلم ولا يندر ولا يغش ولا يخون ، ولا يأكل من سحت ، ولا يحتجز دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئاً يملكه – مع الاعتراف الكامل له بملكته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقوقها في ماله في حدود ما فرض الله وما شرع – والمنهج يسجل للفرد عمله – في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبارات – عبادة لله يحزيه عليها بالبركة في الدنيا وبالجنة في الآخرة .. ويربط المنهج بين الفرد وربّه رباطاً أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه ، ليستوثق بهذا الرباط من تجديد صلته بالله في اليوم الواحد خمس مرات بالصلاة ، وفي العام الواحد ثلاثين يوماً بصوم رمضان ، وفي العمر كله بحج بيت الله . وفي كل موسم أو في كل عام باخراج الزكاة ..

ومن هنا قيمة الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي . إنها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة وهي قربى لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج ، الذي ينظم أمر الحياة كلها ، ويتولى شؤون العمل والانتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم . ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل ، والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق .. وليست هذه الشعائر التعبدية أموراً منفصلة عن شؤون العمل والانتاج والتوزيع والحكم والقضاء ، والجهد لاقرار منهج الله في الأرض ، وتقدير سلطانه في حياة الناس .. إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج ، المعين على أداء شطره الآخر .. وهكذا يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله في

الحياة العملية سبيلا للوفرة والفيض . كما يعد الله الناس في هاتين الآيتين الكريمتين ..
ان التصور الإسلامي . وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه ، لا يقدم الحياة
الآخرة بديلا من الحياة الدنيا — ولا العكس — إنما يقدمهما معا في طريق
واحد ، ويجهد واحد . ولكنهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع
منهج الله وحده في الحياة — دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى
لم تنبثق من منهج الله ، أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تضبط بهذا المنهج —
ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل ، والتصور الإسلامي — وكذلك
المنهج الإسلامي المنبثق منه — لا يقدم الإيمان والعبادة والصالح والتقوى ، بديلا
من العمل والانتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية . . . وليس هو المنهج
الذي يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه ، بينما يدع الناس أن يرسموا
لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا — كما يتصور بعض السطحيين في هذا
الزمان — فالعمل والانتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور
الإسلامي — والمنهج الإسلامي — فريضة الخلافة في الأرض . والإيمان والعبادة
والصالح والتقوى ، تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج
في حياة الناس .. وهذه وتلك معا هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس
الأخروي معا ، والطريق هو الطريق ، ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية
المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم .. والتي منها
يقوم في أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة ،
ولا يجمعوا بينهما في تصور أو في واقع .. لأنهما لا يجتمعان ..

ان هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس ، وبين
العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وبين العبادة الروحية والإبداع المادي وبين النجاح في
الحياة الدنيا ، والنجاح في الحياة الأخرى .. إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة
مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية . إنما هو ضريبة بائسة
فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرذ عن منهج الله ، وتتخذ لنفسها مناهج
أخرى من عند أنفسها ، معادية لمنهج الله في الأساس والاتجاه . وهي ضريبة يؤديها

الناس من دمائهم في الحياة الدنيا، فوق ما يؤدونه منها في الآخرة وهو أشد وأنكى .
لأنهم يؤدونها قلقاً وحيرة وشقاء قلب ولبلة خاطر ، من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة
الايمان وبشاشته وزاده وريه ، إذا هم آثروا اطراح الدين كله ، على زعم أن هذا
هو الطريق الوحيد للعمل والانتاج والعلم والتجربة ، والتجاح الفردي والجماعي في
المعترك العالمي ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم ، يصارعون ، الجوعة
الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب ، ولا تطيق الفراغ والخواء . وهي جوعة لا تملؤها
مذاهب اجتماعية أو فلسفية أو فنية .. على الاطلاق .. لأنها جوعة النزعة إلى إله .

وهم يؤدونها كذلك قلقاً وحيرة وشقاء قلب ولبلة خاطر ، اذا هم حاولوا
الاحتفاظ بعقيدة في الله . وحاولوا معها مزاوله الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي
يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصوراتهِ وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل
التجاح على غير منهج الله ، وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الديني ،
والسلوك الديني ، مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هذا المجتمع
المتكود . وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء ، سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية ،
أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية ..
وتتصور - أو يصور لها أعداء البشرية - أن الدين لله ، وأن الحياة للناس ،
وأن الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق ، والحياة نظام وقانون وانتاج وعمل . وتؤدي
البشرية هذه الضريبة الفادحة .. ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء .. لأنها لا
تهتدي إلى منهج الله الذي لا يوصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع ولا يقيم التناقض
والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة ، بل ينسق .. ولا يجوز أن نتخذنا
ظواهر كاذبة ، في فترة موقوتة ، اذ نرى أمما لا تؤمن ولا تتقي ، ولا تقيم منهج
لله في حياتها ، وهي موفورة الخيرات ، كثيرة الانتاج عظيمة الرخاء .. أنه رخاء
موقوت ، حتى تفعل السن الثابتة فعلها الثابت . وحتى تظهر كل آثار الفصام
النكد بين الابداع المادي والمنهج الرباني .. والآن تظهر بعض هذه الآثار في
صور شتى : تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم ، مما يجعل المجتمع حافلاً
بالشقاء ، وحافلاً بالأحقاد ، وحافلاً بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه

الأحقاد الكظيمة . وهو بلاء على الرغم من الرخاء .. وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعاً من عدالة التوزيع ، واتخذت طريق التحطيم والارهاب ونشر الخوف والذعر ، لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع .. وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام . وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره -- ان عاجلاً أو آجلاً -- إلى تدمير الحياة المادية ذاتها . فالعمل والانتاج والتوزيع كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق . والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان ..

وتظهر في القلق العصبي والأمراض المتنوعة التي تحتاج أمم العالم -- بخاصة أشدها رخاء مادياً -- مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال . ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والانتاج . وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء . وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحاً كافياً يلفت الأنظار .. وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة في هذا العالم المضطرب . الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة .. وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، فيصيبهم بثقل الأمراض العصبية .. ولم ينتشر الموت بالسكنة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء . وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار -- وأظهر الأمثلة الحاضرة تجلي في الشعب الفرنسي -- وليس هذا إلا مثلاً للآخرين ؛ في فعل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني ، وافتراق الدنيا والآخرة ، وافتراق الدين والحياة ؛ أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله ؛ واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس . وإيقاع هذا الفصام التكد بين منهج الله وحياة الناس .

وقبل أن ننهي هذا التعليق على التقرير القرآني لتلك الحقيقة الكبيرة ، نحب أن نؤكد أهمية التماسق في منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس . وبين العمل والانتاج والنهوض بالخلافة في الأرض فهذا التماسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب -- ولكل جماعة من الناس -- أن يأكلوا

من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا ، وأن تكفر عنهم ميثاتهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي — بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة — وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان . ولكننا مع هذا التوكيد لا نحب أن ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية .. فهذا يتضمن في ثناياه العمل والانتاج والرقية والتطوير للحياة .. فضلاً على أن للصلة بالله مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة ، ويرفع كل قيم الحياة ، ويقوم كل موازين الحياة . فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي وفي المنهج الإسلامي ، وكل شيء ينجي ، تبعاً له ، وينبتق منه ويعتمد عليه .. ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق . وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة بالله وإقامة شريعة الله في الحياة .. كل أولئك ثمرته للإنسان ، وللحياة الإنسانية . فالله سبحانه غني عن العالمين .. وإذا شدد المنهج الإلهي في هذه الأسس وجعلها مناط العمل والنشاط : ورد " كل عمل وكل نشاط لا يقوم عليها ، وعده باطلا لا يقبل وحابطاً لا يعيش ، وذاهباً مع الريح . فليس هذا لأن الله سبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواهم وعبادتهم له وتحقيق منهجه للحياة .. ولكن لأنه — سبحانه — يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهج .. وفي الحديث القدسي : عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .. يا عبادي كلكم ضال إلا من هدته ، فاستهدوني أهدكم .. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم .. يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم .. يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم .. يا عبادي انكم لن تبلغوا ضرتي فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً .. يا عبادي لو أن

أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي. إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر .. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم . ثم أوفيكم أياها . فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه^(١) . وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الايمان والتقوى والعبادة واقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله .. فهي كلها لحسابنا نحن .. لحساب هذه البشرية .. في الدنيا والآخرة جميعا .. وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا ..

ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول : ان هذا الشرط الالهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب . فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الايمان والتقوى واقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل اليهم في التوراة والانجيل .. وما أنزل اليهم من ربهم — وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة — فأولى بالشرط الذين أنزل اليهم القرآن .. وأولى بالشرط الذين يقولون : انهم مسلمون . فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص : الايمان بما أنزل اليهم وما أنزل من قبل ، والعمل بكل ما أنزل اليهم وما استبقاه الله في شرعهم من شرع من قبلهم .. وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد .. وقد انتهى اليه كل دين قبله ، ولم يعد هناك دين يقبله الله غيره .. أو يقبل من أحد غيره . فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده لهم وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضاه الله منهم ، وأن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة في الآخرة ومن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا .. انهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي — أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح — وشرط الله قائم والطريق اليه معروف .. لو كانوا يعقلون ..

ان الذين يوجهون قلوبهم للآخرة لا يخسرون متاع الحياة الدنيا كما يقوم في

(١) (رواه مسلم).

الأخيلة المنحرفة . فصلاحي الآخرة في الإسلام يقتضي صلاح هذه الدنيا . والايان بالله يقتضي حسن الخلافة في الأرض . وحسن الخلافة في الأرض هو استعمارها والتمتع بطبيعتها . انه لا تعطيل للحياة في الإسلام انتظارا للآخرة . ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله . وتمهيدا للآخرة .. هذا هو الإسلام ..

لذلك يجب أن نقف أمام حقيقة من حقائق هذه العقيدة وحقائق الحياة البشرية والكونية سواء . وأمام عامل من العوامل المؤثرة في تاريخ الإنسان ..

إن العقيدة الإيمانية في الله وتقواه : ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة وعن خط تاريخ الإنسان .. إن الإيمان بالله وتقواه ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض وعدا من الله ومن أوفى بعهده من الله (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) ..

ونحن المؤمنين بالله نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن ، فنصدق ابتداء ، لا نسأل عن علله وأسبابه ، ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله . نحن نؤمن بالله بالغيب ونصدق بوعده بمقتضى هذا الإيمان . ونحن تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكواكب عاملة في الأرض ، متطلعة إلى السماء متحررة من الهوى والطغيان البشري ، عابدة خاشعة لله .. تسير مسيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه . فلا جرم تخفها البركة ويعمها الخير ويظلها الفلاح .. والمسألة من هذا الجانب مسألة واقع منظور إلى جانب لطف الله المستور ، واقع له علله وأسبابه الظاهرة إلى جانب قدر الله الغيبي الموعود .. والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون في توكيد وبقين ألوان شتى . والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية تحته لا صلة لها بواقع الناس في الأرض . لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة . وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله سبحانه وكفى بالله شهيدا ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) . ولقد ينظر بعض

الناس فيرى أما يقولون : أنهم مسلمون مضيقا عليهم في الرزق لا يجدون الا الجذب والمحق .. ويرى أما لا يؤمنون ولا يتقون مفتوحا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ . فيتساءل : وأين اذن هي السنة التي لا تتخلف ؟ ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال . ان أولئك الذين يقولون أنهم مسلمون .. لا مؤمنون ولا متقون ، أنهم لا يخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققون في واقعهم شهادة بأن لا اله الا الله ، أنهم مسلمون رقابهم لعبيد منهم يتأخون عليهم ويشرعون لهم سواء القوانين أو القيم والتقاليد ، وما أولئك بالمؤمنين . فالؤمن لا يدع عبدا من العبيد بتأله عليه ولا يجعل عبدا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره ..

ويوم كان أسلاف هؤلاء الدين يزعمون الايمان مسلمين حقا دانت لهم الدنيا وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض وتحقق لهم وعد الله.. فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق.. فهذه هي السنة (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء). فهو الابتلاء بالنعمة وهو أخطر من الابتلاء بالشدة . وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون . فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح . وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة مهددة في أمنها ، مقطعة الأواصر بينها ، يسود الناس فيها القلق ويتسورها الانحلال . فهي قوة بلا أمن وهو متاع بلا رضى وهي وفرة بلا صلاح ، وهو حاضر زاه يترقب مستقبل نكد وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال . ان البركات الحاصلة مع الايمان والتقوى بركات في الأشياء وبركات في النفوس وبركات في المشاعر ، وبركات في طيبات الحياة ، ببركات تنمي الحياة وترفعها في آن . وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال .

٣ - غاية الحياة :

(وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) .

إن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة ، من أضخم

الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها .
سواء كانت حياة فرد أم جماعة أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها
وأعصارها .

وانه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي ، تندرج كلها تحت هذه
الحقيقة الضخمة ، التي تعد حجر الأساس التي تقوم عليه الحياة .

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن
والأنس . تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ؛ ومن قصر فيها
أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده ، وأصبح بلا وظيفة ، وبات حياته فارغة من
القصص ، خاوية من معناها الأصيل ، الذي تستمد منه قيمتها الأولى . وقد انفلت
من الناموس الذي خرج به إلى الوجود ، وانتهى إلى الضياع المطلق ، الذي يصيب
كل كائن ينفلت من ناموس الوجود ، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء .

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والأنس بناموس الوجود . هي العبادة لله .
أو هي العبودية لله : أن يكون هنالك عبد ورب . عبد يعبد ، ورب يُعبد . وأن
تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار .

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة ، ويتبين أن مدلول العبادة
لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر . فالجن والأنس لا يقضون
حياتهم في إقامة الشعائر ؛ والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألواناً أخرى من
النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن ،
ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان . نعرفها من القرآن من قول الله
تعالى : (واذا قال ربك للملائكة : اني جاعل في الأرض خليفة).. فهي الخلافة
في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني . وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي
في عمارة الأرض ، والتعرف إلى قواها وطاقاتها ، وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقيق إرادة
الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها . كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة
الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام .

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى ، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ، وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً . وأن حقيقة العبادة تتمثل اذن في أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى العبودية لله في النفس . أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً . عبداً يعبد ، ورباً يُعبد . وأن ليس وراء ذلك شيء ، وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار . ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود ، وإلا رب واحد والكل له عبيد .

والثاني : هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة . التوجه بها إلى الله خالصة ، التجرد من كل شعور آخر ، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ، ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضا بقدر الله .. كلها عبادة ، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والأنس لها ؛ وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه .

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعراً أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى ، جاء لينهض بها فترة ، طاعة الله وعبادة له لا إرب له فيها ، ولا غاية له من ورائها ، إلا الطاعة ، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضا عن وضعه وعمله ، ومن أنس برضا الله عنه ، ورعايته له . ثم يجده في الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً .

وعندئذ يكون قد فرّ إلى الله حقاً . يكون قد فرّ من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفة . ويكون قد تحرر بهذا الفرار . تحرر حقيقة من الأوهاق والأتقال وخلص لله ، واستقر في الوضع الكوني الأصيل : عبداً لله . خلقه الله لعبادته . وقام بما خلق له . وحقق غاية وجوده . فمن مقتضيات استقرار

معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض ، وينهض بتكاليفها ، ويحقق أقصى ثمراتها ، وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها ، خالص القلب من جواذبهـا ومغرياتها . ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها . ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها ، ثم الفرار إلى الله منها !

ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها . فلتكن النتائج ما تكون . فالإنسان غير معلق بهذه النتائج . إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال ، ولأن جزاءه ليس في نتائجها ، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها ..

ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيراً كاملاً تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال . فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامل فيها . متى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته . ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك . فهذه النتائج ليست داخلة في واجبه ولا في حسابه ، وليست من شأنه . إنما هو قدر الله ومشيئته . وهو وجهده ونيتة وعمله جانب من قدر الله ومشيئته . ومتى نقض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد ، وشعر أنه أخذ نصيبه ، وضمن جزاءه ، بمجرد تحقق معنى العبادة في الباعث على العمل والجهد ، فلن تبقى في قلبه حيثند بقية من الأطماع تدعو إلى التكالب والخصام على أعراض هذه الحياة . فهو من جانب يبذل أقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف . ومن جانب ينفض يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض . وثمرات هذا النشاط . فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته .

والقرآن يغذي هذا الإحساس ويقويه ، بإطلاق مشاعر الإنسان من الانشغال بهمّ الرزق ومن شح النفس . فالرزق في ذاته مكفول . تكفل به الله تعالى لعباده . وهو لا يطلب إليهم بطبيعة الحال أن يطعموه — سبحانه — أو يرزقوه حين يكلفهم انفاق هذا المال لمحتاجيه ، والقيام بحق المحرومين فيه :

(ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين)
وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الحرص على
تحصيل الرزق . بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة ، الذي يتحقق ببذل
أقصى الجهد والطاقة . ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقاً بتحقيق معنى العبادة في
الجهد ، طليقاً من التعلق بنتائج الجهد .. وهي مشاعر كريمة لا تنشأ إلا في ظل
هذا التصور الكريم .

وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تتذوقها ، فذلك لأنها لم تعش ..
كما عاش جيل المسلمين الأول — في ظلال هذا القرآن ، ولم تستمد قواعد حياتها من
ذلك الدستور العظيم .

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق أفق العبادة ، أو أفق العبودية ، ويستقر
عليه ، فإن نفسه تأنف حتماً من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة . ولو
كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته هي العليا . فالوسيلة الخسيسة
من جهة تحطم معنى العبادة النظيفة الكريم . ومن جهة أخرى فهو لا يعني نفسه بميلوغ
الغايات ، إنما يعني نفسه بأداء الواجبات ، تحقيقاً لمعنى العبادة في الأداء . أما
الغايات فموكولة لله ، يأتي بها وفق قدره الذي يريده . ولا داعي لاعتساف الوسائل
والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله ، وليست داخلية في حساب المؤمن العابد لله .
ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، وصلاح البال ، في
جميع الأحوال . سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها . تحققت كما قدرها أم على عكس
ما قدرها فهو قد أنهى عمله ، وضمن جزاءه . عند تحقق معنى العبادة . واستراح .
وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته ..

وقد علم هو أنه عبد . فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد .
وعلم أن الله رب ، فلم يعد يتفحم فيما هو من شؤون الرب . واستقرت مشاعره
عند هذا الحد ورضي الله عنه ورضي هو عن الله .
وهكذا تتجلى جوانب تلك الحقيقة الضخمة الهائلة التي تقرها آية واحدة قصيرة :
(وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) . (وهي حقيقة كفيفة بأن تغير وجه
الحياة كلها عندما تستقر حقاً في الضمير ...)